الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

كليـــة: الآداب والحضارة الإسلامية

قســـم: التاريخ

رقم التسجــيل: ....

الرقم التسلسلي: ....

مدينة مازونة وناحيتها في العصر الوسيط
-دراسة مونوغرافية-

مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستير في المدينة والحياة الحضرية في الغرب الإسلامي (القرن1هــ-13هــ/7م-19م)

إعداد الطالبة:
غنية عباسي

إشراف الأستاذ الدكتور:
علاوة عمارة

لجنة المناقشـــــــة

الاسم واللقب	الرتبة العلميّة	الجامعة الأصليّة	الصّفة
أ.د.بوبة مجاني	أستاذ	جامعة منتوري	رئيسا
أ.د. علاوة عمارة	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفا ومقررا
د.يوسف عيبش	أستاذ محاضر	جامعة سطيف	عضوا
د.يوسف عابد	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا

السنـــــة الــجامعية: 1432-1433هــ/2011-2012م

شكر وتقدير

الحمد لله الذي وفقني لهذا.

من واجبي أن أتقدم بالشكر الكبير إلى كل أولئك الذين لم يبخلوا عليّ بنصائحهم وتوجيهاتهم ووقتهم، وخاصة إلى:

أستاذي الدكتور علاوة عمارة الذي تفضّل بقبوله الإشراف على هذه الدراسة.

على صبره وعلى تصويباته القيّمة والجادّة.

إلى الأستاذ المؤرخ أبي القاسم سعد الله، الأستاذ محمد فؤاد الخليل القاسمي الحسني.

وإلى كل من ساعدني من أساتذة وباحثين هاوين في التاريخ والآثار.

وإلى أعضاء لجنة المناقشة.

قائمة الرموز

ج: جزء.

ط: طبعة.

ع: عدد.

مج: مجلد.

مخ: مخطوط.

ص: صفحة.

و: ورقة.

و: وجه.

ظ: ظهر.

(د.ت.): دون تاريخ.

قائمة المختصرات

A E S C, Annales, Economies, Sociétés, Civilisations.

ROMM, Revue de l’occident musulman et de la Méditerranée.

BSGAO, Bulletin de la société de géographie et d’Archéologie de la Province d’Oran.

RA, Revue Africaine.

RMMM, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée.

REI, Revue des études islamiques.

RHMMC, Revue d’histoire Maghrébine époque moderne et contemporaine.

مقـدمـة

تأتي أهمية الدراسات المونوغرافية أو القطاعية على الرغم من صعوبتها -حسب أحد الباحثين-[1] في بناء التركيبات الجامعة، وفي تقدم العلوم على اختلاف أصنافها ومراتبها، فتقصري أحوال الأجزاء وأخبارها هو الشرط الأكيد أو الأمر الضروري لمعرفة الكليات والإحاطة بها علما.

وتمّشيا مع خصوصية المدينة كـ أنموذج عيني يمكن أن نطبّق عليه هذا النوع من التوجه في الدراسات، فهي ذات تمثيلية تبدو كخلية أو "ميكروكزم" من شأنه أن يعكس التاريخ الكلي ويتفاعل معه[2]، سنحاول أن نبني من خلاله تصوّرنا لواقع مدينة مغرب أوسطية هامشية في الفترة الإسلامية الوسيطة وهي مازونة وناحيتها.

صحيح أنّ الدراسات التاريخية الخاصة بالتاريخ الحضري أو المديني عرفت تطورا كبيرا بعد تطبيق عدد من المقاربات المنهجية واستغلال وثائق ونصوص جديدة كمصدر من مصادر تاريخ المدينة في فترتيها الوسيطة والحديثة، وهو نفس حال البحث في التاريخ الحضري لمدن العالم الإسلامي الوسيط، الذي لم يكن بمعزل عن هذا التطور، خصوصا بعد تجاوز فكرة المدينة الإسلامية المنغلقة على ذاتها كما صوّرتها المنوغرافيات الكلاسيكية في فترة الخمسينات والستينيات من القرن العشرين[3]، خاصة تلك الدراسات والأبحاث التي قدّمتها المدرسة التاريخية الفرنسية، وإن كانت لخدمة المشروع الاستعماري في المنطقة.

إلاّ أنّنا -للأسف- لم نجد ولا دراسة غربية واحدة اهتمت بمازونة المدينة، على الرغم من أنّ هناك أبحاث أثرية وتاريخية مسّت المنطقة الوهرانية في الفترة القديمة، محاولة ربطها بالتاريخ الروماني أو الحضارة الرومانية ، وحتى البيزنطي وأحيانا الموري المحلي[4].

في الحقيقة إنّ هذا العجز لا تزال تعرفه الأبحاث التاريخية المدينية الأكاديمية، خاصة وأنّ هناك الكثير من المجالات الحضرية لم تعرف بعد أي توجه لدراستها، وذلك من خلال الاهتمام بعدد معين من المدن الكبيرة نسبيا مثل تلمسان، بجاية، القلعة مثلا [5]، في حين يتجاهل ويغفل

1- سالم حمّيش: **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1998، ص.71.

2- **نفسه**.

3- علاوة عمارة، زينب موساوي: "مدينة الجزائر في العصر الوسيط"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.11، 2010، ص.63.

4- سوف يتم التعرض لها في الفصل الأول.

5- مثلا أعمال الباحث علاوة عمارة حول قلعة بني حماد:

صنف آخر لفت انتباه الباحثة الفرنسية كريستين مازولي غي تار (*Christine Mazzoli (Guintard*[1]، التي رأت أنّ هناك انتقال مسّ الدراسات المتخصّصة من تاريخ المدينة الإسلامية إلى تاريخ العواصم الكبرى للإسلام [2]، فمن الضروري -حسبها- الالتفات لدراسة المدن المتوسطة والصغيرة، خصوصا وأنّ عددا من الدارسين قد طرح هذه الإشكالية في سنوات الثمانينات من القرن الماضي[3].

إنّ إشكالية المدن الصغيرة في العالم الإسلامي التي انجذبت إليها هذه الباحثة الفرنسية لدراسة مدينة مثل مدريد ، يدعونا للتفكير في هذا الصنف المهم والواسع في المنطقة المغربية والمغرب أوسطية، والذي ساهم في تشكيل شبكتها الحضرية[4] .

«La Qal'a des Bani Hammad, l'histoire d'un déclin», *Archéologie islamique*, 11(2001), p 91-110.

"الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمادية الأولى بين الذاكرة والتاريخ"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.9 (2008)، ص-ص. 33-43.

وعن تلمسان مثلا، يراجع ما قام به الباحث عبد العزيز فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية**)، 2.ج.، الجزائر: موفم للنشر، 2002؛

Dominique Valérian, *Bougie, port maghrébin 1067-1510*, Ecole française de Rome, 2006.

1- عن هذه الباحثة الفرنسية واهتماماتها العلمية ، يراجع علاوة عمارة: "مدريد الإسلامية من خلال دراسة غربية جديدة "، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، ع.12(2011)، ص-ص. 127-140، ومنها دراستها حول مدينة مدريد:

Madrid, Petite ville de l'Islam médiéval (IXe- XXIe siècles), Rennes, Presses Universitaires de Rennes, 2009, 268p.

2- مثال ذلك المجلدين اللذين نشرا عام 2000 تحت عنوان: "**المدن المتوسطية الكبيرة للعالم الإسلامي الوسيط** " و"**الحواضر المتوسطية الكبيرة**".

Grandes villes méditérranéennes du monde muslman médiéval, Rome, Ecole française de Rome, 2000.

Mégapoles méditerranéennes, Actes du colloque organisé par l'Ecole française de Rome et Maison méditerranéenne des sciences de l'homme, Rome, 8- 11 mai, 1996, Paris, Maisonneuve- Larose, 2000.

نقلا عن علاوة عمارة: مدريد الإسلامية، ص.129.

3-**نفسه**: ص-ص.129-130.

4- عبد الأحد السبتي، حليمة فرحات: **المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ المغرب الإسلامي)** ، بيروت-الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1994، ص.5.

ويمكن القول بداية أنّ هناك بالفعل أزمة مصطلح ارتبطت بالمجال الحضري المازوني، الذي اختلفت حوله النصوص التاريخية المتاحة لدينا، وإن اعتمدت على الوصف الجغرافي الأول الذي قدّمه الإدريسي في مؤلفه نزهة المشتاق[1] .

لقد ناقشت الفرنسية كريستين مازولي غينتار *(Christine Mazzoli Guintard)* إشكالية مصطلح المدينة أو *"la ville"* وارتباطه بالمجال الحضري في العصر الإسلامي الوسيط، من خلال طرحها لمصطلحات الجغرافيين والمؤرخين، والفر وقات بينها مثل : القرية، الأمصار وغيرها، لأنّ المدينة –حسبها- هي إشكالية مصطلح قبل النظر في تطورها [2]، وهو ما عرفته مازونة طيلة فترة الدراسة .

إنّ هذا الموضوع يتعرض أيضا إلى العلاقة الموجودة بين المدينة والناحية الوسيط تين التي تمثّل قطعا المجال الجغرافي المحيط بها غالبا، والذي يفرض نفسه في أيّة دراسة خاصة ب تاريخ المدن، لأنّ لكل مدينة علاقات وثيقة بالأراضي المحيطة بها غالبا[3].

وتنطلق هذه الدراسة من فرضية وجود ترابط تبعي و اطّرادي بين طرفي هذه الثنائية حيث

1- الإدريسي: **نزهة المشتاق**، حقّقه ونقله إلى الفرنسية: محمد حاج صادق، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص.128.

2- Christine Mazzoli-Guintard, «de ville à madina, de madina à ville, paralogismes ou sophismes de la terminologie, ville d'al-Andalus, l'Espagne et le Portugal à l'époque musulmane (VIIIe – XVe siècles)», Rennes, *Presses universitaires de Rennes*, 1996, p. 19- 48.

؛ سناء عطابي: **الخطاب الفقهي والعمران في المغرب الأوسط**، مذكرة ماجستير في التاريخ، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، إشراف: علاوة عمارة، 2007م-2008م، ص.11.

3- جيلالي صاري: "مساهمة ابن خلدون في تحليل علاقات المدينة والريف" ، **الأصالة**، السنة 07، ع. 64، (1978)، ص.13؛

وتراجع أيضا دراسة الباحث المغربي طارق مداني:

De la campagne à la ville, échanges exploitation et immigration dans le Maghreb médiéval, dans, Le monde rural dans l'occident musulman médiéval, *RMMM*, Paris, Publications de l'Université de Provence, 126, p.155-171.

وأيضا أعمال كل من إليز فوقي *(Elise Voguet)* وغيرها المنشورة في هذه المجلة العلمية والمهتمة بدراسة العالم الريفي بالبلاد المغربية، مثل:

Islamisation de «L'intérieur du Maghreb », les Fuqaha et les communautés rurales.

يمكن أن تمثّل الصورة الحسّية لهذه العلاقة بنسيج عنكبوت ضخمة، تكون قلبه المدينة، ويشكّل الفضاء المجاور والممتد حواليها الإقليم [1] .

ترى الباحثة الفرنسية جاكلين بوجو غارنييه *(J. Beaujeu- Garnier)* أنّ تعريف التفاعل بين المدينة والفضاء الجغرافي (هذا الأخير الذي استعملته عن قصد لتميّز به وسطا طبيعيا، وسطا اقتصاديا، وسطا إنسانيا) ، يتم عل ثلاثة أشكال : الشكل الديمغرافي، وشكل علاقات الإنتاج، وشكل علاقات الخدمات[2].

وإن صعب علينا تحديد مجال ناحية مازونة بدقة، لأنّها قد تمثّل نظريا البادية أو الريف أو المجال الذي سكنته العرب الهلالية بعد تغريبتها الثانية التي ساهمت فيه ا السلطة الموحدية، وقد يكون مجالا للبدو الزناتية أيضا المجاور للمدينة.

إنّ موضوع البادية بمعناها الواسع المتضمن للمزارعين بالريف والبدو الرحل [3] مثلا قد أقرّ بصعوبته الباحث التونسي محمد حسن في دراسته الهامة والموسومة بـــ: "المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي"، وذلك لقلة الوثائق، وحتى عند توفرها فإنّه لم يتعرض لمقاربة جدّية ، كما أنّ الحضارة العربية الإسلامية اتّسمت بالصبغة المدنية، فقد ظلّت المدينة المقر الرئيسي للمؤسسات، فضلا عن امتلاك أهلها لجزء هام من الأرض، كما أنّها ظلّت منتجة للثقافة الكتابية الفقهية خاصة، التي غالبا ما أهملت الحديث عن المزارع أو البدوي، و لم تذكره إلاّ عرضا وبكيفية منحازة في الغالب عند تناول مسائل تخص المعاش والجباية والريع العقاري[4]

وتأتي المساهمة الهامة للخطاب الفقهي في دراسة البنية التركيبية الداخلية للمدينة الإسلامية عموما وفي معرفة بعض أحوال البادية أو الريف المغربي الوسيط، لتقدّم صورة جديدة يمكن تبنّيها بمقاربات ومناهج أخرى في الدراسات الحضرية .

ويبدو أنّه وعلى الرغم من توفر تراث نصّي فقهي محلي مازوني، إلاّ أنّه لا يمثّل الأنموذج

1- جاكلين بوجو غارنييه: "المدينة والمنطقة"، **الإنسان والمدينة في العالم المعاصر** ، تعريب: كمال خوري، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1977، ص-ص.80-81.

2- **نفسه:** ص.81.

3- محمد حسن : **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي** ، ج.1، تونس : منشورات جامعة تونس الأولى، 1999، ص.15.

4- **نفسه:** ص-ص. 8-9.

الذي يمكن من خلاله تحديد العلاقة المباشرة والضمنية بين صورة المدينة ونوعية محيطها الحضري، وبين التقنيات الإنشائية والتخطيطية المستمدة من شمولية هذا الخطاب الذي يعطينا محدّدات المدينة من خلال مناقشة وتنظيم الوحدات الأساسية للعمران -فالخطاب الفقهي مثّل السلطة الرئيسية بالتوازي مع السلطة السياسية لتسيير المجال العمراني داخل المدينة- [1] وذلك لأنّ حضورها النّصي يبقى هامشيا .

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية هامة تتمثل في محاولة تتبع التطور التاريخي والعمراني لمدينة طرفية وهامشية في الفترة الإسلامية الوسيطة عرفت تحولا واضحا وعميقا مع بدايات الفترة الحديثة، ساهم في تكوين واقع عمراني مكمّل ومجدّد للمدينة العتيقة .

فهل يمكن تتبع تاريخ مازونة منذ تكوينها الأولي إلى أن تعقدّت واكتملت ملامحها العمرانية الوسيطة، وهل يمكن تقدير احتمالات تطورها طيلة هذه الفترة؟

من خلال هذه الإشكالية العامة سنحاول الإجابة على مجموعة من الإشكالات أو الأطروحات المتعلقة بتاريخ المدينة المغربية الوسيطة بصفة عامة ومازونة خاصة منها:

- قضية التواصل الطبونومي أو الموقعي، حيث تطرح تسمية المدينة "مازونة" إشكالية الأسماء المعرّبة للمدن المغربية المشتقة من أصول قديمة لوبية -بربرية أو فينيقية أو إغريقية-لاتينية[2]، أي فكرة استمرار المدينة من الفترة القديمة إلى الوسيطة، والتي شكّلت أحد أهم محاور الدراسات المدينية الإسلامية الحديثة، وفرضية إحداث "الفتح الإسلامي" في المنطقة قطيعة لهذا التواصل ، وبالتالي اختفاء الثقافات القديمة أي المورية المحلية بالقطاع الوهراني.
- إشكالية الطبوغرافية المحلية في مازونة، لأنّ ليوبولدو تورس بلباس يرى في تأسيس المدينة مجموعة من العوامل الطبوغرافية المحلية المساهمة في تشكيلها، والتي تؤثّر في تخطيطها ونمّوها أيضا[3].

1- سناء عطابي: **المرجع السابق**، ص.14.

2- محمد حسن: **الجغرافيا التاريخية الإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع هـ VIIم- XVم، (فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات)**، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004، ص.10.

3- ليوبولدو تورس بلباس: **المدن الاسبانية**، ترجمة: إليو دورو دي لابنيا، مراجعة: نادية محمد جمال الدين، عبد الله بن إبراهيم، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2003، ص.177؛ محمد عبد الستار عثمان: **المدينة الإسلامية**، سلسلة **عالم المعرفة**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص.69.

- إشكالية الاعتماد واستغلال مختلف الآراء والاجتهادات الفقهية والوق ائع الفعلية، وتكوين تصوّر لعملية التبلور التاريخي التي مرّت بها مازونة، ومدى تأثّر هذه العملية بالقيم والأعراف المحلية السائدة .
- إشكالية العلاقة بين شكل عمران مازونة وطبيعة السلطة المتغيرة داخلها أو خارجها والمتحكّمة فيها، والتي تعتمد على فرضية وجود ارتباط تبعي واطّرادي بين طرفي هذه الثنائية، أي دراسة مدى التغيرات التي عرفتها مازونة بسبب ذلك ، وأيضا هل كان لدخول عناصر بشرية جديدة تأثيره على التطور العمراني وتعقيداته المختلفة؟
- إبراز خصوصية مازونة، وإن كانت لها هوية متميّزة ومختلفة عن المدن المجاورة لها والمدن المغربية الأخرى.
- متابعة ظاهرتي التأثير والتأثر للناحية المازونية بمفهومها الواسع في ذلك كله، على الرغم من أنّ تحديد مجالها الجغرافية هي من الأمور الصعبة والمعقّدة أيضا.

وفي إطار المعالجة البحثية لهذا الموضوع انطلقت من رأي هام حول "المنهجية العلمية" المستخدمة في الدراسات العمرانية وهو:

يرى أحد الباحثين المختّصين المعماريين أنّ تاريخ العمران يمكن أن يطبّق عليه المنهج التجريبي الذي يقتضي تحديد عيّنة البحث وعزلها مكانا وزمانا ، ثم حشد المعلومات الممكنة عنها وتحليلها، ثم تركيبها وصياغتها صياغة علمية وفق نموذج تعليلي يمكننا من خلاله الوصول إلى أحكام كلّية تتعدى زمان ومكان العيّنة، لكونه يجمع بين استعمال الوثائق و المخطّطات من جهة والآثار المادية من جهة أخرى[1].

كما أنّ هناك توجه ا لاعتماد التجديد في البحث التاريخي من خلال استغلال النظريات المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والأثرية وغيرها، وهو ما ركّز عليه الباحثون الغربيون خاصة في دراساتهم المدينية[2].

1- مصطفى أحمد بن حمّوش: **المدينة والسلطة في الإسلام –نموذج الجزائر في العهد العثماني–**، دبي–دمشق: مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث–دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، ص.12.

2- يقول هاشم خضير ليف أنّ المدينة : «ليست حكرا على الجغرافية بل هي موضوع دراسة علوم أخرى كثيرة كالتاريخ والاجتماع والإدارة والسياسة والهندسة والعمارة .»، "المدينة الإسلامية وخصائصها"، **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول** ،

لقد حاولت من خلال هذه الرؤية المنهجية التجديد في المقاربات المعتمدة في الدراسة من خلال الإطلاع على بعض الأبحاث الغربية والعربية المهمة، والتي اعتنت خاصة بتاريخ المدينة مثل: المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها للويس ممفورد [1]، الإنسان والمدينة في العالم المعاصر لمجموعة من الباحثين الغربيين [2]، المدينة العثمانية بين الشرق والغرب (حلب، إزمير واسطنبول) لإدهم إلدم، دانيال غوفمان و بروس ماسترز[3]، المدن الاسبانية الإسلامية لليوبو لدو تورس بالباس[4]، بجاية في العهد الحفصي-دراسة اقتصادية واجتماعية - للباحث التونسي صالح بعيزيق[5]، المدينة والسلطة في الإسلام -نمودج الجزائر في العهد العثماني - لمصطفى أحمد بن حمّوش[6]، المدينة الإسلامية لمحمد عبد الستار عثمان[7]، المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ المغرب الإسلامي) للباحثين المغربيين عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات[8]، مدينة تونس في العهد الحفصي ل عبد العزيز الدولاتلي [9]، عمارة الأرض في الإس لام -مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية- لجميل عبد القادر أكبر [10]، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ل عبد الجبار ناجي[11]، نشأة المدينة العربية الإسلامية -الكوفة- لهشام جعيط[12]، المدينة والبادية بإفريقية

مركز البحوث، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مج.5 (أشرفت على طباعته ونشر ه: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة)، 1984، ص.07.

1- ج.1، أشرف على ترجمته وقدّم له وعلّق عليه: إبراهيم نصحي، القاهرة-نيويورك: مكتبة الأنجلو المصرية-مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1964.

2- (13 مقالة لمحاضرين ومفكّرين فرنسيين)، عن مركز د راسات المدينة المعاصرة، تعريب: كمال خوري، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1977.

3- تعريب: رلى ذبيان، الرياض: مكتبة العبيكان، 2004م.

4- **المرجع السابق.**

5- تونس: منشورات كلية الآداب، جامعة تونس، 2006 .

6- **المرجع السابق.**

7- **المرجع السابق.**

8- **المرجع السابق.**

9- تعريب: محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي، دار سراس للنشر.

10- ط.3، بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م.

11- بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2001 .

12- ط.3، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2005.

في العهد الحفصي لمحمد حسن [1]، بالإضافة إلى مجموعة هامة من الدراسات والمقالات العلمية المنشورة في مجلات أكاديمية وغيرها[2].

ومراقبة تطور الرؤية البحثية في مختلف هذه الدراسات، والقضايا التي يتم مناقشتها ومحاولة متابعة النصوص المتاحة وخاصة المحلية منها، ومعرفة ما إذا كان ذلك ممكنا وموافقا لدراسة مدينة مثل مازونة، وإن كان الاختلاف أمرا بديهيا بينها، وبالتالي ليس كل ما يتداول في مدينة م ا يمكن أن يطبّق على أخرى، وذلك بسبب الخصوصية التي تتميّز بها المدن، والتي تحتّم عليها هذه الفروقات.

وبالإضافة إلى ذلك جاء الاعتماد على الناحية الأثرية من خلال الرصيد المتوفر من

1- محمد حسن: **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، 2.ج.

2- محمد قدورة: "مدينة صفاقس العتيقة نمط عمراني متناسق" ، **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول** ، مج.5، مركز البحوث، إدارة الثقافة والنشر ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية ، 1984م، ص-ص.163-178.

-Robert Brunschvig, « Urbanisme médiéval et droit musulman », extrait de *REI*, 1974, p .517- 533.

-Claude Cahen, « Problématiques urbaines », *Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval Xe- XVe siècles Problème et perspectives et recherche*, paris, 2000, p. 93-109.

-Gessier (Patrice) et Garcia Arenal (Mercedes), « Présentation, Genèse de la ville islamique en Al- Andalus et au Maghreb occidental », Madrid, Casa de Velázquez, 1998.

-Pierre Guichard, « Les villes d'Al- Andalus et l'occident musulman aux premiers siècles de leur histoire, une hypothèse récente », *Genèse de la ville islamique en Al- Andalus et au Maghreb occidental*, Madrid, Casa de Velázquez, 1998, p. 52- 73.

-Christine Mazzoli-Guintard, « L'Urbanisation d'Al -Andalus au IXe siècle, données chronologiques », *Genèse de la ville islamique en Al- Andalus et au Maghreb occidental*, Madrid, Cas de Velàzquez, 1998, p. 99- 106.

-Id., « Urbanisme islamique et ville en Al- Andalus, autour de nouvelles proposition méthodologiques », *Actase II, comprese International, La guidad en Al- Andalus y El- Maghrebe*, fondacion El legado Andalus, Granade, 2002, p 49- 73.

-Id., «De ville à madina, de madina à ville, paralogismes ou sophismes de la Terminologie, ville d'al-Andalus ».

-Id., «Villes d'al- Andalus, l'Espagne et le Portugal à l'époque musulmane (VIIIe-XVe siècles)», Rennes, *presses universitaires*, 1996, p.430.

-Paul–Louis Cambuzat, *l'évolution des cités du tell en Ifrikya du VIIe au XIe siècles*, 2.T., Alger, office des publications Universitaires, 1986.

الخرائط والصور التي خلّفتها الإدارة العسكرية في الفترة الاستعمارية، وبعض الأبحاث الفرنسية خاصة، وأيضا على صور الجنية في الفترة الحالية التي قمت بالتقاطها شخصيا، وإن كنت أقر بأنّه عمل لهاوي ولا يرقى إلى مستوى العمل الأكاديمي المتخصص .

ومن هنا فإنّ ضرورة توظيف مختلف الوثائق خاصة منها المكتشفة حديثا، والمنهجيات العلمية الجديدة في دراسة "المدينة"، يدخل ضمن مسايرة التطور البحثي المديني، إلاّ أنّ السؤ ال يبقى مفتوحا حول جدّية هذا التوظيف العلمي الذي إذا تمّ أرى أنّه سيساهم مستقبلا وبصورة كبيرة في دراسة م ازونة المدينة الوسيطة من خلال اقتراحه لإشكاليات وفرضيات ومحاول ة معالجتها، أي إعادة مساءلة التاريخ المديني المازوني.

يأتي بناء هيكل هذه الدراسة على أساس المنظور الكرونولوجي (المرحلية الزمنية)، الذي يساعد على فهم عملية تتبع التطور التاريخي والعمراني لمازونة وناحيتها، لذلك كانت البداية مع الفترة الإسلامية الأولى التي تعتبر من أعقد الفترات دراسة في مجال البحث التاريخي للغياب شبه التام لوثائق الأرشيف والشواهد الأثرية [1]، فمصطلح مازونة مثلا لم يتداول في المعطى النصّي للمرحلة التي سبقت الفترة المرابطية، فهل غيّبت المدينة نصّيا فقط، أم أنّها كانت غير موجودة فعلا، لذلك جاء السؤال عن الفترة الانتقالية لمازونة بين نهاية التاريخ القديم وبداية الوسيط؟ والذي أصبح بديهيا في التأريخ الحضري لأي مدينة مغربية.

وإن كان من واجبنا أن نقرّ صراحة أنّنا لم تتوفر لدينا ولا معلومة عن ذلك، لذلك تبنيت مقاربات تسمية المدينة وأصولها التاريخية القديمة من خلال الأسطورة كموروث بشري هام، واعتماد المقاربتين التاريخية والأثرية، ومن ثمّ معالجة جغرافية المدينة والمنطقة التي تنتمي إليها ، وأهمية هذا المعطى الطبيعي في تأسيس أي مدينة، ثم التعريف بالتاريخ الزناتي المحلي وتخصيص المجال الشلفي أو شلف كمصطلح معتمد في نصوص هذه المرحلة.

تتواصل إشكالية الحضور النصّي لتسمية المدينة، والذي تأخر حتى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، مع الوصف الجغرافي الأول الذي قدّمه الإدريسي، أي حتى بدايات المرحلة الموحدية، لذلك واصلنا العمل على دراسة المجال الشلفي أيضا في الاسطوغرافية المرابطية

1- علاوة عمارة: "أبو المهاجر دينار بين الروايات العربية والقراءات الغربية، صور وأبعاد"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.11، 2010، ص.31.

والموحدية، ومن ثمّ التخصيص بعد تداول تسمية مازونة، والبحث في مختلف التأثيرات الحدثية لبني غانية وللعرب الهلالية بعد تغريبها الثانية التي مسّت المدينة ومجالها.

ثم حاولت تقديم طرح آخر حول البداية التمدينية لمازونة، خاصة للذين قالوا بوسيطيتها من خلال اعتمادهم على الرواية الخلدونية المتأخرة، والتي تتبعت ظهور أشهر الأسر الحاكمة للمنطقة الشلفية أو المغراوية ولمازونة وهم بنو خزرون أو بنو منديل لاحقا وبداية علاقتهم بها.

ومع نهايات الفترة الموحدية وإلى غاية القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي، وبداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، نطرح إشكالية العلاقة بين السلطة القبلية لمشيخة بني منديل الريفية المغراوية ومازونة التي تكون قد مثّلت بالنسبة لي أنموذج المدينة–الإمارة *(cité - princiére)* أو المدينة–الدولة *(cité- Etat)*، وتطورات الإشكالية التمدينية لهذه المرحلة من خلال دراسة كرونولوجية الأزمة الحضرية وتأثيراتها على المدينة وناحيتها.

ويظهر أنّ متابعة دواخل مازونة كبناء مديني منذ التأسيس صعب جدا، لذلك عملت على محاولة مبدئية لتشكيل مخططها العمراني الوسيط، من خلال دراسة مختلف الوحدات البنيوية الأساسية والصوفية، وإشكالياتها التي توفرت حولها النصوص المحلية خاصة.

ومن ثمّ معالجة بعض القضايا المازونية المختلفة التي أردتها كبداية للتوسع فيها لاحقا، خاصة وأنّي حاولت أن أعرض فيها مختلف النصوص المخطوطة الجديدة التي تمّ العثور عليها حديثا، والتي لم تستخدم بعد في الدراسات الأكاديمية، وهي قادرة على تطوير التصورات الحالية لمازونة وللمنطقة الغربية من المغرب الأوسط أيضا.

وتكمن إيجابية هذا البحث في محاولته الاستفادة من أكبر عدد ممكن من النصوص المحلية المتنوعة والهامة ، والتي تساعد –في اعتقادي– على رؤية المدينة من الداخل بطريقة أفضل، وهذا لا يعني بتاتا الإنقاص من قيمة النصوص الأدبية الأخرى وفي مقدمتها المؤلفات التاريخية الكلاسيكية التي تؤرخ لمختلف مراحل البحث وفق الكرونولوجية المعتمدة في البنية الهيكلية للموضوع.

حيث استفادت دراستنا من معظم الإنتاج الإخباري والوصفي المغربي، الأندلسي والمشرقي، والذي له علاقة بتاريخ المنطقة المغربية الإسلامية الوسيطة بصفة عامة، فالباحث منّا لا يمكنه أن يتجاوز –طبعا– أهمية مصنّفات إخبارية مثل: كتاب العبر لابن خلدون

(تـــ.808هـــ/1406م) أو البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي (كان حيا عام 712هـــ/1312م) وغيرها أيضا، أو كتب التراجم المغربية والأندلسية، حتى وإن جاءت فيها تراجم المازونيين قليلة جدا، إلاّ أنّها ساهمت في توضيح الرؤية حول وضعيات بعض النخب المازونية، وأيضا المؤلفات الوصفية الجغرافية منها والرحالاتية، وهو ما يساعد على إعطاء البحث تنوعا في النصوص الأدبية المختلفة في ظل الغياب الكامل لوثائق الأرشيف كما هو حال مختلف المدن المغربية الوسيطة.

لقد احتجت إلى وقت طويل نسبيا للحصول و للاستفادة من المخطوطات المحلية المازونية، فمجرد السماع بوجودها لم يكن متاحا لوقت قريب، إلاّ أنّ ذلك يبقى من مهام الد ارس الأولى كما يقول عبد الله العروي[1].

ومن البديهي أن تكون البداية مع مخطوط الدرر المكنونة في نوازل مازونة لأبي زكريا يحي بن موسى المغيلي المازوني (تـ.883هـــ-1478م)[2]، والذي أخذت الدراسات حوله في الانتشار داخليا، مغاربيا وحتى أجنبيا-وإن كان الفضل الأول يعود لل سوسيولوجي الفرنسي جاك بيرك *(Jacques Berque)* في التنبيه لأهمية النص الدرر ي بالنسبة للتاريخ المغربي، وفي بناء معرفة سوسيولوجية خاصة به- ، فقد مثّل المرجعية الفقهية المغربية الشهيرة التي أثبتت نضج التجربة في مجال الكتابة الفقهية المالكية، والذي عبّر عن خصوصية مميزة وهامة لمدينة مازونة.

ولابد من القول أنّ عنوان المخطوط الذي تم نشره مؤخرا [3]، لا يعني أنّه اختصّ بهذه المدينة التي وردت حولها نوازل قليلة جدا يكون فيها الإشارة لمازونة صر احة، والتي اهتمت بقضايا مثل تخطيط المدينة أو بالأ مور الحياتية المختلفة، وأخرى لا يمكن تحديد مجالها الزماني والمكاني، لذلك كان من الواجب التحفظ في استعمالها.

وتأتي نوازل المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي (تـ.914هـــ/1508م)[4] -

---

1- عبد الله العروي: **مجمل تاريخ المغرب**، ج.1، الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، 2007، ص.21.

2- **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، ج.1، رقم: 1335، ج.2، رقم: 1336.

3- تحقيق: مختار حساني، 3.ج، مخبر المخطوطات، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، 2004.

4- 12.ج، تحقيق: محمد حجي وآخرون، بيروت-الرباط: دار الغرب الإسلامي-وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، 1401هـ/1981م.

الذي كان ينتمي للجماعة الفقهية التلمسانية، إلاّ أنّ نكتبه في فترة حكم السلطان الزياني أبو ثابت جعلته يتجه إلى فاس ويكون أحد أعلامها- والمتعلقة بمدينة مازونة مشابهة لتلك الموجودة في الدرر المكنونة، وقد جاء استعمالها لعدم وضوح النص النوازلي المخطوط أحيانا، وعلى الرغم من ذلك يمكن القول أنّ هذه النوازل لا تقدّم المعطيات الكافية لدراسة العمران والحياة داخل المدينة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد تم العثور مؤخرا على بعض النصوص الجديدة المخطوطة والتي ستساهم حتما -برأينا- في إبراز شخصية مؤلفها المازوني الأب أبي عمران موسى بن عيسى (ت.833هـ/1429م) مستقبلا، خاصة إذا علمنا أنّ مؤلفا مثل المهذّب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق [1] -والذي يهتم بذكر الأحكام الفقهية و بالقضايا التي عاصرها والخاصة بمجال المغرب الأوسط والمنطقة الغربية منه تحديدا- كان مصدرا مهما لمؤلف الدرر المكنونة في نوازل مازونة .

وقد تنوعت هذه النصوص بين تلك التي اهتمت بمناقب أولياء المنطقة الشلفية منها صلحاء وادي الشلف[2]، وهو ملّخص عن كتابه ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، ومختصر هذا الأخير الذي اعتنى بالتقديم له ومحاولة تحقيقه أحد الباحثين[3] .

ساهمت هذه المؤلفات في التعريف ببعض الجوانب المجهولة عن تاريخ مازونة، كما أنّها طرحت بعض القضايا العمرانية والحياتية المختلفة، وإن اعتمدنا أحيانا على بستان العارفين الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار لمحمد بن محمد الصباغ القلعي (كان حيا سنة 962هـ/1555م)[4]، والذي نقل بعض رواياته عن صلحاء وادي الشلف للمازوني الأب، إلاّ أنّه يحوي على بعض التعريفات لشخصيات مازونية لم نجدها في النصوص الأخرى، وبين تلك التي اعتنت بالأحكام الفقهية مثل قلادة التسجيلات والعقود

1- نسخة مصورة عن مخطوط ملك بولصباع عبد الهادي، قسنطينة: متحف سيرتا الوطني، 1997، رقم: 14.

2- مخطوط الخزانة العامة للمخطوطات والوثائق، الرباط: رقم 2343/ك. (نسخة مصورة ميكروفيلم).

3- عبيد بوداود: "تقديم مخطوط مختصر ديباجة الافتخار لموسى بن عيسى المازوني"، مداخلة غير منشورة، (قدمت في **الملتقى المغاربي حول المخطوطات**)، قسنطينة: جامعة منتوري، 2004.

4- المخطوط الذي اعتمدناه يحمل عنوانا مختصرا وهو : **نسمات الأزهار ومناقب الأبرار ومعدن الأنوار**، مخطوط بمازونة (ولاية غليزان-الجزائر-)، مكتبة محمد الصادق بن الحميسي (بلحميسي).

وتصرف القاضي والشهود[1]، وإن كانت تنظيرية أكثر من كونها عملية .

وتبقى بعض النصوص المخطوطة مثل حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه، وفضل الفقر والفقراء[2] غير متاحة حاليا، إلاّ أنّها قد تظهر مستقبلا وتساهم بدورها في خدمة التاريخ الوسيط لمنطقة المغرب أوسطية.

أمّا عن الدراسات القليلة التي لها علاقة مباشرة بتاريخ مازونة الحضري والريفي أو البدوي فغالبيتها كانت باللغة الفرنسية، ونذكر منها كتابي مولاي بلحميسي[3]: *Mazouna une petite ville, une longue histoire*، و *Histoire de Mazouna* وما ألفه يوسف لوكيل *Mazouna ancienne capitale du Dahara*[4]

، الذين اهتما بتاريخ مازونة العام، إضافة إلى عدد من الدراسات التي استفادت خاصة من نوازل مازونة في دراسة العالم الريفي المغربي منها: أبحاث كل من جاك بيرك *(Jacques Berque)*[5]،

1- مكتبة العائلة العثمانية بطولقة، بسكرة.

2- سوف يتم التطرق لهما في الفصل الثالث.

3- Alger, (SNED), 1981 ; Alger, imprimé sur les presses de la société nationale d'édition et de la diffusion, 1982.

4- Alger, Imprimerie Algérienne, 1912.

- يذكر المؤرخ أبو القاسم سعد الله أنّه في سنة 1912 ألّف أحد المترجمين باسم يحي ياسين (لأنّه رمز إلى اسمه بحرف y) - حسبه- كتابا بعنوان مازونة العاصمة القديمة للظهرة، وهو من أبناء المدينة، وكان مترجما احتياطيا في الإدارة ولعله كان يعمل في سلك القضاء، وظهر هذا التأليف في سلسلة تسمى : "الجزائر كما يتحدث عنها ويصفها أهلها"، وهو عبارة عن تعريف سريع بمدينة مازونة، ليس تاريخا بمعنى الكلمة، ولكنّه ضمّ معلومات تاريخية، وكان المؤلف قد نشر بعض المقالات في جريدة الأخبار عن مازونة ثم جمعها ونشرها في هذا الكتيب الذي يعتبر من المؤلفات الاجتماعية، وأظنّ أنّ الكتاب هو ليوسف لوكيل، وللأسف لم أتمكن من الحصول على النسخة المنشورة.

5- « En lisant les Nawazil Mazouna », *Studia Islamica*, T. XXXII (32), 1970, p. 31-39.

« Retour à Mazouna », *AESC*, V. 27, 1(1972), p.150- 157.

« L'histoire sauf l'Europe, Les Hilaliens repentis ou: l'Algérie rural au XVe siècle d'après un manuscrit jurisprudentiel », *AESC*, V. 25, 5(1970), p. 1325-1353.

L'intérieur du Maghreb XVe – XIXe siécles, Paris, Editions Gallimard, 1978.

Maghreb, Histoire et sociétés, Duculot.

هواري تواتي *(Houari Touati)*[1]، وإليز فوقي *(Elise Voguet)*[2].

وفي آخر هذه المقدمة البحثي أريد القول أنّي توخيت من خلال هذه الدراسة الأوّلية العمل على إشراك الباحثين المؤرخين والأثريين والأنتربولوجيين وحتى المعماريين وغيرهم أيضا في اهتمامنا بهذا النوع من الدراسات ، لأنّه ومن خلال هذا التكامل فقط يمكن الحديث عن دراسة "المدينة" كوحدة كلية غير مجزأة قادرة على استيعاب جميع التساؤلات.

1- «En relisant "les Nawazil Mazouna" marabouts et chorfas au Maghreb central au XVe siècle», *Studia Islamica*, 69 (LXIX),1989, p.75-94.

2- *Entre réalités sociales et constructions juridiques, Le monde rural en Maghreb central d'après "les nawazils Mazouna" (IXe- XVe siécles)*, thèse de doctorat, Université Paris I, Sorbonne, 2006.

؛(تحصلت فقط على ملخصها).

الفصـــــل الأول

مـازونة-المدينة المغيّبـة-إشكاليات دراسة ما قبل الفترة المرابطية-

I -مازونة: التواصل الطبونومي بين نهاية التاريخ القديم وبداية الفترة الوسيطة

II-البيت الخزري المغراوي والمجال الشلفي.

I-مازونة: التواصل الطبونومي بين نهاية التاريخ القديم وبداية الفترة الوسيطة:

يحدّد الانتماء الطبونومي لمدينة مازونة العديد من الإشكاليات المفاهيمية، خاصة وأنّ دراستنا تهتم بالمجال الحضري، وعلى الرغم من توفر دراسات هامة وجادة عن بعض مدن هذا النطاق[1]، والتي اهتمت بالفترات الزمنية المتأخرة خاصة، إلاّ أنّ مجال البحث في فترة انتقال المدينة من مرحلتها التاريخية المتقدمة إلى المرحلة الإسلامية الوسيطة ومرحلة ما بعد الفتح خاصة لم تعالج بشكل يوضّح لنا كل الإشكاليات المونوغرافية الخاصة بالمجال الحضري[2].

1- تبقى هذه الدراسات شحيحة مقارنة بما توفر من أبحاث حول مدن إفريقية والمغرب الأقصى وحتى بعض مدن الشرق الجزائري، وعن إشكالية دراسة المجال الوهراني-التلمساني الصعبة لنقص النصوص، ينظر:

M.Mahdad, « Le pays Orano-Tlemcenien du vIe siécle.», *Majallat-Et-Tarikh*, centre national d'études historiques, Alger, 8(1980), p.71-72.

2- من بين الدراسات التي تعرضت لإشكاليات تتبع تاريخ بعض المدن منذ نهاية التاريخ القديم ، والوقوف على مدى استمراريتها أو انقطاعها خلال العصر الوسيط، أو ما تسمى بالفترة الانتقالية ينظر:

–Paul Louis – Cambuzat, *op. cit.*

-Roger le Tourneau, *Les villes musulmanes de l'Afrique du Nord*, Alger, Bibliothéque de l'institut d'études superieures islamiques, la maison des livres, 1957, p.9-11.

- يوسف عيبش: "حول مدن المغرب في نهاية التاريخ القديم"، **سيرتا**، قسنطينة: جامعة منتوري، معهد العلوم الاجتماعية، السنة 08، ع. 12، 1420هـ/ 1999م، ص-ص. 27-37.

Allaoua Amara, «L'animation de la façade maritime du Maghreb central(VIIIe--XIIe siécles)», *Revue du lettres et sciences humaines*, 6 (2005), p.9-10.

- ليوبولدو تورّس بالباس: **المرجع السابق**.

ويعتبر ديهل (*C.Diehl*) في كتابه: **إفريقيا البيزنطية** *"L'Afrique byzantine"* وكورتوا *(C.Courtois)* في كتابه: **الوندال وإفريقيا** *"les Vandales et l'Afrique"* من بين المبادرين لسدّ فراغ هذه الفترة الإنتقالية الغامضة أو ما اصطلح عليها بإفريقيا المنسية *(Afrique oubliée)*، وذلك لنقص النصوص القديمة ومؤرخي هذه الفترة، يراجع:

Saïd Dahmani, «Pouvoirs tribaux autochtones dans le Maghreb central au VIe et VIIe siècles», *VIe colloque international sur l'Afrique antique et médiévale, -monuments funéraires et institutions autochtones*, Paris, CTHS, (1993), p.317 318.

علاوة عمارة: "الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب" ، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، ع.10، 1430هـ/2009م، ص-ص.12-20؛ علاوة عمارة ، زينب موساوي :

فهناك مدنا مغربية اختفت لعدة قرون بعد السيطرة العربية على المنطقة لتعود بعد ذلك في ظروف غامضة لتلعب دورا ثانويا في الحياة السياسية والاقتصادية، لتصل إلى مرحلة الحاضرة المركزية في مراحل تاريخية لاحقة[1]، وأخرى تراجعت بعد أن ميّزت ملامح الحياة الحضرية الأولى في بلاد المغرب الوسيط.

إلاّ أنّ تغييب النصوص العربية المتقدّمة لمازونة يجعلنا أمام إشكالية تصنيف هذا النوع من المراكز العمرانية، فهل يمكن بعث الصورة الحضرية لمازونة في ظل هذا التغييب؟ أم أنّه لا يمكننا الحديث إلاّ عن مازونة ما بعد القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[2].

تطرح مدينة مازونة إشكالية التواصل الطبونومي، أو ما تسمى بالفترة الانتقالية، خاصة مع التضارب الكبير في وجهات نظر الذين كتبوا عنها، والتي لا تقدّم لنا سندا تاريخيا موحدا قد يساعد على تحديد الإطار التأسيسي لهذه المدينة، فقد اعتمد هؤلاء لتبرير آرائهم مقاربات مختلفة أسطورية، تاريخية وأثرية.

وفي الحقيقة لن أستطيع أن أقدّم جوابا جازما حول هذه الفكرة بالذات، خاصة وأنّها لم تجد إجماعا من قبل الباحثين، لذلك لا بد من تقديم ما توفر لدينا من الفرضيات المطروحة، ومحاولة الإجابة على إشكال الاستمرارية الحضرية لمازونة بين الفترة القديمة والفترة الإسلامية الوسيطة.

1- الأسطورة:

ارتبط تأسيس العديد من المدن في بلاد المغرب الوسيط بأساطير أو روايات شفوية مجموعة من أجل رسم هالة أو قدسية معيّنة حول هذه المدينة أو تلك، لكن ذلك قد لا يؤيده الواقع،

"مدينة الجزائر في العصر الوسيط" ، ص.64، حيث يشير في هامش هذه الصفحة إلى إحدى الدراسات التي اهتمت بهذه الاشكالية:

Yvon Thebert, «Permanences et mutations des espaces urbains dans Les villes de l'Afrique du Nord orientale, de la cité antique à la cité médiéval», *cahiers de Tunisie*, XXXXIV (1986), p. 31-46.

1- علاوة عمارة: "مدينة الجزائر في العصر الوسيط"، ص.64.

2- أبو راس الناصر المعسكري: **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار** ، تقديم وتحقيق: محمد غالم، ج.1، وهران: المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجية الإجتماعية والثقافية، (منشورات: Crasc)، 2005، ص.93.

خاصة وأنّ هذه الأساطير تحاول أن ترسم نوعا من الإعجازية اللاواقعية، إلاّ أنّ الأسطورة تبقى موروثا شعبيا يحاول تفسير قضايا معينة ضمن سياق غير واقعي في أغلب الأحيان[1].

وحول هذه القضية بالذات لم نعثر إلاّ على نصّين للوكيل وبلحميسي في كتاباتهم حول تاريخ مدينتهما، حيث كانا الوحيدين اللذين أثارا هذه الفكرة بإثباتهم روايات لسكان مازونة الحديثة، والتي مازالت تتداول إلى يومنا هذا في تفسيرهم لسبب تأسيس وتسمية المدينة.

حيث أثار يوسف لوكيل روايتين لأسطورتين لم يعقّب عليهما، وقدّمهما على أنّهما من بين الأطروحات التي تناولت أصل المدينة[2].

1- يشير مثلا غوستاف ايفن غرودوم (*Gustave Evon Grunedaum*) بالفعل إلى أي مدى هو مهم للمدينة الاسلامية تواجد أصول أسطورية لها علاقة بالصورة الدينية مثلا، ومن هذه المدن نجد: حلب، دمشق...إلخ
Christine Mazzoli-Guintard, «De ville à madina, de madina à ville?», p.19-48.

2- النص الأصلي للأسطورتين:

الأسطورة الأولى:

1 - Deux légendes courent sur Mazouna, et laissent suppose qu'elle à été construite sur les restes d'on ne sait qu'elle cité mystérieuse au nom effacé dans la suite des âges.

...D'après une première légende, Mazouna tirerait son nom de ce qu'il à été gouverné, dans les temps passés, par une princesse qu'avait tout son trésor en pièces dites "Mouzouna", équivalent au billon de dix centimes usité de nos jours.

الأسطورة الثانية:

2 - Suivant la seconde, un berger du nom de matâ faisait paître son troupeau sur l'emplacement de la ville qui rongée à l'est au sud et à l'ouest par les eaux de l'oued-Tamda et de l'oued-Boumatâ, avait la forme d'une pièce de deux sous.

Le soir de retour dans son douar, il parla si avantageusement de cet emplacement, que les gens l'écoutèrent, et décidèrent d'y transporter leur demeures.

Leur nombre s'accrut de jour en jour, c'est bien qu'ils formèrent une cité qui garda à jamais le nom de Mazouna ...

محتـــوى الأسطورتيـــن:

تتحدث الأسطورة الأولى عن أميرة تملك كنزا عبارة عن قطع نقدية تدعى "موزونة"، والتي أخذت المدينة تسميتها منها.

أمّا الثانية فهي تتحدث عن الراعي ماتع، الذي عثر على قطع نقدية تدعى "موزونة" في موقع مدينة "مازونة" الحالية ، وقد تسمت المدينة باسمها بعد انتقاله وقومه إليها واستقرارهم بها، ينظر:

Y. Loukil, *Mazouna, ancienne capitale du Dahara*, p. 13; Moulay Belhamissi, *Mazouna, une petite ville, une longue histoire*, p. 21.

الأسطورتان مرتبطتان بالقطع النقدية موزونة[1]، والتي نجدها متداولة في العهد العثماني، ولا ندري إن كان لهذه التسمية أصول قديمة نظرا لغياب شواهد تؤكد ذلك.

ولا شكّ بأنّ التقارب اللغوي الذي فرضته هذه التسمية هو الذي دفع بسكان المدينة إلى تداول مثل هذه الأساطير، والتي لا نرى فيها تطابقا لفظيا كليا.

وعلى الرغم من النقد الذي قدّمه بلحميسي في كتابه ليوسف لوكيل عندما قدّم روايتيه دون تعقيب[2]، نجده يقع في ذلك أيضا عند حديثه عن آراء سكان مازونة حول تأسيس مدينتهم، والتي اختلفت عن سابقاتها عندما أخذت في محاولة ربط التأسيس بشخصيتي ماتع ومازون ونسبة المدينة إليهما[3].

---

1 -يورد فانتير دي باغادي (*Venture du paradis*) كلمة موزون" *Mezounes*" كعملة متداولة في العهد التركي، ينظر:

Venture de Paradis, *Tunis et Alger au XVIIIe siècle, Mémoires et observations*, Paris, Edition Sindbad, 1983, p. 124,128,…

وعن العملة "موزونة" أو عن هذه التسمية ينظر أيضا عباس بن إبراهيم المراكشي : **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ج.2، فاس: المطبعة الجديدة، 1355هـــ/1936م، ص.191،...؛ كما ترد كلمة موزونة في النصوص النوازلية الوسيطة كالمعيار مثلا.

1 - Moulay Belhamissi, *Mazouna*, p.21.

3-النص الأصلي للأسطورة:

Les anciens habitants en attribuaient la fondation au bérbères Mata et cela bien avant l'arrivée de Arabes.Une autre version en laisse plutôt le mérite à un certain Mazouna frère de Médiouna, l'ancêtre de la tribu de ce nom.

محتوى الأسطورة:

يرجع سكان المدينة تأسيس مازونة إلى شخصيتي ماتع أو مازون أخ مديون والذي تسمت القبيلة باسمه (كان هناك صراع كبير بين مازون ومديون أدّى إلى تأسيس مدينتي مازونة ومديونة)، ينظر:

Moulay Belhamissi, *Mazouna*, p. 25.

وهناك أسطورة أخرى ترتبط بشخصية "ماتع"(Mata)، لكن في ظروف مختلفة حيث تقدّمه كملك لديه بنت اسمها زونا ، والتي نسب إليها منبع الماء، فأصبحت ماء زونا، حيث تقول هذه الأسطورة المرتبطة بالماء: «وحكي لنا أنّ ملكا حط رحاله أثناء مروره بمازونة بجبالها وكانت ترافقه ابنته (اسمها زونة) فطلب من رجاله أن يحضروا لها ماء، فوجدوا المنبع وحرموه على الغير وقالوا هذا ماء زونة.»، وهناك من قال أنّ معنى كلمة مازونة هو: أرض الرجال الأقوياء.

(La terre des hommmes forts), *Ibid*, p.21; Moulay Belhamissi, *Histoire de Mazouna*, p.21.

وفي الحقيقة، فإنّ الأساطير التي ارتبطت بتأسيس مازونة لا تستند إلى دليل تاريخي محدّد، فهي مجرد روايات حاولت في أغلبها أن تربط بين الدلالات اللفظية وتسمية المدينة، حيث أنّنا عندما نتناول المقاربات التاريخية والأثرية لا نجد ما يدّعم هذه الأساطير، عدا أسطورة بلحميسي التي تناولت شخصية مازون جد القبيلة التي تسمت باسمه.

2- مقاربات تاريخية-أثرية حول أصل المدينة:

2-1-المقاربة التاريخية:

لقد ارتبطت هذه الإشكالية بشخصية الملك مازونا (Masuna)، الذي ورد ذكره في نص نقيشة ألتافا (Altava) أولاد ميمون الحالية[1]، حيث قدّمت العديد من الفرضيات في دراسات اعتمدت في توجهاتها هذه المقاربة لتبرير أصل المدينة.

1- توجد هذه النقيشة بمتحف وهران تحت رقم: (C.I.L.VIII 98355) ، وهي عبارة عن حجر تذكاري لحصن تم انشاؤه بأمر من الملك ماسونا (مازونا)، حيث تشيد بهذا الملك، وتقدّم أسماء الموظفين الذين أشرفوا على انجازه في مستهل القرن 06م، ولقد اكتسبت هذه الوثيقة أهميتها كونها اعتمدت طريقة التأريخ المحلي لموريطانيا القيصرية 469 الموافق لـــ 508م، يراجع الفهرس المتواجد على مستوى متحف وهران:

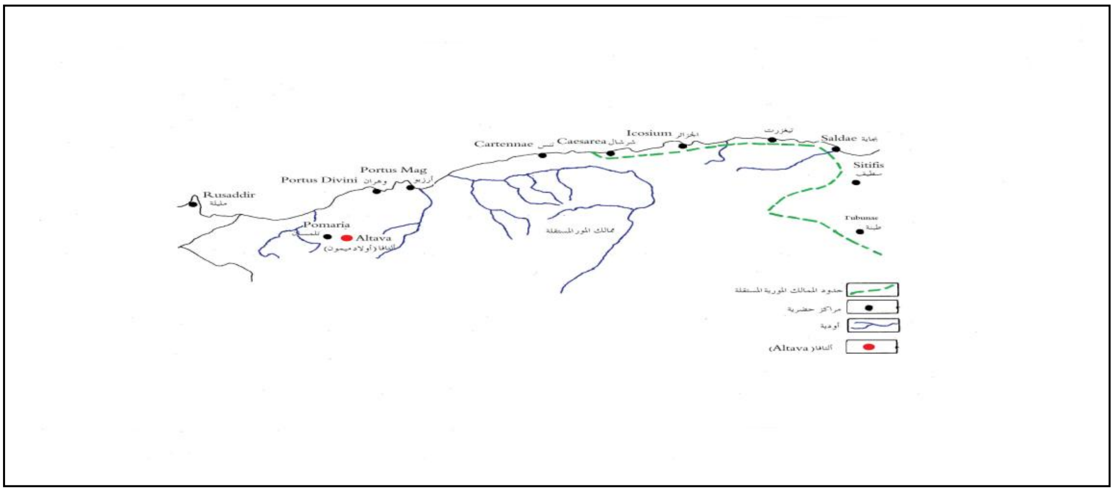
Catalogue Raisonné des objets Archéologique du musée de la ville d'Oran (Musée Demaeght), 2éme Edition, Revue par M. F. Dommergue conservateur ,1894 (Extrait du *BSGAO*, T. 53, Fascicule 191, Oran, Société Anonyme des Papeteries et Imprimeries, L.Fouque, (1932), p.65-66.

وينظـــر محمد البشير شنيتي: **الجزائر في ظل الاحتلال الروماني،بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني ومقاومة المور)**، ج.1، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص-ص.234-235؛ وعن منطقة ألتافا (أولاد ميمون الحالية)، والتي تقع على مسافة ثلاثين كيلومترا شرق تلمسان ، ينظر جورج مارسي: **تلمسان**، ترجمة: سعيد دحماني، البليدة : دار النشر التل، 2004، ص.10؛ أو على بعد 25كم شرق مدينة تلمسان أو 32كم عن تلمسان حسب الجمعية الجغرافية والأثرية لوهران T. IV, (1884), p .11.، ويتحدث محمد البشير شنيتي على هذه النقيشة التي تم اكتشافها سنة 1877م بموقع غير محدّد بالقرب من أولاد ميمون (ألتافا)، ونشرت وتمت مراجعتها عدة مرات ينظر هامش محمد البشير شنيتي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.462.

وعن منطقة ألتافا أو ألطاوة والتي تعرف أيضا "بحجر الروم"، وصافار التي تقع جنوب وهران، والتي كانت تابعة لقيادة الإغليد مازونا حول هذه المعلومة يراجع الدراجي بوزياني : **القبائل الأمازيغية (أدوارها ، مواطنها، أعيانها)**،ج.1، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007، ص.67.

ومن بين المراجع التي تحدثت عن هذه النقيشة:

Said Dahmani, *op.cit.*, p. 323.



خريطة رقم: 01 (حدود ممالك المور المستقلة قبل الفتح الإسلامي)

(محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ج.2.)

لقد أثارت نقيشة ألتافا (*Altava*)[1]، وما كتبه المؤرخ القديم بروكوب (*Procope*)[1]، إشكالا بين المؤرخين الغربيين الذين تبنوا والذين رفضوا الربط بين شخصية

-Cf .J .Marcellet Jaubert, «Les inscriptions d'Altava», *Publication des Annales de la faculté des lettres*, Aix en Provence, 194 (1968), p.126-127.

نقلا عن يوسف عيبش: **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي**، رسالة دكتوراه، قسنطينة: جامعة منتوري، 2007-2008، هامش، ص.235.

-S.Gsell, *BSGAO*, (1882), p.10-14.

-Demaeght, *Catalogue de musée d'Oran*, p. 114.

-Ch .Courtois, *«Les Vandales et l'Afrique»*, (1955), p. II.

-P.Courtot, «Essai historique sur Altava», in *RA*, (1936).

-P.Courtot, «Une nécropole romaine d'Altava», in *BSGAO*, (1934-1936).
=

-P.Courtot, «Une dédicace en l'honneur des empereurs Constances VI et = Constant à Altava», in *BSGAO*, (1935).

-L.Demaeght, «Nouvelles découvertes épigraphiques à Hjar Roum (Altava)», in *BSGAO*, (1888).

P.Pouthier, «Evolution municipale d'Altava», in *MEFR*, (1956).-

Camille Kehl, «Oran et l'Oranie avant l'occupation française», *BSGAO*, - 63(1942); *Catalogue Raisonné des objets Archéologiques du musée de la ville*

مازونا ألتافا (*Masuna*) وماسوناس (*Massonas*) بركوب[2]، من يكون الشخص الأوّل؟ هل هو نفسه ماسوناس؟ أم أنّهما لا يعدوا أن يكونا إلاّ شخصين مختلفين جمعهما التقارب اللغوي؟

تعرض يوسف عيبش لهذه الآراء بالتفصيل في عملين جادين الأول بعنوان: المور والبيزنطيون خلال القرن 06 م[3]، والثاني الموسوم بـــ: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي[4]، حيث ذكر عددا منها، وحاول تقديم وجهة نظر كل رأي على حدى.

حيث تبنى كل من كاركوبينو (*Carcopino*)[5]، دولا بلنشار (*De la Blanchère*)[6]، المؤرخ الألماني مومسن (*Mommsen*)[1] و موريزوا (*Morizot*)[2]

---

d'Oran (Musée Demaeght), p. 65-66; "Inscription commémorative en l'honneur du roi Masuna". En calcaire bleu.

وبعض الأعداد الأخرى في المجلة الجغرافية والأثرية الوهرانية: (BSGAO)، مثل:

"*BSGAO*", T.II, (1881-1882); L.Demaeght, «Altava (Lamoricière)», *BSGAO*, T.III, (1833), p. 68… ets.

1- **نص النقيشـــة الأصلي:**

Pro sal (ute) et mol (umitate), Reg (is) Masunae gent (uim) Maur (orum) et - Romanor (um). Castrum edific (atum) a Masgivimi (pref) (ecto) de Safar, Iider, proc (urator) a (stra) severiana, (quem) Masuna Altava posuit et Maximus proc (urator) Alt (avae) pref (ecti) (amno) p (rovinciarum) C C C C L V III.

الترجمـــة العربيـــة:

من أجل صحة ودوام مازونا ملك شعب المور والرومان ، شيّدت هذه القلعة على يد مسيغيبا حاكم سفار ، عندما كان ايدير وكيلا على قلعة سفريانا، وهما اللذان أمر مازونا بإلزامهما إلى ألتافا، وقد أتّم البناء مكسيموس حاكم ألتافا في تاريخ 496 بتاريخ المقاطعة.

بالنسبة للترجمة ينظر محمد البشير شنيتي: **المرجع السابق**، ج.2، ص-ص.462-463.

1- من كتـــاب: Procope, *La guerre contre les Vandales (Bellum vondalorum).*

2- ماسوناس (*Massonas*): شخصية حاكمة بالنطاق الأوراسي، ارتبط الحديث عنها سنوات 535م.

3- يوسف عيبش: **المور والبيزنطيون خلال القرن 06م**، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1995-1996م.

4- يوسف عيبش: **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي**.

5- عن كتـــاب: J.Carcopino, *Un Empereur Maure inconnu*

6- عن كتـــاب: R.De La Blanchère, *Voyage d'étude dans une partie de la Maurétanie Césariénne*

الفرضية الأولى، واقترح هذا الأخير إمكانية امتداد مملكة مازونا (ماسوناس) من نواحي تلمسان بما فيها المرتفعات المحيطة بمدينة مازونة الحالية التي يرى فيها امتدادا لنفس الاسم[3].

وقام كل من كورتوا *(Courtois)*[4] وكامبس *(Camps)*[5] برفض هذه الأطروحة مقدّمين تبريراتهم، فالأوّل اعتبر البعد الجغرافي والفارق الزمني بين ما أورده بروكوب ونص النقيشة يجعلان المقاربة اللغوية دون معنى، واقترح أن يكون ماسوناس هو أميرا محاذيا غير ماسونا *(Masuna)*، أمّا كامبس فشخصية بروكوب عنده لم تقم إلاّ بدور ثانوي وظرفي فقط[6].

وخلص عيبش إلى نفس رأي كورتوا، فالحجج التي قدّمها هذا الأخير –حسبه- موضوعية إلى حد ما، فماسوناس *(Massonas)* لم يتعد الحديث عنه النطاق الأوراسي[7].

لم تطرح شخصية ألتافا هذا الإشكال، بل حتى هويتها أخذت نصيبها من الفرضيات المختلفة فمن يكون مازونا *(Masuna)*؟ هل هو ملك المور الرومان؟ أم أنّه مجرد أمير قبيلة أو قبائل مورية فقط؟

فهناك من اعتبره أميرا مثل ديهل *(Diehl)*[1]، وهناك من جعله مجرد أمير على المنطقة الوهرانية ككورتوا *(Courtois)*، أمّا فيفري *(Février)*[2] فقد اعتبره أحد أحفاد رؤساء

1- عن كتاب المؤرخ الألماني: Th. Mommsen, *Histoire romaine*

2- عن كتـــاب: P.Morizot, *Pour une nouvelle lecture de l'éloguim de Masties*

3-يوسف عيبش: **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية**، ص.234؛ محمد البشير شنيتي : **المرجع السابق** ، ج.2، ص-ص.464-465.

4- عن كتاب: C.Courtois, *Les Vendales et l'Afrique*

5- G.Camps, «Rex Gentium Maurorum et Romanorum, Recherches sur les royaumes de Maurétanie des VIe et VIIe».

6- يوسف عيبش: **المور والبيزنطيون**، ص.243؛ محمد البشير شنيتي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.465.

7- يرى يوسف عيبش أنّه لا يمكن حصر نفوذ مازونا في الجهة الغربية لموريطانيا القيصرية، بل يجب تتبع حدود مملكته في نطاق أوسع، على الرغم من أنّ الموضوع كان محل جدال بين أنصار مطابقة اسم مازونا وماسوناس وبين معارضيها، حيث اعتبر دو لا بلنشار *(De La Blanchère)* أنّ مملكة مازونا/ماسوناس هي مملكة واسعة الأطراف، قد تصل إلى غرب الأوراس في كتابه:

Voyage d'étude dans une partie de Maurétanie Césariénne, *dans Archives des Missions Scientifiques et Littéraires*, Paris, IIIeserie, TX, (1888).

ينظر يوسف عيبش: **المور والبيزنطيون**، ص.244.

القبائل المتحالفة سابقا مع روما خارج الليمس الموريطاني، والذي انضّم إلى الإدارة الإمبراطورية بالرغم من عدم اندماجه كلية في الحياة الرومانية، أمّا كامبس فأعتبر مازونا ملكا لشعبي المور والرومان[3].

لم تتوقف هذه الشخصية عند هذا الحد، بل فرضت نفسها خاصة عند اكتشاف أضرحة الجدار[4] الثلاثة عشر بمنطقة فرندة بتيارت الحالية، وهي عبارة عن أضرحة جنائزية (مورية) [1]، ترجع إلى نهاية الفترة القديمة[2].

1- C.Diehl, *L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination Byzantine en Afrique du Nord (533-709).*

وأيضــا : Stéphane Gsell, *L'Algérie dans l'antiquité*, Alger, Typographie, Adolphe Jourdan, 1903. p. 139.

وبالنسبة لبيشوا *(Péchot)*كذلك:

- L. Péchot, *Histoire de l'Afrique du Nord avant 1830 (précédée de la Géographie physique et politique de la Tunisie, de l'Algérie et de Maroc*, Alger, Gojosso Imprimeur Editeur, 1914, p. 309.

2- وكتابه هو: P.A. Février, *"Masuna et Masties"*.

3-يوسف عيبش: **المور والبيزنطيون**، ص.234؛ يوسف عيبش: **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية**، ص.236؛ محمد البشير شنيتي: **المرجع السابق**، ج.2، ص-ص.465-466.

وحول هذه الشخصية ينظر أيضا:

-E.Albertini, G.Marçais, G.Yver, E .Prigent, *l'Afrique du Nord française dans l'histoire*, Lyon-Paris, Editions Archat, 1955, p. 121-126.

لكن بصفة ملك لا أمير ، وعن الصفة "إمبراطور" لمازونا، ينظر يوسف عيبش: **المور والبيزنطيون**، ص.253؛ أمّا غابريال كامبس فأعتبره ملكا لقبائل المور والرومان بألتافا، يراجع:

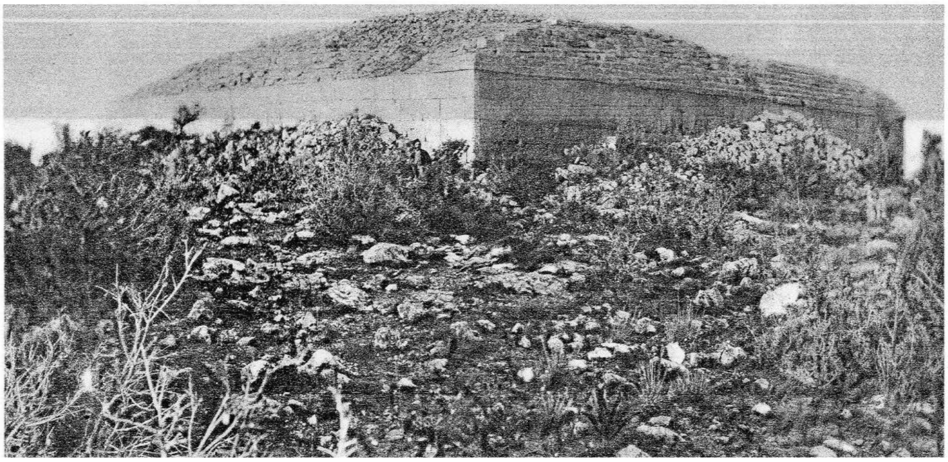
Gabriel Camps, «Comment la berbérie est devenue le Maghreb arabe», *ROMM*, V. 35ème, 1 (1983), p. 9.=

= أما سعيد دحماني فقد أطلق على المنطقة تسمية المملكة الوهرانية *(Le Royaume d'Oranie)* والتي بدأت تعرف منذ 508م أي القرن السادس الميلادي مع نقيشة ألتافا، حيث غطى الملك مازونا *(Masuna)*، كما أسماه المنطقة الممتدة من تلمسان إلى غاية البحر ،.Said Dahmani, *op. cit.*, p. 323؛ أو كما أسماها عبد الله العروي بإمارة وهران حول مدينة ألتافا، عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.112-113؛ ويراجع أيضا:

Catalogue Raisonné des objets Archéologique du musée de la ville d'Oran (Musée Demaeght), p. 66.

4- تسمية "الجدار" هي تسمية عربية ينظر:

RA, 1(1856), p. 50-52.



صورة رقم: 01 (جدار فرندة)

(Maurice Reygasse, *op.cit* ., p .30.)

Fernand Benoit, *l'Afrique Méditérranéenne, Algérie, Tunisie, Maroc*, Paris: Les - Beaux Arts, Editions d'études et de documents, 1921, p. 47 ; L.Péchot, *op. cit.*, p. 275, 308-309.

يوسف عيبش: **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية**، ص.239.

1- يرى عبد الله العروي أنّها شيّدت على الطريقة المسيحية وتحمل اسم ال ماسونا الذي يجده قريبا من ماسينسن الذي يحتمل أن يكون قد أصبح لقبا بعد أن كان اسم شخص ، عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.112-113؛ وغابريال كامبس *(Gabriel Camps)* يحدد وجود هذه الأضرحة الجنائزية بالقرب من سعيدة، والتي ضمّها للمناطق الحرّة في تلك الفترة *(« Régions « libérées »)* ،

Gabriel Camps, *op.cit.*, p. 9.

R .de la Blanchére, «Voyage d'étude en Maurétanie césarienne», *Archives des Missions*, IIIe série, T. X, (1883), p. 1-131.

Stéphane Gsell, *Les monuments antiques de l'Algérie*, T.II, Paris, A. Fontemoing, 1901, p.418-427.

E.Albertini, G.Marçais,…, *op. cit.*, p. 126; Fernand Benoit, *op. cit.*, p. 47.-2

وللإطلاع أكثر على مملكة الجدار أو "أضرحة الجدار"، يراجع:

E .Albertini, G .Marçais,…, *op.cit.*, p.126; Maurice Reygasse, *Monuments Funéraires Préislamiques de l'Afrique du Nord, Paris*, Arts et Métiers Graphiques, 1950, p.31; Said Dahmani, *op .cit.*, p.323.

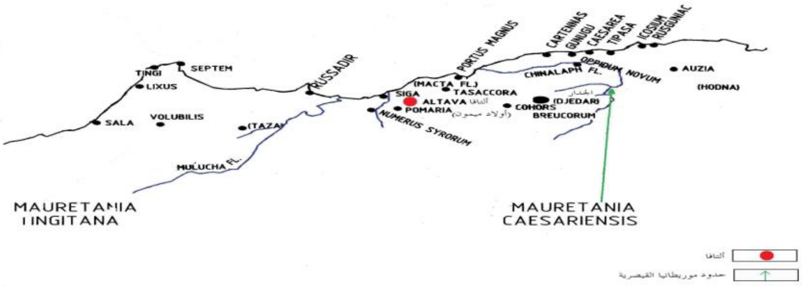
وعن مملكة الجدار دائما قدمت العديد من الدراسات في الجمعية الجغرافية والأثرية لوهران:

-*BSGAO*, T.III, (1883), p.264-269; E.Guénard, dans *BSGAO*, T.IX, (1889), p. 270-271.

ويوسف عيبش: **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية**، ص.239 ؛

L.Péchot, *op. cit.*, p. 275, 308, 309; Stéphane Gsell, *op. cit.*, p. 138.

وقد اعتبرت قادرة أنّ مملكة الجدار *(Djeddars)*[1] قد امتد نفوذها في اتجاه الغرب حتى المنطقة التلمسانية[2]، واقترحت إطارا زمنيا لبعض أمراء هذه المملكة، ومن بينهم مازونا *(Masuna)*[3].



خريطة رقم: 02 (موقع ألتافا(Lamoriciére) والجدار(Djedar))
E .Albertini, G .Marçais, G.Yver, E .Prigent, *op.cit.* , p.10.)

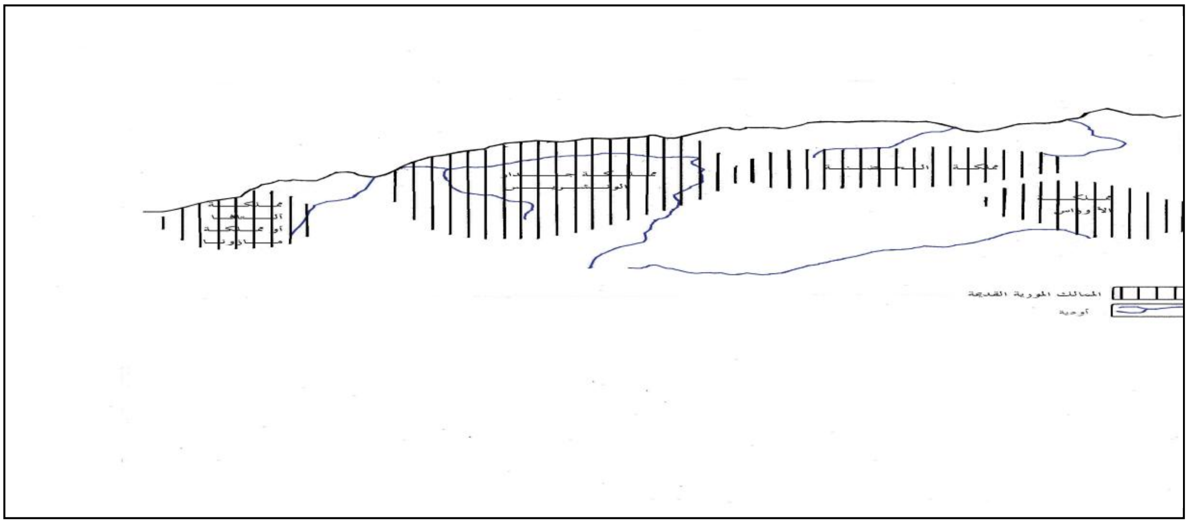
1- حيث كانت هذه الأضرحة سبب اقتراح كورتوا تسمية إمارة ماستيناس بمملكة الونشريس أو الجدار لتحاذي مملكة مازونا التي حصرها في النطاق الوهراني، ينظر يوسف عيبش: **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية**، ص.239.

Said Dahmani, *op.cit.*, p.322-323؛ ويتحدّث شارل إيمانويل ديفورك عن مملكة جدّار وتسمى أحيانا مملكة تيارت أو مملكة الونشريس، والتي تمتد من الهضاب العليا إلى البحر ينظر شارل إيمانويل ديفورك : "مكانة الونشريس والجهات المجاورة له في تاريخ المغرب الأوسط عبر الألفية الأولى من التاريخ الهجري"، **الفكر الإسلامي** (صور من الملتقى الرابع عشر)، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية ، قسنطينة: دار البعث، 1400هـــ-1401هـــ/1980م-1981م، ص-ص.96-97؛

Catalogue Raisonné des objets Archéologique du musée de la ville d'Oran (Musée Demaeght), p.66.

2- F.Kadaria Kadra, *Les Djedars, Monuments Funéraires Berbères de la région de Frenda*, Alger, office des publications universitaires, 1983, p. 360.

3- حيث زامنته بالجبل الأخضر، والذي رمزت له بـــ (C). *Ibid*, p. 359.



خريطة رقم: 03 (الممالك المورية القديمة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين)

(يوسف عيبش: المور والبيزنطيون، ص.553 ؛ محفوظ قداش: الجزائر في العصور القديمة، ترجمة: صالح عباد، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1993م، ص.251.)

وهو الطرح الذي من شأنه أن تدعمه نقيشة ألتافا، لكن بافتراض أنّ مملكة مازونا (*Masuna*)، ومن بعده ماستيناس (*Mastinas*)[1] قد احتضنت منطقة الجدار (*Djeddars*)[2].

وجاءت ملاحظات ديهل (*Diehl*) مطابقة لنفس تصور دو لا بلنشار (*De la Blanchère*)، الذي اعتبر أنّ الأمير ماسوناس هو نفسه مازونا ألتافا أحد أمراء مملكة الجدار[3]، رغم تحفظه في ضبط مناطق النفوذ في هذه المملكة[4].

1- ماستيناس/ماستيقاس(*Mastinas / Mastigas*) يعتبر بركوب هو المصدر الوحيد في هذا الموضوع فهناك من يعتبرهما نفس الشخص، وهناك من يجعلها شخصيتين مختلفتين إلاّ أنّ الشخصيتين البربريتين تزعمتا موريطانيا القديمة (المملكة الموريطانية)، يوسف عيبش: **المور والبيزنطيون**، ص.258 وما يليها؛ محمد البشير شنيتي : **المرجع السابق**، ج.2، ص.487؛ =

=خديجة منصوري: "تيارت في العصور القديمة"، **الحوار الفكري**، السنة 04 ،ع.06، قسنطينة-عين مليلة: مطبوعات جامعة منتوري-دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 1425هـــ/2004م، ص.125.

2- يوسف عيبش: **المور والبيزنطيون**، ص.268 ؛ E.Albertini, G.Marçais,…, *op. cit.*, p.126

3- Maurice Reygasse, *op. cit.*, p. 31.

4- يوسف عيبش: **المور و البيزنطيون**، ص.268 ؛ L. Péchot, *op. cit.*, p. 309-310

أمّا كورتوا والذي استبعد المطابقة المقترحة بين ماسوناس/مازونا (*Masuna*/ *Massonas*)، اعتبر أنّ مملكة هذا الأخير لا تتعد المنطقة الوهرانية، وأنّ مملكة الجدار خلال القرن 06 م كانت تابعة للأمير ماستيناس/ماستيقاس (*Mastinas/ Mastigas*)[1]، مستبعدا شخصية مازونا عنها[2].

وبعد التعرض لهذه القضايا الهامة بداية من شهادة بروكوب ونقيشة ألتافا ونهاية بأضرحة الجدار، نجد أنّ شخص مازونا لم يخرج نطاق حكمه على الرغم من الاختلافات الواردة من موريطانيا القيصرية، أو النطاق الغربي من المغرب الأوسط[3].

ولعل هذا ما جعلني أميل نوعا ما لطرح موريزوا **(*Morizot*)** باعتبار فعالية شخصية مازونا في المنطقة، وهو ما يجعل نسبة تسمية المدينة لهذا القائد الموري واردة.

أمّا الطرح الآخر، فهو يرتبط بمقاربة تحول تسمية قبيلة إلى طبونوميا مدينة، خاصة وأنّ عدد المواقع المشتقة من أسماء القبائل عديدة ببلاد المغرب الوسيط، أو العكس [4]، فهل تكون مازونة إحدى هذه المواقع؟

لقد أثار انتباهي إشارة بلين (*Pline l'Ancien*) عن قوم (*Les Musines*) و(*Les) Mousounes* هذه الأخيرة التي تتواجد حول التافنة والحضنة وهضبة السرسو [5]، وعلى الرغم من أنّها لم تحاول أن تربط ذلك بموضوع المدينة، إلاّ أنّ العلاقة التي قد تربط هذه القبائل بمازونة واردة، خاصة وأنّنا نجد إشارات أخرى لنصوص عربية حول قبيلة مازونة وبنو

1- يوسف عيبش: **الأوضاع الإجتماعية و الإقتصادية**، ص.238.

2- **نفسه**: ص.238.

3- يوسف عيبش: **المور و البيزنطيون**، ص.252.

4- محمد حسن: **الجغرافيا التاريخية**، ص.10 وما يليها.

5- *RA*, 37-38 (1863), p. 28,32.

وينظر:

-L.Demaeght, «La tribu masunienne», *BSGAO*, T. IV. (1884), p .12.

; H.Tauxier, «Etude sur les migrations des tribus bérbéres avant l'islamisme», dans *RA*, Alger, T.7, 37-38, (1863), p.24-25.

و عن احتمال تسمية المدينة باسم الملك مازونا ينظر: *Ibid*, p. 12.

مسون المنتمية لمجال المغرب الأوسط [1]، فهل التحول في التسميات بين القبائل والمدن المغربية يمكن اعتماده هنا؟

قد يكون ذلك صحيحا، إلاّ أنّه ومع محدودية الدراسات حول قبائل المغرب الأوسط سواء في التاريخ القديم أو الوسيط، لا يمكن أن نجد حلا لإشكال هذه التسميات المتقاربة لفظيا، ولأنّني لا أملك المؤهلات الكافية لهذا البناء المعرفي، فالفرضيات التي قد تطرح ستكون حبيسة التخمين لا غير.

لذلك أرى بأنّ طبونوميا المدينة مازونة لا يقدّم فقط على أساس هذه المقاربات، بل يجب أن يكون هناك مجال لدراسة القبيلة بكل أبعادها في المغرب الأوسط، وربط ذلك بما يسمى بالدراسات الموقعية (الطبونومية).

2-2- المقاربة الأثرية.

لم يقدّم لنا البحث الأثري الذي تمّ في المنطقة أي إجابة صريحة على الإشكال الذي ما زال يتضارب حول أصل مازونة، وتبقى مجرد فرضيات مبنية على بقايا أثرية بعضها روماني أو بربري، وأخرى ترجع إلى فترة ما قبل التاريخ.

وقبل طرح هذه الآراء أريد أن أنطلق من ملاحظات كل من ليون الإفريقي ومارمول كاربخال حول المدينة التي زاراها وقدّما فرضيات حول أصلها.

1- الزياني: **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، ص.55، حيث يذكر أنّها إحدى القبائل الزناتية التي تسمت بذلك نسبة لاسم أبيهم مازون ، فمازونة حسبه هي اسم لرئيس قبيلة زناتية تدعى "ماسون" المعروف بـــ "رجيس ماسينغ جانيس" ، كما أنّ تنس اسم رجل من زناتة؛ وينظر أيضا الراشدي: **القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط**، تحقيق وتقديم: ناصر الدين سعيدوني ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991، ص.51؛ ويرى مختار حساني أنّ مازونة إسم أمازيغي نسبة لإحدى بطون مغراوة، مختار حساني: **موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية (مدن الغرب)** ، ج.4، الجزائر: دار الحكمة، 2007م، ص.164؛ وعند ابن خلدون إشارة قد تكون قريبة من هذا المعنى ، ولكنّي أنقلها بتحفظ حيث يذكر في عبره: «...إلاّ أنّ نسّابتهما متفقون على أنّ يلومي ورتاجن الذي هو أبو مزين إخوان وأنّ مديون أخوهما للأم ذكر ذلك غير واحد من نسّابتهم، وبنو مزين لهذا العهد يعرفون لهم هذا النسب ويوجبون لهم العصبية لهم... »، يراجع ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** ، مج.7، بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، (د.ت)، ص-ص.54-55؛ في حين يرى دو سلان *(De Slane)* أنّ اسمها الحقيقي موزية، يراجع هامش أمبروسيو هويثي ميراندا : **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، تعريب: عبد الواحد أكمير، الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2004، ص.315.

مازونة قديمة في نظر كل من ليون الإفريقي ومارمول كاربخال، إلاّ أنّ الأول يرى بأنّ المدينة هي من بناء الرومان بدليل الأماكن الخربة -بتعبيره- والعدد الوافر من الكتابات المنقوشة على قطع الرخام[1]، أمّا نظرة مارمول كاربخال فمختلفة نوعا ما في التفاصيل، فهو يرى بأنّ المدينة تحوي على أنقاض عدة مدن خرّبت منذ عهد الرومان، والتي مازالت إلى وقته أي القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي تحوي على لوحات كبيرة من المرمر وتماثيل من الحجر، وعليها كتابات لاتينية منقوشة، بالإضافة إلى المعبد الذي ينسبه للرومان[2].

وهو التبرير الذي تبنّاه العديد من الباحثين، الذين وجدوا في الآثار والنقوشات دليلا على رومانية مازونة[3]، حتى أنّ هناك من قال بأنّ المدينة جاء اسمها من مازونا "*Masuna*"، وهي المدينة الرومانية التي اكتشفت في سيدي محمد بن علي [4]، وهو الرأي الذي عارضه أحد الباحثين

1- الوزّان: **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، ج. 2، ط.2، بيروت-الرباط: دار الغرب الإسلامي-الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1983، ص.36، إلاّ أنّ الوزّان يقر بأنّ ما ذهب إليه لم يذكره قط المؤرخون الأفارقة ، **نفسه** : ص.36.

2- مارمول كاربخال: **إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون ، الرباط : دار المعرفة للنشر ، ج.2، ص.359.

3- عن الوجود الروماني بالمنطقة ينظر:

R.Gautier, «Contribution à l'étude du tracé de la route frontière de Maurétanie - cesariélles», dans *RA*, (1933), p. 149.

ومن بين الآثار البارزة في المنطقة (الرومانية) قصر كاوى *(Palais de Caoua)*، وهو عبارة عن نقطة مراقبة، بالإضافة إلى بنايات محصنة بنيت من طرف أورليوس فازيفا *(Aurelius Vasefane)* وذلك حوالي سنة 339م، وكذلك آثار تل بيدا *(Tella Bida)* تقع بقمة مرتفع وتبعد بحوالي 02 كلم جنوب شرق دائرة عمي موسى حاليا على الضفة اليمنى لوادي رهيو، بالإضافة إلى مجموعة من القصور : بوران تامزيدة، قبابة، سجاجة وبوعراوة، إضافة إلى المدينة الرومانية القديمة (حي برمادية حاليا بالقرب من مدينة غليزان تتربع على مساحة قدرها 10 هكتار كلها مدفونة تحت سطح الأرض تنتظر التنقيب)، ينظر: =

-

Stéphane Gsell, *Altas Archéologique de l'Algérie*, Alger, Agence Nationale = - Feuille d'Archéologie et de protection des sites et monuments historiques, T.1, 22,1997, p.3.

والآثار التي عثرت حول مازونة وجدت بحي بوعلوفقوعين تينسري، وعين ذهب. *Ibid*, p. 7.

Mohamed Kably, *Société, Pouvoir et Religion au Maroc à la fin du «moyen-age», (XIVe-XVesiécle)*, Paris, éditions maisonneuve et Larose, 1986, p. 9-12.

4- وعن الآثار الرومانية ينظر أيضا لـــ:

مؤكدا عدم وجود أي مدينة رومانية [1]، بما أنّ المنطقة كانت محتلة عسكريا فقط [2]، حتى أنّ رابح لحسن عند حديثه عن القلعة يؤكد استخدام هذه الأخيرة لحماية مراكز المواقع الرومانية الهامة في المنطقة في كل من سيدي محمد بن عودة ومازونة ومديونة وسيدي بوشايب وغيرها[3]، ولعل ما

Georges Robert, *Voyage à travers l'Algérie (Notes et croquis)*, Paris, imprimerie - de G.Rougier, p.287; Moulay Belhamissi, *mazouna*, p.27-28.

وعن الوجود الروماني بالمنطقة ينظر:

Robert Tinthion, «La plaine de Relizane avant l'irrigation», dans *BSGAO*, 1950, - p. 91.

ويعتقد شاربونو(***M.Cherbonneau***) أنّ المدينة البربرية ***Mazouna*** لها علاقة بالمدينة الرومانية ***Masuna***، والتي لا توجد أي إشارة حولها عند الكتاب القدماء، ينظر إلى ما كتبه دوماغت (***L. Demaeght***) في:

BSGAO, T.IV, (1884), p. 06-07; L.Demaeght, «Ruines Romaines (Quiza Xenitana)», dans *BSGAO*, T.III, (1883), p. 261-263; L.Demaeght, «Le Dahara Occidental (période Romaine)», dans *BSGAO*, T.III, (1883), p. 304-309.

Sari, *Les villes précoloniales de l'Algérie accidentale. (Nedroma,* Djilali- *Mazouna, kalâa)*, Alger, société nationale d'édition et de diffusions, T. II, p. 32; Robert Tinthion, *Les aspects physiques du tell Oranais, essai de morphologie de* Replin, «Considération sur la géologie des *pays*, Oran, L.Fouque, 1948, p.558; *BSGAO*, 1894, p. 10; R.Gautier, *op. cit.*, p. 49; Lacretelle environs de Relizane », L., *Etudes sur la Province d'Oran*, Marseille, Typographie Ve Marius olive, 1865, p. 16.

الظهرة (Le Dahra) جنوب شرشال ويتحدث غابريال كامبس عن هذه الآثار بمنطقة الظهرة:

Gabriel Camps, «Espaces berbéres», *ROMM*, V. 48, 1(1988), p .42 .

ويتحدث لوكيل عن آثار قديمة رومانية لبقايا سور سد أين كان يحفظ مياه ***(l'Oued-Bou- Matà)*** وادي بوماتع.

Y .Loukil, *mazouna.*

كما أنّ شارل إيمانويل ديفورك يذكر أنّ هناك معلومات عن أسقفيات كانت مزدهرة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وخاصة في مينا غليزان في الشمال الغربي للونشريس يراجع شارل إيمانويل ديفورك: **المرجع السابق**، ص-ص.96-97.

1- عارض هذه الفكرة دوماغت (***Demaght***) في كتابه: ***"Notes sur le Dahra occidental"*** يراجع: Moulay Belhamissi, *Mazonna* , p. 21.

2- يتعرض الكاتب الكولينالي الفرنسي فلوغانشي (***Florenchie***) إلى هذه الفكرة في كتابه : " ***Algérie ma province"***، وعن الوجود العسكري الروماني ينظر: Moulay Belhamissi, *Histoire de mazouna*, p. 25.

3- رابح لحسن: **المدن والمراكز العمرانية في التل الوهراني في العصر الروماني**، رسالة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس ، 2004-2005، ص.113.

يؤيد هذا الرأي هو ما ذكره مارمول كاربخال عن تسمية مازونة من قبل بطليموس بمستعمرة الحصن الجديد ،وهي إشارة لدورها العسكري[1].

إلاّ أنّ المؤرخ اللاتيني بلين (*Pline*) يؤكد على أهمية منطقة الظهرة من حيث إنتاجها للقمح والزيت[2]، وهو ما يناقض الرأي السابق، ويقدّم بعدا حضاريا للمنطقة، أمّا البعض الآخر أثبت فرضية مختلفة، واعتبر الآثار المحلية التي تم العثور عليها في هذه الأقاليم دليلا على بعدها البربري المحلي[3]، ولعل ما ذكره شنيتي عن أصل المنطقة الموريطاني السابق للوجود العسكري الروماني يؤيد هذا الطرح، حيث عرفت منطقة ألتافا مثلا تواصل عمرانها وتجدد بنائها على أيدي الموريين أنفسهم بعد سقوط الخطوط الدفاعية الرومانية عنها [4]، منذ نهاية القرن 04م والنصف

1- مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359.

2- *Pline* (بلين) كاتب لاتيني من القرن الأوّل الميلادي، ينظـــر: Moulay Belhamissi, *Mazouna*, p. 28.

3- من الآثار المحلية تلك التي ترجع إلى العصور الحجرية القديمة، والتي تمثلت في بقايا قرية قديمة (*Village Troglodyton*) بكاف العبادية (الحلاف حاليا) ، وهي بلدية تبعد عن مدينة عمي موسى بـــ .13كلم، ومقابر دوليميت (*Dolimite*)، والتي اكتشفت مؤخرا، بالإضافة إلى الرسوم الصخرية في كل من جبل بومنجل ، ومغارة مسراتة بالقلعة، جبل سيدي السعيد بسيدي أمحمد بن علي ومغارة الرتايمية بوادي رهيو ، وكذا وجدت عدة معاذن صناعية تشير إلى فترات مهمة من العصر الحجري منها الباليولتيك ، الباليوسان القفصية ، الأشولية، الموستيرية ، ...وذلك على طول مجرى وادي مينا ومجموعة روافده، وكذا وادي رهيو ينظر:

Replin, *op.cit.*, p.10-11.

وعن آثار ما قبل التاريخ ينظر:

Djilali sari: *op. cit*, p. 32.، ومن بين ما كتب عن الآثار المورية نجد:

Les stations préhistoriques, des plateaux d'El Bordj et de Mostaganem; Moulay Belhamissi, *Mazouna*, p.30-31.

وأيضا رابح لحسن: **المرجع السابق**، ص،ص.113،112،106.

Robert Tinthion, *Les aspects physiques*..., p. 558.

وعن حكم النموديين للمنطقة ينظر.R.Gautier, *op.cit.*, p. 149 ؛

ويرى بلحميسي أنّ المدينة كانت معمورة منذ العهد النوميدي بدليل وجود القبائل البربرية وبالخصوص قبيلة مغراوة ينظر

مولاي بلحميسي: **مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين**، الجزائر: منشورات المجلس العلمي، 2005، ص.03.

Auguste Charbonneau, «Sur deux inscriptions bérbères du Dahra», dans - *BSGAO*, T.IV, (1884), p.8-9; Derrien, «Notes sur les ruines Romaines et Bérbères du bassin de l'oued Rhiou (Recueillies pendant la campagne géodésique de 1883)», dans *BSGAO*, T.XV., (1895), p281-291.

4 -محمد البشير شنيتي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.240.

الأوّل من القرن 05م، ويحتمل أنّها ظلت خاضعة لنفوذ المور طوال العهدين الوندالي والبيزنطي[1]، بحيث اكتسبت شهرتها التاريخية من عهد الملوك المور المتأخرين كمازونا مثلا، ولعل الآثار المتبقية في موقعها يعود معظمها إلى عهد الملوك المحليين الذين توارثوا السيادة على هذه الأقاليم، وما أعمال البناء والترميم الواردة في نقيشة ألتافا إلاّ دليلا واضحا على ذلك[2].

وهو الطرح الذي أثبته الرحالة الإنجليزي الدكتور شو عند زيارته للمنطقة[3]، وكذا غيره من الباحثين والأثريين[4]، فالموقع الذي تتواجد فيه المدينة لديه من مقوّمات الاستقرار البشري ومؤهلات البناء المديني[5]، ما يدعو أن تكون للسكان المحليين سابقية التفكير فيه[6]، لذلك فليس من من المستبعد مع هذه المقاربات الأثرية المتبانية أن يكون لمازونة أصول قديمة سواء محلية بربرية أو رومانية[7].



1- رابح لحسن: **المرجع السابق**، ص.113، وعن احتواء الكيانات المورية للتركة الرومانية، ينظر أيضا يوسف عيبش: **المور والبيزنطيون**، ص.230، وعن الطابع الموري للمنطقة ينظر **نفسه**: ص.250.

2- عن اليقظة البربرية بقيام إمارات مورية مستقلة، ينظر يوسف عيبش: **المور والبيزنطيون**، ص-ص.38-39؛ محمد البشير شنيتي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.240.

3- D. Shaw,M .D., *Voyages de Mons'r Shaw, M .D. (dans plusieurs provinces de la Barbarie et du levant)*,traduits de l'Anglois, T.1 ,A. La Hate chez Jean Neaulme, MDCCXLIIL, p.70.

حيث رفض ما ذهب إليه دابي *(Dappy)* ومارمول عن رومانية مازونة نافيا بقايا المعابد والبنايات الرومانية التي تحدث عنها دابي *(Dappy)* ومارمول.

4- ينظر لهامش الذين تكلموا عن الآثار المحلية(المورية القديمة للمدينة).

5- Djilali Sari, *op.cit.*, p.32.

6- *Ibid.*

7- Moulay Belhamissi, *Mazouna*, p.08.

صورة رقم: 02 (صور بعض البقايا الأثرية القديمة في المدينة وناحيتها)

وللإجابة على إشكال الاستمرارية الحضرية بين الفترة القديمة والفترة الإسلامية الوسيطة للمدينة نقدّم اقتراحا ليوسف عيبش، الذي يعتبر اقتراحا عمليا قد يساعد على توضيح الصورة أكثر، وذلك عندما يتحدث عن نقيشة ألتافا وضرورة توظيف مثل هذه الشهادات إلى جانب الخريطة الأثرية التي تتميز بها هذه المقاطعة، في اقتراح وجود أصالة جغرافية وعراقة سياسية يمكن تتبعها إلى غاية فترة الفتوحات الإسلامية.

ويكفي -حسبه- أن نقوم بترتيب الأحداث التاريخية التي عرفتها المنطقة زمنيا للوقوف على أنّ الأمير ماستيناس أو غرمول أو حتى صولات بن وزمار... لم يكونوا في الواقع إلاّ ورثة لمملكة واحدة، والتي وإن كان يصعب علينا معرفة كل حلقات ومراحل تطورها، فإنّا نعتبر هذه الشخصيات قد عايشت أهم فترات وجود هذه المملكة بل قد يكونوا أهم زعمائها [1].
وبتتبعنا لتاريخ مازونة في العصر الوسيط، سنحاول أن نوضّح أكثر هذا التصور.

3-طبونومية المدينة:



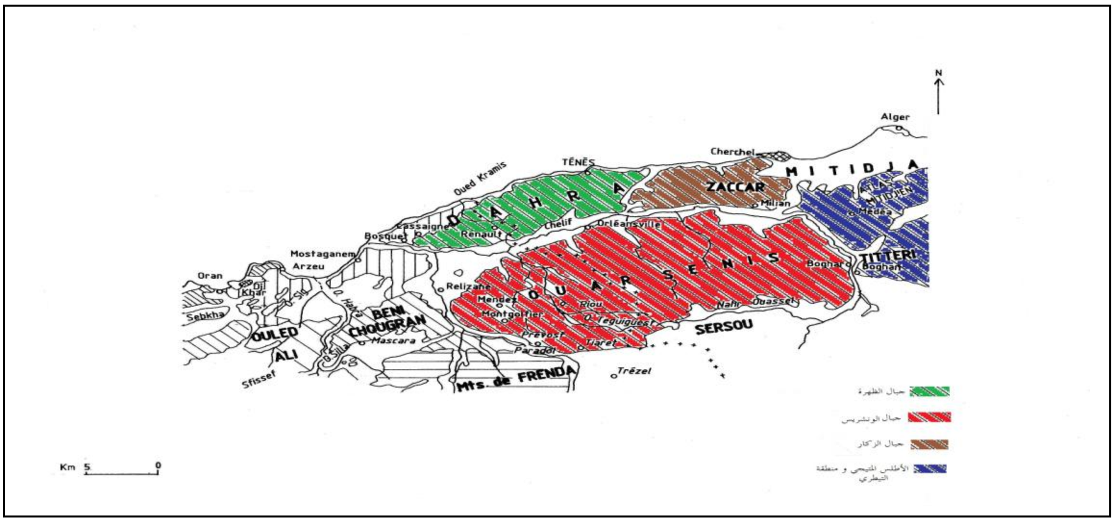
صورة رقم: 03 (منظر عام للمدينة)

لو فرضنا وجود مازونة في هذه الفترة الحرجة-إشكالية هذا الفصل- ولو بصيغة حضرية بسيطة أي في صورة قرية مثلا، إلاّ أنّنا نعجز عن بناء تصور طبونومي واضح ومعاصر لها،

1-يوسف عيبش: **المور و البيزنطيون**، ص.257.

خاصة وأنّ النصوص المتقدمة لليعقوبي (تـــ. 284هـــ/897م) [1]، وابن حوقل (توفي بعد 367هـــ/977م)[2]، والبكري (تـــ. 487هـــ/1094م) [3]، ممن وصفوا جغرافية المنطقة المغربية في القرون الأولى من الفترة الوسيطة، أو بتعبير آخر ممن قدّموا وصفا مسالكيا لأغراض تجارية، مذهبية وسياسية وغيرها يغيب أو يغيّب فيها أي ذكر للمدينة، التي قد لا تكون بتلك الأهمية حتى تفرض منطقها الحضري والمسالكي على رحالة وجغرافي ما قبل الفترة المرابطية[4].

فهل يمكن اللجوء إلى نصوص وسيطة متأخرة أو حديثة بديلة لبعث الصور ة الطبونومية للمدينة؟



1-اليعقوبي: **البلدان**، وضع حواشيه: محمد أمين ضنّاوي، بيروت: دار الكتب العلمية، (منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنّة والجماعة)، 1422ه‍ــ/2002م.

2-ابن حوقل: **صورة الأرض**، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1992م.

3-البكري: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية وبلاد المغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**)، بغداد : مكتبة المثنى ، (د.ت.)

4- فمثلا المقدسي في القرن (الرابع الهجري) يظهر تقسيما معينا لإقليم المغرب ، حيث يظهر أو يحدد مجموعة من الكور ، فمثلا كورة إفريقية من مدنها: «جزيرة بني زغّناية ، متيجة، تنس، دار سوق إبراهيم، الغزّة، قلعة برجمه باغر، يلل، جبل زلا غ...»، وهي المدن الأقرب مجاليا لجغرافية المدينة، ثم يعود ليتحدث عن كورة تاهرت ويجعل من المدن التي تنتمي لها: «جبل تجان وهران شلف طير الغزّة سوق إبراهيم رهباية البطحة الزيتونة تمما يعود الخضراء واريفن تنس قصر الفلوس بحريّة سوق كرى منجصة أوزكي تبرين سوق ابن مبلول رباتاويلت أبي مغول تامزيت تاويلت أخرى لغوا وفكّان...» ، ويظهر أنّ هناك إشكالا كبيرا في صحة هذه التسميات، إلاّ أنّه قد يعبّر عن المجال العمراني بالمنطقة الغربية ينظر المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، علّق عليه ووضع حواشيه : محمد أمين الضّناوي ، بيروت: دار الكتب العلمية ، (منشورات محمد علي بيضون) ، 1424ه‍ــ/2003م، ص.180.

خريطة رقم: 04 (المنطقة الوهرانية)

(Robert Tinthoin, *Les Aspects physiques*, p.119.)

يعتبر الإدريسي والمتأخر عن هذه المرحلة بقرنين تقريبا أول من قدّم تصورا طبونوميا لمازونة المدينة الوسيطة حيث يذكر: «ويلي حوض فروج وهو مرسى حسن وعليه قرية عامرة في البر ومع الشرق مدينة مازونة على ستة أميال من البحر، وهي مدينة بين أجبل في أسفل خندق.»[1].

وهو نفس نص الحميري (08هـ/14م)[2]، والذي لا نشك في نقله التام عن الإدريسي، وبالتالي فطبونومية المدينة الوسيطة بقيت حبيسة نص الإدريسي وإشارة العبدري (07هـ/13م) الذي قلّل من أهميتها بوصفها: «بليدة مجموعة مقطوعة من بعض جهاتها بجرف واد منقطع شبه قلعة...»[3].

كما لم يقدّما نصّا الوزّان ومارمول كاربخال المتأخرين عن الفترة الوسيطة والمعاصرين لبداية الفترة الحديثة أي نظرة مختلفة عن الحالية الطبونومية لمازونة، فالأول يذكر أنّ: «المدينة على بعد نحو أربعين ميلا من البحر تمتد على مساحة شاسعة... »[4]، أمّا الثاني فالمدينة –حسبه-:«تقع بين

1- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص.128؛ أمّا الزهري المزامن لهذه الفترة أي القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي يقدّم وصفا خاصا به للمنطقة التي يضعها ضمن الصقع الأول أي إفريقية، حيث جبال وانشريس ومن مدائنه وفي غربي هذا الصقع في البّر مدينة مليانة ومدينة برشك ، أمّا الصقع الثاني وهو المغرب الأقصى والذي حدّه على ساحل البحر في المشرق من جبل وانشريس، وفي أول هذا الصقع مدينة تنس؛ الزُهري: **كتاب الجغرافية (وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ)** ، اعتنى بتحقيقه: محمد حاج صادق، بور سعيد الظاهر: الناشر مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت.)، ص،ص.113،107.

2- الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، 1980، ص-ص.521-522.

3- العبدري: **ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق** ، **(طبع بعنوان: الرحلة المغربية)**، تحقيق: أحمد بن جدو، الجزائر: نشر كلية الآداب الجزائرية، (د.ت.)، ص.131.

4- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36.

مستغانم وتنس في داخل البلاد، جعلها بطليموس عند ست عشرة درجة من خطوط الطول وثلاث وعشرين درجة وأربعين دقيقة من خطوط العرض.»[1].

وإن كان الوزّان لا يقدّم أي إضافة من هذه الناحية، فالتصور الفلكي القديم لبطليموس والذي ذكره مارمول كاربخال وإن كان يختلف عن الموقع الفلكي الحالي [2]، يطرح تساؤلات عن غياب نصوص جغرافية عربية متقدّمة حول مازونة؟

وما يمكن توضيحه هنا أنّنا لا نستطيع أن نبني جغرافية المدينة في هذه المرحلة –الغامضة– إلاّ من خلال التصور العام الذي تقدمه النصوص الوسيطة المتقدمة والمتأخرة للمنطقة الغربية من المغرب الأوسط، الذي وإن كان مفهومه الجغرافي عرف تطورا مجاليا شرقا وجنوبا بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، إلاّ أنّ ذلك لم يمس مجال مازونة بما أنّها مرتكزة في المنطقة الغربية والتي قدّمها ابن خلدون على أنّها "وطن زناتة" [3]، القبيلة التي شكّلت حقيقة الهوية الديمغرافية للمدينة وللمنطقة التي تنتمي إليها.

وهو التصوّر الذي تحدّد أكثر من خلال كتابات الفترة الاستعمارية عن منطقة التل الوهراني، وما تمّ نشره من كتب لرحالة أوربيين زاروا المنطقة ودوّنوا ملاحظاتهم وشهاداتهم حولها[4]، وبعض

1- مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359؛ إلاّ أنّ الذي لاحظته بين نصي الإدريسي والوزّان حول بعد المدينة عن البحر بين ستة أميال وأربعين ميلا ، يظهر أنّ هناك فرقا واضحا، وأرى أنّ نص الوزان أقرب إلى الواقع الحالي من نص الإدريسي.

2- فهي تقع بين خطي عرض 36,03° و36,07° درجة شمال خط الاستواء، وخطي طول 0,45° و0,53° درجة شرق خط غرينتش، قدور بوجلال: **العلم والعلماء في بايلك الغرب 1711م–1830م (معسكر ومازونة نموذجا)**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، معسكر: المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ ، إشراف: دحو فغرور، صغيري أحمد، 2008–2009م، ص.185.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.2؛ لقد مثّل وطن زناتة الممتد من ملوية غربا إلى وادي الشلف والزاب شرقا ، ومن ساحل شرشال ووهران شمالا إلى إقليم تيهرت جنوبا قبل القرن الخامس الهجري مفهوما جغرافيا لمصطلح المغرب الأوسط قبل أن تقدّم القلعة الحمادية مفهوما آخر له يمتد إلى ما وراء تلمسان غربا وورجلان جنوبا وبونة شرقا ، وهو المفهوم الذي أصبح سائدا بعد ذلك عند الجغرافيين كالإدريسي ينظر الطاهر بونابي : "الدولة المركزية بقلعة بني حماد: التأسيس والتداعي" ، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، ع.07، 1427هـ/2006م، ص.47.

4- عن دوافع الرحالة الفرنسيين ينظر سعيد بنسعيد العلوي : "صورة المغرب في الإستشراق الفرنسي المعاصر" ، **المغرب في الدراسات الإستشراقية**، مراكش: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، 1413هـ/1993م؛ ومن هذه الأبحاث والرحلات المختلفة التي اهتمت بتاريخ المدينة والمنطقة الوهرانية:

الأبحاث المحلية القليلة[1]، خاصة وأنّ مازونة أخذت في فرض أهميتها المدينية أواخر العصر الوسيط وفي الفترة العثمانية خاصة .

-Aramburu Den Joseph De, *Oran et l'ouest Algérien au 18e siécle*, présentation et traduction de, Elkorso et Epalza, Alger, bibliothéque nationale, 1978.

Paris, *d'Alger*, trad, J .Mac.Carthy, -Dr. Shaw Thomas, *voyage dans la régence* 1830. Marlin,

-Grasser N. J. Sénateur, Claude Petit M. M., Rouse Frée, Sdimemg Députés, *Le livre d'or de l'Oranie,* Ed Afrique du Nord, 1925.

- Camile Kehl, *Oran et l'Oranie*.

-Pallary P., *Notices géographiques sur le Dahra Oranie*, Association Française pour l'avancement des sciences, congrés de Carthage, Paris, Secrétariat de l'association, 1896. =

=- Robert Tinthoin, *Les Aspects phisique*.

- Robert Tinthoin, *L'Oranie sa géographie, son histoire, ses centres vitaux*, Oran, Fouqué, 1952.

- Xavier Yacono, *La colonisation des plaines du Chelif* ,2T. Alger, Imbert, 1955.

- Robert Tinthoin, «Les paysages géographiques de l'Oranie», in *BSGAO*, T.58, Tasc 208, 1937, p.203-234.

- A.M.G.H.I.228, *«Notice sur la ville de Mazouna»*, par St Hypolite, le 25 Mars 1871.

-Georges Robert, *Voyages à travers l'Algérie (Notes et Croquis),* Dureau de la malle, *Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger.*

-L. Péchot, *l'Afrique du Nord avant 1830.*

- Lallemand (C.H.), *L'ouest Algérien*, Paris, 1891.

-Geniaux Chartes, «Mazouna», in *Revue des deux mondes*, 1921, p.432-452.

-Louiche René, *Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger (Fragmend d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger fait de 1783 à 1786)*, T.II, Paris, .librairie de gide Editeur des annales des voyages, 1838

- Jacques Berque, «Retour à Mazouna», p.150-151.

فون مالتسان هاينريش: **ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا** ، ج.1، ترجمة: أبو العيد دودو، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م.

1- ومن هذه الأبحاث مثلا:

فتيحة الواليش: **الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر** ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة الجزائر: معهد التاريخ، إشراف: مولاي بلحميسي، 1993م-1994م.

يعتبر الإطار الجغرافي وقطعة الأرض التي تحتلها أية مدينة عاملين مهمين تستمد منهما طابعها وملامحها، فالموقع يفرض طبيعته على شكل المدينة ويقرّر مصيرها[1]، كما أنّ ليوبولدو تورس يرى أنّ تأسيس المدينة هو مجموعة العوامل الطبوغرافية المحلية التي تشكّل المدينة وتؤثر في تخطيطها ونموها[2].

لذلك هل يمكن الحديث عن تأثير جغرافية مازونة على حركيتها العمرانية الوسيطة، والتي رافقت تطورها التاريخي؟ وما مدى انسجام موقعها مع الفكر التنظيري العمراني الإسلامي الوسيط أو الحديث؟

تقع مازونة في السلسلة التي هي نوعا ما رطبة[3]، وعلى ممرات ومعابر ذات أهمية إستراتيجية وإقتصادية، حيث توجد في منطقة جبال الظهرة[4]، على هضبة يقدر إرتفاعها

Y. Loukil, *Mazouna, ancienne capitale du D'ahara*; id., *Du Dahra au Sahara de Mazouna au Djebel Amour*; Moulay Belhamissi, *Mazouna, une petite ville, une longue histoire*; M.Mahdad, *op.cit.*
Atallah Dhina, *Le royaume Abdelouadid à l'époque d'Abou Hammou Moussa 1ère et d'Abou Tachfin 1* ***ère***, Alger, office des publications universitaires, 1985, p.20.

1- عبد العزيز الدولاتلي: **المرجع السابق**، ص.27.

2- ليوبولدو تورس بالباس: **المرجع السابق**، ص.177.

3- يقدّم عطا الله دهينة وصفا حديثا للمنطقة الغربية أو كما أسماها الجزائر الغربية لجغرافيتها الجبلية والسهلية ، فالمنطقة تحوي جبالا لا يزيد ارتفاعها عن (2000م)، وهي لا تكون في سلسلة متصلة بل تفصلها أحواض وسهول السلسلة الأولى، تتكون من جبال الظهرة وزكار (1580م)، وفي الجنوب منها السلسلة الثانية جبال تلمسان وسعيدة والونشريس (1985م)، وهذه المنطقة الغربية تحوي على سهول وهران وسيق وشلف وسيدي بلعباس ومعسكر:

Atallah Dhina, *op.cit.*, p.20.

ويعطي الجيلالي صاري صورة شاملة عن الطبيعة التضاريسية للمنطقة التي تنتمي لها مازونة ، حيث يرى أنّ المدينة ذات الموقع الحصين تقع على حافة واد بوماتع في الشمال الغربي من الجزائر، يراجع أكثر:

Djilali Sari, *op.cit.*, p.13-31.

أما تاتاروا *(Tatareau)* فيقول أنّها تقع في أعالي حوض الشلف واقعة على جبال صغيرة مبنية على أرض ملتوية دينيزن : **الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر**، ص.17.

4- تنتمي جبال الظهرة لسلسلة الأطلس التلي التي تمتد على منطقة شاسعة وتبتدئ من وادي سوس وتتجه نحو الشمال الشرقي مخترقة المغرب الأقصى والأوسط حتى جبال خمير في إفريقية ، حيث تتشكل من كتل جبلية تمتد من زكار إلى غاية مصب وادي شلف في هذه المنطقة الجبلية، وتمتاز هذه الجبال بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية والأحواض الجنوبية المنعزلة بين الأطلس التلي والأطلس الصحراوي وبخاصة في القسم الغربي من المغرب الأوسط، يراجع فاطمة بلهواري : **النشاط**

بـــ.500م فوق سطح البحر، تشرف من الجنوب الغربي على سهول وادي الرهيو [1]، الجافة نسبيا، وفي الجنوب الشرقي على سهول الشلف الأكثر رطوبة[2]، وهي على الحافة اليمنى لوادي واريزان[3] الذي يصب في وادي شلف، ويفصلها عن البحر جبل حلواتة (819 م)[4].

الاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري/10م، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي الوسيط ، وهران: جامعة وهران السانيا، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، إشراف : عبد الحميد حاجيات وغازي مهدي جاسم الشمري، 2004م-2005م، ص.5؛ وهي عبارة عن سلسلة جبال منحدرة تمتد من سواحل تنس إلى مصب الشلف، حيث تقع مازونة فوق منحدر هذه جبال؛ هاينريش فون مالتسان: **المرجع السابق**، ج.1، ص.231؛ فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.39؛ ويتوسع روبار تينتوا *(Robert Tinthoin)* في التعريف بجبال الظهرة يراجع:

Robert Tinthoin, *Les Aspects phisique*, p. 348-351, 557.؛

يحي بوعزيز: "المقاومة في جبال الونشريس وحوض الشلف وجبال الظهرة ضد الاستعمار الفرنسي 1840م-1864م."، **مجلة الأصالة** ، ع.83-84، ص-ص.2-3.

1- سهول وادي رهيو: وادي الرهيو كان يسمى أنكرمان *(Inkermann)* وأصبح فيما بعد *(Oued Rhiou)*، والذي يبعد عن غليزان بـــ.44كلم، و إن كانت هذه التسمية مستعملة في الفترة الوسيطة أيضا ينظر:

Jacques Berque, «Retour à Mazouna», p. 152.

وعن وادي الرهيو ينظر أيضا Robert Tinthoin, *Les Aspects phisique*, p.196.

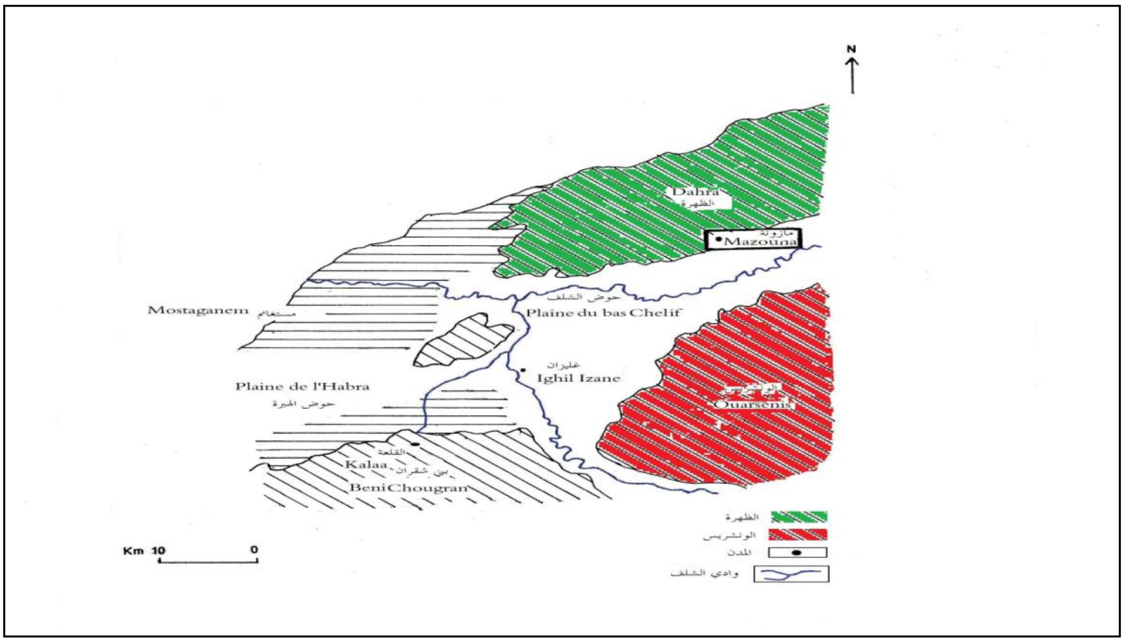
2- سهل الشلف *(Chelif)*: وهو البسيط الممتد فيما بين مدينة مستغانم ومدينة الجزائر ، ويقال لهذا البسيط أيضا وادي شلف وعن سهل شلف أو وادي شلف يراجع:

Djilali Sari, *op.cit.*, p.13; Moulay Belhamissi, *op.cit.*, p.13.

فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.38.

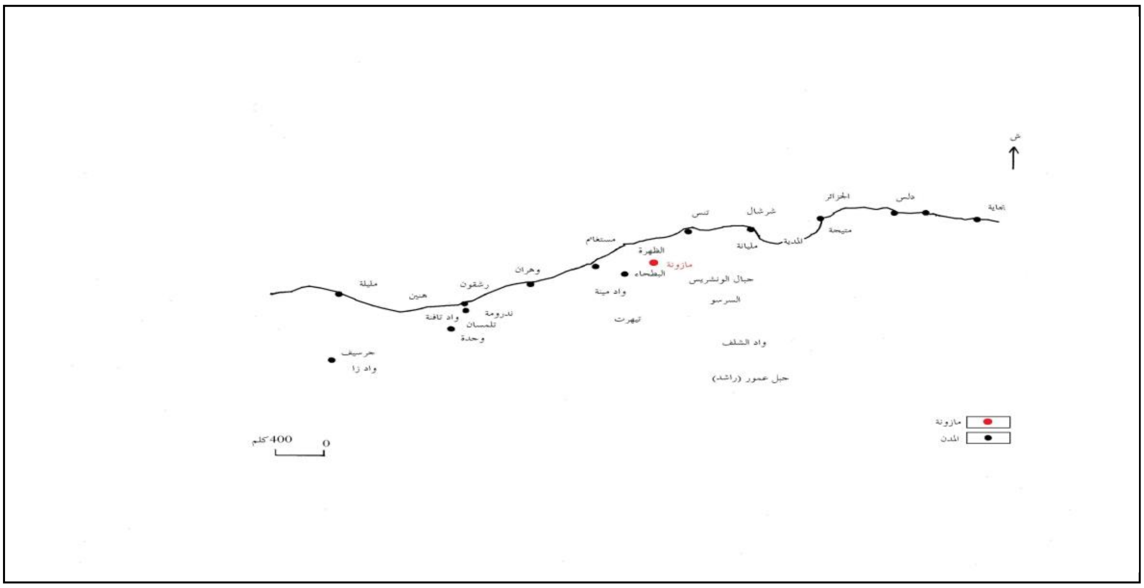
3- وادي واريزان: يصب في وادي شلف يراجع فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.47.

4- جبل حلواتة: عن هذا الجبل يراجع Djilali Sari, *op.cit.*, p. 13.



خريطة رقم: 05 (مازونة والمنطقة الوهرانية)

Djilali Sari, *op.cit.* Tinthoin, *Les Aspects physiques* , p.345.)
(, p.15; Robert



خريطة رقم: 06 (خريطة عامة)

وللإجابة على الإشكاليات السابقة لابد أن ندرك أنّ التحولات السياسية التي عرفتها المنطقة الغربية من المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط أثّرت على ظاهرته المدينية بإفرازها

تحولات وجّهت نموها العمراني، فالهيكل العمراني يتحرك باستمرار مارا بأوضاع وأطوار متعددة تحت سيطرة الظروف السياسية بوجه خاص.



صورة رقم: **04** (المدينة العتيقة)

II-البيت الخزري المغراوي والمجال الشلفي:

1-القبيلة والمجالية الجغرافية:

1-1-التوطين الزناتي:

يطرح الانتماء الجغرافي لمازونة العديد من الإشكاليات المفاهيمية حول تركيبته البشرية في القرون الأولى من الفترة الوسيطة، التي يصعب معها وضع خارطة ديمغرافية ثابتة، وهو الأمر الذي يوضّحه جورج مارسي *(Georges Marçais)* عندما يتحدث عن صعوبة وضع خريطة لبلاد المغرب في القرن التاسع الميلادي وخصوصا للمغرب الأوسط الذي يفصل المجال الأغلبي عن الأدارسة[1]، وإن كان ألفرد بيل يخصّ هذا الغموض فقط للبدوي الرحّال الذي لا يعرف أبدا الحدود المستقرة في المناطق التي كان يرعى فيها قطعانة[2].

لقد ارتبطت هذه الصفة بالبربري الزناتي الذي شكّل مجالا ديمغرافيا للمغرب الأوسط الوسيط[3]، لكن مع الغموض الذي يطرحه عدم استقرارها نتساءل عن حقيقة التوطين الزناتي ببلاد

1- جورج مارسي: **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة: محمد عبد الصمد هيكل، راجعه واستخرج نصوصه: مصطفى أبو ضيف أحمد، الإسكندرية: منشأة المعارف، 1991، ص.117.

Georges Marçais, «la Berbérie au IXe siècle d'après El-Yaquoûbî», dans *RA*, 387, LXXXV (1941), p.42-44. -386

وهو ما يراه محمد بن عميرة الذي يقول أنّه لا يمكن تحديد مواقع زناتة بنفس الدقة التي يحدد بها الموقع الجغرافي لقبيلة صنهاجة مثلا، لأنّ زناتة غير مستقرة في مكان ما بل رحالة على العكس من صنهاجة، ولهذا يكون الكلام عن الوضع الجغرافي لزناتة تقريبيا، وإن كان أكثر الزناتيين يسكنون المغرب الأوسط يراجع محمد بن عميرة : **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص-ص.17-18.

2 -ألفرد بيل: **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي-من الفتح العربي حتى اليوم-** ، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط.3، 1987، ص.41؛ حيث يرى أنّ الجو هو الذي فرض هذا التوزيع لسكان الشمال الإفريقي زمن منذ زمن بعيد جدا بين مستقرين (زراع)، ونصف بدو (زراع ورعاة)، وبدو (رعاة) تبعا للمناطق، وهو الذي أدّى إلى ما هنالك من اختلاف كبير جدا في كثافة السكان من بقعة إلى بقعة، **نفسه**: ص.41.

3- وحول هذا الموضوع يراجع دراسة هامة:

Bulliet Richard W., Desaive Jean-Paul, «Botr et Bernès, Hypothèses sur l'histoire des Berbères», in *AESC*, 36ème année, 1(1981), p.104-116.

Gautier E.F., *Le passé de l'Afrique du Nord (les siècles obscurs)*, Paris, Bibliothèque historique, Payot, 1937, p.215-243.

المغرب وبصفة خاصة بالمغرب الأوسط؟ وإن كانت الأمور مختلفة عند محمد حسن الذي يرى بأنّ تقسيم القبائل البربرية إلى بدو رحل (البتر) ومستقرين (البرانس) يحوي على كثير من العناصر الخيالية والمخطئة، فصنهاجة التي يتم ذكرها ضمن البرانس تنقسم في الحقيقة إلى مستقرين في القبائل الكبرى ورحل عل الإبل في الصحراء (صنهاجة اللثام)، وكذلك زناتة المنقسمة إلى بدو السباسب العليا بالمغرب وسكان الواحات المستقرين[1].

إلاّ أنّه لا يقدم توضيحات كثيرة بخصوص هذا التمركز المجالي الزناتي البدوي أو المستقر في الفترة الوسيطة.

كما أنّنا لا نستطيع أن نحدد الأساس الذي اعتمدته النصوص الوسيطة في التعريف بمواطن زناتة خاصة، فعندما يتحدث اليعقوبي عن أرض زناتة المنتمية للمجال الغربي من مدينة أوزكا، نجده يعدد مواطن بطون هذه القبيلة في إفريقية والمغرب الأوسط[2].

أمّا ابن حوقل الذي يعترف بصعوبة إحصاء القبائل البربرية يحدد توطين زناتة بمجاورة العديد من مدن إفريقية (قسطيلية، قفصة، نفطة، الحامة، سماطة، بشرى، وأهل جبل نفوسة)، بالإضافة إلى قرية جرتيل، وإن كان يعتبر من أكثر النصوص الوسيطة المتقدمة دقة بما أنّه يصنف القبائل الزناتية إلى زناتة الخلص وهي من صميم زناتة، وعصبة زناتة التي تتألف من لواتة ومزاتة، والقبائل المتحالفة أو الملحقة بزناتة[3]؟

1- محمد بن حسن: **القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط**، تونس: دار الرياح الأربع للنشر، (المطبعة العربية التونسية ، بنعروس)، 1986م، ص-ص.11-12.

2- اليعقوبي: **المصدر السابق**، ص،ص.191،190،185-198؛ حيث نلاحظ استعماله لمصطلح أرض زناتة: «ومن مدينة أوزكا لمن سلك مغربا إلى أرض الزناتة، ثم يصير إلى سجلماسة بعد أن يسير سبع مراحل أو نحوها على حسب الجد في المسير والتقصير ومسيرة في قرى ليست بآهلة وفي بعضها مفازة...».

3- ابن حوقل: **المصدر السابق** ، ص،ص.94،86-103؛ وعن تعدد مواطن زناتة بالبلاد المغربية ينظر البكري: **المصدر السابق**، صفحات متفرقة؛ اليعقوبي: **المصدر السابق**، ص-ص.188-189؛ ابن سعيد: **الجغرافيا**، حققه ووضع مقدمته وعلّق عليه: إسماعيل العربي ، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، 1970، ص.127؛ المقدسي: **المصدر السابق** ، ص، ص.186،180؛ مؤلف مجهول (ينسب لابن عبد ربه الحفيد) : **الاستبصار في عجائب الأمصار (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب)** ، نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد ، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة للطباعة والنشر آفاق عربية ، (د.ت.)، ص-ص.155-157.

في حين الإصطخري اكتفى بناحية تاهرت كوطن لزناتة [1]، وآخر يوطّنها بين تلمسان وتاهرت أو ما بين تاهرت إلى فاس[2].

كما أنّ التضارب يرد حتى في النص نفسه حول مناطق انتشار هذه القبيلة، فمثلا هناك من يربط مجالاتها بين تاهرت إلى فاس، ثم يذكر في موضع آخر بأنّها نزلت بقرب جبال الأوراس[3]...إلخ.

ويعتبر نص ابن خلدون المتأخر بأربعة قرون تقريبا عن هذه الفترة أكثر النصوص شمولية بخصوص التوزيع الزناتي ببلاد المغرب الوسيط ، حيث يذكر: «...مواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، ومنهم قوم بالتلول بجبال

1- الإصطخري: **المسالك والممالك**، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني ، مراجعة: محمد شفيق غربال ، القاهرة: دارالقلم، 1961، ص.36.

2- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص-ص.111-112؛ ابن عبد الحليم : **كتاب الأنساب (ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي–المصادر الأندلسية–)** ، دراسة وتحقيق: محمد يعلي، مدريد: الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي ، (المجلس الأعلى للأبحاث العلمية) ، 1996م، ص.51؛ أمّا ابن عذاري المراكشي يحدّد مواطنها بجوفي تيهرت : «وبجوفيها (تيهرت) مطماطة وزناتة.»، وأيضا عن القبائل الزناتية المنتشرة بين تلمسان وتيهرت حيث يسكن بنو مرين وتجين ومغراوة وبنو راشد وورنيد وغيرهم، ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (تاريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري)** ، تحقيق ومراجعة: ج. س.كولان، وإ.ليفي بروفنسال، ج.1، ط.3، بيروت: دار الثقافة، 1983م، ص، ص.25،200؛ أمّا ابن العربي في شواهد الجلّة فيحدد مواطنها بـــ: «ونزل أجانا –أبو زناتة– بوادي الشلف...ونزل بنو ورتجين ومغراوة بأطراف إفريقية من جهة المغرب... »، وأظنّه يقصد بنو توجين وليس بنو ورتجين ، ابن العربي: **كتاب شواهد الجلّة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان (ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي –المصادر الأندلسية–)**، دراسة وتحقيق: محمد يعلي، مدريد: الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي ، (المجلس الأعلى للأبحاث العلمية) ، 1996م، ص.368؛ أمّا الزهري فإنّه يحدّد مواطن زناتة بإفريقية (الصقع الأول) ، الزُهري: **المصدر السابق**، ص.107؛ أمّا صاحب الحلل الموشية فإنّه يحدّد نطاق تلمسان وتاهرت كمواطن للقبائل الزناتية، مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** ، تحقيق: سهيل زكار ، عبد القادر زمامة ، الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع ، 1399هـــ/1979م، ص.186.

3- ابن عبد الحليم: **المصدر السابق**، ص،ص.51،38.

طرابلس وضواحي إفريقية وبجبل أوراس والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنّه ينسب ويعرف بهم فيقال وطن زناتة ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى.»[1].

وتأتي إشارة وطن زناتة لتوضّح العلاقة التي ربطت المغرب الأوسط بهذه القبيلة التي شكّلت هرم وقاعدة الحدث السياسي بالمنطقة في مختلف العصور الوسيطة، وعلى الرغم من ذلك فمواطن زناتة الأصلية تبقى غامضة[2]، وإن كان عبد الوهاب بنمنصور يرى أنّها بصحراء المغرب ما بين غدامس إلى وادي الساورة، ثم انتقلت جماعات منهم إلى التل لتستوطن المغرب الأوسط، وتملأ

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.2؛ وفي تعريف ابن خلدون للمغرب الأوسط ذكر بأنّه يتكون من تلمسان وبلاد زناتة ، وهي إشارة إلى تواجد قبيلة زناتة بكثرة في المغرب الأوسط ؛ ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (طبع باسم=**

=**رحلة ابن خلدون)**، عارضه بأصوله وعلّق حواشيه: محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1370هـ/1951م، ص.370.

2- يرى غوتييه *(Gautier)* أنّ الوضعية الجغرافية لزناتة واضحة فهم يسكنون حسبه الصحراء والجنوب التونسي وضواحي الأوراس، والهضاب العليا والسهول الممتدة غرب منطقة القبائل إلى الشلف:

ويفسر غوتييه خاصية الزناتيين في الاعتماد الدائم على حياة التنقل والترحال ، بكون الموقع الجغرافي الذي كانوا يضربون فيه خيامهم لم يسمح لهم بالاستقرار، ينظر :

E.F. Gautier, *op.cit.*, p. 222.

و يراجع إبراهيم القادري بوتشيش: **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس (خلال عصر المرابطين)** ، بيروت: دار الطليعة، 1998م، ص.24.

؛ أمّا أرنست مارسي *(Ernest Mercier)* فحدّد مواطنها غرب طرابلس والجريد إلى غاية تلمسان، كما أنّها تغطي المنطقة الممتدة من الأوراس ووادي ريغ والزاب والهضاب العليا لجبل راشد (جبل عمور) ومنطقة الونشريس.

Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'histoire des berbères d'Ibn Khaldoun*, Constantine, L.Marle, Libraire-Editeur, Alger, Juillet-Saint-Lager , Paris, Challam, libraire–Editeur, p.46.

كما أنّ زناتة قد شردت في الصحاري على يد صنهاجة وأنصارها بعد خروج الفاطميين إلى مصر ، وعن هذا الموضوع، ينظر فاطمة بلهواري: "معارضة محمد بن خزر المغراوي للوجود الفاطمي في بلاد المغرب الأوسط" ، **مجلة عصور**، سيدي بلعباس (الجزائر): مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، السنة 02، ع.03، 1423هـ/2003م، ص.113.

سهوله وجباله، حتى سمي وطن زناتة[1]، أمّا بوتشيش فيختلف مع الأوّل حيث أنّه يحدد مواطن أقدم المجموعات الزناتية في النواحي الشمالية والشرقية خاصة تلمسان إضافة إلى منطقة تامسنا[2].

يأتي هذا التضارب ليوضّح لنا أنّ بداية التوطين الزناتي، إن كان بالصحراء أو بالتل تبقى من الأمور الغامضة التي يصعب تحديدها، فالحركة المجالية للقبائل البربرية كانت منذ الفترات القديمة، وهي ليست وليدة العصر الوسيط[3].

اعتبرت إحدى الدراسات الحديثة أنّ زناتة في أغلب مراحل القرون الأربعة الأولى مجتمعا بدون أرض[4]، وذلك لعدة عوامل ساهمت في بعثرة التواجد الزناتي في البلاد المغربية، و في عدم وضوح مجالية انتشارها بالمغرب الوسيط [5]، وهو ما عبّر عنه جاك بيرك (*Jacques Berque*) بظاهرة التشتت القبلي، فأسماء المجموعات القبلية حسبه تتكرر هنا وهناك في المجال الجغرافي المغربي كله، وهذا التكرار يجعل عملية تشخيصها على الخريطة من العمليات الصعبة أو المستحيلة[6].

يرى محمد القبلي أنّ من أبرز الثوابت الممتدة عبر تاريخ الرقعة المجالية للغرب الإسلامي في الفترة الوسيطة، أنّ العصر كله هو عصر تحركات بشرية متقلبة شديدة التنوع، بمعنى أنّ كل طرف من الأطراف المجالية المكوّنة لهذه الرقعة المترامية الأطراف قد تأثرت بمجموعة من التحركات المتباينة[7].

1- عبد الوهاب بنمنصور: **قبائل المغرب**، ج.1، الرباط: المطبعة الملكية، 1388هـ/1968م، ص.311.

2- إبراهيم القادري بوتشيش : **مباحث في التاريخ الاجتماعي** ، ص.25؛ ويراجع أيضا مارمول كاربخال : **المصدر السابق**، ج.1، ص.90.

3- حيث يرى ابن عبد الحليم أنّ سكان المغرب الأقصى هم من أهل المغرب الأوسط ، ابن عبد الحليم : **المصدر السابق**، ص.54.

4- فاطمة بلهواري: **النشاط الاقتصادي**، ص.30.

5- محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.17-18.

6- جاك بيرك: "في مدلول (القبيلة) بشمال إفريقيا"، **الأنتربولوجيا والتاريخ (حالة المغرب العربي)**، ترجمة: عبد الأحد السبتي و عبد اللطيف الفلق، ط.2، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة-دار توبقال للنشر، 2007م، ص.117.

7-محمد القبلي:"حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد"، **جوانب من تاريخ المجال والسكان المغرب)** ، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1998، ص.75؛ وعن طبيعة هذه التحركات يراجع أيضا محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.18.

فمثلا في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي عرفت زناتة هجرة واسعة من المغرب الأوسط نحو المغرب الأقصى تحت ضغط الفاطميين، مع ما ينبني على ذلك من تغيير في البنية السكانية والسياسية[1]، فامتدت مواطنهم من تاهرت إلى فاس، ثم بدأوا في التسرب نحو المغرب الساحلي عبر ممر تازة، وكوّنوا إمارات في كل من سلا وتادلا وأغمات وفاس، وتضاعفت أعداد الوافدين الزناتيين خلال الصراع الذي دار بين الكيانات الزناتية نفسها، قصد الحصول على الدعم البشري، وهو ما يفسّر حسب بوتشيش وجود العديد من البطون الزناتية في المنطقة الشمالية [2]، وقبائل تفتت فاندمجت بقاياها في تجمعات قبلية أكثر استقرارا، مساهمة بذلك في تغييرها[3].

كما كانت للأزمة الديمغرافية التي عرفتها بلاد المغرب بعد ثورة أبي يزيد، ومجاعات نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي تأثيرها في زحف التشكيلات القبلية المستقرة بالصحراء وبتخومها خصوصا زناتة[4].

1-2-مازونة: مدينة مغراوة؟

على الرغم من أنّ زناتة كانت تشكل شبكة قبلية معقدّة ومتحرّكة، إلاّ أنّ توطّنها للمنطقة الغربية من المغرب الأوسط -اعتمادا على المفهوم الجغرافي لما بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي- يعتبر من الأمور المتفق عليها نصّيا، ولا نعدم في نفس الوقت احتمال وجود انتماءات إثنية أخرى قد تشكل رفقة زناتة هوية المنطقة الديمغرافية -قبل نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي-، ولعل التضارب السابق حول حكم مازونا (في القرن السادس الميلادي) لمور وروما ن المنطقة الوهرانية يحدّد أبعادا إثنية أخرى لهذا المجال، فهل ساهم الفتح الإسلامي في بناء تغيير اجتماعي بالمنطقة بفرض حصول اندماج بين عناصره البشرية؟

H .Tauxier, «étude sur les migrations des tribus berbéres avant l'islamisme», *RA*, Alger, T.07, 37-38 (1836).

1- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص،ص.235،232؛ ابن عبد الحليم: **المصدر السابق**، ص.54.

2- إبراهيم القادري بوتشيش: **مباحث في التاريخ الاجتماعي** ، ص.25؛ وينظر أيضا فاطمة بلهواري : **النشاط الاقتصادي**، ص.21.

3- هشام جعيط: **تأسيس الغرب الإسلامي (القرن الأول والثاني الهجري/السابع والثامن الميلادي)** ، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2004م، ص.156.

4- علاوة عمارة: مدينة الجزائر، ص.76.

أم أنّ الحكم القبلي الزناتي المغراوي[1] الذي ساد هذا المجال ساهم في فرض هذا المنطق، وبالتالي تغييب عناصر إثنية وقبلية أخرى أقل كثافة؟

للإجابة على هذه الإشكاليات لابد أن ندرك بأنّ النصوص الوسيطة المتقدمة خاصة لا تعطينا أي إجابة بخصوص التوزيع الديمغرافي للمدينة في هذه الفترة، وعلى الرغم من أنّ نص الإدريسي (القرن 06هـــ/12م) هو أوّل من قدّم جغرافية مازونة الوسيطة، إلاّ أنّنا لا نستطيع أن نحدّد من خلاله أي صورة عن التركيبة البشرية للمدينة فهو يتحدث عن أصناف من البربر كانت تجتمع في سوقها [2]، فمن هم هؤلاء البربر؟ هل هم نفسهم البطون الزناتية التي حدّد مواطن انتشارها بين مدينة تلمسان وتاهرت[1]؟

1- مغراوة: تنتسب إلى مغراو بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن ألديرت بن جانا هذا الأخير هو الجد الذي تنتسب إليه قبائل زناتة عموما ، ومغراوة أخوة بني يفرن وبني يرنيان ، ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.24؛ أمّا عند صاحب الأنيس المطرب فإنّه يعرف نسب مغراوة ويفرن بأنّهما ابنا يصليتن بن سيري بن زاكيا بن ورسيج بن جانا بن زناتا ، ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ، تحقيق ومراجعة: عبد الوهاب بنمنصور، ط.2، الرباط: المطبعة الملكية، 1420هـــ/1999م، ص.131؛ وحول نسبة مغراوة لزناتة يراجع ابن عبد الحليم: **المصدر السابق**، ص-ص.50-51؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.7-8؛ ابن الخطيب: **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام)** ، تحقيق وتعليق: أحمد مختار العيادي ، محمد إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء: دار الكتاب للنشر=

=والتوزيع، 1964م، ص.153؛ وحول الحكم القبلي المغراوي، يراجع ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.24؛ مؤلف مجهول: **كتاب مفاخر البربر(ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي- المصادر الأندلسية-)** ، دراسة وتحقيق: محمد يعلي، مدريد: الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي (المجلس الأعلى للأبحاث العلمية) ، 1996م، ص.185؛ ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص.66؛ الزياني: **دليل الحيران**، ص-ص.53-54؛ الراشدي: **المرجع السابق**، ص.50؛ كما أنّه قد وردت إشارات عن إحتمال تطابق تسميتي مغراوة وشعب المكوريت الموري القديم (Maccuritas) وهي إحدى شعوب موريطانيا، وقد نسبه ديهل(Diehl) إلى موريطانيا القيصرية استنادا إلى معطيات تاريخية ، حيث أنّ البشير الشنيتي حاول أن يثبت هذا الاحتمال عندما يذكر أنّ مغراوة هي مكورتييه (Maccuritas) أو مخروسييه (Makhrusiens)، التي أشارت إليها النصوص القديمة.

محمد البشير الشنيتي: **المرجع السابق**، ج.2، ص،ص.514،438،437؛

كما أنّ الإسباني ج.دي بيكلار تحدث عن شعب المكوريت(Maccuritae)، والتي يرجح أنّها نفسها قبيلة مغراوة في النصوص العربية ؛ يوسف عيبش : **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية** ، ص-ص.242-243؛ يوسف عيبش : **المور والبيزنطيون**، ص.270؛ وعن إشارات التسمية القديمة لمغراوة عند الكتاب اللاتينيين (Les Makhrusiens des auteurs Latins)، يراجع:

E.F. Gautier, *op .cit.*, p.223. .

وهو الغموض نفسه الذي رافق الكتابات المتأخرة عن القرن 06هــ/12م، ماعدا نص ابن خلدون (القرن 08هــ/14م)، والذي يقدّم صورة عن المجالية القبلية المغراوية وأصل تواجدها بالمنطقة الشلفية، فيذكر: «وبقيت قبائل مغراوة متفرقة في مواطنها الأولى بنواحي المغربين وإفريقية بالصحراء والتلول والكثير منهم بعنصرهم ومركزهم الأول بوطن شلف وما إليه...»[2].

وعلى الرغم من ذلك يبقى مجال مغراوة الديمغرافي واسعا ومتفرقا في البلاد المغربية الوسيطة، فعجزنا السابق عن توضيح مناطق التوطين الزناتي يتفق مع عجزنا الحالي في بناء خارطة ديمغرافية واضحة لمغراوة[3]، وإن كان غوتييه (*Gautier*) يعتقد أنّ "قلب بلاد مغراوة" يجب البحث عنه في سهل شلف، غير أنّهم كانوا ينتشرون في الهضاب العليا حتى الصحراء [4]، فآخر يتحدث عن عدم وجود معلومات واضحة عن مكان استقرارهم في السهول والواحات ويتساءل ما إذا ظلّوا طبقة عسكرية مهيمنة على القبائل التي غزوها، أم أنّهم استوطنوا الأراضي الخصبة وجلبتهم حياة الاستقرار[5]، فالأكيد أنّ المجتمع القبلي المغراوي في الفترة الوسيطة ظلّ خاضعا في ديناميته وحركيته التي يترع إليها إلى ضغط الجغرافيا، والحراك السياسي المتغير بالمنطقة.

كما تساءل الأستاذ ديفورك (*CH.E. Dufourque*) عن هذه التسمية و القبائل الجبلية لمرتفعات الونشريس.

CH.E.Dufourque, «Berberie et Iberie mediévales, une probléme de repture», *Revue historique*, 1968, p .296.

ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.63.

كما يرى سعيد دحماني أنّ مغراوة التي كانت بالمنطقة الممتدة من الشلف إلى غاية جبال تلمسان بالمنطقة التي كانت منتشرة بها مملكة ألتافا (*Altava*)؛ Said Dahmani, *op .cit.*, p. 324.

ويتحدث عطا الله دهينة عن مواقع مغراوة في الجبال المحيطة بمليانة وتنس إلى غاية مصب الشلف،

Atallah Dhina, *op.cit.*, p.45.

2- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص-ص.128-129.

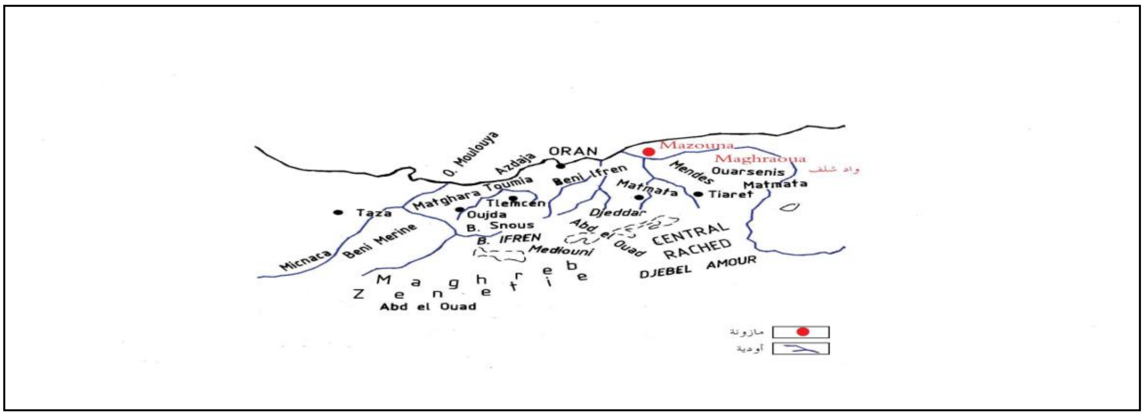
1- **نفسه**: ص.111.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.63

3- فصاحب الأنساب يرى أنّ مغراوة قد نزلت قسطيلية، ونزل بعضهم صدينة، ابن عبد الحليم: **المصدر السابق**، ص.38؛ في حين ابن سعيد يرى أنّ مجالات مغراوة تكون على نهر شلف، ابن سعيد المغربي: **المصدر السابق**، ص.141.

4- E.F. Gautier, *op. cit.*, p.223.

5- إبراهيم القادري بوتشيش: **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص.26.



خريطة رقم: 07 (قبائل المغرب الأوسط الزناتي حسب غوتييه)
(E.F. Gautier, *op. cit.*, p.219.)

ولعل ما فرضته هذه القبيلة في ممارساتها السياسية بالمنطقة والسابقة للوجود الإسلامي من خلال ما تداولته النصوص الوسيطة لرواية إسلام أميرها صولات بن وزمار على يد الخليفة عثمان بن عفان (ض)[1]، يفسّر أهمية الضغط الديمغرافي المغراوي لا من حيث التركيبة البشرية، بل من حيث الدور السياسي، وهو ما عبّر عنه أحد الباحثين بعهد السيادة الزناتية الأول[2]، والذي فصله عن ظهورها الثاني مجال الحكم القبلي الصنهاجي الجنوبي والمصمودي، ومساهمتهما في تغيير وتدعيم التركيبة البشرية للمنطقة الغربية من المغرب الأوسط.

2- الحراك السياسي في المجال الشلفي حتى بداية الفترة المرابطية (القبيلة والسلطة):

إنّ مرحلة الفتح وتنظيمها في المغرب (منتصف القرن الأول -أواخر القرن الثاني الهجري/ 650م-800م) تطرح لدى المتتبع للتغيرات السياسية التي عرفتها المنطقة الزناتية خاصة تلك

1- اختلفت المصادر في اسم هذا الزعيم المغراوي فبين: خزر بن صيفي بن صولات بن وزمار المغراوي ، حرب بن حفص بن صولات بن وازمار ابن مغراو، خزر بن حفص بن صولات بن وزمار أو مغراو، خزر بن صولات، ينظرابن عبد الحليم: **المصدر السابق**، ص-ص.77-78؛ ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، ص.153؛ التنسي: **تاريخ دولة الادارسة (من كتاب نظم الدر والعقيان)**، تحقيق وتقديم: عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص.53؛ مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص.131؛ ابن عذاري المراكشي : **المصدر السابق**، ج.1، ص.252؛ ويتحدث ابن خلدون عن الأمير وزمار بن صولات جد بني خزر وإسلامه على يد عثمان بن عفان (ض) حيث منّ عليه وأطلقه وعقد له على قومه أو وصوله وافدا، يراجع ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.24؛ كما يتحدث ابن أبي زرع عن إسلام زناتة وذلك سنة ثمانين للهجرة ، ابن أبي زرع: **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (أو الدرة السنية في تاريخ الدولة المرينية)** ، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص.17؛ مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص.185.

2- إبراهيم القادري بوتشيش: **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص.26.

المتعلقة بانهزام البيزنطيين وإسلام الأمير المغراوي صولات بن وزمار ، صعوبة في فهم تراجع السيادة القبلية المغراوية بعد إسلامها المبكر [1]، أمام زعامة أوربة البرنسية وجراوة البترية [2] لحركة المعارضة ضد عمليات الفتح الإسلامي، فالأولى التي قضت على حملة عقبة بن نافع سنة 64هـ/683م ساهمت في تكوين أوّل إتحاد قبلي مغربي في مجالات واسعة طيلة خمس سنوات (65هـ-69هـ/684م-688م)[3]، أمّا الثانية فقد تمكنت من الانتصار على جيش حسّان بن النعمان، رغم أنّه كان قائدا لأكبر جيش وصل المغرب حتى ذلك الوقت[4].

لقد دلّت هذه المقاومة على رفض البربري الزناتي للاندماج المبكر، متخذة من التنظيم القبلي لقبائل المغرب الأوسط البعيدة عن مركزية القيروان نقطة ارتكاز أساسية في تحركها [5]، واعتبارا لجدلية الصراع القائم توصلت القبائل المشاركة إلى تخطي مرحلة الإتحادات القبلية المحلية والسيطرة على مجالات شاسعة في محاولة لتوحيدها، لكن افتقار هذه المرحلة لإيديولوجية واضحة حال دون ذلك [6]، وهو ما توفر في مرحلة ثانية بعد انتشار المذهب الخارجي في بلاد المغرب، وبداية تشكيل إمارات مستقلة خلال القرن الثاني الهجري[7].

1-2- مغراوة الشلف والوجود الصفري:

1- يدعو سعيد دحماني إلى الاعتماد على المصادر القديمة والوسيطة للتمكن من فك غموض الحكم المحلي للمنطقة المغربية في بداية الفتح الإسلامي.

Said Dahmani, *op. cit.* , p. 317.

2- جراوة البترية تسكن جبال الأوراس؛ ويحدد الباحث علاوة عمارة في مقاله ابن خلدون والبربر دور جراوة السابق لدور بني يفرن ومغراوة، يراجع:

Allaoua Amara, «Ibn Khaldoun et les Berbéres», *Revue des lettres et sciences humaines*, 07 (2006), p.15-16.

3- محمد بن حسن : **القبائل والأرياف**، ص-ص.71-72؛ Said Dahmani, *op.cit.* , p.323-326. وعن كسيلة الأوربي (تـ.686م) والكاهنة (تـ.700م)، ينظر:

Gabriel Camps, «Comment la berbérie est devenue le Maghreb arabe», p. 11-12.

4- يطرح الباحث علاوة عمارة هذه الإشكالية أي إشكالية البحث في الفترة الإسلامية الأولى في مقاله التالي علاوة عمارة: "أبو المهاجر دينار بين الروايات العربية والقراءات الغربية"، ص.31.

5- E.F. Gautier, *op .cit.* , p.281-283, 289-298.

6- محمد بن حسن: **القبائل والأرياف**، ص.75.

7- في أواسط القرن الثاني (نهاية القرن الثامن الميلادي) كان المذهب الخارجي قد أدّى الدور المنوط به بعد أن مكّن المغاربة من انتزاع استقلالهم الذاتي ، دون أن يزودهم بالدولة القومية التي كانوا يطمحون إليها ؛ Said Dahmani, *op.cit.* , p.317.

يفسّر أحد الباحثين تحركات القبائل المغربية المعادية للسلطة القيروانية برفضها لسمات الإقطاع التي بدأت تتجلى منذ القرن الأوّل الهجري، فقد اعتنقت الأفكار الخارجية للمطالبة برفع النظام الجبائي المفروض عليها من قبل ممثل نظام الخلافة بالقيروان، ورغبتها في تسيير شؤونها [1]، فتعود المجتمعات البربرية على نمط الحياة المستقلة الرافض لنظام الدولة المركزية ساهم في تكريس تبنيها لمذاهب المعارضة الخارجية.

يمكن اعتبار أنّ تبني قبائل المغربين الأقصى و الأوسط للمذهبية الصفرية راجع للتناسب الحاصل بين تصلب مبادئ هذه الأخيرة، وقوة الدفع في بداية هذه الحركات[2]، التي اختلفت رؤى بعض الباحثين حول مسبباتها ، فهل هي مجرد حركة دينية تدخل في إطار الصراع المتواصل بين الفرق في العالم الإسلامي، أو أنّها حلقة من حلقات النزاع بين العرب والبربر، أو كونها حركة زناتية بترية معادية للبرانس الموالين للسلطة العربية[3].

1-يرى عبد الله العروي أنّ هذه المنطقة أو كما أسماها بمغرب الوسط كانت ذات أسبقية في الممارسة السياسية المستقلة ، حيث أقيمت في القرنين السابقين إمارات ، فوجدت بالتالي هناك قيادات سياسية محنكة تستطيع أن تنظم المقاومة ، عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.139، وهل اعتناق رأي الخوارج يشير إلى عزم شيوخ البربر على إحياء إمارات مغرب الوسط كما تساءل عبد الله العروي ؟

2-محمد بن حسن: **القبائل والأرياف**، ص-ص.78-79.

3 -يرفض هشام جعيط رأي غوتتيه *(Gautier)* في اعتبار أنّ الحركة البربرية الخارجية كانت من نصيب زناتة دون غيرها ، هشام جعيط : **تأسيس الغرب الإسلامي** ، ص-ص.176-177؛ وعن أسباب هذه الثورة ينظر عبد الله العروي : **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.141-143؛ كما أنّ محمود إسماعيل يختلف مع غوتييه *(Gautier)* في ربط الثورة بزناتة ، فهو يعتقد بأنّ المجال البربري كان أوسع ؛ في حين يرى محمد بن عميرة أنّ زناتة لعبت أكبر دور في ثورات الخوارج الصفرية منذ بداياتها وإن كانت ليست الوحيدة بل كانت هناك قبائل بترية أخرى وبرنسية أيضا مثل هوارة وصنهاجة ، محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص،ص.91،76،75.

- موسى لقبال : **المغرب الإسلامي من بناء مُعسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج** ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1981م.

- محمود إسماعيل عبد الرزاق : **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري** ، ط.2، الدار البيضاء: الشركة الجديدة للنشر والتوزيع-دار الثقافة، 1406هـ/1985م.

- عبد العزيز فيلالي : **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب** ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م.

ومن بين النصوص الوسيطة التي تناولت هذه القضية ، الرقيق القيرواني: **تاريخ إفريقية والمغرب (قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأوّل إلى أواخر القرن الثاني الهجري)** ، تحقيق وتقديم: المنجي الكعبي، تونس: الناشر رفيق السقطي، 1968م، ص-ص.142-145.

وإن كنّا نعتقد بأنّ جل هذه التفسيرات تفتقد لنظرة شمولية، فإنّه من الخطأ حسب أحد الباحثين ربط هذه الحركة الخارجية بفصيل بربري دون الآخر، ففحص النصوص الوسيطة –حسبه- يؤكد المشاركة الكثيفة والشاملة لكل البربر فيها ، فظهور ثورات مثل حركة ميسرة السّقاء (نحو سنة 122هــ/740م)[1]، خالد بن حميد الزناتي (123هــ/741م)[2]، عبد الواحد الهواري [3]، عكاشة الفزاري [4]، وأبي قرّة اليفرني (150هــ/767م)[5] الصفرية ساهمت في دخول المغرب كله في دوامة الانتفاضة والرفض، والتي وإن عرفت بداياتها محدودية في المجالية الجغرافية، حيث اختارت أقصى البلاد المغربية لبعدها عن مركز السلطة القيروانية[6]، وتمكنت من فرض توجهاتها على المجتمعات القبلية الريفية المنتشرة بها، فإنّها ضمّت فيما بعد فضاء مجاليا وإثنيا مغربيا واسعا.

لقد تميّزت هذه الحركات بالتغييرات المتتالية على مستوى قياداتها، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة –حسب محمد حسن- هشاشة المؤسسات الخاصة بالثورة، بقدر ما يقترن بفعالية هذه القبائل في كل مرحلة، وهو ما يقدّم تفسيرا لتراجع الدور الزناتي أمام الزعامة الهوارية المسيطرة على البلاد الممتدة من الأربس إلى الزاب[7]، الأمر الذي يؤكدّه ابن خلدون عند حديثه عن حركة هذه الأخيرة:«فثارت هوارة ومن تبعهم من البربر.»[8].

لقد جاءت هذه الحركة لتفرض استقلالية الممارسة السياسية لقبائل المغربين الأقصى والأوسط عن مركزية حكم الخلافة بإفريقية –حيث أصبحت لا تضم سوى جناحها الشرقي-

---

1- ميسرة السّقاء: تختلف مجموعة من الروايات حول أصل هذه الشخصية التي قادت ثورة 121هــ/738م فهل هو من أصل عربي كما ذهبت إليه إحدى الروايات التي نسبته إلى قبيلة الأزد ، أم أنّه من قبيلة مطغرة البربرية ، كما اختلفت حول لقبه بين ميسرة الحقير اشتغاله بالسقاية في سوق القيروان ، والذي لا شك فيه أنّ ميسرة كان سيد قومه وشيخ قبيلته فابن خلدون يدعوه " رئيس مطغرة" والسّلاوي يصفه "مقدم الصفرية"، وينظر أيضا الرقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص.109.

2- خالد بن حميد الزناتي : وهو الصفري الوحيد الذي تمكن من الحاق هزيمتين كبيرتين بجيوش الخلافة الأموية في غزوة الأشراف على وادي شلف وغزوة بقدورة على وادي سبو ينظر محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.91.

3- عبد الواحد الهواري الذي تزعمت قبيلته الثورة، وتمكنت من الانتصار على جيش الخلافة بجبل أوراس.

4- عكاشة الفزاري الذي يمثل مصالح إثنيات أخرى غير البربرية.

5- أو أبو قرة المغيلي الصفري بقي 40 سنة يسلم عليه بالخلافة وملك كثيرا من بلاد المغرب.

6- محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.67.

7- محمد حسن: **الجغرافيا التاريخية**، ص.91؛ محمد بن حسن: **القبائل والأرياف**، ص.84.

8 - ابن خلدون: **العبر**، مج.6، ص.111.

وتقدم تغييرا عميقا في بناءه السياسي ميّزه ظهور كيانات قبلية وأسروية صغرى، انتهت بالتمزق والسقوط في النزاعات القبلية والطائفية[1].

ويبقى إشكال الحضور المجالي الشلفي في التناول الحدثي الوسيط خاصة في القرون الثلاثة الأولى يفرض دائما الدراسة المجالية الواسعة للمنطقة التي تنتمي إليها، فنحن أمام نصوص متأخرة مرحليا عن هذه الأحداث، وبالتالي نجد أنفسنا نتخبط في عموميات حدثية خاصة بهذا النطاق الغربي من المغرب الأوسط.

فهل يمكن الحديث عن حضور ديمغرافي صفري واسع بالمنطقة الشلفية ساهم في هزيمة جيش الخلافة الأموية في موقعة الأشراف بوادي الشلف (123هـ/740م-741م)[2]؟ وهل أثّرت استقلالية هذه الجهات عن مركزية الحكم القيرواني في إبراز خصوصية السلطة المغراوية مثلا؟ ما دور مغراوة في هذا الصراع، وهي التي والت بني أمية بعد إسلام زعيمها صولات بن وزمار منذ بدايات عمليات الفتح الإسلامي؟

لا تشير النصوص إلى الوجود المغراوي ضمن القبائل البترية التي واجهت جيش الخلافة الأموية، فهل يمكن تفسير ذلك بعدم شمولية الوجود الصفري على الأقل في المناطق التي حكمتها مغراوة ؟ وهل واقعة الأشراف تؤكد تراجع السيادة المغراوية الأولى -التي تحدثنا عنها سابقا- في هذه الجهات أمام نفوذ أطراف زناتية أو قبلية أخرى؟

وتبقى هذه التساؤلات منطقية ، خاصة عندما نجد أنّ نصوصا كثيرة تفسر الصراع الصنهاجي -الزناتي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بالولاء الزناتي لأموي الأندلس.

2-2-بين الإمارة الإباضية والإدريسية:

2-2-1-في الأسطوغرافية الرستمية:

1- إبراهيم القادري بوتشيش: **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006م، ص.87؛ هشام جعيط : **تأسيس الغرب الإسلامي** ، ص-ص.136-187،137-188؛ محمود إسماعيل : **الخوارج**، ص.80؛ محمد بن حسن: **القبائل والأرياف**، ص.87؛ ألفرد بيل: **المرجع السابق**، ص-ص.148-149.

2- عن غزوة الأشراف التي سمّيت كذلك لأنّ من قتلوا فيها كانوا من حماة العرب وفرسانها وأبطالها ، الرقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص،ص.113،111،110؛ ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.53-54.

إنّ عدم تمكّن المذهب الصفري من تحقيق مشروعه وفرض منطقه في بناء دولة مستقلة بالمنطقة، بحكم تأسيسهم لكيانات صغرى فقط انتهت بالتمزق والسقوط [1]، والضعف الذي مسّه حسب أحدهم جعل قبيلة زناتة تتفاعل مع الحركة الإباضية التي قامت فيها بدور لا يقل أهمية عن الدور الذي مارسته في الصفرية[2].

في الحقيقة لا يمكن الحديث في هذه الفترة عن طبيعة السلطة التي مارستها القبائل في المنطقة الشفلية خاصة، فالإشارات النّصية الوسيطة عن مشاركتها كمعطى قبلي لا توضّح كثيرا الحراك الذي كان عليه هذا المجال.

فعندما يتحدث ابن الصغير مثلا عن محاولة أفلح بن عبد الوهاب الرستمي لتقليص الوطئة القبلية بين لواتة وزناتة ومطماطة المشكّلة للنسيج الديمغرافي الفاعل في المنطقة الغربية، التي لم يضمن ولاءها التام للدولة الرستمية، حيث كانت و بتعبير ابن الصغير أيضا تسعى إلى ملاطفة أو محاولة التقرب من أفلح بن عبد الوهاب لقطع الطريق أمام منافسيها من القبائل [3]، لا يمكن أن نحدد من خلاله علاقة جغرافية هذا التوطن بالمجال الشلفي خاصة.

ونفس المشكل يطرح في ولاية أبي حاتم الرستمي أيضا حيث : «مات أبو اليقظان وابناه جميعا غائبان يقظان بالموسم، وأبو حاتم قد كان أخرجه أبوه في جيش مع وجوه زناتة، ليجيروا قوافل قد أقبلت من المشرق وفيها أموال لا تحصى قد خافوا من قبائل زناتة.»[4].

إنّ هذا النص صريح في دلالته على الخطر الذي يهدد التجارة من قبل زناتة المنطقة [5]، التي على الرغم من الثقل الذي مارسته في هذه النواحي، إلاّ أنّنا نجدها لا تشارك في بعض الأحداث

1- إبراهيم القادري بوتشيش: **حلقات مفقودة**، ص.87.

2- يرى هشام جعيط أنّ قيام إمارات منشقة إمّا خارجية أو التي أسّسها آل البيت امتصت حدة البربر الخوارج ، يراجع هشام جعيط: **تأسيس الغرب الإسلامي**، ص-ص.187-188؛ و يراجع أيضا محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.92.

3- ابن الصغير : **أخبار الأئمة الرستميين** ، تحقيق وتعليق: محمد ناصر ، إبراهيم بحاز ، المطبوعات الجميلة ، 1986، ص-ص.54-55؛ وعن شخصية أفلح بن عبد الوهاب ثالث الأئمة الرستميين (208هـ-258هـ/823م-871م)، يراجع أبو زكريا: **سير الأئمة وأخبارهم (المعروف بتاريخ أبي زكريا)** ، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، الجزائر: إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، 1399هـ/1979م، ص-ص.85-89.

4- ابن الصغير : **المصدر السابق**، ص.91؛ وعن فتن أخرى في عهد أبي الحاتم، ينظر **نفسه**: ص-ص.94-95؛ و عن شخصية أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان الإمام الرستمي السادس (281هـ-294هـ/894م-906م)، محمد بن عميرة : **المرجع السابق**، ص-ص.134-136.

5- **نفسه**: ص.136.

الهامة الأخرى بالمنطقة كالفتنة التي تحدث عنها ابن الصغير في عهد أبي بكر الإمام الرستمي، والتي انتهت بتولية أبي اليقظان للإمامة الرستمية [1] -والذي كانت تربطه بزناتة علاقة حسنة في آخر أيامه على الأقل- إلاّ أنّه لا يمكن معرفة إن تبنت المذهب الإباضي، حيث لم يوضح ابن الصغير ذلك[2].

أثارت هذه الوضعية الغامضة انتباه أحد الدارسين، وجعلته يطرح العديد من التساؤلات المنطقية، خاصة وأنّ قبيلة بهذا الانتشار الواسع بالمنطقة لا يمكن أن يبرر تهميشها إلاّ إذا كان عدد الزناتيين الذي شاركوا في أحداث هذه المرحلة قليلا لدرجة أنّه اندمج في القبائل الأخرى الكثيرة العدد مقارنة بها، أم أنّها انقسمت على الأطراف المتنازعة، فلم تعد لها قوة تلفت نظر الملاحظين، ومن ثم لم تسجل أخبارها، فهل تعمد الرواة الذين نقل عنهم ابن الصغير ذلك[3]؟

ويظهر واضحا هنا أنّ "الإمام الرستمي" بالنسبة لقبائل الحدود البعيدة عن تاهرت، كان رئيسا دينيا ودليلا روحيا، وليس رئيسا عسكريا، ولا أميرا عليها، فالرستميون لم يكن لهم نظام إداري وعسكري في مستوى النظام الأغلبي حتى يؤسسوا ثغورا -حسب أحد الدراسيين- [4] .

وهنا يمكن معرفة أسباب هذا التغييب للمجالات الجغرافية الأخرى في الأسطوغرافية الرستمية وغيرها.

2-2-2- الأدارسة والظهور المغراوي الجديد:

يلاحظ مع بدايات المرحلة الإدريسية بالمنطقة عودة ظهور قبيلة مغراوة وبيتها الخزري وتأثيرها في الحراك السياسي بتلمسان والمنطقة، حيث ساهم الأمير المغراوي محمد بن خزر في إنهاء

1- عن هذه الفتن ، ينظر ابن الصغير: **المصدر السابق**، ص-ص.74-76؛ جودت عبد الكريم يوسف : **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية** ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984، ص-ص.66-67؛ محمد بن عميرة : **المرجع السابق** ، ص.134؛ وعن الفتن التي كانت في عهد أبي بكر وأبي حاتم الرستميين، ينظر **نفسه:** ص.156.

2- ابن الصغير: **المصدر السابق**، ص-ص.74-76.

3- محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.ص.134-135.

4- **نفسه:** ص.137؛ ويرى رشيد بورويبة أنّ الإمام الرستمي يعتبر رئيسا روحيا وزمنيا ، يراجع رشيد بورويبة: الحضارة في عهد الرستميين، **الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني)** ، تعريب: محمد بلقراد، الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة-المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص.104.

إمارة أبي قرة الصفري-الذي قام بنقل مركز ثقل نشاط الصفرية من إفريقية إلى المغرب الأوسط بعـــد تكوين إمارته بتلمسان- والإعلان عن مرحلة زناتية جديدة في المنطقة[1].

ويأتي استيلاء إدريس بن عبد الله (تـــ. 177هـــ/793م) على تلمسان الخزريـــة سنة 173هـــ/789م حسب الشاهد النّصي التالي: «فلما استوسق له الملك، وتمت دعوته...ثم زحف في سنة ثلاث وسبعين إلى تلمسان، وبها أميرها محمد بن خزر المغراوي فخرج إليه مبايعا مطيعا، فأمنّه وأبقاه أميرا بتلمسان...»[2].

ليقدّم لنا تصورا عاما عن طبيعة العلاقة التي كانت بين الأدارسة والخزريين أو السلطة القبلية الخزرية الزناتية التي استمرت حتى الوجود الفاطمي بالمنطقة[3]، حتى وإن تعددت احتمالات تفسيرها بين من أرجعها إلى عجزها عن مواجهة الجيـــش الإدريسي[4]، أو الاستسلام أمام وجاهة البيت النبوي الشريف[5].

1- يرى محمود إسماعيل عبد الرزاق أنّ الذي قضى على الصفرية يزيد بن حاتم الذي قدم إلى المغرب سنة 155هـــ/622م، يراجع محمود إسماعيل عبد الرزاق: **الخوارج في بلاد المغرب**، ص.80؛ و يراجع **نفسه**: ص-ص.76-77؛ ويلاحظ محمد بن عميرة أنّ نشاط زناتة في الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الرابع الهجري كان محدودا وذلك راجع حسبه إلى أنّ الحروب التي خاضتها منذ بداية الفتح الإسلامي أتعبتها، فكان لابد لها من راحة تستعيد بها أنفاسها، و لم تعد زناتة إلى نشاطها العادي إلاّ بعد قيام الدولة الفاطمية ينظر محمد بن عميرة : **المرجع السابق**، ص.156؛ ويراجع أيضا **نفسه**: ص-ص.90-91.

2- التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة**، ص-ص.24-25.

3- محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.141-142، وعن هذه العلاقة يراجع **نفسه**: ص-ص.155-156؛ يرى ابن خلدون أنّ إدريس بن عبد الله لما فرّ إلى المغرب الأقصى وأجارته أوربة ومغيلة التي قامت بدعوته ودعوة بنية من بعده لثبت دعوة إدريس وبنيه من أهله بعده في زناتة مثل بني يفرن ومغراوة ، ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.10؛ السلاّوي: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري، محمد الناصري، ج.1، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954، ص،ص. 157، 172-173 .

وهناك من يعتبر أنّ يفرن ومغراوة قبيلتان إباضيتان ، كما أن استقبالهم لإدريس يدل على طبيعة العلاقة بين الأدارسة والإباضية يراجع جودت عبد الكر يم يوسف : **العلاقات الخارجية**، ص.184؛ أمّا موسى لقبال يرى أنّ محمد بن خزر بن صولات الزناتي مغراوة وبني يفرن على طاعة إدريس ، موسى لقبال: "زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط" ، **مجلة الأصالة**، ع.26، السنة 04، 1395هـــ/1975م، ص.93.

4- السلاوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.157.

5- جورج مارسي: **تلمسان**، ص.15.

وهو الوضع الذي سيكون له تأثيرات بارزة على المنطقة الشلفية التي تظهر الأسطوغرافيـــة الخاصة بهذه الفترة أنّ بداية التفاعل الحاصل لهذه الجهة مع الأدارسة كانت مع حملة إدريس بـــن إدريس[1]، حيث: «انتظمت لإدريس بن إدريس كلمة البربر وزناتة، و محى دعوة الخوارج منهم، واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين مـــن لدن السوس الأقصى إلى وادي شلف .»[2]، لتصبح فيما بعد تابعة للسليمانيين [3]، وإن كان لا يعنينا تفسير سهولة أو عدم سهولة هذه المبايعة لإدريس الأول أو الثاني وحتى لبني سليمان.

إلاّ أنّ السبب الذي تحدّث عنه أحد الباحثين يثير عندي تساؤلا عن طبيعة الوضعية المذهبية عند ساكنة المنطقة التي ينتمي لها مجال مدينة مازونة في تلك الفترة، والذي يرى أنّ أكثرية سكان تلك الجهات كانوا على المذهب الزيدي [4]، الذي عرف نجاحا في وسط المجتمعات الحضرية، في حين لقي معارضة من طرف المجتمعات الريفية الفلاحية المعتادة على رفض السلطة المركزية،

1- يشير أبو عبد الله التنسي إلى المنطقة الشلفية عند حديثه عن فتوحات إدريس بن إدريس الذي وصلت جنوده إلى شلف ليملك المغرب الأقصى والأوسط ويقطع منه دعوة العباسيين ، التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة** ، ص-ص.40-41؛ ويراجع **نفسه:** ص-ص.65-66؛ محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.144-147،145-148.

2- السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.171.

3- نسبة لسليمان بن عبد الله بن الحسن الذي نزل تلمسان قادما من المشرق في عهد أخيه إدريس بن عبد الله يراجع ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.25؛ التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة** ، ص-ص.65-66، فعندما يتكلم التنسي عن دولة السليمانيين في المغرب الأوسط، وهم بنو سليمان بن عبد الله الكامل أخوة الأدارسة يشير أيضا للمنطقة الشفلية ، وذلك عندما استدعي محمد بن سليمان ابن عمه إدريس للاستعانة به على البلاد المشرقية ، فدوخوا بجيوشهم شلفا وما وراءه إلى أحواز بجاية ليرجع إدريس إلى بلاده ويترك المغرب الأوسط بيد ابن عمه محمد بن سليمان ، **نفسه:** ص-ص.42-66؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.172-173.

4- يرى محمود إسماعيل عبد الرزاق أنّ سهولة فتح إدريس الأول لتلمسان يرجع لكون الكثير من سكانها كانوا على المذهب الزيدي من ناحية ولأنّ قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية رحبت بزناتة المغرب الأقصى التي اندرجت في جيش إدريس من ناحية أخرى، محمود إسماعيل عبد الرزاق : **الأدارسة (172هـ-375هـ) حقائق جديدة** ، القاهرة: مكتبة مدبولي ، 1411هـ/1991م، ص،ص.62-146،63-147؛ أمّا جورج مارسي فإنّه يرى أنّ طيلة القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بقيت تلمسان مركزا تابعا لأدارسة فاس، وقطب إشعاع لتأثيرهم الديني عبر أرياف المغرب الأوسط، جورج مارسي: **تلمسان**، ص.15؛ أمّا موسى لقبال فإنّه اعتبر حوض الشلف من بين المناطق التي تلقت تأثيرات علوية حسبه ، حيث لاحظ أنّ أغلب المراكز العلوية كانت توجد في غرب ووسط البلاد أي في إقليم تلمسان وحوض الشلف وفي سهل متيجة ، وأقلّها موزع هنا وهناك، موسى لقبال: زناتة والأشراف الحسنيون، ص،ص.96،93.

والمستعدة للثورة دفاعا عن حريتها، وهذا ما وجدته في أفكار تيارات الخوارج [1]، في حين آخر يتحدث عن انتشار ملحوظ لأفكار المعتزلة والواصلية بنواحي تاهرت، واعتناق أقسام من المجتمعات الريفية المنتمية لبطون زناتة ومزاتة لها [2]، إلاّ أنّه يمكن ملاحظة تركيبة مختلفة في منطقة المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري بين إباضية وصفرية وواصلية ومعتزلة وزيدية[3]، لكن على الرغم من ذلك لا يمكن تبيّن حقيقة هذه الوضعية المذهبية المختلفة، إن كانت موجودة بالمجال الشلفي أيضا، أو أنّ ساكنة هذا المجال كانت تعيش وضعا مختلفا، كأن تكون على المذهب السنّي الذي تحدثت عن انتشاره بهذه الجهات بعض النصوص الوسيطية[4].

2-2-3- بين الوجود الإدريسي(السليماني)-الرستمي:

1- علاوة عمارة: "انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط -الجزائر - قراءة سوسيولوجية"، **مجلة آفاق الثقافة والتراث**، دبي: قسم الدراسات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، السنة 14 ،ع.56، 1427هـ/2007م، ص.26.

2- إبراهيم القادري بوتشيش: **حلقات مفقودة**، ص.87؛ أمّا عبد الكريم غلاب فيرى أنّ المعتزلة لم ينفذوا إلى المغرب ، خاصة وهو مذهب معقد أكثر فلسفة من مذهب الخوارج البسيط، وهو مذهب فكري أكثر منه سياسي يراجع عبد الكريم غلاب:= =**قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي -مغرب الأرض والشعب- عصر الدول والدويلات** ، ج.1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص-ص.249-250؛ ويرى محمد الطالبي أنّ جانبا كبير ا من هذه المغرب الإسلامي يشكل في القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع الميلادي فسيفساء شاسعة محيّرة يكاد تشعبه وعدم استقراره وتشابكه يتحدى الإدراك ، وقد اصطبغت هذه الفسيفساء بألوان مذهبية-دينية متعددة كانت تتسم بكثير من المكعبات العلوية وحتى المعتزلية أحيانا من نزعة واصل الناشزة، وقد كانت تبدو تائهة في هذا الوضع لسبب غير واضح وبفعل سخرية الأقدار ، لكن اللون المتفوق حسبه كان حزب الخوارج المنتشر في نواحي ممتدة الأطراف ومتقطعة ينظر محمد الطالبي : **الدولة الأغلبية التاريخ السياسي** (**184**هـ-**296**هـ/**800**م-**909**م)، تعريب: المنجي الصيّادي ، مراجعة وتدقيق : حمّادي الساحلي ، ط.2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1415هـ/1995م، ص-ص.397-398.

3- عن واصلية زناتة يراجع محمد بن عميرة : **المرجع السابق**، ص.128؛ و أيضا الدرجيني: **طبقات المشائخ بالمغرب**، حققه وقام بطبعه: إبراهيم طلاي، قسنطينة: مطبعة البعث، ص.57؛ أبو زكريا: **كتاب سير الأئمة وأخبارهم** ، ص.67؛ موسى لقبال: زناتة والأشراف الحسنيون ، ص-ص.96-97؛ أمّا بوزياني الدراجي فيرى أنّ العصبية القبلية -وإن كانت تفتقر إلى التلاحم والتماسك اللازمين- فقد هيمنت على النزعة المذهبية التي كانت تتسم في ذلك الوقت بالضعف وعدم الوضوح وعليه فلم يستحوذ جوهر ذلك المذهب على القلوب بالقدر الكافي ، ممّا أضعف دوره في مساعدة العصبيات المتحالفة على تحقيق التلاحم المطلوب يراجع الدراجي بوزياني: **دول الخوارج والعلويين (العصبية القبلية أثرها في قيام الدول وسقوطها ونشاط الحضارة وأفولها في بلاد المغرب والأندلس)**، ج.1، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2002، ص.25.

4- حيث يرى ابن حزم أنّ جمهور بني مغراوة وبني يفرن كانوا سنية ، ابن حزم: **جمهرة أنساب العرب**، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر ، بيروت: منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، 1418هـ/1998م، ص.498.

لقد تدخلت عوامل عديدة في الاحتكاك الحاصل بين الأدارسة و الرستميين الإباضية، خاصة وأنّ دولتهم ارتبطت في قيامها وتوسعها بخوارج المغربين الأقصى والأوسط، كما أنّ التخوم الشمالية الغربية المحاذية للدولة الرستمية -والتي ساهمت مصاهرة عبد الرحمان بن رستم لسكانه من بني يفرن الزناتيين في توطيد نفوذه داخلها- عرفت الامتداد الإدريسي، فكانت سببا لنزاع هذين الطرفين، إلى أنّ تأكد ضمّه للأدراسة في عهد إدريس الثاني منذ 199هـ/814م[1].

وبطبيعة الحال فقد كانت تلمسان ومضيق تازة وأعالي شلف تمثل منافذ هامة تخدم المشروع السياسي-الإدريسي الطموح في التوسع شرقا[2]، كما أنّ هذه المناطق ذات الحدود المائعة جدا كما عبّر عنها أحد الباحثين [3]، كان للقبائل البدوية والمنتشرة بهذه الجهات دورا هاما في استمرارية ذلك التماس[4]، لكن كيف كان وضع المنطقة الغربية والشلفية خاصة في هذه الفترة ومع هذا الاحتكاك؟

في الحقيقة لقد استمر السليمانيون في متابعة هذه السياسة الإدريسية مما أدّى إلى تكوينهم لنظام الإمارة-المدينة، أو إقطاعات الأسياد العلويين التي لم تضف عليها أية صلة بين شخص وآخر في عدة مناطق بهذه الجهة، وعلى الخصوص بحمزة ومتيجة والخضراء ومليانة (مدكرة)، أرشكول، جراوة، تنس وغيرها [5]، ويظهر واضحا أنّ غالبيتها كانت مرتبطة بالمجال الشلفي الذي يصفه اليعقوبي في القرن 3هـ/9م (زار البلاد المغربية بين سنتي 263هـ/876م و276هـ/889م)

1- يرى جودت عبد الكريم يوسف أنّ إدريس الثاني إتبع سياسة سابقيه ، بحيث لم يتعرض للرستميين بما يعكر العلاقة بينهم ، جودت عبد الكريم يوسف: **العلاقات الخارجية**، ص.184.

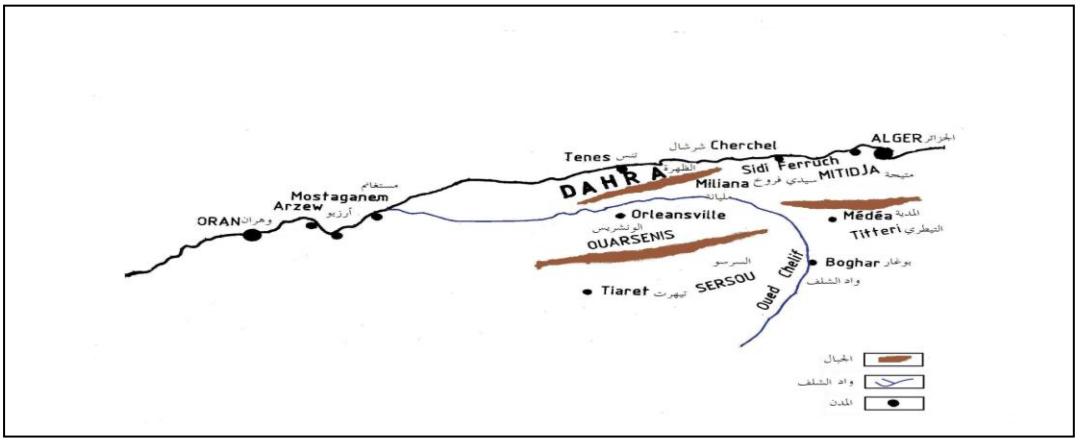
2- محمود إسماعيل عبد الرزاق : **الأدارسة**، ص،ص.130،63-131؛ وعن الاضطرابات التي كانت بالمنطقة في العهد الإدريسي ينظر السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص،ص.196،191،190.

3- محمود إسماعيل عبد الرزاق: **الأدارسة**، ص-ص.130-131.

4- يشير محمد بن عميرة إلى الدور الذي تحملته زناتة في العلاقة الرستمية -الإدريسية، فقد فشلت في إرغام بني رستم على الدخول في طاعة الأدارسة مثلها ، حيث حاربت زناتة الرستميين لما امتنعوا عن الدخول في طاعة الأدارسة ، محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.150-152؛ جودت عبد الكريم يوسف : **العلاقات الخارجية**، ص.188؛ موسي لقبال: "زناتة والأشراف الحسنيون"، ص.96.

5- محمد الطالبي: **الأغالبة**، ص.399؛ اليعقوبي: **المصدرالسابق**، ص،ص.191،192،196،197،198؛ وينظر أيضا ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص.65؛ التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة**، ص،ص.38-65،53-68.

بكثرة العمارة[1]، وإن احتفظ بنو رستم ببعض المدن الساحلية الأخرى المجاورة كمرسى الدجاج ومرسى فروخ[2]، (هذا الأخير غير بعيد عن مجال المدينة كما أشار إلى ذلك الإدريسي) [3]، وإن كان هناك من قال بعدم تأسيس الرستميين للمدن على حدود إمارتهم [4]، فوجود إمارة الهواريين بني مسالة بقلعة هوارة (تاسقدالت) القريبة من المجال الجغرافي لمازونة، (والتي تقع في الطريق بين تاهرت والساحل)، لم تقم إلاّ بعد نشوب الفتنة بينهم وبين الإمام عبد الوهاب الرستمي[5].



1- محمد الطالبي: **الأغالبة**، ص-ص.645-646، و الذي يرى أيضا أن أحفادا آخرون لمحمد بن سليمان حكموا عدة مدن أخرى في وادي شلف ، حيث تكاثروا فتسمت البلاد باسمهم ؛ ويراجع أيضا اليعقوبي : **المصدر السابق**، ص.197؛ التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة**، ص-ص.65-66.

2- عن مرسى فروخ وتبعيته للرستميين ينظر النص التالي : «وكان عبد الرحمان بن رستم يتولى إفريقية وصار ولده إلى تاهرت فصاروا إباضية ورأس الإباضية، فهم رؤساء إباضية المغرب، ويتصل بمدينة تاهرت بلد عظيم، ينسب إلى تاهرت في طاعة محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم والحصن الذي على ساحل البحر الأحمر ترسى به مراكب تاهرت يقال له مرسى فروخ...»، اليعقوبي: **المصدر السابق**، ص.192؛ ويراجع أيضا محمود إسماعيل عبد الرزاق: **الأدارسة**، ص.146

3- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص.128.

4- محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.137 .

5- عن هذه الإمارة ينظر اليعقوبي : **المصدر السابق**، ص.195؛ الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.26، وهي التي يحدد جورج مارسي موقعها عند جبل أوكدال (Oukedal)، غير بعيد عن قلعة بني راشد (الواقعة على بعد 20كلم جنوب محطة السكة الحديدية لهلّيل) حاليا، يراجع هامش الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.26؛ الحميري: **المصدر السابق**، ص. 470؛ وأيضا:

Georges Marçais, «La berbérie au IXe siecle », p.57; Lucien Golvin, *Le Maghreb central à l'époque des Zirides,recherche d'archéologie et d'histoire* ,Paris, arts et métiérs graphiques,1957, p.134.

والذي يرى أيضا أنّ قلعة هوارة هي التي أصبحت تعرف باسم قلعة بني راشد ؛ الدراجي بوزياني: **دول الخوارج والعلويين**، ص.86.

خريطة رقم: 08 (موقع سيدي فروخ)
(Albertini E. Marçais G. Yver G. Prigent E.: *op.cit.*)

ويحتمل جدا أنّ المجال الطبيعي لمازونة كان تابعا لإمارة تنس السليمانية ، (التي كان عليها إبراهيم بن محمد بن محمد ومن بعده محمد وعيسى وعلي) [1]، على الرغم من أنّ الرأي القائل بأنّ زناتة المسيطرة على المناطق الواقعة بين تلمسان وتاهرت في أواخر القرن الثالث الهجري/أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلاديين لم تكن تابعة لا لابن رستم ولا بني سليمان[2].

فاليعقوبي مثلا لم يذكر بأنّ هؤلاء الزناتيين شراة كما ذكر عندما تحدث عن المناطق الواقعة شرق تاهرت[3]، إلاّ أنّ عبارة: «وسائر الضواحي من أعمال تلمسان لبني يفرن ومغراوة، و لم يزل الملك بضواحي المغرب الأوسط لمحمد بن خزر...إلى أن كانت دولة الشيعة .»[4]، تجعلنا نعتقد باحتمال آخر وهو تبعية مجال المدينة مازونة للمغراويين الخزريين، والذي سيظهر أكثر مع ظهورهم في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، إلاّ أنّي لابد أن أقّر بأنّها تبقى مجرد احتمالات لواقع نصّي غامض لا يقدّم دائما تفسيرات لكل تساؤلاتنا[5].

2-3- المجال الشلفي وصراعات القرن 04هـ/10م:

2-3-1- بداية أزمة القرن 04هـ/10م -قراءة في إشكالية-

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.25؛ وينظر أيضا التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة**، ص،ص.66،68.

2- يقول محمد بن عميرة أنّ بني سليمان فقدوا بعض ممتلكاتهم مع الزمن لتسيطر عليها زناتة ، والتي سيطرت على المناطق الواقعة بين تلمسان وتاهرت في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي وأوائل القرن العاشر الميلادي)، محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.150-152، و من ثم لا يستبعد أنّهم كانوا على المذهب السني يراجع **نفسه**: ص.150.

3- فهل تخلت زناتة المنتشرة في المناطق الموجودة غرب تاهرت عن المذهب الإباضي ، واعتنقت المذهب الذي نشره الأدارسة ؟ ينظر محمد بن عميرة : **المرجع السابق**، ص.156؛ ويقول السلاّوي أنّ الأدارسة تمكنوا من محو دعوة الخوارج من زناتة السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.171؛ اليعقوبي: **المصدر السابق**، ص.191؛ وعن نفس الفكرة ينظر أيضا محمود إسماعيل عبد الرزاق : **الأدارسة**، ص.146؛ و يشير جودت عبد الكريم يوسف إلى اعتبار الشيخ سليمان بن داود أن قبيلتي مغراوة وبني يفرن إباضيتان، يراجع جودت عبد الكريم يوسف: **العلاقات الخارجية**، ص.188.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.25.

5- حول هذه الفكرة يراجع محمود إسماعيل عبد الرزاق: **الأدارسة**، ص.142.

إنّ لتقاليد الحكم الخزري المغراوي تأثيره البارز في ظهور ما أسميته بالبيت السياسي الخزري بالمنطقة الشلفية وغيرها أيضا [1]، والذي فرض نوعا من التقبل لدى أموي الأندلس وإسماعيلية إفريقية والأدارسة لوجاهة هذا البيت، وأدّت إلى تخليهم عن السلطة المباشرة بهذه الجهة إلى ممارسة "سياسة الولاء والمبايعة" كطريقة لضمان تبعتيها[2].

كانت صورة هذا الصراع محلية عبر جماعات لها مصالحها ودوافعها الخاصة بها حتى بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[3]، حيث كانت لسياسة الفاطميين التوسعية تأثيرها في فرض أبعاد أخرى لهذا الصراع المحلي، ذلك أنّه بعد استيلاء الكتاميين على إفريقية دخلوا المنطقة الغربية بقيادة مصالة بن حبوس فقضوا على إمارات الأدارسة وفرضوا السلطة الشيعية بالمنطقة[4].

1- لقد أشرت سابقا إلى تحدث النصوص التاريخية عن إسلام جد الخزريين الزناتيين خزر بن حفص بن صولات بن وزمار بن صقلاب بن مغراو على يد الخليفة عثمان (ض)، وتقديمه على قومه، وتثبيت هذا البيت في حكم المنطقة (إلاّ أنّ كيفية إسلام= =زعيم مغرواة اختلفت حولها هذه الروايات ، على الرغم من أنّها اتفقت على كون هذا هو سبب الولاء المغراوي-الأموي) ، مؤلف مجهول : **مفاخر البربر** ، ص.131؛ ابن خلدون : **العبر**، مج.7، ص،ص.24،97؛ ابن عذاري المراكشي : **المصدر السابق**، ج.1، ص.252؛ ابن الخطيب : **أعمال الأعلام**، ص.153؛ ابن عبد الحليم : **المصدر السابق**، ص-ص.77-78؛ التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة**، ص.53.

2- إنّ الظروف التي عرفها أمويو الأندلس لم تكن لتسمح لهم بالحكم المباشر في المنطقة الزناتية ، ينظر يحي ابن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.198-169؛ وعن طبيعة السلطة الأموية بالبلاد المغربية ينظر أيضا ابن الخطيب : **أعمال الأعلام**، ص،ص. 160-221،161-222؛ وعن الولاء المغراوي -الأموي يراجع أيضا مؤلف مجهول : **مفاخر البربر** ، ص.131؛ التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة**، ص.53؛ و عن حكم بني خزر المغراويين ينظر مثلا ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.10.

3- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.232.

4- عن الصراع الخزري-الفاطمي الصنهاجي يراجع الداعي إدريس: **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب** (**القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار**)، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت: دارالغرب الإسلامي، 1985؛ ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص،ص.155،165،204؛ ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، ص،ص.62،67،153،155،220،221؛ مؤلف مجهول: **مفاخر البربر** ، ص،ص.127،131،132،173،172،170،148،147،144؛ ابن خلدون : **العبر**، مج.7، ص-ص.25-27؛ ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب** ، ص-ص.108-117؛ التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة** ، ص،ص.46،68؛ فاطمة بلهواري: "معارضة محمد بن خزر المغراوي للوجود الفاطمي" ، ص-ص.113-124؛ و لم يكن المذهب الشيعي الفاطمي يروق السكان من أهالي جبل الونشريس ، ولا قبائل البتر أو الزناتيين المجاورين الذين تعد قبائل مغراوة الرحالة من أكثرهم تململا وشراسة، والذين تمتد مناطق رعيهم إلى ناحية الشلف الأسفل بل إنّ الخلافات بين قبائل الزناتيين هي التي ساعدت على التقدم الفاطمي بعض الوقت على الأقل حسب شارل ايمانويل ديفورك يراجع شارل ايمانويل ديفورك : "مكانة الونشريس"، ص-ص.97-98؛

E.F.Gautier, *op .cit.*, p .398-408؛

ويبدو أنّ النزاع الفاطمي مع زناتة المنطقة كان حتى قبل تأسيس السلطة الإسماعيلية نفسها بدليل الروايات الشيعية وغيرها، حيث تحدّث القاضي نعمان مثلا عن تعرض قبيلة زناتة لأربعة عشر رجلا، وهم عائدون من سجلماسة بجواب من عبيد الله الشيعي حيث: «أنّ جماعة من الأولياء كان أرسلهم أبو عبد الله إلى المهدي بالله بأموال وكتب، فأدّوا ما عندهم ورجعوا بجواب الإمام وكتبه، فلمّا رجعوا قطعت عليهم زناتة فقتلوهم... »[1]، إلاّ أنّ سياسة منح الأمان بشروط الشيعي لمحمد بن خرز المغراوي بعد قدومه عليه ساهمت في عدم تطور الوضع مبكرا : « ولقيه محمد بن خرز وهو يومئذ زعيم زناتة والبربر وسأل الأمان فأمّنه وقومه بعد أن استخلفه..»[2].

لقد أخذ هذا الوضع بعد ذلك بعدا مذهبيا وإقتصاديا بسبب مساندة أموي الأندلس للزناتيين خاصة مع النشاط الفاطمي ومحاولاته التوسعية[3]، حيث استغلوا ثقل تاهرت وسجلماسة المهم بالنسبة للدولة الأموية بالأندلس، حيث كانتا تمثلان سوقا كبيرا يتحكمان في المحورين التجاريين الشرقي والصحراوي المهمين بالنسبة للأمويين [4]، كما أنّ المدن في هذه المنطقة مثّلت

وعن شخصية مصالة بن حبوس قائد جيوش عبيد الله وصاحب تاهرت والمغرب الأوسط ينظر أبو عبد الله محمد الصنهاجي : **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم** ، تحقيق وتعليق : جلول أحمد البدوي ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984، ص،ص.41،40،38،24؛ محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.301 .

1- القاضي النعمان: **رسالة افتتاح الدعوة –رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية–** ، تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة، 1970، ص-ص.197-198؛ الداعي إدريس: **المصدر السابق**، ص.129.

2- **نفسه**: ص.156.

3- يبدو أنّ النفوذ المرواني بالمنطقة أثار استياء الطرف الشيعي الذي كان يرغب في فرض منطقه على كامل المنطقة المغربية ، السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص،ص.217،199،198-255،220،219؛ كما أنّ عبد الكريم غلاب يعتقد أنّ القضية سياسيّة-قبلية وليست دينية أو مذهبية (شيعة وسنة) ، لأنّه لا يظن أنّ الفكر الشيعي أو السني قد تمكّن من هذه القبائل وجعلها تتصارع فيما بينها لصالح هذا المذهب أو ذاك، وإنّما هو الطموح للسلطة والنفوذ والتغلب على نفوذ الآخر، كما أنّه لا يعتقد أنّ المذهبية كانت متمكّنة من البربر عموما ومن الزيريين الصنهاجيين ومن خصومهم الزناتيين الذين كانوا يميلون إلى بني أمية، عبد الكريم غلاب : **المرجع السابق**، ج.1،ص،ص.385-391،387-392؛ وعن البعد الإقتصادي لهذه الصراع يراجع محمد بن عميرة : **المرجع السابق**، ص-ص.299-301؛ عبد الله العروي : **المرجع السابق**، ج.2، ص-ص.231-232؛ الحبيب الجنحاني : "الخلفية الإقتصادية للصراع الفاطمي –الأموي في المغرب (ق 4هـ/10م)"، **دراسات مغربية في التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للمغرب الإسلامي** ، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر ، 1980، ص.73؛ وعن الأهمية التجارية لتاهرت وغيرها ينظر فاطمة بلهواري: "معارضة محمد بن خزر المغراوي للوجود الفاطمي"، ص.115.

Lucien Golvin, *op.cit.*, p.137.

4- وعن مثل هذه الفكرة ينظر عبد الله العروي : **المرجع السابق**، ج.2، ص-ص.231-232؛ محمد بن عميرة : **المرجع السابق**، ص-ص.300-301؛ ويراجع أيضا:

محورا رئيسيا للسلطة الفاطمية أيضا، حيث يفسّر عبد الله العروي هذه الأهمية وعلاقة الفاطميين بهذه المدن، التي كانت أقرب ما تكون للمدن المستقلة منها إلى المدن التابعة إلى سلطة معينة أو "المدن الشورى" كما أسماها [1]، إذ يقول: «افتراضنا أنّ المدن-الشورى الموجودة في المغرب الأوسط كانت في اتفاق ضمني وعرقي مع الجماعات الزناتية حامية تجارة القوافل، وهذا الاتفاق الذي يضمن في نفس الوقت وعلى قدم المساواة مصالح أصحاب الطرق والمسالك، وهو ما أتى الحكم الفاطمي لنفسه.»[2] .

لقد اتّبع الأمويون سياسة التحالف مع المهدّدين مباشرة من قبـــل السياسة الفاطمية، وبالأخص الزناتيين والأدارسة[3]، وقد علّل ابن حيّان تفضيل الخليفة لزناتة وأميرهم محمد بن خزر على ابن أبي العافية -صنيعة العبيديين وحليفتهم لمدة طويلة- «لأنّ موسى لم يكن لديه بالموثوق الطاعة إذ كان والي عبيد الله الشيعي أول نجومه، وارستم بولايته، ثم مال عنه إلى الناصر لدين الله، ودخل في جملته فعاتبه الناصر لدين الله في قطيعته لوليه محمد بن خرز...»[4]،كما أنّ تفضيل المعز الفاطمي لصنهاجة بدل كتامة حسب جورج مارسي (*Georges Marçais*) جاء لأنّ الأولى كان لها مجال أوسع وموارد أكبر، حيث تمتد أرضها من تاهرت حتى الزاب وتشمل مراكز مثل: (مليانة والمدية والجزائر وحمزة)، ولأنّها أقدر على مواجهة زناتة البدو جيرانها من الناحية الغربية وأعدائها التقليديين[5]، وهنا كان الدور في محاربة الوجود الشيعي، فالبدوي الزناتي حسب النظرة الاستشراقية لا يحتمل أن يجد طرق تنقلاته محتلة، فهو يريد الاحتفاظ بهيمنته التامة على السهول المرتفعة، أمّا الحضر الكتاميون ومن بعدهم الصنهاجيين يريدون إبعاد خطر الطبيعة الحياتية البدوية التي تحاول دائما الانتشار بحثا عن المراعي[6].

جودت عبد الكريم يوسف : **الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ (9-10م)**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص،ص.343،196،195.

1- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.75.

2- **نفسه.**

3- محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.300؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.206.

4- فتحالف موسى بن أبي العافية مع أموي الأندلس لم يكن يقوم على إيمان بمبدأ أحقية الأمويين وأولويتهم بالخلافة ، وهذا على خلاف زناتة الذين قاوموا العبيديين وحلفائهم الصنهاجيين (أعدائهم التقليديين)؛ وعن شخصية موسى بن أبي العافية يراجع السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص،ص.196،191،190،187.

5- محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.244.

6- **نفسه:** ص-ص.299-300.

في الحقيقة إنّ التدخل الأموي والفاطمي في شؤون هذه المنطقة قد تكون له دوافع تجارية وجبائية أكثر منها توسعية استيطانية، فأنظار الأول كانت مشدودة إلى الشمال وإلى البحر المتوسط، وأنظار الثاني متّجهة إلى الشرق، لذلك فكلاهما كان يبحث عن أتباع وصنائع ينفذ به ما يخططه من سياسة[1].

ومن هنا قد نتماشى مع تصور أحد الباحثين أنّ حروب القرن 4هـ/10م في المغربين كانت تدور كلها في إطار عداء متأصل موروث بين صنهاجة وزناتة، لكن يبقى مثل هذا التأويل-حسبه أيضا- مرتبطا بنظرية عرقية في تفسير التاريخ أكثر مما يرتكز إلى ما تشيــر إليــه حقيقة الأحداث التاريخية[2].

2-3-2- المجال الشلفي وأزمة القرن 04هـ/10م:

لقد أشارت نصوص عديدة إلى المرجعية التاريخية للولاء الخزري المغراوي الزناتي -الأموي، وذلك لظروف عايشها هذا البيت السياسي المحلي الحاكم مع بداية الفتوحات الإسلامية، ويبدو

1- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.232.

2- **نفسه:** ص.236؛ الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى القرن 12م)**، ترجمة: حمّادي الساحلي، ج.1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص.42؛ ويقدم الباحث علاوة عمارة في مقاله: "الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الوسيط" رأي لمحمد طالبي في مداخلة له وهذا بالملتقى الدولي الثلاثين للعلوم الإنسانية بآسيا وإفريقيا الشمالية، والذي انعقد بمدينة مكسيكو من 3 إلى 8 أوت 1976م، حيث حدّد القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين كزمن التحولات الكبرى في بلاد المغرب، والذي نتج عنه تراجع ملحوظ على المستوى العمراني والبشري بسبب ثورات البربر، وعلى الخصوص حركة أبي يزيد النّكاري عن مقال:

Mohamed Talbi, «Effondrement démographique au Maghreb du XIe au XVe siécles», dans *cahiers du tunisie*, XXV, 1977, p.51-60.

يراجع علاوة عمارة: "الهجرة الهلالية وإشكالية إنحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط (قراءة في نقاش تاريخي)"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.4، 1425هـ/2004م، ص.52؛ ويرى جودت عبد الكريم يوسف أنّ حروب القرن الرابع الهجري تكاد تنحصر في منطقة تاهرت وبعض مناطق غرب البلاد كبني يفرن ومغراوة إلاّ قليلا وهي قليلة العدد بالنسبة للفترة الزمنية الطويلة وذات طابع محلي في أغلب الأحيان، ولا توجد واحدة منها أخذت طابعا شموليا عمّ البلاد، وبهذا فإذا كان لها تأثير على الحياة الإقتصادية في البلاد فهو تأثير محدود لم يؤثر على المجمل العام لأحوال سكان بلاد المغرب الأوسط، جودت عبد الكريم يوسف: **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية**، ص.425.

أنّ هذا النفوذ المرواني بالمنطقة أثار استياء الطرف الشيعي الذي كان يرغب في فرض منطقه على المنطقة المغربية ككل[1].

إلاّ أنّ هذا الولاء لا يحدّده فقط هذا التأصيل التاريخي، لأنّنا نلاحظ أنّ هناك وفي فترات تاريخية معينة ساءت هذه العلاقات أو عرفت فتورا، مثل ما حدث مع زيري بن عطية [2] سنة 382هـ/992م، الذي لم يتقبل صفة الوزير التي لقبه بها الحاجب المنصور بن أبي عامر، مما أدّى

1- وعن التبعية المغراوية لبني أمية مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص-ص.130-131؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.17-19؛ ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص.252؛ ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، ص،ص.61 -62،153-154،221-222؛ ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص،ص.107-144،136،128،108.
=

= لكن هل هذا الولاء يرجع إلى وفود عبد الرحمان الداخل على زناتة التي أحسنت استقباله ؟ يراجع جودت عبد الكريم يوسف: **العلاقات الخارجية**، ص.126؛ كما يذهب لذلك الزياني صاحب دليل الحيران عندما يذكر أنّ عبد الرحمان الداخل توجه للمغرب ولحق بمغيلة أهل واريزن بإزاء مازونة، الزياني: **دليل الحيران**، ص.64 .
E.F. Gautier, *op.cit.*, p.389-393.

2- زيري بن عطية بن عبد الله بن تادلت (تبادلت) بن محمد بن خزر الزناتي المغراوي الخزري (تـ.391هـ/1000م-1001م) حكم منذ 368هـ/978م؛ ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب**، ص-ص.128-132، وعنه يراجع ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، ص، ص.158،155-160، ويكني بأبي يوسف الملقب بالفرطاس ، مؤلف مجهول : **مفاخر البربر** ، ص،ص.153-159،155-170،166-173،171؛ ابن عذاري المراكشي : **المصدر السابق** ، ج.1، ص.252؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1،ص-ص.214-215، (والذي يرى أنّ الأوضاع بالأندلس تتحكم في وضع الدولة المغراوية واستقلالها بأمر المغرب) ، **نفسه:** ص.220، وعن حكم أو ملك بني زيري بن عطية الذي غلب على جميع بوادي المغرب وملك مدينة فاس وصيرها دار ملكه منذ 377هـ/987م-988م، يراجع محمد ولد داده : **مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع (دراسة في التاريخ السياسي)** ، بيروت-القاهرة: درا الكتاب اللبناني-دار الكتاب المصري، 1977، ص-ص.80-82؛ والذي يرى أنّ بني زيري بن عطية كانوا على مذهب أهل السنة ، حيث تشهد على ذلك الروابط التي كانت تجمع بين الأولين من أمرائهم وبني أمية ، كما تشهد عليه معاداتهم للفاطميين ، ولبني زيري خلفائهم على إفريقية، وإن كان قد أقر أن مفهوم الملك عندهم لم يزل مفهوما قبليا أي مفهوما ضيقا يشبه مفهوم الملك عند أغلبية معاصريهم من أمراء البربر، **نفسه:** ص-ص.81-82، أمّا عبد الكريم غلاّب فيلاحظ أنّ زيري بن عطية على الرغم من الطابع البدوي لحكمه إلاّ أنّه قال عن نفسه أنّه أمير ابن أمير ، ويبدو أنّ لقب أمير كان يتلقب به بعض رؤساء القبائل وزعمائها فاحتفظوا به عند تكوين دولتهم ، عبد الكريم غلاّب : **المرجع السابق**، ج.1، ص.410؛ عبد الله العروي : **المرجع السابق**، ج.2، ص-ص.241-242؛ عبد الوهاب بنمنصور: **المرجع السابق**، ج.1، ص.119؛ وهناك دراسة حول هذه الشخصية لمحمد بن معمر : "زيري بن عطية المغراوي ومشروع الدولة الزناتية في المغربين الأوسط والأقصى (368هـ/391هـ)"، **عصور**، ع.4و5، جامعة وهران، السنة 03، 1424هـ-1425هـ/2003م-2004م، ص-ص.149-158.

إلى حرب سنة 387هـ/997م، والتي عرفت أسر أشراف مغراوة [1]، لذلك فالتفسير القائل بأنّ هذا الولاء حكمه القرب الجغرافي لزناتة مع أموي الأندلس قد يكون صحيحا، فزناتة في هذه الحالة تريد أن تجتنب المواجهة أو الإحتكاك المباشر مع السلطة الأموية القريبة مجاليا [2]، وتحاول أن تفرض منطق حكمها للمنطقة الزناتية[3].

ويبدو أنّ المنطقة عرفت أيضا صراعا داخليا زناتيا خالصا بين مغراوة وبني يفرن، هاتين الأخيرتين اللتين حاولتا فرض نوع من الهيمنة على المنطقة، وبالتالي عدم الاستقرار لهذا البيت المغراوي[4]، الذي تحكمت فيه صراعات داخل البيت الخزري نفسه[5].

إنّ صورة المدينة والمجال بالمنطقة ومع هذه الصراعات المتعددة غامضة ، حيث يحتمل أنّها كانت تتراوح بين التبعية المختلفة للسلطتين الكبيرتين الأموية والفاطمية[6]، فمثلا ما حدث مع أبي البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي، وابن أخيه منصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي أمير إفريقية عندما تبنى الدعوة المروانية سنة 377هـ/987م[7]، حيث تشير النصوص إلى تغلبه

1- ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص-ص.130-131؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.214-215.

2- وعن هذه الفكرة هناك تفسير مختلف لدى عبد الله العروي ينظر عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص-ص.232-233.

3- مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص-ص.153-155.

4- يفرن ومغراوة أخوان شقيقان ابنا يصليتن بن سيري بن زاكيا بن ورسيح بن جانا بن زناتا ينظر ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب**، ص-ص.130-131؛ ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، ص-ص.157-164،161،158-166؛ مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص،ص.183،157؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص،ص.21،11؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.220-222.

E.F. Gautier, *op.cit.*, p.393-397.

5- السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.222.

6- ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، ص-ص.155-160؛ وفي نص لمفاخر البربر يورد وادي مينا كمنطقة صراع بين زيري بن عطية المغراوي وصنهاجة وهو الوادي الذي يرتبط مجاليا بالمنطقة الشلفية، مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص-ص.170-171، فمثلا في سنة 316هـ/928م بادر محمد بن خزر إلى إجابة دعوة الناصر الأموي وطرد أولياء الشيعة من الزاب وملك شلف وتنس من أيديهم وملك وهران، وبث دعوة الأموية في أعمال المغرب الأوسط ما عدا تاهرت.

ابن خلدون : **العبر**، مج.7، ص.25، ويشير ابن خلدون أيضا إلى تقلص نفوذ الخلافة الأموية استغلها الخزريون لتدعيم سلطاتهم بين بدو زناتة المغرب الأوسط، يراجع **نفسه**: ص.24.

7- عند ابن الخطيب فذلك تمّ سنة 381هـ/991م، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، ص-ص.156-157؛ وعن علاقة أبي البهار بالشلف، مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص.156؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص.210.

على تلمسان، تنس، وهران، شلف، شرشال، جبال ونشريس، المدية وكثيرا من بلاد الزاب: «وبعث ببيعته لهم، وذلك في سنة سبع وسبعين وثلاثمئة، فلمّا وصلت بيعته للمنصور ابن أبي عامر بعث إليه بعهده على ما بيده من البلاد...ثم أقام على بيعتهم نحو الشهرين، ثم خلعهم وعاد إلى العبيديين...»[1]، لكن بمراجعة أبي البهار الصنهاجي لطاعة العبيديين عاودت المنطقة تبعيتها لزيري بن عطية الخزري المغراوي وبولاء أموي أيضا: «وكتب بالفتح إلى المنصور ابن أبي عامر، وبعث له بهدية عظيمة...فسرّ بها المنصور، وكافأه عليها، وكتب له بتجديد عهده على المغرب، وذلك في سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة...إلى سنة اثنتين وثمانين فاستدعاه المنصور أن يقدم عليه...»[2].

لكن بعد ذلك تبدأ علاقة مغايرة تحدّدها السياسة الحمّادية الجديدة بالمنطقة، بعدما تولت حراسة التخوم الغربية للدولة الصنهاجية وحمايتها من أي عدوان زناتي منذ 408هـ/1017م[3].
408هـ/1017م[3].

1- ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص-ص.128-129.

2- **نفسه:** ص،ص.135،129؛ ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، ص-ص.156-160؛ مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص-ص.169-171.

كما تحدثت النصوص عن زحف زيري بن عطية على بلاد صنهاجة والتمكن من هزيمتهم والرجوع لمناطق نفوذه وإقامته الدعوة للمؤيد الأموي، السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص،ص.216،210-217؛ وعن وادي الشلف وعلاقته بأمراء زناتة ينظر ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص، ص.266،264،263؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.33.

3- يرى عبد الله العروي أنّ مسرح المواجهات انتقل من غرب المغرب الأوسط في عهد الفاطميين إلى المغرب الأقصى أيام حكم بني زيري، وإن دلّ هذا التحول على شيء فإنّه يدل على أنّ الطريق الرابط بين سجلماسة وتاهرت فتلمسان كانت قد فقدت أهميتها فتضاءلت الحركة وقل التجار وساءت الأحوال في المدن ، وهذا الانحطاط هو الذي هيأ الظروف لتتحول المنطقة إلى مرتع للبدو.

ينظر عبد الله العروي : **المرجع السابق**، ج.2، ص،ص.242،240،239؛ الهادي روجي إدريس : **المرجع السابق**، ج.1، ص.163.

الفصل الثــاني

مازونــة ونــاحيتها -بداية المعطيات الحضرية-

I-المجـال، القبيلـة والسلطـة

II-إشكـاليـات التمديـن

I -المجال، القبيلة والسلطة:

1- السلطة المرابطية والوجود الصنهاجي بالمجال الشلفي:

1-1- مقاربة أولية:

يرى بعضهم أنّ السيادة البدوية الزناتية على سهوب المغرب الأقصى من جبال الريف إلى سجلماسة، ومعاناة صنهاجة من الجوار الزناتي الضارب مجاليا في المناطق المسيطرة على طرق القوافل التي كانت تربط المغرب بإفريقيا السوداء عبر الصحراء، حتّمت المواجهة بين هذين الفرعين البربرين[1]، وبغض النظر عن دور ذلك في قيام الكيان المرابطي وتوسعاته الشرقية [2]، ما موقع المجال الشلفي الذي تنتمي له مازونة من هذه الهبة الصنهاجية -إن صح التعبير-؟

1- إبراهيم القادري بوتشيش: **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص.26؛ وللتفصيل في هذا الصراع ينظر أيضا عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، بيروت-القاهرة: دار الشروق، 1403هـ/1983م، ص،ص-ص.263،163-270؛ محمد زنيبر: **المغرب في العصر الوسيط (الدولة-المدينة-الاقتصاد)**، تنسيق: محمد المغراوي، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة محمد الخامس)، 1420هـ/1999م، ص-ص.68-69؛ روجي لي تورنو: **حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، ترجمة: أمين الطيبي، طرابلس-تونس: الدار العربية للكتاب، 1982، ص.20؛ ابراهيم القادري بوتشيش: **حلقات مفقودة**، ص.13؛ ومن بين النصوص الوسيطة التي تناولت تاريخ هذه المواجهة ينظر ابن الخطيب: **المصدر السابق**، ص-ص.163-229،166-236؛ ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص.254؛ ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، ج.4، ط.3، بيروت: دار الثقافة، 1983، ص،ص.13-27،22،15-29؛ مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية**، ص،ص.33،32،28،22؛ مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص-ص.180-187؛ ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص.143؛ التنسي: **تاريخ دولة الأدارسة**، ص.53؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.217-225،219.

2-يرى إبراهيم القادري بوتشيش أنّ الفوضى السياسية التي استشرت في طول بلاد المغرب وعرضها، والصراعات التي استعرت بين أمراء "الدويلات القزمية" التي تقاسمت حكم المغرب، والمجاعات والأوبئة والسياسة الضرائبية المجحفة التي نهجها هؤلاء الأمراء الزناتيين عوامل داخلية ساهمت في توجيه همة المرابطين نحو فتح المغرب، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع-الذهنيات-الأولياء)**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1993، ص-ص.12-13؛ ويشير أيضا في مكان آخر من كتابه إلى المخطط الذي تم بين أبي عمران الفاسي ويحيى بن إبراهيم الجدالي الذي يهدف إلى تقويض الدويلات الزناتية المتناحرة، وإقامة دولة سنية مالكية، تسعى إلى إصلاح المجتمع المغربي وتطهيره من الحركات البدعية، **نفسه**: ص.9؛ في حين نجد أنّ تفسير روجي لي تورنو مختلف نسبيا، حيث يرى أنّ قبائل زناتة التي كانت قد وطدت سلطتها في جزء كبير من البلاد المغربية، اعتبرتها قبائل صنهاجة منافسة لها، ولعلها كانت منافسة وراثية إذا سلمنا بأنّ عداء عنصريا كان بين هاتين المجموعتين حسب روجي لي تورنو دائما، روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص.20.

إنّ السلطة السياسية تنبني على القوة كمنبع لوجودها، وكمصدر للتنظيم والتمركز والاستمرار[1]، وهي السياسية التي اعتمدها المرابطون في المنطقة، وأدّت إلى مخالفة قبائل مثل بني ومانو وبني يلومي المتوطّنة بتلك الجهات بعد تراجع الدور المغراوي للسلطة الجديدة الوافدة يقول ابن خلدون: «ولما ملك المرابطون تلمسان أعوام سبعين وأربعمائة، وأنزل يوسف بن تاشفين بها عامله محمد بن تينعمر المسوفي ودوّخ أعمال المنصور، وملك أمصارها إلى أن نازل الجائر وهلك فولى أخاه تاشفين على عمله فغزا أشير وأفتتحها ومدّها، وكان لهذين الحيين في مظاهرته وإمداده أحقد عليهم المنصور بعدها وأغرى بني ومانو في عساكر صنهاجة...»[2].

سأتوقف قليلا مع هذه الرواية التي تناقض القائلين بالقرابة العرقية القبلية الصنهاجية [3]، والذين ذهبوا في تحليلهم إلى سهولة التوسع الشرقي للمرابطين، لأنّ الحماديين حسبهم لم يبدوا أية ردة فعل تجاه نصرة حلفائهم الزناتيين[4].

وإن تبنى الهادي روجي إدريس موقفا مناقضا للأول، عندما يتحدث عن قطيعة حمادية مع بني ومانو، والحملة الموّجهة ضد تلمسان والمرابطين، إلاّ أنّنا لا نستطيع تصنيفه في خانة المعارضة بحكم نقله للرواية الخلدونية بصورة واسعة[5].

وما يثير انتباهنا هو أنّ أصحاب الموقف الأوّل اعتمدوا على ابن خلدون أيضا، الذي أشار إلى أنّ كل المواقع التي افتتحها المرابطون كانت وطنا لقبائل زناتة، وأنّ اللمتونيين وهم صنهاجة مثلهم وقفوا بالضبط عند حدود إمارة بني حماد الصنهاجيين مثلهم[6].

ولعلنا نأخذ برأي عبد الله العروي الذي ينسب ذلك إلى ما ألمح إليه الإخباريون، وهو توصل يوسف بن تاشفين برسائل الاستغاثة من الأندلس، فكان عليه أن يختار بين ندائين كلاهما

1- محمد عزيز الحبابي: "الدينامية المحرّكة للتاريخ عند ابن خلدون"، الفكر الاجتماعي الخلدوني-المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية –، ترجمة: فاطمة الجامعي الحبابي، **المستقبل العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2004، ص.88.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.55.

3- من بين الذين قالوا بالقرابة العرقية القبلية الصنهاجية:

Henri Terrasse, *Histoire de Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français*, Casablanca, Editions atlantides, T.1, 1949, p.226; Vincent la Gardère, *Les Almoravides*, p.99.

4- مصطفى الطالبي: **قيام إمارة بني عبد الواد بتلمسان**، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، فاس: جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف: عادل نجم عبو، 1406هـ-1407هـ/1986م-1987م، ص.47.

5- الهادي روجي إدريس: **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.327-328.

6- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.277.

ملح فأختار نداء الاستغاثة: «لأنّ الدعوة السنية الإصلاحية التي حمل لواءها، كانت تفرض على الأمير اللمتوني أن يلبي أولا نداء الأندلس، وأن يقوم بواجب الجهاد المرادف لمعنى الرباط.»[1].

أعتبر أنّ الدخول في متاهة العموميات النّصية يجعلنا لا نتعمق في الإشكالية التي وضعتها في البداية حول طبيعة التغيير الممارس من قبل السلطة الجديدة تجاه الجه ة الشلفية (التي تنتمي لها مازونة) خاصة و الجهة الغربية من المغرب الأوسط عامة (من أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي العشر الميلادي إلى القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)، أو كما أصطلح عليها في الكتابات الوسيطة "البلاد الزناتية"[2].

وعلى الرغم من ذلك سأحاول تقديم بعض الإشارات حول الصراع(الحمادي -المرابطي- الزناتي) في المجال الجغرافي الشلفي، والتي تعبّر عن واقع متأزم وعن استقلالية قبلية (واقع قبلي حر) إزاء سلطة مركزية "متغيرة"، مارست عليه "حق الولاية"، وما ينبني عليه من "تبعية عسكرية ومالية".

1-2-القبيلة (وحدة محاربة):

تتحكم المنطقة الغربية من المغرب الأوسط في الطريق الموصل إلى المغرب الأقصى، إلاّ أن وضعيتها العامة لم تكن لتطمئن سلطة مراكش، فبعد أن استوثق سلطان الأثبج على ضواحي قسنطينة، قبائل هلالية أخرى موغلة في "التغربة" آخرها معقل التي تجزأت إلى قسمين، الأوّل منها قصد شمال المغرب الأوسط فضايق زناتة في "بلادها"[3]، فكان على الأمير المرابطي أن يعين قيادات وكفاءات عسكرية عالية بتلمسان "قاعدة المغرب الأوسط"[4].

1- **نفسه:** ص.118؛ وقد أتاح له استنجاد المعتمد بن عباد به فرصة الحصول على أسطول بحري، تمكّن بواسطته من اقتحام مدينة سبتة وإطفاء جمرة تلمسان سنة 472هـ/1079م، ليتوغل فيما بعد في المغرب الأوسط ، ينظر إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص.13.

2- يورد صاحب الأنيس المطرب نصا مهما عن المناطق التي انتشر فيها المرابطون في المغرب الأوسط، وفي المنطقة الشلفية التي تهمنا: «وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي لغزو مدينة تلمسان، فسار إليها...ثم دخلت سنة أربع وسبعين...وفتح مدينة تنس ومدينة وهران وجبال وانشريس وأعمال الشلف بأجمعها إلى الجزائر .»، ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص،ص.181،212.

3- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.255.

4- والمغرب الأوسط هو تلمسان وبلاد زناتة، ابن خلدون: **التعريف**، ص.370.

إنّ هذا الواقع الجديد سواء كان مفروضا أو غير مفروض على المجال الشلفي وكامل الجهة الغربية من المغرب الأوسط، جعل القبائل الحليفة وغير الحليفة لحمادي تلك الفترة تميل عن ولائها، وتدخل في نسق النظام الجديد "كوحدة محاربة" [1]، فالقبيلة في تلك الفترة: «عبارة عن جيش يعيش دوما على أهبة القتال، وإلاّ سقطت بين عشية وضحاها فريسة في يد المغيرين، فيضمحل كيانها وتصبح تابعة وأحيانا مندمجة في الكيان القبلي المتغلب عليها .»[2]، وهو ما حدّد نوعا ما نمط حياتها الاجتماعي والاقتصادي.

وإن كان محمد عابد الجابري يرى في علاقة الدولة مع أهل العصبيات الذين أصبحوا تحت سلطتها ومع سكان المناطق الخاضعة لنفوذها، علاقة تتسم بكثير من الرفق والتسامح لأنّها صادرة عن "الخلال الحميدة" التي جعلت العصبية الحاكمة تتبوأ منصب الرئاسة ومن ثمة الملك والتي تستهدف من خلالها كسب ولائها ومناصرتها[3].

فغلبة المعطى الديني في قيام الكيان المرابطي، المرتبط بالفكرة "الجهادية"، يجعلنا نتخيل البنية الأساسية التي شكلت هوية هذا "الملك الصنهاجي الجنوبي"، والوظائف المنوطة بالقبائل المهزومة.

لقد شكّلت قبيلتا بنو يلومي وبنو ومانو[4] مع بداية هذا التواجد السلطوي الجديد أحد

1- إنّ المنطقة الغربية حسب الهادي روجي إدريس لم تعرف الاستقرار نتيجة لتحالف زعمائها مع أحد الطرفين ، الهادي روجي إدريس: **المرجع السابق**، ج.1، ص.327؛ إبراهيم القادري بوتشيش: **حلقات مفقودة**، ص.20؛ عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.79؛ ويرى روجي لي تورنو أنّه ليس ثمّة ما يدل على أنّ البربر تحت سيادة المرابطين حملوا في صدورهم أفكارا للثورة، إلاّ أنّ للمرء أن يتصور بأنّه أحسّوا بشيء من الاستياء حينما رأوا صنهاجة الصحراء يحكمون بمفردهم، روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص.21؛ أمّا عن مصطلح "وحدة محاربة" يمكن أن نستقرأه من جملة نصوص الإسطوغرافية المرابطية، حيث يشير مثلا صاحب الحلل الموشية : بأنّ يوسف بن تاشفين عندما عظم ملكه ، ضم إليه قبائل زناتة وسمّى كلا من جزولة ولمطة ومصمودة وقبائل زناتة بالحشم ، ينظر مؤلف أندلسي مجهول : **الحلل الموشية** ، ص،ص.123،122،86،33،32،28؛ الدراجي بوزياني: **القبائل الأمازيغية**، ج.1، ص.177.

2- محمد عابد الجابري: **فكر ابن خلدون –العصبية والدولة– معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي** ، ط.5، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص.24.

3- **نفسه**: ص.223.

4- بنو يلومي وبنو ومانوا: يعرّفهما ابن خلدون بما يلي: قبيلتان من قبائل زناتةومن توابع الطبقة الأولى، إلاّ أنّه يقرّ أنّه لم يقف على نسبهما إلى جانا، إلاّ أنّ نسابتهما متفقون على أنّ يلومي ورتاجن الذي هو أبو مزين إخوان ، وأنّ مديون أخوهما للأم، وبنو مزين لهذا العهد يعرفون لهم هذا النسب ويوجبون العصبية لهم، وكانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناتة وأشدهم شوكة ومواطنهم جميعا بالمغرب الأوسط، وبنو ومانوا منهم إلى جهة المشرق عن وادي ميناس ومرات أو(سيرات) وما إليها من أسافل الشلف، وبنو يلومي أو يلومين بالعدوة الغربية منه بالجعبات والبطحاء وسبدو وسيرات وجبل هوارة وبني راشد، وكان=

مكوّنات الجيش المرابطي المختلف من حيث الأصول والمتباين من حيث القيمة [1]، ودعمته في حملاته العسكرية العديدة بالمغرب الأوسط والأندلس[2].

وإن كانت الأولى مسّت مجال الحليف الحمادي، على الرغم من رابط المصاهرة الذي جمع بين ماخوخ زعيم بني ومانو والناصر والمنصور الحماديين[3].

وهي الوضعية التي لم تتقبلها سلطة بجاية وأبدت ردا عنيفا تجاه حليفتها السابقة "قبيلة بني ومانو" وسلطة المرابطين بتلمسان[4]، والتي تمكّنت فيها من إجبارهم على الانسحاب من مناطق صنهاجة لتحتل بذلك الجهة الغربية، وتشرد زناتة بنواحي الزاب والمغرب الأوسط، وتغزو تلمسان قاعدة المرابطين بالمنطقة سنة 476هـ/1083م[5].

وإن كانت النصوص الوسيطة بعدها تتحدث عن عقد الأمير الحمادي العزيز لصلح مع بني ومانو الزناتية، وإن كان مراجعة لحلف سابق اضطرت إليه هذه القبيلة بعد تراجع نفوذ القوة المرابطية بالمنطقة[6].

1-3-الحراك المجالي القبلي:

اتّبع المرابطون في بداية دولتهم سياسة جعلتهم المالكين لكثير من الأراضي في البلاد الغربية،

=لمغراوة وبني يفرن التقدم عليهم في الكثرة والقوة. ينظر ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.54-55.

وإن تطرق أيضا صاحب صورة الأرض ابن حوقل في القرن الرابع الهجري لهاتين القبيلتين: «ومن قبائل المغرب الخارجة عن صلب زنانة بنو مغراوة وبنو وتاجن وبنو يلوما...وبنو يوجين...وبنو واريفن وبنو يرنيان...وبنو ومانوا...وبنو واسين...».

ينظر ابن حوقل: **المصدر السابق**، ص-ص.102-203؛ الدراجي بوزياني: **القبائل الأمازيغية**، ص-ص.176-179؛ محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.20-21.

Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbèrie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquète Française(1830)*, T.2, Paris, Ernest Leroux Editeur, 1888, p.2-3; Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement des Arabes*, p.48.

1- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.278.

2- عن مشاركة زناتة للمرابطين في حملاتهم بالأندلس ينظر مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية** ، ص-ص.122-123؛ إبراهيم القادري بوتشيش: **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص.244.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.55.

4- **نفسه.**

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.6، ص.176.

6- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.55؛ الهادي روجي إدريس: **المرجع السابق**، ج.1، ص.331.

معتمدين على فتاوى فقهية للتعامل مع القبائل المغلوبة وفق إطار قانوني-شرعي يوّضح كيفية استخلاص الجبايات، ووضعية الأراضي المفتوحة إمّا صلحا أو عنوة[1].

لكن ما طبيعة التعامل الجديد لقبائل المنطقة الشلفية مع مجالاتها الجغرافية؟

لقد مارست قبيلتا بني ومانو وبني يلومي نفوذا مجاليا واسعا على حساب غيرهما من القبائل الزناتية، على الرغم من العلاقة الطيبة التي جمعت بني عبد الواد والسلطة الجديدة، ويحتمل أنّ مشاركة هذه القبيلة الزناتية في موقعة "الزلاقة" "كوحدة محاربة" في الجيش المرابطي سمح لها بالتحرك الحر في ضواحي المغرب الأوسط[2].

ويبدو أنّ السيطرة القبلية بقيت حبيسة بني ومانو وبني يلومي مع التراجع الواضح للدور المغراوي الفاعل حتى الظهور الموحدي بالمنطقة [3]، وهو ما يلمّح إليه ابن خلدون: «إلاّ أنّ الزناتة الثانية لذلك العهد مغلوبون لهذين الحيين وأمرهم تبع لهم إلى أن ظهر أمر الموحدين...»[4].

وإن تحدثت نصوص وسيطة أخرى عن نفوذ قبلي مريني على البوادي الزناتية في العهد المرابطي[5]، وهو ما شكّل قلقا للسلطة المرابطية بدليل سياسة "المصانعة" التي كانت بينهما[6]: «تأمر

1- عمر بنميرة: "فتاوى سياسية من العصر المرابطي-قضية استنزال ملوك الطوائف-" ، **الثقافة والفقه والمجتمع (نماذج من المغرب الوسيط)-دراسة تاريخية-**، الرباط: جذور للنشر، 2006، ص.33؛ عز الدين أحمد موسى : **النشاط الاقتصادي** ، ص-ص.130-131؛ إبراهيم القادري بوتشيش: **حلقات مفقودة**، ص.22؛ ويراجع أيضا علي أومليل: **الخطاب التاريخي – دراسة لمنهجية ابن خلدون-**، ط.4، بيروت-الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005م، ص-ص.192-193.

2- مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص.49.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.55.

4- **نفسه**.

5- ابن الأحمر: **روضة النسرين في دولة بن مرين**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور ، ط.3، الرباط : المطبعة الملكية ، 1423هـ/2003م، ص-ص.21-22؛ ابن أبي زرع : **الذخيرة السنية**، ص.21؛ ابن مرزوق: **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، الجزائر: عاصمة الثقافة العربية (وزارة الثقافة)، 2007، ص.110.

وإن تحدثت بعض المصادر الأخرى عن مجال هذه القبيلة وحدّدته بين أحواز تلمسان وبين تاهرت من شرقها بجوار مجموعة من القبائل الزناتية من بينها : بنو يغمراسن، وبنو توجين، وبنو مغراوة، وبنو راشد...، ينظر مؤلف أندلسي مجهول : **الحلل الموشية**، ص.186؛ أمّا آخر فإنّه يرجع مجالها إلى ما وراء تلمسان. ينظر ابن عبد الحليم : **كتاب الأنساب** ، ص-ص.50-51؛ ابن الأحمر: **النفحة النسرينية واللمحة المرينية**، حقّقه وقدّم له: عدنان محمد آل طعمة، دمشق: دار سعد الدين، (مطبعة الشام) ، 1992، ص،ص.32،24.

6- ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص-ص.21-22؛ ابن مرزوق: **المسند**، ص.110؛ ابن أبي زرع : **الذخيرة السنية** ، ص.20.

«تأمر في عهد لمتونة على جميع بوادي زناتة بالمغرب وبلاد الزاب الأسفل إلى ما يلي مدينة تلمسان وهو الأعذر بن العافية بن عسكر بن محمد بن ورزير بن فجوس بن جرماط بن مرين ويعرف بالمخضب.»[1].

ولو نظرنا للوضعية القبلية المنتشرة بين تلمسان وتاهرت كما وردت في كتاب نزهة المشتاق للإدريسي: «وبين مدينة تلمسان وتاهرت يسكن بنو مرين وورتطغير وزير ورتيد وماني واومانو وسنجاسة وغمرة ويلومان وورماكسين وتجين وورشفان ومغراوة وبنو راشد وتمطلاسن ومنان وزقارة وتيمنى، وكل هذه القبائل بطون زناتة، وهم أصحاب هذه الفحوص، وهم قوم رحالة ظواعن، ينتجعون من مكان إلى مكان غيره...»[2]، نجدها تعبّر عن تغير مجالي للقبائل الزناتية بالمنطقة، ومعنى هذا أنّهم ربما كانوا متقدمين في الشرق جنوب وهران بنواحي غليزان الحالية على حساب منتجعات بني وامانو، ولعل ما يؤيد هذا الطرح حسب أحدهم أنّ بني وامانو كانوا متقلبين في ولائهم للمرابطين أواخر القرن 05هـ/11م، بالإضافة إلى خلافاتها القبلية المستمرة مع بني يلومي مما أضعف "شوكتها"، وسمح لبني توجين التابعين بهضبة السرسو، وبني عبد الواد المتنقلين بين جبال سعيدة إلى التحرك نحو الشمال وعلى مشارف التل والسهول الداخلية [3]، وهو ما يشير إليه ابن خلدون بقوله: «واعتز البدو في نواحي المغرب الأوسط .»[4]، لأنّه حقيقة في حال عجز السلطة في مد نفوذها على الأطراف، تتجه هذه القبائل إلى المناطق الخصبة، وتتوغل في أراضي الدولة مزاحمة لأهلها وفارضة لمنطقها الاستبدادي على غيرها من القبائل.

ولابد أن نعرف أنّ سلطة القبيلة في كل هذا سواء كانت حاكمة أو محكومة هي دوما لشيخها أو لسيدها، فولاء السيد أو عداؤه يعني ولاء القبيلة كلها أو عداءها[5].

1- **نفسه:** ص.21؛ ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.21.

2- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص.111؛ وعلى العموم كان تل المغرب الأوسط وشمال المنطقة الغربية منه يضم قبائل بعضها مستقرة وبعضها رحل كبني بادين، وتشكلت الأغلبية من مغراوة وبني ومانوا وبني يلومي وبني فاتن، ينظر مصطفى الطالبي : **المرجع السابق**، ص.46.

3- **نفسه:** ص-ص.45-46.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.55.

5- محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص.25.

ويرجع التحسن النسبي للوضعية القبلية الواسينية [1] بالمجالات الغربية من المغرب الأوسط لما أبدته من مواقف مؤيدة للسلطة المرابطية بتلمسان، وللتحالفات القبلية مع بني وامانو وبني يلومي، فكان بنو مرين في الغالب حلفاء لبني يلومي لقرب مجالاتهما، في حين كان بنو عبد الواد موالين لبني وامانو[2].

وفي الحقيقة نجد أنّ المنطقة المحيطة بالمدينة مازونة متركبة من "عصبيات بدوية" ، جعلها حسب الرؤية الخلدونية أكثر عرضة للاضطراب الاجتماعي والتوتر السياسي[3].

فإدراك عمق التعارض بين المصالح البدوية، بحكم أنّ كل قبيلة تطلع إلى الأراضي الخصبة من أجل موارد الخيرات، يجعل الاصطدام دائما بينها خاصة إذا كانت السلطة المركزية تعيش وضعا هامشيا بالمنطقة، وفي فترة ضعفها خاصة، يقول ابن خلدون: «فسكان البادية منهمكون غالبا في تحصيل الضروري من العيش واجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفاءة، إنّما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ولذلك فهم يتنازعون دوما مواطن الرزق، ولا يجدون حرجا في الاعتداء على الأموال والممتلكات فمن امتدت عينه متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه.»[4].

فالصراع القبلي ليس صراعا بين القرابات الدموية يرجع إلى مجود الاعتداد بالأنساب، بل هو صراع من أجل البقاء، صراع من أجل العيش[5].

2- المجال الشلفي ومدينة مازونة في الأسطوغرافية الموحدية:

2-1- ملاحظات تمهيدية حول الإشكالية النصية:

1- بنو واسين: وهم أبناء واسين ابن يصلتين وجدهم زانا ابن يحيى، اشتهروا بفرعيهم: بادين و ورتاجن، ومن بادين تفرع: بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو زردال وبنو مصاب، أمّا ورتاجن فمنهم: بنو مرين، أمّا قبيلة بنو راشد فأبوهم راشد أخو بادين =من أبيهما محمد، لذا اندرجوا في بني عبد الواد. ينظر الدراجي بوزياني: **القبائل الأمازيغية**، ص-ص.179-180؛ مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص.45؛ وعن بني واسين ينظر أيضا ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.5؛ وعن بني راشد ينظر ابن عبد الحليم: **المصدر السابق**، ص-ص.50-51.

2- ابن أبي زرع: **الذخيرة السنية**، ص.21؛ مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص.50.

3- محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص-ص.172-173.

4- ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: درويش الجويدي، صيدا-بيروت: المكتبة العصرية (شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع)، 1423هـ/2002م، ص-ص.114-115.

5- محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص.174.

إنّ فرض المجال الشلفي نفسه على الاسطوغرافية الموحدية وإن كان ليس بالصورة التي تسمح لنا بتغطية جميع حيثياته، يجعلنا نتساءل عن مكانة هذه المنطقة التي وفد عليها زعيم الحركة الموحدية المهدي بن تومرت ومرافقيه في طريق عودتهم نحو بلاد السوس [1]، يقول البيدق: «ثم قمنا منها وبتنا بشلف عند الفقيه أبي الربيع، وكتب له الإمام خط يده، وأكرمونا غاية الإكرام ثم منها نحو البطحاء، ولما أشرفنا على البطحاء قطع بنا إنسان يقال له يوسف بن عبد العزيز، وقال: سلام عليكم ورحمه الله وبركاته سألتكم بالله العظيم إلاّ ما سرتم معي، فإن قلبي طاب عليكم، فقال المعصوم: "سيروا معه لا تفسدوا عليه خاطره"، فلما نزلنا عنده قال: "سألتكم بالله العظيم لا تفسدوا علينا سيرتنا، ادفعوا لنا من يختار ضيافتكم من الغنم"، فقال المعصوم لعبد المؤمن: "سر معه"، وقال لي: "مر أنت معه"، فسرت معه حتى وصلنا الغنم فاختار كبشا عسليا أقرن، فلما كان من الغد قال: "بسم الله العظيم اختاروا كبشكم" فقال الإمام المعصوم: "سيروا معه"، فأتينا نحو الغنم، فأخذنا كبشا أكحل العينين والرجلين فأتيته به فذبح، فلما كان اليوم الثالث، سرت معه واخترت كبشا عسليا مثل الأول، وقال الإمام المعصوم في اليوم الثالث: "هل رأيتم أكرم من هذا الرجل، يا شيخ ما اسمك؟ وما اسم أبيك؟"، فأعلمه فكتب له المعصوم خط يده وقال: "أعطني جلدا" فدفع له جلدا من مزود، فأخذه المعصوم وجعل له منه حرزا، وقال له: "يا شيخ أمسك هذا عندك، فإن مت يكن عند بنيك، فإنّه خير لك ولعقبك، حتى يصل إلى هذا الموضع ملك وعسكر، فادفع البراءة من يديك ليد الملك، ولا تعطها أحدا غيره، فقال له: "نعم".»[2]، وإن كنا نرى في هذه الرواية تلميحات هامة عن السلوك المعيشي الذي كانت تعرفه الساكنة الشلفية في هذه المرحلة الغامضة نصّيا.

1- يشير السعيدي إلى أهمية وضع خريطة لمسار ابن تومرت من وجوه عديدة ، وخاصة إذا نحن قارناها بمسيرة الفتح التي قادها عبد المؤمن بن علي نحو الشرق ، ينظر ع.السعيدي: المغرب: توحيد المغرب في عهد الموحدين، **تاريخ إفريقيا العام، إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر)**، مج.4، إشراف: ج.ت.نياني، باريس-بيروت: اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة)-المطبعة الكاثوليكية، 1988، ص.40؛ وينظر أيضا روجي لي تورنو : **المرجع السابق**، ص-ص.17-30؛ وللتفصيل في النصوص الوسيطة يراجع البيدق : **أخبار المهدي بن تومرت**، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1395 هـ/1975م، ص.43 وما يليها؛ عبد الواحد المراكشي : **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد زينهم محمد عزب ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، 1994، ص-ص.156-158؛ مؤلف مجهول: **الحلل الموشية**، ص-ص.106-107؛ الزركشي: **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** ، تحقيق وتعليق: محمد ماضور، ط.2، تونس: المكتبة العتيقة، 1966، ص.5؛ ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب** ، ص.261-262.

2- وهي الرواية التي انفرد بها البيدق، ينظر البيدق: **المصدر السابق**، ص-ص.44-45.

يرى أحد الباحثين أنّ الحوادث الموحدية المذكورة عند الإخباريين تقع كلها شمالا بالقرب من السواحل المتوسطية، فلا نكاد نسمع شيئا عن المناطق الجنوبية التي انطلقت منها حركة المرابطين، ولا على التل الأوسط موطن المواجهات الكبرى بين الفاطميين والأمويين [1]، وأرجع ذلك إلى احتمال فقدان هذه المناطق لأهميتها الاقتصادية فلم تعد غنية كما كانت بالرجال والخيرات[2].

في الحقيقة هذا المشكل النصّي مرتبط بالمنطقة الشلفية بشكل أكبر، لأنّ مجال الحديث عنها محدود، ولا يكاد يمس سوى الجانب السياسي المرتبط أساسا بالسلطة الوافدة، وإن كنا لا نرجع ذلك إلى احتمالية هذا الباحث.

يأتي الحديث عن البلاد الزناتية المصطلح السائد في النصوص الموحدية أيضا[3]، بعد قرار عبد المؤمن بن علي بتوجيه حملاته نحو البسائط الواقعة بين تلمسان ووهران [4]، «لما كان الأمير أبو محمد عبد المؤمن نازلا على تلمسان بالجبل المعروف بالصخرتين في شهر المحرم مفتتح عام تسع وثلاثين كان أول افتتاحه على أيدي الموحدين فتحا عظيما بشرقي تلمسان هزم فيه الموحدون عساكر من عساكر تاشفين كانت خرجت لبلاد زناتة، فكانت الوقيعة فيهم من أكبر الوقائع.»[5].

إلاّ أنّنا إذا أردنا أن نعرّف التواجد الموحدي بالمنطقة، لابد أن ندرك أنّ استنتاج روجي لو تورنو حول أنّ القبائل الثائرة كانت كلها تقريبا قبائل من أهل السهول، والتي وقفت بحزم ضد السلطة التي استحوذ عليها أهل الجبال "المصامدة"، وأحالها للخصومات القائمة بين النمطين الغريبين والمتضاربين، فكان لطبيعة الحياة القبلية والخلافات الدينية دورا في هذه المقاومة، وبالتالي

1- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.318.

2- **نفسه**.

3- مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية**، ص،ص.184،132،130؛ ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)**، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، بيروت-الدار البيضاء: دار الغرب الإسلامي-دار الثقافة (الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر)، 1406هــ/1985م، ص.17؛ ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، تونس: مطبعة النهضة، 1350هــ/1931م، ص.72؛ ونجد عند الزهري أيضا استعماله لهذا المصطلح ، حيث : «ومن البحر الأعظم من أقصى بلاد السوس وبلاد المغرب ويتصل ببلاد الزناتة في الشمال ، فيستمر في المشرق بين ورقلان وإفريقية حتى ينتهي بالقرب من القيروان.»، ينظر الزهري: **المصدر السابق**، ص-ص.116-117.

4- ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص.260؛ ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)** ، ص-ص.16-23،45-47؛ مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية**، ص.130؛ البيدق: **المصدر السابق**، ص.100 وما يليها؛ روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص-ص.62-63.

5- ابن عذاري المركشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.17.

فرضوخ القبائل السهلية –حسبه- كان أصعب مقارنة بنظيرتها الجبلية[1]، ويحيلنا هذا الاستنتاج إلى طبيعة التلميحات التي يلجأ إليها المستشرقون، والتي تداولت كثيرا معنا في هذا الموضوع.

2-2- القبيلة والسلطة ولاء أم اصطناع جديد:

إنّ قراءتنا لنصّية الأحداث التي زامنت الحركة الموحدية في توسعاتها بالجهة التي تنتمي لها مازونة، تجعلنا أكثر يقينا بأنّ الفعل السياسي للمجموعة القبلية الزناتية أصبح أكثر استقلالية، وأنّ حدود العلاقة لا تتعد تزويد السلطة المرابطية عند الحاجة بالرجال المقاتلين أو مقابل مجرد مسالمتها وعدم الاعتداء على مناطق نفوذها [2]، بحكم أنّ البلاد الزناتية كانت أكثر عرضة للاضطراب الاجتماعي والتوتر السياسي، «إنّ الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أن تستحكم فيها دولة، وذلك لاختلاف الآراء والأهواء.»[3]،كما أنّ هذا الوضع غير القار جعل القبيلة في البلاد الزناتية تعيش وضعا هامشيا عن سلطة مراكش المرابطية ومن بعدها الموحدية، والتي تكتفي منهم في حال قوتها بالولاء والتبعية الاسمية فقط.

لا نريد الدخول في دراسة الرؤية الاستشراقية حول التناقض بين النمطين السهلي والجبلي ودوره في تأزيم الوضع القبلي بالمغرب الوسيط [4]، إلاّ أنّ النزعة الاستقرارية لمصامدة الجبال والتي

1- روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص،ص.37،64؛ لكن يمكن التساؤل هل اعتمد روجي لي تورنو على النص الخلدوني التالي: «وخرج تاشفين بعساكره يحاذيه في البسائط والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن، وهو ينتقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والحطب للدفء »، ابن خلدون: **العبر**، مج.6، ص.230؛ ويوضح محمد القبلي هذه التجربة الموحدية حيث يذكر أنّ النفاذ إلى السهل بالنسبة للموحدين الأوائل لم يكن يعني مجرد التحرك من أجل الانتشار، وإنّما كان يعني رفع الحصار العسكري المضروب على الحركة التومرتية من قبل المرابطين، وبالتالي على الجبل، ومعلوم أنّ هذا الحصار نفسه هو الذي حكم على التحرك البشري الموحدي بالانصراف مؤقتا عن السهل وإعطاء الأولوية إلى التحكم في الجبل على امتداد السلسلة الأطلسية كلها، بالإضافة إلى مرتفعات غمارة بالريف المغربي، وكل ذلك بهدف تطويق السهل بدوره وإجبار الحاكم على المطاردة والنزال في ميدان غير ميدانه، ينظر محمد القبلي: حول التحركات البشرية، ص.78؛ وفي نص لابن خلكان يمكن توضيح طبيعة التوسع الموحدي بالمنطقة: «ولما خرج عبد المؤمن بن علي قاصدا جهة البلاد المغربية ليأخذها من علي بن يوسف بن تاشفين ، كان مسيره على طريق الجبال، فسيّر علي بن يوسف ولده تاشفين ليكون في قبالة عبد المؤمن ومعه جيش، فساروا في السهل ، وأقاموا على هذا مدة...»، ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس ، مج. 7، بيروت : دار صادر، ص-ص.126-127.

2- محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص.25؛ عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي– تنظيماتهم ونظمهم–**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411هـ/1991م، ص.50.

3- ابن خلدون: **المقدمة**، ص.153.

4- روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص.21.

دفعت بهم إلى توطّن المدن[1]، على الرغم من سيطرتهم على ما في قبضة المرابطين من سهول[2].

تجعلنا نتساءل على استمرارية هذه الممارسة في المجال السهلي الشلفي، وما مدى تفاعل القبائل الزناتية في مجالاتها البدوية مع هذا الواقع[3]؟

بعد تعزيز عبد المؤمن بن علي لمركز الموحدين في المغرب الأقصى، أصبح جائزا أن تخامره أفكارا محددة جدا في المجال السياسي، وهي أن يضمن لنفسه قبل كل شيء قاعدة متينة بتوحيد المغرب ثم الانطلاق بعد ذلك إلى ما وراء المضيق [4]، لتبدأ العملية التوسعية الثانية فيما وراء حدود ممتلكات المرابطين[5].

لم يتغير وضع القبيلة الزناتية "كوحدة محاربة" في الجيش المرابطي مع بداية هذه الحملة [6]، وهو ما لمّحت إليه الاسطوغرافية الموحدية: «...فخرج إليه الوالي على تلمسان حينئذ محمد بن يحي بن فانو بعسكر من زناتة وغيرهم، فالتقى معهم وقتل محمد بن يحي المذكور في [وادكان] هنالك وانهزم عسكره وافترقت زناتة إلى بلادها وولى تاشفين أبا بكر بن مزدلي...»[7].

إلاّ أنّ الوضع القبلي المتأزم في المنطقة أدى إلى خروج قبيلة مثل بني وامانو المنتشرة بالمنطقة الشلفية بعد تقوّض نفوذها لصالح قبائل زناتية أخرى ومنح ولائها للسلطة الجديدة قد يساهم في امتلاكها لمجالات بدوية أوسع ، أو المحافظة على ما لديها [8]، «...وطاع بنو ومانو من زناتة لعبد المؤمن ووصلوا إليه بالريف منهم بنو ماخوخ ويوسف بن يدر وغيرهم فأرسلهم مع بعض الموحدين إلى ابن يومور وابن زجو فتوجهوا بعسكر إلى بلادهم فطاع جميع إخوانهم...»[9].

1- عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.79.

2- **نفسه**؛ محمد القبلي: حول التحركات البشرية، ص-ص.79-80.

3- يمكن ملاحظة المزيد من المعلومات حول علاقة السلطة الموحدية بالأراضي في البلاد المغربية عند عز الدين أحمد موسى : **النشاط الاقتصادي**، ص-ص.134-141.

4- ع.السعيدي: المرجع السابق، ص.56

5- عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص،ص.48،42.

6- إنّ الصراع بالبلاد الزناتية مع نهاية الفترة المرابطية وبداية العهد الموحدي ومشاركة قبيلة زناتة فيه ، بحكم الوضع الديموغرافي المميّز الذي تحتله، ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.18.

7- **نفسه**.

8- مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص.50.

9- ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.18؛ مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية**، ص.136؛ وعن وعن مثل هذه الفكرة ينظر أيضا ابن القطان: **نظم الجمان بترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، درسه وقدّم له وحققه: محمود

ساهم هذا الوضع في توتر المنطقة الزناتية خاصة وأنّ انحياز قبائلها أصبح منقسما[1]، وأمام التفوق الموحدي بداية من 539هـ/1144م[2]، ورغبة القبائل في الحفاظ على المكاسب المجالية ، جاء الاعتراف بالسلطة الموحدية كقوة بديلة وجب التعامل معها وفق المصالح القبلية، وهو ما يطرح إشكالية التقبل عند القبائل الزناتية لمذهب "أهل التوحيد"[3].

ويبدو أنّ من يوحّد من البربر يدخل ضمن عناصر الجيش الموحدي [4]، وهي السياسة التي استمرت حتى خلافة الناصر [5]، إلاّ النصوص الموحدية ميّزتها بتسميات مختلفة مثل: "القبائل من الرعية"، و "القبائل"، و "قبائل المغرب"، و "أصناف البربر"[6]، بالإضافة إلى ثلاثة مصطلحات أخرى يحيط بها الغموض، وقد تكون مرتبطة بالقبائل البربرية من غير الموحدين أيضا ، وهي: "الحشم"[7]

علي=

=مكي، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 1990، ص-ص.254-255؛ البيدق: **المصدر السابق** ، ص-ص.100-101؛ ونلاحظ في هامش هذا الكتاب أيضا أنّ زيري بن ماخوخ هو غير أبي بكر بن ماخوخ الذي وحّد عندما كان عبد المؤمن في بلاد غمارة، وأنّه غير تاشفين بن ماخوخ الذي لحق صريخا بعبد المؤمن بن علي وسار معه إلى تلمسان بعد أن أوقع الربرتير وأحلاف المرابطين بقومه، **نفسه:** ص.100.

1- ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص-ص.18-20.

2- يوضح صاحب الأنيس المطرب المدن التي تبعت عبد المؤمن الموحدي سنة 540هـ/1145م في النص التالي: «وفيها فتح عبد المؤمن مدينة فاس ومدينة تلمسان ووهران وأحواز ذلك كله...» ، ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص.345؛ أمّا في سنة 546هـ فتح عبد المؤمن جبال ونشريس ومليانة وجزائر بني مزغنة وبجاية ، **نفسه:** ص.346، ويحتمل أنّ بداية التبعية المجالية الشلفية للموحدين بدأت سنة 546هـ/1151م.

3- يرى محمد القبلي أنّ أول ما يلاحظ بالنسبة لهذا التحرك الأول أنّ سيطرته على الساحة السياسية -العسكرية لم تفض دائما إلى ما كان يصبو إليه القادة المؤسّسون من سيطرة روحية أو نفوذ معنوي عبر اعتناق العقيدة الموحدية التومرتية ، وتبنيها على مستوى الشعور التلقائي والإحساس، ولربما ازداد انصراف العامة عن نظرية "التوحيد" بسبب ما اتسمت به من "تقنية كلامية" ممتنعة وانتقائية نظرية في غير متناول الجميع، يراجع محمد القبلي: حول التحركات البشرية، ص.93؛ وللتفصيل كذلك ينظر عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص-ص.196-198؛ روجي لي تورنو: **المرجع السابق** ، ص،ص.64، 68؛ وعن المذهب المالكي بالمنطقة ينظر إبراهيم القادري بوتشيش: "صحوة المذهب المالكي في الغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري-محاولة تفسير-"، **حلقات مفقودة**، ص-ص.82-103.

4- عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص.218.

5- **نفسه:** ص.218.

6- **نفسه:** ص.219.

7- لقد وردت كلمة الحشم عند ابن صاحب الصلاة عند حديثه عن الخليفة الموحدي يوسف ابن عبد المؤمن عندما خرج لاستقبال عسكر إفريقية وبجاية وتلسمان ، «كما خرج الموحدون وكذلك سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد» ، وقد لا تعني كلمة "الحشم" إلاّ القبائل البربرية من غير الموحدين، وما يدفع إلى هذا القول أنّ المرابطين كانوا يطلقون على القبائل البربرية من غيرهم لفظة "الحشم"، هذا بالإضافة إلى أنّ الموحدين أطلقوا على المرابطين أنفسهم كلمة "الحشم"، وربما توسع

و"الجند"[1] و "عبيد المخزن" [2]، ولعل هذا ما يؤكد عدم تبني هذه القبائل للعقيدة الجديدة ، التي سنتوسع فيها لاحقا.

وعلى الرغم من الانحياز المبكر لبني ومانو[3]، إلاّ أنّها لم تكن تملك من القوة ما يسمح لها بالدفاع عن العقيدة الجديدة، والوقوف في وجه الذين عارضوا وحاربوا الدعوة الموحدية كبني يلومي وبني مرين[4]، وهو الدور الذي تحملته قبيلة بني عبد الواد فيما بعد مقابل امتياز استغلالها للبسائط الداخلية ومد نفوذها تدريجيا نحو التل على حساب مجالات بني يلومي وبني ومانو [5]، «...ولما ملك الموحدون بلاد المغرب الأوسط وأبلوا من طاعتهم وانحياشهم ما كان سببا لاستخلاصهم فاقطعوهم عامة بلاد بني ومانوا واقاموا بتلك المواطن. ..»[6].

بالإضافة إلى امتداد مجالي تلي لقبائل أخرى حليفة لبني عبد الواد [7]، «...وكان هؤلاء الأحياء من زناتة بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو راشد غلبوا على ضواحي تلمسان والمغرب

الموحدون =

=في استعمال الكلمة، فأطلقوها بعد سقوط دولة المرابطين على القبائل البربرية من غيرهم ، لاسيما وأنّ كلمة "الحشم" قد تعني الأعوان وأنصار من الأهل أو العبيد ، ولكن يبدو أنّ استعمال الكلمة كان قليلا ، فلهذا لم ترد معنا كثيرا في المصادر. يراجع عز الدين عمر موسى : **الموحدون في الغرب الإسلامي** ، ص.219؛ عبد العزيز بنعبد الله : **الموسوعة المغاربية للأعلام البشرية والحضارية –معلمة المدن والقبائل–** (ملحق 2)، المحمدية: مطبعة فضالة–مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، 1397هـ/1977م، ص.183؛ وأيضا مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية** ، ص،ص.122،110،33-123؛ البيدق: **المصدر السابق**، ص.65؛ ابن مرزوق: **المسند**، ص.365.

1- مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية**، ص.109.

2- عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص–ص.219-220.

3- ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب(قسم الموحدين)**، ص.18.

4- يحيى بن خلدون : **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** ، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات ، ج.1، الجزائر: إصدارات المكتبة الوطنية–الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1400هـ/1980م، ص–ص.189-190؛ الدراجي بوزياني: **القبائل الأمازيغية**، ج.1، ص.177.

5- يحيى بن خلدون : **المصدر السابق**، ج.1، ص،ص.189،187-190؛ مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص–ص.51-54؛ ابن الأعرج السليماني: **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، (مخ.خ.خ.ح.ر.) تحت رقم: 170، و.29-31.

6- مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص–ص.55-58.

7- يحيى بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص–ص.198-200؛ مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص–ص.55-58.
Ernest Mercier, *Histoire de l'étabiblement des arabes*, p.229.

الأوسط وملوكها وتقلبوا في بسائطها وامتازوا بإقطاع الدولة الكثير من أرضها، والطيب من بلادها...وكان بنو عبد الواد من ذلك فيها بين البطحاء وملوية ساحله وريغه وصحراؤه...»[1].

ولعل السياسة الموحدية المتبعة في هذه المنطقة والرامية إلى إرساء قواعد دولة "أهل التوحيد" من خلال منح امتيازات إقطاعية لقبائل دون أخرى، ولبعض الأسر الزناتية العريقة "كبني منديل"[2] -سنعود لها لاحقا- تركت وضعا منتفضا بهذه الجهات، وهو ما يزيد في صعوبة تتبع الحركية الحضرية بالمنطقة الشلفية[3].

2-3- بنو غانية والمنطقة:

2-3-1- الظهور الأوّل:

بدأ يعقوب المنصور الموحدي 580هـ/1184م-595هـ/1198م-1199م عهده في ظروف استثنائية عرفت تفاقم الاضطرابات في المغرب الأوسط وإفريقية[4]، وقد تسبّب فيها هذه المرة أعوان معارضون عملوا على الإطاحة بالنظام الموحدي هم بنو غانية[5]، والذين قرّروا في تلك تلك الفترة نقل نزاعهم مع الموحدين إلى البلاد المغربية ومباغتتهم لميناء بجاية سنة 581هـ/1185م[6].

وإن كانت هذه العملية لا تهمنا بشكل خاص، إلاّ أنّها عبّرت عن حقيقة هشاشة السلطة الموحدية التي كانت تواجه عداوات كثيرة[7]، لا شك أنّها تضافرت لتسهيل عمل مرابطي ميورقة

1- ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.30.

2- عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.145.

3- يرى روجي لي تورنو أنّ الطبوغرافية أضافت صعوبات أخرى، إضافة إلى صعوبات المسافة، فقد كان ثمة شيء من الغرور في المجازفة حسبه بالاحتفاظ بجماعة سياسية متناثرة تحت سلطة مركزية واحدة ، روجي لي تورنو : **المرجع السابق** ، ص-ص.115-116؛ وأيضا عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.73.

4- ع.السعيدي: المرجع السابق، ص.62؛ وللتفصيل ينظر أيضا ابن قنفذ: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، تونس: الدار التونسية للنشر، 1968، ص.103.

5-ع.السعيدي: المرجع السابق، ص.62؛ وللتفصيل حول بني غانية ينظر عبد الواحد المراكشي: **المصدر السابق**، ص.223.

6- ابن عذاري المركشي : **البيان المغرب(قسم الموحدين)**، ص-ص.175-177؛ الزركشي: **المصدر السابق**، ص.15؛ عبد الواحد المراكشي: **المصدر السابق**، ص.223؛ عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.330؛ روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص-ص.83-84.

7- يطرح عبد الله العروي تساؤلا مهما حول هذه الفكرة بالذات، حيث يقول: كيف نفهم مقاومة يحيى بن غانية الطويلة

التي امتدت تحركاتهم غربا نحو الجزائر ومليانة، وإن لم يتوغلوا كثيرا خشية الاصطدام بأهالي منطقة تلمسان الموالية للموحدين [1]، «...واقتفى الشقي آثاره فأخذ الجزائر وقدّم عليها يحي بن أخيه طلحة وانتهى إلى مليانة فأخذها وقدم عليها يدر بن عائشة، ووقف بها فنكص على عقبيه، ورأى أنّ الذي حصل له فوق قدره ومطلبه فرجع إلى بجاية...»[2].

ولعل هذه السرعة في الامتداد المجالي المي ورقي تؤكد الهامشية التي كانت تعيشها الجهات الغربية[3]، خاصة وأنّ بني غانية بعد تنصيب العمال والحاميات أخذوا في محاولة الامتداد في المنطقة الشلفية المجاورة لمازونة وناحيتها: «...وخيل يدر بن عائشة صاحب مليانة تضرب إلى مازونة ونواحيها، وقد أضرم نار الفتنة في بطون تلك الجبال وأعاليها...فاخذ الناس من تلمسان أهبتهم واستوفوا منها أقواهم وأزودتهم...وكان يدر بن عائشة صاحب مليانة قد أسرى منها فأقتفى أهلها أثره فلحق بالقرية المعروفة بأم العلو وعرض عليه النزول على وجه التضييق، ثم قبض عليه بأطراف النهر بعد معاركة ومحاربة وسيق جمعهم مصفدين...»[4].

وفي ظل تطورات هذه الأزمة كان لزاما على يعقوب المنصور الذي لم تكن قد مرّت أكثر من خمسة أشهر على اعتلائه العرش ، أن يثبت بالدليل المحسوس كفاءته وحزمه ، لذلك عمل وبشكل مكثف على توجيه حملة عسكرية ضد بني غانية لاستعادة هذه الجهات[5].

وعلى الرغم من تمكن الخليفة الموحدي من فرض تراجع مؤقت على بني غانية، إلاّ أنّ سياسة "منح الأمان" "التي اعتمدها تجاه المدن التي خرجت عن سلطته[6]، تثبت أنّ سكانها لم يبدوا

الشرسة، والموحدون في أوج قوتهم وسلطانهم، إذا لم ندخل في الحساب أنّه كان يمثّل معارضة أوسع يقودها فقهاء المالكية؟ حيث لا شك أنّ هؤلاء كانوا يفضلون حكم بني غانية وجنود البدو على سيطرة الموحدين، عبد الله العروي: **المرجع السابق** ، ج.2، ص.331؛ ويراجع أيضا روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص-ص.83-84.

1- عن سهولة حملة بني غانية بالمنطقة ، يرى روجي لي تورنو أنّه لم يكن في المغرب الأوسط سوى عدد قليل جدا من جنود الموحدين، وهذا دليل على أنّ البلاد كان يسودها الهدوء تماما ! روجي لي تورنو : **المرجع السابق**، ص-ص.83-84؛ ويراجع أيضا ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.177.

2-**نفسه**.

3- روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص.84.

4- ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.178؛ ويراجع أيضا الحميري: **المصدر السابق**، ص.568.

5- أمبروسيو هويثي ميراندا: **المرجع السابق**، ص.314؛ ويراجع أيضا ابن عذاري المراكشي : **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.178.

6-أمبروسيو هويثي ميراندا: **المرجع السابق**، ص.314.

سلوكا ثوريا للمحافظة على تبعيتهم لسلطة مراكش [1]، يقول ابن عذاري المراكشي : «...وقد كان أبو يوسف المنصور اتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتابا لأهل سائر البلاد المغلوب عليها بالأمن والأمان والصفح والإحسان، ولما دنت من البلاد دسوا بالكتب جواسيس دخلوا بها ليلا إلى البلاد واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب، وأنّ العفو والرحمة لهم مفتحة الأبواب، وثبوا على من كان عندهم من الأعداء، وارصدوا لفرارهم بالمضايق، وقبضوا على أكثرهم بتلك المخانق وسبقت الأساطيل ففتحت الجزائر قبل وصول أهل البر وضربت الطبول في يوم واحد على فتح الجزائر ومليانة وقبض على يحي صاحب الجزائر وحواشيه وأتباعه وغواشيه...»[2].

وحتى وإن فشلت الحركة الميورقية الأولى[3]، إلاّ أنّها اعتبرت ضربة هامة للسلطة الموحدية كان أثرها لا يزال محسوسا في الوقت الذي كتب فيه مؤلف "المعجب" (620هـــ-621هـــ/1224م-1225م) [4].

2-3-2- بنو غانية مجددا:

وفي الظهور الثاني لبني غانية بعد بناء قواها ، من خلال تدعيمها بتحالفات مع قراقوش الغزي[5]، أصبح المغرب الأوسط حسب أحدهم أكثر ملائمة لتركيز هجماتهم عليه بعد الضعف

1-وفي النص التالي لصاحب الروض القرطاس يمكن ملاحظة مشاركة زناتة ليحيى الميورقي سنة 602هـــ/1205م: «وفي سنة اثنتين وستمئة ولّى أمير المؤمنين الناصر، الشيخ عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص جميع بلاد إفريقية وارتحل إلى المغرب، فلما وصل وادي شلف خرج عليه يحي الميورقي في جيش عظيم من العرب وصنهاجة وزناتة، فتقاتلا قتالا شديدا انهزم فيه الميورقي= =هزيمة عظيمة وذلك يوم الأربعاء عقب ربيع الأول سنة أربع وستمئة.» ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب** ، ص.307، لقد وجدت هذه القبائل الزناتية الناقمة على الموحدين مبتغاها في بني غانية يراجع مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص.61.

2-ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.172.

3- **نفسه:** ص-ص.178-179.

4- ع. السعيدي: المرجع السابق، ص.64.

5- قراقوش الغزي: صاحب طرابلس، عنه ينظر ابن قنفذ: **الفارسية**، ص-ص.103-105؛ ويطلق لفظ الأغزاز في خلافة المنصور الموحدي ومن بعده على ما يسمى في المشرق بالأتراك ، فالمصادر المغربية بما فيها الرسائل الموحدية الرسمية قبل خلافة المنصور لا تورد لفظ الأغزاز أو الغزّ بل تسميهم "الأتراك" أو "الأكراد"، بينما تطلق المصادر بعد ذلك على المجموعة نفسها لفظ الأغزاز أو الغزّ، يراجع عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص-ص.122-123؛ وقد دخل الأغزاز منطقة طرابلس سنة 569هـــ/1173م مع قراقوش مملوك تقي الدين أخ صلاح الدين الأيوبي ، يراجع عز الدين عمر موسى : **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص-ص.224-226.

الذي أصاب العرب البدو فيما بعد عملية الإبعاد الكبرى، أو حركة الهجرة القسرية التي تمت سنة 583هــ-584هــ/1187م-1188م[1].

ولعل وضعية بني غانية في إفريقة جعلت أبو عبد الله محمد الناصر الموحدي (595هــ-610هــ/1199م-1214م) [2] يركز جهوده للحد من توسعاتهم الغربية، إلاّ أنّه لم يوجه قوات كبيرة نظرا للظروف التي عايشها المغرب الأقصى في تلك الفترة، ليعتمد فيما بعد إستراتيجية جديدة بمهاجمتهم من الناحية الشمالية.

وعلى العموم فالصراعات (الموحدية-الغانية) عرفت تداخلات حدثية عديدة لمجالات واسعة من البلاد المغربية في النصوص الوسيطة[3]، لكن هل أثّرت هذه الحملة على وضعية المجال الشلفي وحتى المازوني؟

يعتبر النص الخلدوني الوحيد الذي يثير حركية المنطقة في هذا الصراع ، الذي أصبح قريبا جدا من تلمسان؛ القاعدة التي تمثّل السلطة الموحدية بالمغرب الأوسط : «...فطمع يحي ابن غانية في استرجاع أمره وسبق إلى الثغور والأمصار يعيث فيها ويخرّبها، ثم تجاوز إفريقية إلى بلاد زناتة ، وشنّ عليها الغارات واكتسح البسائط وتكررت الوقائع بينه وبينهم...»[4].

وهي الحملة التي هلك فيها الزعيم المغراوي منديل بني عبد الرحمان سنة 622 هــ أو 623هــ/1226م أو 1227م[5]، «...فجمع له منديل بن عبد الرحمان ولقيه بمتيجة وكانت

1- **نفسه:** ص.225.

2- هو أبو عبد الله محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي.

3- في مقال للباحث علاوة عمارة في معرض حديثه عن المؤرخ البلجيكي جاك تيري"*Jacques Thiry*" الذي تخصّص في دراسة الصحراء الليبية في تاريخ بلاد المغرب الوسيط ، رفض ربط الوجود الهلالي بانحطاط حضارة المغرب الإسلامي ، مرجعا ذلك بالأساس للصراع المدّمر بين حركة بني غانية الميورقيين والموحدين في نهاية القرن السادس الهجري –الثاني عشر الميلادي ، ومقاله هو:

Jacques Thiory, «L'Egypte et le déclin de l'Afrique du Nord XI-XIIe siècle, Egypt and syria in the fatimid, Ayyubid and Mamloukn Earas», Leuven, Vitgeverij Peetens, 1998, p.237-248.

يراجع علاوة عمارة: "الهجرة الهلالية"، ص-ص.10-11؛ ويمكن مراجعة ابن الشمّاع : **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق وتقديم: الطاهر بن محمد المعموري ، تونس: الدار العربية للكتاب ، 1984، ص.49؛ ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.252؛ عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص.226

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.64

5- يقول ابن خلدون (بتصرف) أنّ عبد الرحمان كان له من الولد منديل وتميم ، وكان أكبرهما منديل، فقام بأمر قومه إلى حين

الدبرة عليه، وانفضت عنه مغراوة فقتله ابن غانية صبرا سنة ثنتين أو ثلاث وعشرين وتغلب على الجزائر اثر نكتبه فصلب[...]وصيره مثلا للآخرين، وقام بأمره في قومه بنوه وكان منجبا، فكان لهم العدد والشرف...»[1].

وحتى وإن ظهر أنّ هناك معارضة مغراوية لوجود بني غانية، إلاّ أنّ ابن خلدون يشير إلى ولاء مصطنع للشيخ المغراوي تجاه السلطة الموحدية في عهد خليفة الناصر يوسف المنتصر "أو المستنصر، بعد محاولاته لمد المجال المغراوي الشلفي لنواحي متيجة[2].

«...وكان بسيط متيجة لهذا العهد في العمران آهلا بالقرى والأمصار..فجاس خلالها وأوطأ الغارات ساحتها وخرّب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها وهو في ذلك يوهم التمسك بطاعة الموحدين وأنّه سلم لمن سالمهم حرب لمن عاداهم...»[3].

وإن برّر روجي لي تورنو سهولة الحراك الميورقي المرابطي الجديد في "البلاد الزناتية" بقلة الجنود الموحدين في مغرب أوسط يسوده هدوء قبائل سهلية وجدت في بني غانية ذريعة للثورة ضد السلطة الموحدية الجبلية[4]، ولعلّ هذا ما يعبّر عنه النص التالي: «...فرحل لتلمسان [ذكر ولاية السيد أبي عمران مدينة تلمسان وحركته منها لحرب ابن غانية...]، بمن معه من عسكره وخدمته وشهوده وقاضيه وأبرز ثقاته ومشوا عن رحله آمنين غير محترسين، والمتجسسون من زناتة المستوطنين بتلك الجهات لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة ولا يرعون شريعة ولا ذمة، فتسللوا إلى ابن غانية وقومه وأطلعوهم على عورات العسكر، وما هو فيه من إضاعة الحزم وقلة الحذر، وتسابقوا إلى السيد من جهة أخرى...ويبعدون له نواحي العدو، ويهونون عليه أمره ويحذرونه إلى جهته وتارة يحرضونه على لقائه والزحف له، فتحير السيد برهة، ثم تأهب بعض تأهب و لم يكن إلا قبل أن يلتئم جمعه، وتكمل تعبئته ويأخذ أهبته...إذ غشيته أسراب العدو...، وطلعت عليه ساقات ابن غانية، وكان له كالمنتظر، فثبت السيد مع من كان في موكبه

حين عصفت رياح الفتنة وسما لمنديل أمل في التغلب على ما يليه...ثم فسح خطوة إلى ما جاوره من البلاد فملك جبل وانشريس والمدية وما إلى ذلك واختط قصبة مرات ينظر ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.64.

1- **نفسه.**

2- فحص متيجة المتصل بجزائر بني مزغناي، وهو عبارة عن فحص كبير كثير الخصب والقرى والعمائر، تشقه الأنهار وهو مرحلتين في مثلها قد أحدقت به جبال مثل الإكليل، وفي آخر هذا الفحص جبل عليه الطريق وهذا الوصف يرجع للقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، يراجع مؤلف مجهول (ينسب لابن عبد ربه الحفيد): **المصدر السابق**، ص.132.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.64.

4- روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص-ص.83-85؛ ويراجع أيضا ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص.307.

واصطلمتهم العرب قتلا وأسرا، وفرض أفلتته الرماح خيلا وذعرا، واستشهد السيد أبو عمران مع من صبر معه...، واستولى العدو على المحلة وأثقالها...وتبسطت جموعه على تلك الجهات...وأرسلت العرب في تلك النواحي جموعها، أخذوا ينتهكون عمرانها ودامت على قطر تلمسان مدرهم...» [1].

فالتغيّرات المحالية التي عرفتها هذه الجهات بعد التفوق العبد الوادي وحلفائهم، يعبّر عن واقع قبلي متأزم أثار القبائل التي لجأت إلى المشارف الصحراوية كمغراوة وبني وامانو وبني يلومي ضد السلطة المانحة[2]، والتي وجدت في تسهيل عمل الميورقيين فرصة لضمان العودة إلى مراكزها التلية، حتى أنّها انضمت إليهم وأخذت في تهديد السلطة بتلمسان بعد اغاراتها على الجهات الغربية القريبة، كما حدث مع مقتل الوالي الموحدي أبي عمران موسى سنة 605هــ/1208م، وتقدم ابن غانية وحلفاءه شمالا [3]، وهي الوضعية التي أدّت بابن خلدون إلى القول: «إنّك لم تعد تر به نارا موقدة ولا تسمع فيه ديكا يصيح.»، حيث أرهق بنو غانية المنطقة بعملياتهم التخريبية الرهيبة وباقتحامهم لعدة مدن وبوادي خاصة في المنطقة الشلفية[4].

وبغض النظر عن هالة هذا الوصف، إلاّ أنّه قد يعبّر عن وضع متوتر بالجهات الشلفية التي تواصلت بها أزمة المحالية القبلية الزناتية بعد السلطة الواسعة التي منحت لبني عبد الواد من قبل الوالي الموحدي ابن يوجان 605هــ/1208م-617هــ/1221م[5]، وأدّت بالشيوخ الزناتيين

1- يظهر هذا النّص المشاركة الزناتية والعرب الهلالية لبني غانية في عملياتهم بالمنطقة التي مسّت الجهة الشلفية أيضا ، حيث كانت تعيش وضعا متوترا، ينظر ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.252.

2- روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص.85.

3- ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.252؛ مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص-ص.61-62.

4- جورج مارسي: **تلمسان**، ص.34.

5- يبدو أنّ سياسة ابن يوجان اتخذت مسارا مغايرا للأول (أي أبو عمران موسى) بعد وفاة الناصر الموحدي، فحاول أن يجعل لنفسه قاعدة متينة بالمغرب الأوسط، بالاعتماد على قبائل بني يادين، وخاصة بني عبد الواد، كما أنّ هذا الوالي سعى إلى إحكام القبضة على القبائل الزناتية، وتصفية الشيوخ المشكوك في ولائهم، فعندما نزل سير ابن غانية تلمسان وهو قاصد مراكش سنة 607هــ/1210م، دبر ابن يوجان مؤامرة لاغتيال ابن عطية التوجيني الثائر بالشلف (ومن المحتمل أنّ هذا الأخير كان متواطئا مع ابن غانية)، وعن هذه الولاية لأبي زيد ابن يوجان ، ينظر ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)** ، ص-ص.253-254؛ مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص-ص.62-63.

في خلافة العادل الموحدي للتحرك واقتطاع أراضي المناطق التلية، كما حدث مع حملة الزعيم المغراوي منديل بن عبد الرحمان على متيجة[1].

وعلى العموم لا يمكن إغفال أنّ هناك تداخلا لأسباب عديدة عايشت الفترة الغانية بالمنطقة، حدّدت وضعيتها لفترة زمنية لاحقة[2].

3- حراك أعرابي متواصل (التغريبة الأخرى):

3-1- الوجود الهلالي بين العفوية والإرادة السياسية:

قد تكون رؤيتنا السابقة للخارطة القبلية البربرية في المنطقة وتعقيداتها المجالية، لا تعبّر عن شمولية التطورات الجغرافية والسياسية التي ميّزت المرحلتين المرابطية والموحدية، بحكم أنّ التحركات البدوية العربية عرفت استقداما "مقننا" مع حاجة السلطة الجديدة لهم في عملياتها الحربية، فهل كانت التغريبة الثانية للعرب"البدو" نقطة تحول في تاريخ المنطقة[3]؟

يبدو أنّ فكرة الاستفادة من الطاقة القتالية لدى العرب، واستقدامهم إلى البلاد الغربية قد جالت بفكر بعض ملوك الطوائف ثم المرابطين[4]، وإن كان الأندلسيون قد عدلوا عن الفكرة خشية أن يخرب العرب الأندلس كما خرّبوا القيروان، فالمرابطون نفوذها بدليل الروايات التاريخية عن اشتراك العرب مع الجيش المرابطي في حملاته العسكرية[5].

وإن كان عز الدين أحمد موسى يعتقد بعدم وجود سياسة مرابطية منظمة للاستفادة من طاقة هؤلاء "البدو"، حيث لم يقوموا بدور عسكري كبير لقلة عددهم[6]، فبوتشيش يرى أنّه لا يمكن تجاهل وجودهم كشرائح اجتماعية ضمن سكان المغرب والأندلس، خاصة وأنّ الدولة المرابطية دولة حرب تشجع على قدوم مثل هذه العناصر لاستعمالها في مشروعاتها الحربية، منتقدا

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.64.

2- علاوة عمارة: "الهجرة الهلالية"، ص-ص.10-11.

3- من بين الدراسات التي اهتمت بالدور العربي بالمنطقة المغربية، علي أومليل: **المرجع السابق**، ص-ص.115-123.

4- عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.96.

5- عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص.221؛ عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.96.

6- **نفسه**؛ عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص-ص.221-222.

الذين أبدوا شكوكهم حول هويتها، والذين اعتمدوا –حسبه- على ما ورد في النصوص التاريخية التي اقتصرت على ذكر مصطلح "عرب" "وليس عرب بني هلال"[1].

ومن المعلوم أنّ الوجود العربي البدوي في المغرب الأوسط قد فرض نفسه بعد "موقعة سبيبة"، وباعتراف السلطة الحمادية نفسها، لتبدأ مرحلة أخرى من التغريبة الهلالية، تمكّنت فيها من الانتشار والانتفاع من نصف غلة البلاد الحمادية حتى الفترة الموحدية: «...ودوخوا مملكة بني زيري بن مناد، وهذا بعد موت المعز بن باديس...، وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المنتصر، صالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من ثمرها وبرّها وغير ذلك، فأقاموا في ذلك باقي أيامه وأيام ابنه الملقب بالعزيز، وأيام يحيى ، إلى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن، فأزال ذلك من أيديهم، وصيرهم جندا له، وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد...»[2].

ويبدو أنّ مجال المنطقة الغربية من المغرب الأوسط بقي زناتيا خالصا، فنحن لا نملك إشارات عن تماس مجالي بدوي زناتي-أعرابي بالمنطقة في الفترة الحمادية، وهو ما يمكن أن نستنتجه من خلال النص الخلدوني التالي: «...وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم من الزاب وما إليه من بلاد إفريقية، وانشمر بنو واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية وفيكك ثم إلى سجلماسة ولاذوا ببني ومانو وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط وتفيئوا ظلهم واقتسموا ذلك القفر بالمواطن فكان لبني مرين الناحية الغربية...وكان لبني بادين منها الناحية الشرقية...إلى أن ظهر أمر الموحدين...»[3].

وهو ما يجعلنا ننتقد موقف إبراهيم القادري بوتشيش، والذي اعتبر فيه أنّ العرب "البدو" في هذه الفترة قد أنهوا حروبهم في افريقية والمغرب الأوسط، لذلك بدأوا يتطلعون نحو مناطق

1- إبراهيم القادري بوتشيش: **مباحث في التاريخ الإجتماعي**، ص-ص.39-40.

2- وتأتي موقعة سبيبة أو سهل سبيبة سنة 457هـ/1064م-1065م، الواقع بين القيروان وتبسة لتفرض الوجود البدوي العربي في المغرب الأوسط، حيث أصبح بنو رياح يسيطرون على إفريقية والأثبج يسيطرون على المغرب الأوسط باعتراف الحماديين أنفسهم، والتي فتحت الباب واسعا لمرحلة ثانية من التغريبة الهلالية ، ينظر مثلا عز الدين أحمد موسى : **النشاط الاقتصادي**، ص.163؛ عبد الواحد المراكشي : **المصدر السابق**، ص.189؛ أمّا عن مدينة سبيبة ينظر ابن حوقل : **المصدر السابق**، ص.84؛ البكري: **المصدر السابق**، ص.49؛ مؤلف مجهول (ينسب لابن عبد ربه) : **المصدر السابق** ، ص،ص.161،129؛ الإدريسي: **المصدر السابق**، ص.158

Paul louis Combuzat, *op.cit.*, T.1, p.144-145, T.2, p.183-186.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.61-62.

المغرب الأقصى والأندلس لافراغ طاقاتهم القتالية والبحث عن الغنائم [1]، وبما أنّ مجالهم الرعوي لم يمتد بعد إلى الجهة الغربية من المغرب الأوسط، فهل يمكن الحديث عن بداية العلاقة المجالية الأعرابية-الزناتية في الفترة المرابطية؟

للأسف لا يمكننا أن نتبين حقيقة ذلك، فنحن لا نملك إشارات نصّية وسيطة عن امتداد إقطاعي للعرب "البدو" مسّ المنطقة الغربية على الرغم من العبور الأعرابي المحالف للسلطتين الحمادية والمرابطية بها[2]، ولعل اعتماد السلطة الحمادية لنظام "الإقطاع" تجاههم والذي ظلّوا منتفعين به إلى غاية قدوم عبد المؤمن بن علي الموحدي بقي نفسه، فبدخول القبائل العربية إلى إفريقية فقدت القبائل الواسينية معظم مجالاتها الرعوية بالشرق، فتوجهت مرة أخرى نحو الغرب، حيث كانت المنطقة التلية الغربية من المغرب الأوسط حكرا على قبائل زناتية أخرى هي مغراوة وبني يلومي وبني وامانوا[3].

فهل شيوع "بلاد زناتة" المصطلح الوسيط على هذه الجهة من المغرب الأوسط ينفي الارتباط الأعرابي بها على الأقل إلى غاية توسع الدولة الثيوقراطية الموحدية؟

حيث يبدو -حسب أحدهم- أنّ الخريطة القبلية في المغرب الأوسط ظلّت شبه قائمة في عهد المرابطين، خاصة وأنّ الضغوط العربية والزيرية خفّت نسبيا، فابن خلدون برأيه أيضا لا يشير إلى تحركات جديدة للقبائل الزناتية نحو التل، وهذا يعني حصول نوع من الانسجام والوئام بين مختلف العناصر المركبة لديموغرافية المغرب الأوسط الزناتية والصنهاجية، والذي ترتب عنه -حسبه أيضا- استقرار سياسي وانتعاش للحياة الاقتصادية، سواء الفلاحية أو التجارية[4].

3-2- الموحدون والحركية القسرية للهلاليين:

1-إبراهيم القادري بوتشيش: **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص.41.

2- مثلا في مؤلف الاستبصار لا نجده يتحدث عن هذا التواجد بالمنطقة الشلفية ، ينظر مؤلف مجهول (ينسب لابن عبد ربه): **المصدر السابق**، ص.171؛ وحسب الحميري: « يسكن فحص سيرات قبائل كثيرة من البربر ومطغرة وغيرهم من قبائل زناتة ، وزناتة تتشعب على قبائل كثيرة، وبلادهم واسعة ويخالطهم من جهة إفريقية بنو زغبة من العرب من بني هلال ابن عامر .»، الحميري: **المصدر السابق**، ص.470.

3- مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص-ص.41-42.

4- **نفسه:** ص-ص.48-49؛ وعن الظهور الأول لتحركات القبائل العربية الهلالية بمجال المغرب الأقصى في هذه الفترة بالذات يراجع محمد القبلي: حول التحركات البشرية، ص.77.

لماذا ارتبطت الحركية القسرية للعرب "البدو" بالسلطة الموحدية[1]؟

لم يكن قرار عبد المؤمن بن علي في عمليته التهجيرية هذه التي جاءت بعد أن دانت له البلاد التليّة وسواحل افريقية إلى حد طرابلس على إثر موقعة سطيف (547هـ/ 1153م)[2]، ووسط إفريقية بعد معركة القرن (556هـ/1160م) خاصة عفويا[3]، حتى وإن كان لا يدرك تأثيراتها اللاحقة[4].

فالعرب بالنسبة له دعامة لمكانته في البنية السياسية للحكم الموحدي، من خلال توازن العصبيات التي سيفرضها تواجدهم، خاصة بالنسبة للعصبية المصمودية التي كان عليه أن يصانعها منذ البداية لتمرير مشروع نقل الخلافة من الشورى إلى الوراثة، كما أنّه تفطن أيضا لقدرة الأعراب المتفلتين على خلق مشاكل وصعوبات عويصة في أطرف الدولة التي كانت تراهن كثيرا على مناطق الشرق في امتداد تحقق مشروعها الموحدي والسياسي، فكان عليه أن يشغلهم ويشغل قوتهم في عملياته الحربية بالأندلس[5].

1-يرى عز الدين أحمد موسى أنّه مع الفتح الموحدي بدأت مرحلة توسع هؤلاء العرب سلميا في هضبة الشطوط والبلاد الغربية والأندلسية، عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.95.

2-روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص.67؛ عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي** ، ص.95؛ البيدق : **المصدر السابق**، ص-ص.135-138؛ التيجاني: **رحلة التجاني (قام بها في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي (من سنة 706هـ إلى سنة 708هـ)**، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، تونس: المطبعة الرسمية (نشريات كتابة الدولة للتربية القومية والشباب والرياضة) 1377هـ-1378هـ/1958م، ص-ص.344-347.

3- روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص.67؛ محمد القبلي: حول التحركات البشرية، ص.80.

4-أمبروسيو هويثي ميراندا: **المرجع السابق**، ص،ص.156،153-157؛ وعن تأثيراتها اللاحقة، ينظر محمد زنيبر : "أزمة الحكم الموحدي في النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)" ، **الاسطوغرافية والأزمة (دراسات في الكتابة التاريخية والثقافية)**، تنسيق: عبد الأحمد السبتي، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس (المملكة المغربية)، 1994، ص-ص.9-23؛ روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص،ص.69-77،72.

5-عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص-ص.222-223؛ عز الدين أحمد موسى : **النشاط الاقتصادي**، ص-ص.96-97؛ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: **القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين** ، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص.70؛ وللتفصيل يراجع ما يلي عبد الواحد المراكشي: **المصدر السابق** ، ص، ص.189،165،158،157-226،194؛ ابن عذاري المراكشي : **البيان المغرب (قسم الموحدين)** ، ص،ص.114،89،88،67، 214،213،186،172،157،140،116؛ ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب** ، ص-ص.291-292؛ ابن صاحب الصلاة: **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين)**، تحقيق: عبد الهادي التازي ، ط.3، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1987،

وهي الدوافع ذاتها التي حرّكت يوسف[1] والمنصور والناصر[2] الموحدين، إلاّ أنّها مع هذين الأخيرين تظهر أسباب الأمن واضحة أكثر، إذ حرّكا العرب إلى البلاد الغربية تأديبا وعقابا لهم جزاء تعاونهم مع بني غانية والأغزاز في فتنتهم في البلاد الشرقية[3].

و على العموم فسياسة عبد المؤمن بن علي في مهادنة القبائل العربية وتحريك مجالاتها ظلّت فاعلة في عهد خلفائه[4]، ويبدو أنّها لم تقتصر على أعراب بني هلال وحدهم بل شملت "البدو" البربر أيضا[5].

فهل أثّر هذا التحريك القبلي "البدوي" على التركيبة المجالية الزناتية الخالصة للمنطقة الشلفية؟

3-3- الهلاليون ومجالات زناتة الشلف:

يبدو أنّ عملية إنزال العرب الهلالية في البلاد الغربية قد تأخرت حتى عهد المنصور الموحدي الذي اتبع سياسة الثواب والعقاب مع عرب البلاد الشرقية، خاصة بعد تحالفها مع بني غانية، وهي السياسة التي لم يعتمدها عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف اللذين ركّزا عملياتهما التوطينية على المجال الأندلسي[6].

ص،ص.331،330،325،324،112،111؛ الزركشي: **المصدر السابق**، ص-ص.13-14.

1- ابن عذاري المركشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص-ص.114-117؛ ابن صاحب الصلاة: **المصدر السابق** ، ص-ص.323-341،332-342؛ الزركشي: **المصدر السابق**، ص.14؛ ابن خلكان: **المصدر السابق** ، مج. 7، ص-ص.130-131؛ عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص.223.

2- ابن خلكان: **المصدر السابق**، مج.7، ص-ص.4-5؛ عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص.223.

3- روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص-ص.85-86؛ ينظر عز الدين عمر موسى : **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص-ص.223-224؛ عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص-ص.97-99؛ وعن السبب الأمني في التحريك الموحدي للأعراب وعن وجه المقابلة التي طرحها محمد القبلي بين نموذجي التحركات الموحدية ، ينظر محمد القبلي: حول التحركات البشرية، ص-ص.84-85؛ وللتفصيل تراجع النصوص الوسيطية التالية ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب** ، ص،ص.286-291،287-292؛ ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)** ، ص،ص.114-140،118-185،143-190،186-242،232،197،191؛ الزركشي: **المصدر السابق**، ص،ص.16،14-18؛ البيدق: **المصدر السابق**، ص-ص.166-167.

4- عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي**، ص.224.

5- يمكن مراجعة ذلك في العديد من النصوص الوسيطة.

6- عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.98.

وتطرح معالجتنا السابقة للوضعية المجالية المتغيرة للقبائل الزناتية بالمنطقة في الفترة الموحدية خاصة إشكال طبيعة التحرك الأعرابي، فهل كان ناتج عن رغبة هذه القبائل الضاعنة والمتواجدة بالشرق للامتداد نحو البلاد الغربية ، سواء بتحالفها مع القبائل البادينية خاصة أو غيرها لاستغلال واحتلال المجالات المهجورة، أم أنّ ذلك كان وراءه دوافع سلطوية خالصة؟

3-4- زغبة: القبيلة الهلالية والمجال الجديد:

هي زغبة بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر كما جاء ذكرها في كتب الأنساب [1]، وتعتبر من بين الجماعات البشرية الأعرابية الأولى التي غرّبها المستنصر الخليفة الفاطمي، وأقطعها مناطق مختلفة في الإمارة الزيرية، وكان نصيب زغبة الجهة الممتدة من طرابلس إلى قابس منذ 429هـ/1030م[2]، و لم يتغير مجال انتجاعها إلى غاية سنة 580هـ/1184م بعد أن تغلبت على مغراوة إفريقية[3]، وكانت على عكس قبائل رياح وجشم الأعرابيتين في حملة مرابطي ميورقة على السلطة الموحدية حيث ناصرت هذه الأخيرة، وهو ما فتح لها باب امتياز الانتقال إلى المجال الممتد بين المسيلة وقبلة تلمسان[4]، فكان لها القفار ولبني بادين وزناتة التلول بتعبير ابن خلدون [5]، خلدون[5]، لأنّه عندما زحف الهلاليون تقدمت قبائل زناتة نحو الغرب حيث قام بنو بادين (ومنهم

1- وهي من بطون بني عامر بن صعصعة مثل عدي والأثبت ورياح وغيرهم ، وكانت تنزل في الصعيد، ينظر التيجاني: **المصدر السابق**، ص-ص.17-18؛ عبد الوهاب بنمنصور: **المرجع السابق**، ج.1، ص.422؛ وعن زغبة وسويد ينظر أيضا: Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbèrie)*, T.2, p.12; Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement*, p.145-146.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.6، ص.40.

3- **نفسه**.

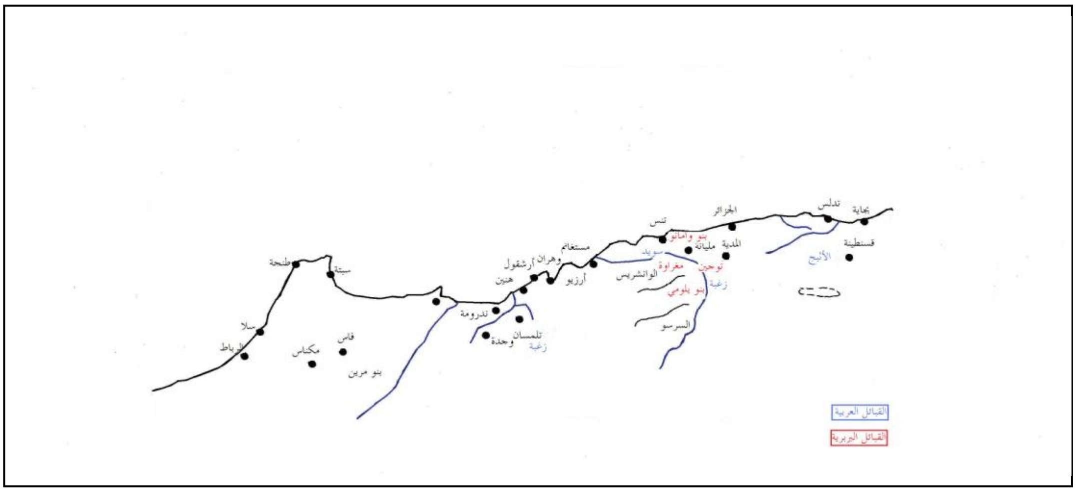
4- يشير صاحب الاستبصار لمؤلف مجهول: «وفحص سيرات يسكنه قبائل كثيرة من البربر ومطغرة وغيره من قبائل الزناتة ، وزناتة تتشعب على قبائل كثيرة ، وبلادهم واسعة يخالطهم من جهة إفريقية بنو زغبة من العرب من بني هلال بن عامر .»، مؤلف مجهول (ينسب لابن عبد ربه) : **المصدر السابق**، ص-ص.178-179؛ وعن مشاركة هذه القبيلة للموحدين في عملياتهم بالأندلس في حركة المنصور، يراجع ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.172؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.35؛ روجي لي تورنو: **المرجع السابق**، ص-ص.84-85؛ عز الدين أحمد موسى : **النشاط الاقتصادي**، ص.98؛ مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص-ص.66-67؛ Georges Merçais, *Les Arabes en Berbèrie au XIe au XVIe Siècle*, Constantine, D.Braham Editeur, Paris, Ernest Leroux, 1913, p.191-193.

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.6، ص.40.

بني عبد الواد) باحتلال سهول وهران، بينما واصل المرينيون طريقهم إلى سجلماسة وإلى المغرب الشرقي[1].

وقد ساهمت عصبية الحلف التي جمعت هذه القبيلة وبطونها العديدة مع جيرانهم الزناتيين في الشمال في تغيير التركيبة المجالية لهذه الجهة[2]، على الرغم من اختلاف طبيعة تحركاتها التي اتسعت في فترة الضعف الموحدي وبداية الحكم الزناتي الجديد.

وللإجابة على الإشكالية السابقة لابد أن ندرك أنّ حاجة البدوي إلى مراع جديدة هي التي حرّكت القبائل الوافدة لطرد من سبقها إليها[3]، وهو ما حصل مع زناتة المغرب الأوسط التي وجدت شريكا بدويا آخر ينافسها في مجالاتها الأولى مع بداية التفكك الموحدي[4].



خريطة رقم: 09 (قبائل المنطقة الشلفية)

1- علي أومليل: **المرجع السابق**، ص.198؛

E.F.Gautier, *op.cit.*, p.430-432.

2- مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص، ص.187،186،66.

3- وإن كنت أتبنى هذا الموقف لكن بتحفظ حتى لا نتماشى مع الرؤية الاستشراقية التامة، حيث تكون الظرفية التاريخية مثلا حتّمت هذا الامتداد المجالي الأعرابي الهلالي بالمنطقة.

4- ولعلّ من أبرز ما احتفظت به الخريطة ذاتها أن سجلت ظهور القبائل البدوية الهلالية ثم القبائل الرعوية الزناتية بالسهول الغربية، محمد القبلي: حول التحركات البشرية، ص.85.

II –إشكاليات التمدين:

1– الرواية الخلدونية (أولاد منديل وإحياء الإمارة المغراوية):

1–1– بنو خزرون المغراويين:

خلص عبد الله العروي أنّ ما ينتاب أخبار حروب صنهاجة وزناتة هو أمر طبيعي عندما يتعلق بحروب طويلة تعددت فيها الأطراف واختفت الرؤوس وراء الأذناب من العملاء والمسخرين[1]، وهو الرأي الذي يجعلنا نتفادى الدخول في متاهة النصّية الخبرية، فما يهمنا هو معرفة طبيعة الحركة المجالية الخزرونية التي ساعدت على إحياء مشروع الإمارة المغراوية "بالمجال الشلفي"، لذلك ما هو الوضع العام الذي عايشته هذه الفئة المغراوية وأدّت إلى عودتها لمجال القبيلة الأول؟

لقد مثّل المغراويون قوة سياسية حقيقية في مغرب القرن الرابع والنصف الأوّل من القرن الخامس الهجري، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يصفون هذه المرحلة بعهد السيادة الزناتية على الدويلات "المدينية" في سجلماسة وأغمات وقلعة مهدي بن توالي وفاس[2].

1– عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.234.

2– عز الدين أحمد موسى: **النشاط الإقتصادي**، ص.78؛ وينظر أيضا:

H.Terrasse, *op.cit.*, p.175-179 ;

محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.301؛ وللمزيد من المعلومات حول السلطة المغراوية في هذه الفترة ينظر أيضا ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، ص-ص.153-155؛ والذي يرى أنّ سلطتهم قد تعدت إلى مدن أخرى ، فمثلا محمد بن الخير بن خزر كان بتيهرت وتلمسان والمسيلة، وأعالي المغرب والصحاري وجميع بوادي زناتة وأكثر بلاد الزاب والقبلة ، **نفسه** : ص.155؛ وأمّا بالنسبة لقلعة مهدي بن توالي: فهي تنسب إلى مهدي بن توالي بن سرجم اليجفشي، وبنو يجفش فخذ من زناتة، وكانت ثورته بالقلعة المنسوبة إليه بفازاز، ينظر مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص.186؛ في حين نجد عند ابن الخطيب أنّ بني توالي هم بنو يخفش الزناتيون (وليس يجفش) وعن هذه الفكرة ، ينظر ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، ص-ص.168-170.

فقد تمكّن خزرون بن فلفول أحد أمراء مغراوة وأعيان بني خزر كما يصفه المؤرخون [1] من انتزاع سجلماسة من أيدي المدراريين سنة 366هـ-367هـ/976م-977م[2]، وحافظوا بذلك على النظام الذي أقاموه في المغرب الأوسط مع فرق واحد، وهو أنّهم كانوا يكتفون فيه بمراقبة طرق التجارة، أمّا عندما دخلوا المغرب الأقصى فإنّهم أصبحوا يتحكمون في المدن - الأسواق ذاتها، ولنا أن نتصور قيمة هذا الإنجاز بالنسبة لبني خزرون[3].

وعلى الرغم من ذلك فلا يمكن طبع الوضع المغراوي الجديد بالاستقرار التام، وهو ما تجسّد مثلا في تغيير السياسة الخزرونية تجاه الدولة الأموية، والذي أفرزه نقمة سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر على العامل الأموي[4]، في تشجيع الكثير من الزناتيين على الالتحاق به بعد توليته من قبل أبي الفتح بن بلكين على عمل طنبة، وبداية التروح الشرقي الخزروني[5]-إن صح التعبير-

1-2- بنو خزرون وقضية طرابلس:

لعل هذا التروح ساهم في ظهور الصراع الخزروني-الزيري [6]، وهو ما اصطلح عليه الهادي روجي إدريس "بقضية طرابلس"[7]، والتي تمكن فيها فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي [8] عامل

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.07، ص.37؛ مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، ص-ص.145-146.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.07، ص.19؛ ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.230-231؛ ابن أبي الضياف: **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، ج.1، ط.2، تونس-الجزائر: الدار التونسية للنشر-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1396هـ/1976م، ص.166.

3- ابن عذاري المركشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص.239؛ وعن الصراع الزناتي-الصنهاجي بهذه المنطقة يراجع محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.251-255.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.39-40.

5- **نفسه**: ص-ص.39-40؛ ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص.244.

6- ينظر مثلا التجاني: **المصدر السابق**، ص.241؛ أبي راس المعسكري: **عجائب الأسفار**، ص.91.

7- الهادي روجي إدريس: **المرجع السابق**، ج.1، ص.135؛ واعتبر جورج مارسي طرابلس من مخصصات عائلة "بني خزرون الزناتية"، يراجع جورج مارسي: **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي**، ص.247؛ وقد تناول محمد بن عميرة هذه القضية بالتفصيل، ينظر محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.281-282.

2, p.2. *Histoire de l'Afrique*, T. Ernest Mercier,

8- بعد وفاة فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي سنة 400هـ/1009م-1010م بطرابلس، حيث تولى إمارة طرابلس سنة 390هـ/999م-1000م، أو 391هـ/1000م-1001م، وتولى مكانه أخوه ورّو، وأطاعته زناتة، ينظر محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.283، ويتفق كلا من ابن خلدون وابن الأثير في أنّ فلفولا أو فلفلا بقي يسيطر على طرابلس إلى أن توفي سنة 400هـ/1009م-1010م، ينظر محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.281-283.

الأمير الزيري باديس على طبنة من توطنها [1]، وهو ما توضّحه العبارة التالية: «...ولما وصل فلفل إلى طرابلس خرج إليه فتوح بن علي [2] وجماعة أهلها فتلقوه وأدخلوه البلد، فاستوطنها منذ ذلك الوقت...»[3].

وبهذا تمكّن الزناتيون وفي وقت مبكّر من فتح واجهة ثانية للصراع وهذه المرة في مجال سلطوي صنهاجي خالص، خاصة وأنّ بني حماد أصبحوا يتولون حراسة التخوم الغربية للدولة الصنهاجية، وحمايتها من أي عدوان زناتي [4]، وبمساعدة فاطمية أحيانا [5]، وساهموا في اضطراب الأوضاع بها، وهو ما تجلى في ضعف سلطة الزيريين على الجنوب والجنوب الغربي، حيث لاحظ ابن خلدون أنّ جميع مدن الماء «أصبحت في قبضة زناتة.»[6].

فقد امتلكت زناتة كامل منطقة الجريد، والذي أقرّه باديس بصورة تزيد أو تنقص، وهو ما يدل على خروج تلك المنطقة عمليا عن سلطة بني زيري، الذين أصبحت طموحاتهم مقتصرة على الاحتفاظ بمدينة طرابلس المطموع فيها من طرف الزناتيين أيضا[7].

إلاّ أنّ السيطرة السياسية لصنهاجة الشرق والغزوة الهلالية اضطرت قبائل زناتة إلى اللجوء إلى المناطق التي تضعف فيها قبضة هاتين القوتين مثل هضبة الشطوط وصحراء الزاب[8].

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.39-41؛ التيجاني: **المصدر السابق**، ص.183؛ محمد بن عميرة: **المرجع السابق** ، ص.294.

Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement des arabes*, p.126-127.

2- فتوح بن علي: أحد قواد يانس المسمى فتوح ابن علي بن جفيانان.

3- ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.250-251.

4- الهادي روجي ادريس: **المرجع السابق**، ج.1، ص،ص.157، 163؛ محمد بن عميرة: **المرجع السابق** ، ص،ص.282-287،290-293؛ ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، تونس : مطبعة النهضة ، 1350هـ /1931م، ص،ص.77،74.

Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement des arabes*, p.123-125; Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique*, T.1, p. 394-395, 399, 400-401.

5- محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.292.

6- الهادي روجي إدريس: **المرجع السابق**، ج.1، ص،ص.164،157، والذي لاحظ أنّ الاضطرابات الزناتية بجنوب إفريقية استمرت على عهد المعز بن باديس، **نفسه**: ص.164؛ محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص-ص.285-287.

7- الهادي روجي إدريس: **المرجع السابق**، ج.2، ص.129.

8- الهادي روجي إدريس: **المرجع السابق**، ج.1، ص.288؛ عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.73؛ Georges Marçais: *Les arabes en berbèrie*, p.128.

وقد استمرت ظاهرة الهجرة من البلاد الشرقية إلى الغربية بعد الوصول الهلالي إلى إفريقية[1]، والخطر النورماني بالساحل[2]، وإن كان أحدهم ينفي عنها القبلية ويعتبرها هجرة جماعية لأهل المدن لا لأهل البادية[3]، ولعل ما يوافق هذا الرأي استمرار توطّن بني خزرون بإفريقية وبالضبط في في بوادي طرابلس[4]، يقول ابن خلدون: « ...ولما وصل العرب الهلاليون وغلبوا المعز بن باديس على أعمال إفريقية واقتسموها كانت قابس وطرابلس في قسمة زغبة والبلد لبني خزرون، ثم استولى بنو سليم على الضاحية وغلبوا عليها زغبة ورحلوهم عن تلك المواطن و لم تزل البلد لبني خزرون. ..وولي طرابلس آخر من بني خزرون لم يحضرني اسمه، واختل ملك صنهاجة واتصل فيهم ملك تلك الأعمال إلى سنة أربعين وخمسمائة ثم نزل بطرابلس ونواحيها في هذا العام مجاعة وأصابهم منها شدة هلك فيها الناس وفرّوا عنها وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها فوجه إليها لجار طاغية صقلية اسطولا لحصارها بعد استيلائه على المهدية وصفاقس واستقرار ولايته فيهما ووقع بين أهل طرابلس الخلاف فغلب عليهم جرجي بن ميخائيل قائد الأسطول وملكها، وأخرج منها بني خزرون وولى على البلد شيخهم أبا يحي بن مطروح التميمي فأنقرض أمر بني خزرون منها وبقي منهم من بقي بالضاحية إلى أن افتتح الموحدون إفريقية...»[5].

ويبدو أنّ السيطرة الخزرونية قد امتدت غربا بعد أن أقطع الناصر الحمادي المنتصر بن خزرون ضواحي الزاب وريغة قبل أن ينقلب عليه بعد ذلك: «...وزحف المنتصر بن خزرون مع بني عدي من قبائل هلال مجلبا على بني حماد حتى نزل المسيلة ونزل أشير ثم خرج إليهم الناصر فقرّ أمامه إلى الصحراء ورجع إلى القلعة، فرجعوا إلى الأحلاف على أعماله، فراسله الناصر على

1- عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص-ص.73-74؛ ابن أبي دينار: **المرجع السابق**، ص.78.

2- عز الدين أحمد موسى : **النشاط الاقتصادي**، ص.75؛ حيث تميّز النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي بالتدخل المزعج لجند النورمان الذين تمكّنوا بعد الاستيلاء على جربة من إقصاء آخر أولاد بني زيري ، واحتلال المراكز البحرية من سوسة إلى طرابلس (1146م-1148م)، يراجع روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م**، ترجمة: حمادي الساحلي، ج.1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988م، ص.32؛ وعن النورمان والمجاعة بطرابلس ،ينظر التجاني: **المصدر السابق**، ص-ص.241-242؛ الزركشي: **المصدر السابق**، ص-ص.11-12.

3- عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.74.

4- محمد بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.294؛ George Marçais, *Les arabes en berbèrie*, p.128-129; Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique*, T.2, p.18, 36.

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.43-44.

الصلح وأقطعه ضواحي الزاب وريغة، وأوعز إلى عروس ابن سندي رئيس بسكرة لعهده أن يمكر به فلما وصل المنتصر إلى بسكرة أنزله عروس ثم قتله غيلة أعوام ستين وأربعمائة...»[1].

ويعتبر ابن خلدون الوحيد الذي يثير علاقة بني خزرون طرابلس مع قبائل المنطقة الشلفية فنحن عندما نتمعن في النص التالي: «...ولما قتلت زغبة سعيد بن خزرون سنة تسع وعشرين قدم خليفة بن خزرون[2] من القيطون إلى ولايتها فأمكنه منها رئيس الشورى وبها يومئذ من الفقهاء أبو الحسن بن المنتصر المشتهر بعلم الفرائض وبايع له وقام بها خزرون إلى سنة ثلاثين بعدها فقام المنتصر بن خزرون في ربيع الأوّل منها ومعه عساكر زناتة، ففر خزرون بن خليفة من طرابلس متخفيا وملكها المنتصر بن خزرون وأوقع بابن المنتصر ونفاه واتصلت بها إمارتها...»[3].

وعلى الرغم من نقده لهذه الرواية التجانية الأصل [4]، فهو يرى: « ...(وهذا الخبر) مشكل من جهة أنّ زغبة من العرب الهلاليين وإنّما جاؤوا إلى إفريقية من مصر بعد الأربعين من تلك المائة فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة تسع وعشرين إلاّ أن كان تقدم بعض أحيائهم إلى إفريقية من مصر بعد الأربعين من تلك المائة فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة تسع وعشرين إلاّ أن كان تقدم بعض أحيائهم إلى إفريقية من قبل ذلك فقد كان بنو مرة ببرقة بعثهم الحاكم مع يحي بن علي بن حمدون إلاّ أنّ ذلك لم ينقله أحد...»[5].

فما يهمنا هو أنّ خزرون بن خليفة الذي يورده تحت اسم آخر أيضا (خليفة بن خزرون)، وأظنّها لنفس الشخصية لديها علاقة مع عبد الصمد بن محمد خزرون [6]، حيث يقول: «...ولحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون بجبل أوراس فرارا من أهل بيته هنالك الذين استولوا على الأمر وجدّه خزرون بن خليفة السادس من ملوكهم بطرابلس...»[7].

1- **نفسه**.

2- يورده التجاني باسم خزرون بن خليفة ، ينظر التجاني: **المصدر السابق**، ص.267؛ وفي نص ابن أبي دينار عن شخصية خليفة الزناتي: «...والزناتيون هم الذين يثنى عليهم عدد من العمال، ويذكرون كثيرا من جملة أخبارهم عندما يذكرون سيرة بني هلال وما جرى لهم مع خليفة الزناتي، ولأهل طرابلس اهتمام بسيرتهم...»، حيث يربط هذه الشخصية بالسيرة الهلالية الشهيرة، إلاّ أنّه يبقى مجرد افتراض، ابن أبي دينار: **المصدر السابق**، ص.77.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.43.

4- التجاني: **المصدر السابق**، ص.267.

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.43.

6- لم نعثر على معلومات أخرى عن هذه الشخصية المؤثرة في تاريخ المنطقة الشلفية.

7- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.63.

وهو ما يؤكد طبيعة الرئاسة التي كانت لسلفه بطرابلس ، والتي ستدعم مكانته بن القبائل المتوطنة بالجهات الشلفية.

1-3- المجال الشلفي وولادة مشروع الإحياء:

جاء الفتور السياسي الذي عرفته المجموعات الأميرية المغراوية [1] بتلمسان [2] وسجلماسة [3] وفاس[4] وطرابلس [5]، ليحي العصبية المغراوية عبلى رأي ابن خلدون في بعث مشروع الإمارة "البدوية" بموطن القبيلة الأول "المجال الشلفي"[6].

فهل ارتبط هذا المشروع بتخطيط سابق سواء من قبل الشخصية الوافدة، أو القبائل المتوطنة بالمجال الذي تنتمي له مازونة؟

إنّ الظروف التي ارتبطت بتواجد سليل بني خزرون عبد الصمد بن محمد بن خزرون بالبلاد الشلفية توحي أنّ اختياره لم يكن اعتباطيا، فقد راعى حسب التصور الخلدوني شروط ومؤهلات

1- أو ما يطلق عليها مصطلح "دويلات" أو" الكيانات القبلية الأسروية" أو "دول المدن" ، ينظر إبراهيم القادري بوتشيش : **حلقات مفقودة**، ص.14.

2- مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية**، ص.28؛ حيث كان أميرها العباس بن يحيى الزناتي سنة 468هـ/ 1075م، **نفسه:** ص.33؛ وعند ابن خلدون يورده باسم "العباس بن بختي أمير بني يعلي"، ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.46.

3- ابن عذاري المراكشي: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.230-231؛ مؤلف أندلسي مجهول: **الحلل الموشية** ، ص.22؛ ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، ص-ص.150-151.

Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique*, T.1, p.374-375.

حيث كان أمير سجلماسة هو مسعود بن وانودين ابن خزرون بن فلفول.

4- للمزيد ينظر ابن الخطيب : **أعمال الأعلام**، ص، ص.155،161-163؛ ابن عذاري المراكشي : **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.241-252؛ ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب**، ص-ص.136-137؛ مؤلف أندلسي مجهول : **الحلل الموشية** ، ص،ص.32،28-33؛ الشقراني: **المرجع السابق**، ص.51؛ حيث كان أميرها الفتوح بن دوناس من أبناء حمامة من أحفاد زيري بن عطية الزناتي سنة 464هـ؛ وهناك إمارات أخرى أقل أهمية مقارنة بسابقاتها، بنو الخير في وهران، وبنو واندوس في صفرو، ينظر المعسكري: **عجائب الأسفار**، ص.100.

5- **نفسه:** ص.91؛ الشقراني: **المرجع السابق**، ص.51؛ الزياني: **دليل الحيران**، ص.54.

6-كان بنو ورسيفان وبنو يرنار وبنو ينلت ويقال أنّهم من ونزمار وبنو سعيد، وبنو زحاك، وبنو سنجاس (وربما يقال أنّهم من زناتة وليسوا من مغراوة)، للتفصيل ينظر ابن خلدون : **العبر**، مج.7، ص،ص.57-63،58؛ وعن المجموعات الأميرية المغراوية ينظر:

E.F. Gautier, *op.cit.*, p.391-396.

وأغلب الظن كما يرى عز الدين أحمد موسى أنّ مغراوة و بني يفرن بعد أن فقدوا سلطانهم السياسي أصبحوا في ذكر ثانوي ضمن المجموعة الزناتية التي ظلت موجودة في المدن مثل فاس أو في البادية مثل تامسنا ، ينظر عز الدين أحمد موسى : **النشاط الاقتصادي**، ص.79.

من يتولى الرئاسة في المجتمعات القبلية، «إنّ الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم.»[1].

وهو ما ينسجم كثيرا مع الواقع الذي عايشته هذه الشخصية منذ أن حلت بهذه المنطقة، فشرط النسب الصريح، الحسب والشرف بحكم قدم الانتماء إلى العصبية المغراوية، ومكانة سلفه فيها يجعل ارتباطه بها ارتباطا متينا، وتشبعه بأحوالها وروحها الجمعية آكد وأقوى [2]، يقول ابن خلدون: «...وكان بنو خزرون الملوك بطرابلس لما انقرض أمرهم وافترقوا في البلاد ولحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون بجبل أوراس فرارا من أهل بيته هنالك الذي استولوا على الأمر وجدّه خزرون بن خليفة السادس من ملوكهم بطرابلس، فأقام بينهم أعواما ثم ارتحل عنهم فترل على بقايا قومه مغراوة بشلف من بني ورسيفان وبني ورتزمير وبني بوسعيد وغيرهم فتلقوهم بالمبرة والكرامة وأوجبوا له حق البيت الذي ينسب إليه فيهم...»[3].

وإن كان المقياس "الفعلي" في الانتساب إلى العصبية ، وما يتصل بذلك من الرئاسة وغيرها هو دائما "طول المعاشرة" [4]، فشخصية الوافد ارتبطت بهذه القبائل الشلفية وصاهرت أشرافها ، وهو ما سيعطي دعامة أكبر لمكانته وأولاده بينهم: «...وأصهر إليهم فأنكحوه وكثر ولده وعرفوا بينهم ببني محمد ثم بالخزرية نسبة إلى سلفه الأوّل، وكان من ولده الملقب أبو ناس بن عبد الصمد

1- عن هذا الموضوع وإشكالياته، يراجع محمد حمداوي: "القرابة والسلطة عند ابن خلدون : البذور الجنينية لأنثروبولوجيا السياسية"، **أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر**" ، وهران: مركز البحث في الأنثربولوجية الاجتماعية والثقافية ، (منشورات: Crasc)، 2002، ص-ص.33-49؛ ومن بين الدراسات التي تناولت مسألة العصبية عند ابن خلدون:

Georges Labica, *Politique et religion chez Ibn Khaldoun (Essai sur l'idéologie musulmane)*, Etudes et documents, SNED.

Atallah Dhina, *Les états de l'occident musulman au XIIIe, XIVe, et XVe siècles (institutions, gouvernementales et administratives)* ,Alger, office des publications universitaires, ENAL, 1984, p.58-61.

وعن إشكالية الرياسة عند ابن خلدون، ينظر علي أومليل: **المرجع السابق**، ص،ص.178-193،182-198، وعن شروط ومؤهلات من يتولى الرئاسة في المجتمع القبلي، ينظر محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص-ص.180-182.

2-يرى محمد بن حسن أنّه يمكن سحب النموذج الخلدوني (النظرية العصبية) على الفترات السابقة له ، باعتبار أنّ القبيلة بقيت إحدى الثوابت الأساسية في تاريخ المغرب الوسيط، وعنصرا هاما في البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، رغم أنّها أخذت أشكالا مختلفة ولعبت أدوارا متباينة مرتبطة بالظرفية التاريخية، محمد بن حسن: **القبائل والأرياف**، ص.12.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.63؛ وعن بطون مغراوة مثل بني يلنت وبني زنداك وبني رواو، ورتزمير وبني أبي سعيد وبني ورسيفان والأغواط وبني ريقة (ريغة)، ينظر **نفسه**: ص.24؛ ويتحدث صاحب القول الأوسط على أنّ بني ورسيفان ملكوا مليانة، ينظر الراشدي الشقراني: **المرجع السابق**، ص.51.

4- محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص-ص.180-181.

بن ورجيع بن عبد الصمد وكان منتحلا للعبادة والخيرية وأصهر إليه بعض ولد ماخوخ ملوك بني ومانو بابنته فأنكحه إياها فعظم أمره عندهم بقومه ونسبه وصهره...»[1].

فهل نحن الآن في وضع يمكننا من الإجابة على السؤال الذي طرحناه في البداية؟ وهل نستطيع أن نتبنى هنا إشكالية محمد عابد الجابري عن تحول العصبية من مجرد رابطة قبلية معينة إلى قوة للمواجهة والمطالبة والسعي وراء السلطة ومن ثمة تأسيس الدولة[2]؟

قد يكون لجوء هذه الشخصية الخزرونية للمنطقة طلبا للسلطة في أجواء بعيدة عن تنافسية أهل بيته المتوطّنين بالجهات الأوراسية، والوضع القبلي بالجهة الشلفية ساهم في تبني "بيوتاتها المغراوية" لهذا الوافد خاصة وأنّ هذه القبائل لم تكن خاضعة مباشرة لأي سلطة قد تقيّدها في مناطق انتشارها، فالقبائل الأكثر تسلحا للظفر بالسلطة هي التي تعرف كيف تنسف كل سيطرة مركزية بالترحال المستمر وفن التنقل، أو تلك التي تجعلها حياتها في جبال عالية منيعة في منأى عن الاستسلام والخضوع[3].

ويأتي توقيت هذا الإحياء مناقضا لموقف عبد الله العروي الذي يرى بأنّ مغرب هذه الفترة عرف نهاية عهد الدول الصغيرة مدنا كانت أو إمارات ليخلفه عهد الإمبراطوريات، بعد أن فقدت التكتلات القبلية والعصبيات العشائرية شيئا من تماسكها بسبب تأثير الحرب والتجارة والعقيدة[4].

وإن كانت العصبية على رأي أحدهم هي المحور والمحرك الديناميكي للمجتمع، وأنّ كل إنجاز وكل أمر عظيم إنّما يعود إليها، لأنّها هي القوة الحقيقية الكامنة في المجموعة البشرية للخلق والابداع والبناء والارتقاء إلى الحرية[5]، فهل يمكن ملاحظة ذلك على المشروع البدوي المغراوي ،

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.63؛ وعن شخصية "ماخوخ" من بني ومانوا يعرفه المشرفي بأنّه صاحب الخيمة المشهورة بـــ"الثنية"، الذي قتل في الحاربة الواقعة بين بني يلومي وبني ومانو في أوائل المائة الخامسة (الموافقة لأوائل القرن الحادي عشر للميلاد)، ينظر المشرفي: **بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر**، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ص.31.

2- محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص.179.

3- سالم حمّيش: **المرجع السابق**، ص.93.

4- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.267.

5- يرى علي أومليل أنّ تحليل كتاب العبر يتيح لنا تحديد حقله التاريخي ، وإدراك معنى ذلك المفهوم المحرك في "فلسفة التاريخ" الخلدونية وهي العصبية، علي أومليل: **المرجع السابق**، ص.178.

الذي سيجد نفسه في وسط مليء بالتناقضات المصلحية للعصبيات القبلية المجاورة وكيانات "الدول" التي قامت بعد تفكك النظام الموحدي؟

فالعصبية الأقوى تنجح في السيطرة على القبائل الأخرى، لكنّها تصطدم بدولة أقوى منها، وحين تفشل في قلبها تغدو تابعة لها مقابل امتيازات واقطاعات[1].

2- المعطى النصي الوسيط وإشكالية البداية التمدينية لمازونة:

2-1- المدينة و "دلالة التخطيط":

على الرغم من توفر دراسات اهتمت بظرفية النشأة للمدن المغربية الوسيطة، إلاّ أنّ ما يطرح هنا هو هل تمكّنت من حل جميع إشكاليات تأسيسها وتطورها[2]؟

يشير هشام جعيط إلى هذه المسألة في كتابه نشأة المدينة العربية الإسلامية من خلال تقديماته وتحليله لمختلف التوجهات الاستشراقية والفرنسية خاصة في هذا المجال عندما يتناول مسألة المدينة العفوية والمدينة المنشأة، والتي لها علاقة بدلالة التخطيط[3].

وقد سبق لجورج مارسي (*Georges Marçais*) أن حدّد هذه القضية في إحدى مقالاته[4]، وهو حسب عبد العزيز دولاتي ممن ساهموا في تركيز الأسس النظرية للدراسات العلمية

1- **نفسه**: ص.192.

2- ينظر مثلا:

Georges Marçais, «l'Urbanisme musulman», *cinquième congrès de la fédération des socciètes savantes de l'Afrique du Nord*, Tunis, 6-8 Avril, 1939, Alger, 1940, p.13-14.

3- هشام جعيط: **نشأة المدينة العربية الإسلامية**، ص.150.

Georges Marçais, «La conception des villes dans l'Islam», *Revue d'Alger*, T.2, -4 10(1945), p.517-533.

وكذلك: إدمون بوتي (*Edmond Pauty*) في مقاله التالي:

«Villes spontanées et villes créés en Islam», *Annales de l'Institut d'études Orientales d'Alger*, T.IX, (1951), p.52-75.

وينظر أيضا هشام جعيط: **نشأة المدينة العربية الإسلامية**، ص.150.

التي تهتم بنشأة المدن الإسلامية وتطورها[1]، وإن لم ينف بروز بحوث بعده أكثر عمقا واستقصاء[2].

لقد جاء تعريف جورج مارسي للمدينة المنشأة *(Created)* ضيقا[3]، فهي -حسبه - عمل محض لإرادة شخص أو هي عمل "اعتباطي"[4]، وإن كان لهذه الكلمة الأخيرة معنا تحقيريا حسب هشام جعيط[5]، الذي يرى أنّ الفكرة الأساسية التي تستند إليها النظرية الاستشراقية هي أنّ المدينة "المنشأة" تشكل استثناء في تاريخ الإسلام، لأنّه من النادر أن يكون قد سبق تصورها أو تصميمها وإن وجدت فليس لصالح مجموعة معينة بل لصالح الأمير، وبذلك تكون مدينة أميرية أو مقرا للقصر، وترتبط بوجود أسرة حاكمة، أي أنّها تكون مؤقتة ومفتعلة بالضرورة[6].

أمّا النمط السائد حسب الرؤية الاستشراقية دائما فهي المدن التلقائية أو العفوية أو العشوائية *(Spontaneons)*[7]، والتي نمت من غير تخطيط الدولة أو تدخلها، ولكن من تلقاء نفسها[8]، وبغض النظر عن حقيقة هذا التقسيم، لابد من معرفة أنّ طبيعة العمل التمديني الإسلامي

1- عبد العزيز الدولاتلي: **المرجع السابق**، ص.19.

2- من بين البحوث التي تناولت المدينة الإسلامية نجد:

Christine Mazzoli Guintard, «Urbanisme Islamique et ville en Al Andalus.»

حيث تهتم بدراسة الحركة في مدينة (الحجر) المعلومة والذي يسمح بفهم التنوع المهم للمنظر العمراني.

3- Georges Marçais, «La conception des villes», p.517.

4- *Ibid.*

5- هشام جعيط: **نشأة المدينة العربية الإسلامية**، ص.150

6- **نفسه**: ص-ص.150-151.

Georges Marçais, «La conception des villes», p.519. =

=وإن كان نفس المشكل مطروق ولكن بتحفظات عند بوتي "*Edmond Pauty*"، يراجع بخصوص ذلك:

Edmond Pauty, «Villes spontanées et villes crées en Islam», p.58-63.

في حين أجمل غرونبوم "*Von Grunebaum*" وجهة النظر هذه على أحسن وجه، يراجع:

Von Grunebaum, «The structure of the muslim town, dans Islam», Essays in the nature and growth of a cultural, tradition, London, p.144.

نقلا عن هشام جعيط: **نشأة المدينة العربية الإسلامية**، ص-ص.151-154.

7- Georges Marçais, «La conception des villes», p.517.

8-هشام جعيط : **نشأة المدينة العربية الإسلامية** ، ص.151؛ ونفس هذا التقسيم نجده عند المستشرق غرونبوم "*Von Grunebaum*"، الذي يقسم المدن الإسلامية إلى مجموعتين (وهما بنفس التسمية) : مجموعة المدن التلقائية أو العفوية أو العشوائية *(Spontaneous)* ومجموعة المدن المبدعة أو المخططة *(Created)*، ينظر جميل عبد القادر أكبر : **المرجع السابق**، ص.176؛ وينظر أيضا: Von Grunebaum, *op.cit.* , p.144.

نقلا عن هشام جعيط: **نشأة المدينة العربية الإسلامية**، ص.150.

الإسلامي محكوم عليه مسبقا من طرف هذه البحوث، وبالتالي قد يكون هذا مؤشرا لسوء الفهم الذي طبع تحليل بعض الدارسين المستشرقين وغيرهم لبيئة "المدينة الإسلامية"[1].

كما تحدّث محمد حسن عن تقسيم ثاني مرتبط بالمقياس الزماني، تصنّف فيه المدن بصورة أخرى إلى "قديمة أو أزلية أو مدينة للأول" ، والتي شهدت مراحل تجديد وتعمير في العصر الوسيط، انتقلت فيها أحيانا من مجرد قرية إلى مدينة كبيرة، وأخرى "مستحدثة" أنشأها العرب المسلمون لأول مرة في البلاد المفتوحة[2].

لكن أين هي مازونة ضمن هذه التصنيفات المدينية؟

2-2- نقاش في الطرح الخلدوني:

يطرح النص الإدريسي[3]، مشكلا يجعلنا نرتبك في تحديد الهوية التمدينية بمختلف أطروحاتها أطروحاتها لمازونة فهو يعطي وصفا عاما لوضع حضري يدل على تأسيسها السابق لزمنه فللمدينة: «...أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مونقة ولسوقها يوم معلوم يجتمع إليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والألبان والسمن والعسل كثير بها، وهي من أحسن البلاد صفة، وأكثرها فواكه وخصبا ...»، لكنّه لا يُدّعم بمعطيات نصّية مزامنة للقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي مثلا.

وهو ما يطرح إشكالية "التأسيس" للذين قالوا بوسيطية مازونة[4]، على الرغم من اعتمادهم على الرواية الخلدونية المتأخرة التي جاء طرحها لمسألة التخطيط عرضيا[5].

1- يورد هشام جعيط دائما ملاحظات عن هذه الرؤية الاستشراقية التي يرى فيها بعض التخفيفات عند الأخوين مارسي *(Marçais)*، وبصورة فظّة عند بوتي *(Pauty)* وبلاهول، حيث لا تتطور المدينة العفوية من العشوائية إلى النظام في هذا المقام خلافا للنموذج الإغريقي-الروماني-الأوروبي، وإذا ما وجدت مدينة منشأة فإنّه يحصل محو لهيئتها الأولية ، يراجع هشام جعيط: **نشأة المدينة العربية الإسلامية** ، ص-ص.151-152؛ جميل عبد القادر أكبر : **المرجع السابق** ، ص-ص.177-178.

2- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.1، ص.56.

3- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص-ص.128-129.

4- في بعض المراجع التي اهتمت بتاريخ المدينة تورد هذه المعلومة غير المؤسسة ، حيث تحيل إلى ابن خلدون القول بتأسيس مازونة من قبل عبد الرحمن أبو منديل زعيم مغراوة في القرن الثاني عشر (565هـ/1169م)، ينظر الطاهر جنان : **مازونة عاصمة الظهرة -ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري-** ، سيدي بلعباس (الجزائر): مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، 1426هـ/2005م، ص.10؛ في حين لم ترد هذه المعلومة حسب قراءتي.

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.63.

يتيح لنا ابن خلدون وصفا مهما لوضعية المنطقة الشلفية بعد إحياء الإمارة المغراوية بها، إلاّ أنّنا لا نستطيع أن نتلمّس طبيعة التوظيف المديني لهذه السلطة "المشيخية البدوية" الجديدة[1].

ولو تتبعنا التأريخ الخلدوني لهذا الحدث المغراوي نجد أنّ معالمه أخذت تظهر أكثر في الفترة الموحدية مع علاقة "التسكين" التي اعتمدتها السلطة تجاه شيوخ مغراوة "البدو"، يقول ابن خلدون: «...وكان من ولده الملقب أبو ناس بن عبد الصمد بن ورجيع بن عبد الصمد وكان منتحلا للعبادة والخيرية، وأصهر إليه بعض ولد ما خوخ ملوك بني ومانو بابنته فأنكحه إياه فعظم أمره عندهم بقومه ونسبه وصهره، وجاءت دولة الموحدين على اثر ذلك فرمقوه بعين التجلة لما كان عليه من طرق الخير فاقطعوه بوادي شلف وأقام على ذلك وكان له من الولد ورجيع وهو كبيرهم وغربي ولغريات وماكور ومن بنت ماخوخ عبد الرحمان وكان أجلهم شأنا عنده وعند قومه...وكثرت عشيرته من بني أبيه واعصوصب عليه قبائل مغراوة فكان له بذلك شوكة وفي دولة الموحدين تقدمة...»[2].

فمسألة الاقطاع الرسمي تضفي على القبيلة الشلفية وضعا أكثر استقرارية يتماشى مع الطبيعة الحياتية بهذه الجهات[3]، وإن كان الإدريسي قد سبق وأن أشار إلى التحضّر الذي تتصف به القبيلة الزناتية المتوطّنة بالجهات الغربية من المغرب الأوسط[4].

1- من بين الدراسات التي تناولت إشكالية العمارة البدوية والحضرية عند ابن خلدون، ينظر:

R.Alili, *Hypothese sur l'organisation du système socio – politique du maghreb medièval et la crise du XIe siècle*, p.51-53; Abdelaziz Daoulatli, *Ibn Khaldoun et la Ville, Expérience d'une reecriture de la muqaddima*, p.97-103; Jean-Paul Charnay, *Les rapports de production entre société Bedouine et société citadine selon Ibn Khaldoun*, p.165-175; dans Majallat Et -Tarikh, Actes du Colloque international sur Ibn Khaldoun, Alger, 21-26 Juin 1978, Centre national d'études historiques, société nationale d'Edition et de Diffussion, 1982.

Jacques Berque, «Ibn Khaldoun et les Bédouins», dans, *Maghreb histoire et sociétés*, Duculot, p.48-64.

وينظر أيضا:

Djamel Chabane, *La pensée de l'urbanisation chez Ibn Khaldûn (1332-1406)*, Paris, Editions l'Harmattan, Montreal, L'Harmattan Inc, 1998.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.63.

3- تمثّل اقطاع الموحدين لبني منديل في "اقطاع تسكين"، ينظر عزالدين أحمد موسى: **النشاط الإقتصادي**، ص.145.

4- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص.111.

فالمتمعن في طبيعة العمران البدوي البسيط الذي يعيشه فلاّحو سكان التلول الخصبة والجبال المشجّرة يتمكنون فيه من الحصول على مستوى أحسن وأرقى من العيش يدعوهم إلى الاستقرار[1]، وهو ما يوضّحه ابن خلدون: « ...ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها وينتهي إليها بسعيه إلى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي تحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قيادة المدينة...»[2].

سنترك جانبا ما تمّ طرحه في البداية عن إشكالية التواصل الطبونومي، ونحاول أن نتماشى مع المعطيات النصّية الوسيطة التي تأخرت حتى القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي مع الوصف الجغرافي الذي اقترحه خبراء أرسلهم الإدريسي إلى مختلف الجهات المغربية وغيرها.

يثير "عبد الرحمان المغراوي" الذي يربطه ابن خلدون بأساطير تداولتها ساكنة المنطقة جدلا حول هوية الشخصية المؤسسة لمازونة "مدينة الإمارة المغراوية" كما يصفها البعض [3]، فعبد الرحمان الذي يقول عنه ابن خلدون: « ...ومن بنت ما خوخ عبد الرحمان وكان أجلهم شأنا عنده وعند قومه عبد الرحمان هذا لما يوجبون له بولادة ماخوخ لأمه ويتفرسون فيه أن له ولعقبه ملكا وزعموا أنّه لما ولد خرجت به أمه إلى الصحراء فألقته إلى شجرة وذهبت في بعض حاجاتها فأطاف به يعسوب من النحل متواقعين عليه وبصرت به على البعد فجاءت تعد ولما أدركها من الشفقة فقال لها بعض العارفين خففي عنك فوالله ليكونن لهذا شأن...» [4]، يعتبره البعض مختط مازونة، وللأسف لا نملك أي إشارة مباشرة لنصوص وسيطة متقدمة قد تساعد على إثبات هذا الرأي أو رفضه.

وعلى كل فشخصية عبد الرحمان المغراوية الحليفة للسلطة الموحدية كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون: «...ونشأ عبد الرحمان هذا في جو هذه التجلة مدة بنسبه وبأسه وكثرت عشيرته من بني أبيه واعصوصب عليه قبائل مغراوة فكان له بذلك شوكة وفي دولة الموحدين تقدمة لما كان يوجب لهم على نفسه من الانحياش والمخالطة والتقدم في مذاهب الطاعة وكان السادة منهم يمرون به في غزواتهم إلى إفريقية ذاهبين وجائين فيترلون منه خير نزل وينقلبون بحمده والشكر

1- محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص.151.

2- ابن خلدون: **المقدمة**، ص.116.

3- الزياني: **دليل الحيران**، ص-ص.54-55؛ المعسكري: **عجائب الأسفار**، ص.93؛ مختار حساني: **المرجع السابق**، ج.4، ص،ص.165،166.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.63.

لمذهبه فيزيد خلفائهم اغتباطا به...»[1]، متأخرة زمنيا عن إشارة الإدريسي لمازونة "المدينة" [2]، فالخليفة الموحدي الأول عبد المؤمن بن علي لم يقرر الزحف على الشرق لفتح إفريقية إلاّ سنة 555هـ/1159م، كما أنّ ارتباط سلطة مراكش بالمنطقة سابق لهذه الحملة، ولا ندري إن زامن عبد الرحمان المغراوي عبد المؤمن بن علي لأنّ النص الخلدوني بقي غامضا في هذا الجانب.

وما يمكن تأكيده هو معايشة "الشيخ المغراوي" لوفاة خليفة موحدي ولاضطراب أوضاع السلطة المركزية بمراكش، يقول ابن خلدون: « ...وأدرك بعض السادة وهو بأرض قومه الخبر بمهلك الخليفة بمراكش فخلف الذخيرة والظهر وأسلمها لعبد الرحمان هذا ونجا بدمائه بعد أن صحبه إلى تخوم وطنه فكانت له بها ثروة أكسبته قوة فاستركب من قومه واستكثر من عصابته وعشيرته وهلك خلال ذلك، وقد فشل ريح بني عبد المؤمن وضعف أمر الخليفة بمراكش ...»[3]، وأظنّ أنّ الفترة متعلقة باضطرابات داخلية، وبأزمة بني غانية خاصة، لأنّ ابن" عبد الرحمان المغراوي منديل" قتل أثناء مواجهتهم بمتيجة سنة 622هـ/1225م[4]، «...وكان له من الولد منديل وتميم، وكان أكبرهما منديل فقام بأمر قومه، على حين عصفت رياح الفتنة وسما لمنديل أمل في التغلب على ما يليه...ثم فسح خطوة إلى ما جاوره من البلاد فملك وانشريس والمدية وما إلى ذلك واختط قصبة مرات، وكان بسيط متيجة لهذا العهد في العمران آهلا بالقرى...» [5]، أي في فترة الخليفة يوسف المنتصر أو المستنصر، ولعله حكم المنطقة الشلفية قبل ذلك أي في عهد أبي عبد الله محمد الناصر الموحدي (595هـ-610هـ/1199م-1214م).

وما يجعلنا أكثر يقينا أنّ المدينة كانت موجودة على الأقل قبل ظهور شخصية عبد الرحمان "الشيخ المغراوي"، أنّ نص الإدريسي الذي يقدّم وصفا حضريا متميزا للمدينة "مازونة" كتب قبل 560هـ/1164م، أي قبل تاريخ وفاته، وهو ما يدحض الآراء القائلة باختطاط مازونة من قبل عبد الرحمان أو ابنه منديل[6].

1- **نفسه**.

2- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص-ص.128-129.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.63-64.

4- **نفسه**: ص.64؛ المعسكري: **عجائب الأسفار**، ص.163.

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.64.

6- أبو راس الناصر المعسكري: **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"** ، حققه وضبطه وعلّق عليه: محمد بن عبد الكريم الجزائري ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص.20؛ والذي يرى أنّ مؤسس مازونة هو منديل بن عبد الرحمن أوائل القرن السادس الهجري ، ويظهر جليا الخلط التاريخي لأنّ شخصية منديل أخذت

وقد يكون مؤسس المدينة الوسيطة والذي يصعب تحديده، حين عزم على اختطاط مازونة، كان الموقع القديم قد اندثر، أو أنّ البناء كان في موقع جديد غير القديم، بدليل قول ابن خلدون: «واختطوا قرية مازونة»[1]، لأنّ التخطيط يعني بناء جديد ضمن تصميم جديد[2].

وبالتالي فالتصنيف السابق للمدن الإسلامية لا يمكن أن نعتمده بالنسبة لمازونة مع عدم وضوح الأدلة النصّية، إلاّ أنّها تمثل بالنسبة لنا أنموذجا لمدينة بربرية زناتية محلية، ستعرف تطورات تحدد طبيعة نمطيتها العمرانية في المنطقة الشلفية.

تظهر مع نهاية القرن السادس الهجري والنصف الأول من القرن السابع الهجري ، ونفس الرأي نجده عند الشقراني : **المرجع السابق**، ص.33؛ في حين يرى المعسكري نفسه وفي مؤلف آخر أنّ عبد الرحمن المغراوي هو الذي اختطّ مازونة سنة 565هــ/1169م، ينظر المعسكري: **عجائب الأسفار**، ص.93؛ وعن شخصية منديل المغراوي ينظر أيضا ابن خلدون : **العبر**، مج.7، ص.64؛ الزياني: **دليل الحيران**، ص.55.

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.64.

2- ينظر مثلا إبراهيم القادري بوتشيش: "المدينة المغربية والمدينة الأوروبية في العصور الوسطى، دراسة مقارنة –حالة مدينة وجدة-"، **حلقات مفقودة**، ص.142؛ عن فكرة إختطاط مدينة مازونة الجديدة يرى مختار حساني: أنّ هناك مدينتين الأولى قديمة والأخرى حديثة، ويعتقد أنّ هذه الأخيرة هي التي قصدها ابن خلدون، والتي تأسست خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حيث اتخذت عاصمة لإمارة مغراوة، وكانت تشرف على ثلاثة مدن رئيسية هي: تنس وبرشك القريبة من شرشال، ثم يذكر أنّ الباحثين يعتقدون أنّ مدينة جوراية حاليا أسست على أنقاضها، وأنّ تهدمها كان ناتجا عن زلزال أصابها خلال القرن الخامس عشر الميلادي، مختار حساني: **المرجع السابق**، ج.4، ص-ص.174-175.

الفصل الثالث

الحركية الحضرية لمازونة وناحيتها(تطورات المرحلة الثالثة)

I -مازونة والأسرة المنديلية الحاكمة (وجه العلاقة).

II -تطورات إشكالية التمدين.

I - مازونة والأسرة المنديلية الحاكمة (وجه العلاقة)

1- ملاحظة أوليّة:

يعبّر الواقع القبلي الشلفي مع بداية التفكك الموحدي وظهور القوى الجديدة عن مرحلة التحول من الرئاسة إلى الملك التي يشرحها ابن خلدون في مقدمته: «ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها، فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالا وأنظارا، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم، وإن غلبتها واستتبعتها التحقت بها أيضا وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة ...، فقد ظهر أنّ الملك هو غاية العصبية وأنّها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة الملك، إمّا بالاستبداد أو بالمظاهرة حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك...»[1].

يرى محمد عابد الجابري في هذه المرحلة إشارة للتوسع الآلي للعصبية الغالبة، والذي يتم بامتصاصها للعصبيات الأخرى القريبة أولا ثم البعيدة ثانيا [2]، وهو ما يتضح مثلا مع البيت "المنديلي" أو "الخزري"، والذي مكّن العصبية المغراوية من أن تتغلب على عصبيات أخرى كانت مؤثرة في المنطقة[3]: «وتلك العصبية الكبرى إنّما تكون لقوم أهل البيت ورئاسة فيهم، ولابد أن يكون واحد منهم رئيسا لهم غالبا عليهم فيتعين رئيسا للعصبيات كلها تغلب منبته لجميعها.» [4]، وإن كان هذا الأمر بدأ مع المشروع الخزروني لإحياء "الإمارة المغراوية" بالجهة الشلفية.

لا ننتظر طبعا أن تمدّنا النصوص الوسيطة بأسباب هذا التحول، وهو ما يمكن أن نستنتجه من حركية التاريخ عند ابن خلدون خاصة، والذي يعتمد فيها على مفهوم التغيّر فالعمران ينتقل من البسيط إلى المركب ابتداء من إنتاج البسيط من المعاش (المعاش الضروري كما يتجلى في أنواع المعاش البدوي) إلى المركب منه (كما يتجلى في الاقتصاد الحضري) ، وذلك عبر انتقال الجماعة نفسها من مستوى البداوة إلى مستوى التحضر ، وأيضا في التغير الذي يطرأ على السيادة القبلية، والتي تؤثر في الحراك

1- ابن خلدون: **المقدمة**، ص.131.

2- محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص.183.

3- لقد ظلّت مغراوة مذكورة في المنطقة بين تلمسان وتاهرت في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي، وظلّ لها وجود قوي بين تلمسان وفاس إلى العصر المريني، عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.79.

Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement des arabes*, p.231.

4- ابن خلدون: **المقدمة**، ص-ص.124-125؛ محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص.183.

التاريخي، فابن خلدون مثلا يرى في ظهور العرب البدو انقلابا في التاريخ المغربي الوسيط بظهور قوة جديدة مؤثرة[1].

وأرى أنّ تبني لهذا الموقف الخلدوني يدّعمه أنّ النسق النظري لمقدمته هو نتاج لما قام به من استقراءات في التاريخ العربي الإسلامي القروسيطي، ومن جهة أخرى هو نتاج للاحتكاك بانعكاسات أحداث القرن الرابع عشر الميلادي لمعانيتها وللمشاركة في بعضها [2]، كما أنّ واقع الطبيعة القبلية التي حكمت المجتمعات الشلفية لم يكن بعيدا عن ابن خلدون أثناء كتابته للمقدمة، حين اعتزل الناس في "قلعة ابن سلامة" [3]، فقد تكون هذه "البيئة" قد ساهمت في التأثير عليه، وبالتالي على صياغته للقوانين التي حكمت حسبه المجتمع المغربي الوسيط[4].

1- علي أومليل: **المرجع السابق**، ص-ص.185-186.

2- وعن دوافع "الكتابة التاريخية" عند ابن خلدون في المقدمة، ينظر **نفسه:** ص-ص.108-111؛ المختار الهرّاس: "القبيلة والدورة العصبية: قراءة في التحليل الخلدوني للمجتمع القروي المغاربي"، **الفكر الإجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، المستقبل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2004، ص.143.

3- قلعة ابن سلامة أو بني سلامة ، وتسمى قلعة تاوغزوت(Taoughzout) تقع في مدينة تيارت الحالية ، وتبعد بنحو ستة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من مدينة فرندة (Frenda)، أمّا سلامة الذي تنسب إليه أو إلى بنية القلعة فهو سلامة بن علي بن نصر بن سلطان رئيس بني يدللتن من بطون توجين سكن تاوغزوت ، واختط بها القلعة، فنسب إليه وإلى بنيه، وكانت من قبل رباطا لعض العرب المنقطعين من سويد ، ينظر هامش ابن خلدون : **التعريف**، ص.228، حيث يقول ابن خلدون عن إقامته بها ما يلي : «وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة من بلاد بني توجين التي صارت لهم بإقطاع السلطان فأقمت بها أربعة أعوام، متخليا عن الشواغل كلها...وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة.» ، **نفسه:** ص-ص.228-229.

4- سالم حمّيش: **المرجع السابق**، ص.51.

2- بنو منديل المغراويين "الجماعة والمجال الشلفي":

إنّ الوضعية التي أصبح عليها بنو منديل المغراويين بعد مقتل زعميهم "منديل بن عبد الرحمان(تـ.622هـ أو 623هـ/1225م-1226م)"على يد بني غانية الميورقيين جعلتهم ينحصرون أكثر في المنطقة الشلفية، خاصة وأنّ الامتداد أو الانحصار المجالي الجغرافي عرف تجاذبات حدثية بين القبائل الزناتية[1]، وهو ما يوضّحه ابن خلدون في النص التالي: «...وقام بأمره في قومه بنوه وكان منجبا فكان لهم العدد والشرف وكانوا يرجعون في أمرهم إلى كبيرهم العباس فتقلد مذاهب أبيه واقتصر على بلاد متيجة، ثم غلبهم بنو توجين على جبل وانشريس وضواحي المدية وما إلى ذلك وانقبضوا إلى مركزهم الأوّل شلب (أي شلف)، وأقاموا فيها ملكا بدويا لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط...»[2].

لقد تزامن هذا الوضع المغراوي مع الواقع الجديد الذي أصبح عليه المغرب الأوسط ، وهو الشرعية القبلية الجديدة لبني عبد الواد الممنوحة من قبل الخليفة الموحدي أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور (624هـ/1226م-630هـ/1232م)[3]: «فكتب له العهد على تلمسان وسائر بلاد زناتة على رسم السادة...»[4].

ثم بدأت الممارسة العبد الوادية تأخذ طابع الاستقلالية التامة عن وصاية السلطة الموحدية بمراكش مع يغمراسن بن زيان (633هـ/1235م-681هـ/1282م) "مؤسس الدولة" [5]، وتحاول أن تفرض منطقها على الجهة الشلفية بسياسة التحالفات التي عقدتها مع بعض القبائل [6]،

1- ظلّت ظاهرة البداوة تميّز المغرب الأوسط حتى بعد استقرار بني عبد الواد بتلمسان ، لأنّ أغلبية سكان هذه البلاد ، كانوا يتشكلون من الرحل ، وأنّ تلمسان العاصمة الزيانية كانت مركزا حضريا شبه منعزل في منطقة بدوية ارتبط مصيرها بطبيعة تحركات قبائل المغرب الأوسط، مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص-ص.29-43، 64.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.64.

3- التنسي: **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من : نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان** ، حققه وعلّق عليه : محمود بوعياد، الجزائر: إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية -المؤسسة الوطنية للكتاب، 1405هـ/1985م، ص-ص.112-113؛ هو أبو العلا إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (624 هـ/1226م-629 هـ أو 631هـ/1230م أو1232م)، ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (قسم الموحدين)**، ص.274.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.78-79؛ عبد الحميد حاجيات : **أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره** ، ط.2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982-1983، ص-ص.12-13.

5- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص، ص.113، 115؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.204-205.

6- مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص.65.

«...فكان بنو راشد شيعة لهم وأحلافهم في فتنتهم مع بني توجين وبني مرين ...»[1]، وإن كانت متعددة، إلاّ أنّها تعبّر عن تعاون ظرفي يبرزه التناقض بين نظم "الدول المغربية المتأخرة " والقبلية المجتمعية، والذي يظهر أيضا مع القبائل الزناتية –الشرقية- كما أسماها بعض المؤرخين[2]: « فتغلب بنو عبد الواد على نواحي تلمسان إلى وادي صا، وتغلب بنو توجين ما بين الصحراء والتل من بلد المدية إلى جبل وانشريس إلى مرات الجعبات وصار التخم لملك بني عبد الواد سك والبطحاء فمن قبليها مواطن بني توجين ومن شرقيها مواطن مغراوة، وكانت الفتنة بين بني عبد الواد وبين هذين الحيين من أول دخولهم إلى التلول...»[3].

لذلك نستطيع أن نتصور سبب عدم تقبل مغراوة وبني توجين لهذه السياسة "الأولى" في مجالهم، والتي كانت ترغب في تمهيده باعتباره إحدى الوحدات الإدارية التابعة لها[4].

لقد صادف هذا الواقع المتأزم الذي كانت تعيشه الجهات الشرقية رغبة التوسع نحو الغرب عند أبي زكريا يحي بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الحفصي سنة 639هـ أو 640هـ/1242م بسبب عدم ثقته في ولاء يغمراسن[5]، والتي دعمتها دعوة العباس بن منديل بن بن عبد الرحمان المغراوي (ت.647هـ/1249م)، وعبد القوي بن عباس التوجيني (607هـ-647هـ/1210م-1249م)[6]، يقول ابن خلدون: «وأحفظ الأمير أبا زكريا بن

1- ابن خلدون: **العبر**، ص-ص.152-153.

2- ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.36.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.86-87.

4- **نفسه:** ص.79

5- للتفصيل ينظر الزركشي : **المصدر السابق** ، ص.29؛ ابن قنفد : **الفارسية**، ص.109؛ ابن عذاري المراكشي : **البيان المغرب(قسم الموحدين)**، ص-ص.361-362؛ ابن الشمّاع: **المصدر السابق**، ص، ص.54، 55، 59؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.117؛ ابن أبي زرع: **الذخيرة السنية**، ص.61؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.205.

6- عبد القوي بن العباس بن عطية الخير (607هـ-647هـ/1210م-1249م) حيث توفي سنة 647هـ/1249م بعد رجوعه من حركة إيسلي يقول ابن أبي زرع : «...وقتل ابنه محمد وأخوه يوسف على قبر أبيهما المتوفا في سابع موته ، وصار بنو محق؟ تحت حكم القاتل محمد...وفيها ملك محمد بن عبد القوي ونشريس وجبالها وبرشك وشرشال...» ، ابن أبي زرع : **الذخيرة السنية**، ص-ص.76-77؛ أمّا عند ابن الخطيب فإنّه يورده تحت اسم عبد القوي بن وزمار بن تجين بن تميم بن علي والذي حكم بلاد وانشريس وشرشال وشلف والجزائر إلى تلمسان وذلك سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (ويظهر هنا الخلط في هذا التاريخ)، ابن الخطيب: **أعمال الإعلام**، ص-ص.167-168؛ وعند المعسكري نجد أنّ هناك خلطا واضحا حيث يرى أنّ الذي ملك مازونة هو علي بن منديل ، وأنّه هو الذي وفد على أبي زكريا الحفصي ، ومعه أمير توجين العباس بن عطية (يلاحظ هنا الخلط في التسمية)، المعسكري: **عجائب الأسفار**، ص.93؛ الزياني: **دليل الحيران**، ص.55.

عبد الواحد صاحب إفريقية ما كان من اتصال يغمراسن بالرشيد وهو من جواره بالمحل القريب واستكره ذلك وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي بن عباس وولد منديل بن محمد صريخين على يغمراسن وسهلوا له أمره وسوّلوا له الاستيلاء على تلمسان...» [1]، على الرغم من أنّ العلاقات المغراوية والتوجينية مع حفصي إفريقية لم تكن جيدة في بداياتها [2]، وأدّت إلى حملات أولى على مناطقها كحملة سنة 636هـ/1238م[3]: «نهض المولى أبو زكريا من تونس يؤم بلاد زناتة بالمغرب الأوسط فسار إلى بجاية ثم ارتحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها من قبله ثم نهض منها إلى بلاد مغراوة فأطاعه بنو منديل وتجاهر بنو توجين بالخلاف فأوقع بهم وقبض على رئيسهم عبد القوي بن العباس واعتقله وبعث به إلى تونس...وأقبل راجعا إلى حضرته...»[4].

لقد استفاد شيوخ المنطقة الشرقية الزناتيين في طريق عودة أبي زكريا من حملته الغربية [5]، حيث عهد لهم قيادة المناطق التابعة إلى كل واحد منهم: «فجعلهم سلاطين كالأسوار المشيدة بينه وبين أمير المسلمين يغمراسن ...»[6]، لذلك أصبحوا يمثّلون حسب أحد الباحثين [7] دويلات تابعة إليه مباشرة موجودة بينه وبين خصمه الزياني، فهي بمثابة الحصون الكفيلة بحماية إفريقية من أي هجوم محتمل من الناحية الغربية، وهو الواقع الذي يحاول أن يساوي فيه أبو زكريا الحفصي بين هذه الكيانات المشيخية والأمير الزياني، وقد تكون هي نفس نظرة هؤلاء الشيوخ لأنفسهم في مجالاتهم حيث سمح لهم باتخاذ: «الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم فاتخذوها بحضرته وبمشهد من ملك الموحدين وأقاموا مراسمها ببابه...»[8].

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.80.

2- **نفسه:** ص.156.

3- لابد من الإشارة إلى حملة أبي زكريا التي وصل فيها إلى بلد البطحاء (القرية من مازونة) ، وتقديمه عبد القوي بن العباس التجاني عليها، ورجوعه إلى إفريقية، ابن قنفد: **الفارسية**، ص.109.

4- الزركشي: **المصدر السابق**، ص.28 .

5- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.205-206.

6- **نفسه:** ص-ص.205-206؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.118؛ الزياني: **دليل الحيران**، ص.55.

7- روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.1، ص.61؛ ألفرد بيل: **المرجع السابق**، ص.309.

8- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.81؛ الزياني: **دليل الحيران** ، ص.55، وعن شارات الملك والسلطان في الدولة العبد الوادية، ينظر الدراجي بوزياني: **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية** ، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، 1993م، ص-ص.99-109.

3 –هل مثّلت مازونة نمط "المدينة–الإمارة " أو "المدينة –الدولة" ؟

لقد أثار عندي النص الذي يربط فيه ابن خلدون بين الحلف الحفصي مع بني منديل (البدو) واختطاط (مازونة) سؤال العلاقة التي قد تكون بين المدينة والإمارة المغراوية المنديلية [1]، وبغض النظر عن الواقع الحضري الذي وظّف في النص التالي: «وانقبضوا إلى مركزهم الأول شلب (أي شلف) وأقاموا فيها ملكا بدويا لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط واستولى على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال مقمين فيها للدعوة الحفصية واختطوا قرية مازونة..»[2].

وما أثارته النظرية الخلدونية حول التسلسل الذي يتحول بموجبه المجتمع من البدائية إلى التحضر، الناتج أصلا من تملك الخيرات المادية، وبالتالي السلطة والدولة، فمن يمتلك زمام الاقتصاد والسلطة السياسية هو ذاته من يسعى لبناء عمارة ترفيهية كمالية، ويلجأ لإشادة الصروح والهياكل[3]، فميلاد المدن يستجيب لرغبات سلطانية [4]، لكن للأسف لا نستطيع تحديد طبيعة هذه العمارة الجديدة لبني منديل، إلاّ أنّ ما يمكن تصوره أنّ هذه "الإمارة" لم تصل للمستوى الحضري الذي عرفته زناتة "بني عبد الواد والمرينيين" مثلا.

وبغض النظر أيضا عن الواقع الذي أشار إليه ابن خلدون في نصّه، والذي أراه متأخرا أي أنّه ربما يرجع للقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وليس بالضرورة تعبيره عن الوضع الحضري الذي كان لمازونة التي قام المنديليون باختطاطها.

إلاّ أنّ ما هو مؤكد لدينا أنّ المغراويين أعطوا مازونة إضافة معمارية، لكنّنا لا نكاد نعلم شيئا عن طبيعة توظيفاتهم فيما يتعلق بالطبوغرافية الخاصة بها، فالمرجح أنّ المدينة أصبحت منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تمثل أنموذجا للمدينة –الإمارة، وهو ما يمكّنها من أن تمتلك خصوصية مدينية مختلفة عن غيرها ربما من مدن المجال "المغراوي"[5].

1- المعسكري: **عجائب الأسفار**، ص.93.

2- ابن خلدون : **العبر**، مج.7، ص.64، قد يجوز لي أن أتساءل هنا إذا كانت لشخصية العباس المغراوي يد في اختطاط مازونة الوسيطة على الرغم من عدم التلميح لها بالنسبة للذين قالوا بوسيطية مازونة؟

3- أحمد علي آزاد : "حول العمارة والتشييد عند ابن خلدون" ، **المستقبل العربي**، السنة 23، مج.23، ع.260، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000 م، ص.163.

4- نجد مثلا أنّ بني مرين في القرن VII وXIII م أضافوا إلى مدينة فاس القديمة مدينة فاس الجديدة.

5- عن نمط المدن الأميرية (*villes princières*)، ينظر:

Georges Marçais, «L'Urbanisme Musulman», p.17-19.

فهل وظّفت دار الإمارة في هيكلة المدينة الجديدة المختّطة، والتي قد تكون مجاورة للمسجد الجامع، اقتداء بما كان في تلمسان يغمراسن حيث يلتصق القصر بالمسجد الكبير وممر خاص مغطى يسمح للأمير بالذهاب من قصره إلى المسجد والذي ينتهي في مقصورة المسجد[1] !

1- جورج مارسي: **تلمسان**، ص-ص.40-41.

II – تطورات إشكالية التمدين:

1– المدينة، القبيلة والسلطة (أزمة التمدين):

1–1– العامل السياسي والاضطراب الحضري (إشكالية أولية):

لا تنتهي أيّة مدينة من بنائها الذاتي وهدمها الذاتي أبدا، ذلك أنّ نبضات حياتها، ترتبط بالمادة البشرية الموجودة داخلها، وبالمد البشري المحيط بها، كما ترتبط بوتائر التاريخ الكبرى بالمقدار ذاته، حيث المستوى السياسي يثبت أحيانا قدرته على الهيكلة بصورة خاصة فهو قادر بقرار بسيط على تغيير المظهر الاجتماعي والمظهر المدني إلى أجل[1].

حيث يرى ابن خلدون في المدينة ظاهرة اجتماعية ومعاشية متطورة، تتأثر بالعناصر الطبيعية المكوّنة للموضوع وذلك من حيث حجمها ووظائفها وعلاقاتها، فالمدينة هي الناس والمباني والهندسة والعمارة والثقافة والاقتصاد والإدارة[2]، وبالتالي فهي ليست شيئا ساكنا ثابتا يتكون من بعدين أو حتى ثلاثة أبعاد من التركيبات العضوية، ولكنّها كانت في نظره شيئا ذات أبعاد متعددة من تركيبات متشعبة تشمل عناصر الزمن والفلسفة مضافا إلى فائدتها ونفعها[3].

ويؤمن ابن خلدون أيضا بالتحول التدريجي الذي يمسّ القرى ككائن اجتماعي إلى المدن، إلاّ أنّه يقر بعملية التحول والتراجع العكسي أيضا، أي أن تتحول المدينة إلى قرية بخرابها واضمحلالها، وهو ما ينسجم طبعا مع منظومة الفكر الخلدوني الاجتماعي المتمركز حول تفكك الحضارات والدول بفقدانها العصبية[4].

وإن كان للدور الذي يمثّله الأمير أو الحاكم له أهميته، فإنّ ميلاد المدينة و استمراريتها على الخصوص يعودان إلى علل مضبوطة ودوافع حتمية، فالجسد العمراني يتحرك باستمرار مارا بأوضاع وأطوار متعددة[5]، فدراسة النمو العمراني تشتمل على عنصرين، الأو ل عام يهدف إلى

1– هشام جعيط: **نشأة المدنية العربية الإسلامية**، ص.342.

2– علي فاعور: "جغرافيا تاريخية –المدينة العربية نشأتها وموقعها في كتابات الجغرافيين العرب–"، **الفكر العربي المعاصر**، مجلة العلوم الإنسانية والحضارية، ع.12، 1981م، ص–ص.116–118؛ ويرى محمد شوقي إبراهيم مكي أنّ للموقع المحلي مؤثرات، فهناك عدة عوامل بعضها طبيعي آخر بشري تؤثر على أشكال المدن، وأنّ هذه العوامل تختلف من منطقة لأخرى، محمد شوقي إبراهيم مكي: **المدخل إلى تخطيط المدن**، الرياض: دار المريخ للنشر، 1986، ص.110.

3– **نفسه**: ص.118.

4– أحمد علي آزاد: المرجع السابق، ص–ص.165–166.

5– عبد العزيز الدولاتلي: **المرجع السابق**، ص.57.

معرفة تطور الحضارة، والثاني خاص يرمي إلى تتبع مصير المدينة ذاتها، هذان العنصران هما اللذان يسمحان بتعقب اتجاه تطور كل مدينة عبر العصور [1]، فمظهر الفوضى والاضطراب الذي عرفته البلاد المغربية في الفترة الوسيطة شكّلت حالة شبه دائمة تقريبا ، فهل الفعل السياسي هو وحده من يتحمل مسؤولية التراجع أو التغير الايجابي أو السلبي[2]؟

يظهر هذا التأثير عمليا في تعدد الأنماط الحضرية الذي عرفتهمازونة في هذه الفترة، والذي تحكّمت فيه طبيعة العلاقة التي ربطت القبيلة مغراوة والسلطة المتغيّرة بالمنطقة، حيث أنّه لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن ننفي ارتباط الصفة المغراوية الخالصة بالمدينة مازونة، فقبائل مغراوة كانت ترغب في الحفاظ على استغلالها للامتيازات التي كانت لها في عهد الموحدين، وبذلك ظلّت هذه القبائل عقبة لبني عبد الواد في وجه تحقيق مشروعهم السياسي.

فنحن لا نتوقع ألاّ يتماشى الواقع المديني مع وضع المنطقة الشلفية في تلك الفترة، خاصة وأنّ المصالح القبلية لمغراوة-التي حكمت المدينة لفترات معينة-وغيرها من القبائل الزناتية في المنطقة الشرقية اصطدمت بالطرف الزياني القريب مجاليا، فبنو عبد الواد القبيلة البدوية مثلهم، والتي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط ينتجعون المراعي الخصبة ويترددون على المناطق التي تقع ما بين الفجيج وملوية وجبل راشد[3]، قبل أن ينتقلوا إلى غرب المغرب الأوسط تحت ضغط هجمات الهلاليين، فاستقروا في المناطق الواقعة بين البطحاء شرقا، ونهر ملوية غربا، وأصبحت أراضيهم تتاخم مواطن بني توجين في الجنوب وتحاذي ممتلكات مغراوة في الشرق، تمكّنت من أن تستأثر بحكم المنطقة، وامتلاك الأراضي الخصبة في مناطق مغيلة ومغراوة وغيرها [4]، وبالتالي الحد من ممارستها لامتيازاتها التي كانت عليها خلال الفترة الموحدية، لذلك عملت على الوقوف في وجه المشروع السياسي الزياني، لأنّها ترى في نفسها قبيلة منافسة وطموحة وليست خاضعة [5]، فساكنة فساكنة المنطقة المغربية عموما في أغلب الأحوال عبارة عن مجموعات من القبائل المتحالفة حينا والمتطاحنة حينا آخر، حيث يكون لتعددها واختلاف أصولها والصراعات الدائرة بينها تأثيراته في

1- **نفسه:** ص.11.

2- عن هذه الحروب وتأثيراتها ، ينظر حسين بولقطيب : **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين** ، الرباط-الدار البيضاء : منشورات الزمن-مطبعة النجاح الجديدة، 2002، ص-ص.88-117.

3- جبل راشد: هو جبل عمور، ينظر المشرفي: **المرجع السابق**، ص-ص.24-25.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.72.

5- الدراجي بوزياني : **العصبية القبلية وأثرها على النظم والعلاقات في المغرب الإسلامي من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري**، ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، إشراف: موسى لقبال، ص.451.

مسألة الحكم[1]، وهو ما تفطّن له ابن خلدون وتحكم في توظيفاته لممارسات المجموعات البشرية المغربية أو لمجتمع المغرب الوسيط[2].

1-2- الأزمة: (دراسة كرنولوجية):

1-2-1- (640هـ-681هـ/1242م-1283م): نفوذ الأسرة المنديلية بالمنطقة الشلفية والمدينة:

لا تتوسع نصوص البلاطين الزياني والمريني وغيرها في تفاصيل حملات السلطة نحو المدينة ومجالها باعتبار هامشيتها، حيث اصطلح عليها بتعابير عديدة منها: "فتنة مغراوة"، أو الحملات على البلاد الشرقية، الشرقية، البلاد الشلفية، الشلف، بلاد مغراوة، وحتى بلاد زناتة [3]، هذا المصطلح الأخير الذي بدأ يتراجع استعماله منذ بداية هذه الفترة.

ولعل هذه التعابير العديدة تختصر المجال إمّا جغرافيا أو سياسيا وحتى قبليا، وهو ما يوضّح خصوصية معينة عايشتها المدينة وحتّمت على عمارتها ضغوطا مختلفة، إلاّ أنّها وللأسف ترد مختصرة بشكل لا يسمح لنا بتتبع حيثياتها وتأثيرها على الفعل الحضاري بالمنطقة والمدينة أيضا، فنحن لا نملك إلاّ أن نتصور دور هذه "الحرب" [4] التي لم يستطع الشاهد النصي التالي عدّها لكثرتها، وهو يؤرخ للأمير الزياني الأول أبو يحي يغمراسن بن زيان (631هـ-681هـ/1233م-1282م)[5]: «...وتخلل هذه السنين من غزوات أمير المسلمين أبي يحيى قدّسه الله العرب بصحرائها اثنان وسبعون غزاة، إلاّ أن استعبد أحرارهم، واستغرم على يد وهم صاغرون أحوالهم سوى غزواته توجين ومغراوة بعقر ديارهم، وافتراعه بها عليهم شماريخ

1- سالم لبيض: "من أجل مقاربة سوسيولوجية لظاهرة القبيلة في المغرب العربي"، **المستقبل العربي**، السنة 23، مج.23، ع.261، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000/11، ص.50.

2- سالم حمّيش: **المرجع السابق**، ص.51.

3- من بين هذه النصوص التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.126 مثلا؛ ابن مرزوق: **المجموع**، طبع باسم: **المناقب المرزوقية**، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، الدار البيضاء: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، 1429هـ/2008م، ص-ص.274-275.

4- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص، ص.128، 178.

5- عن هذا الأمير الزياني (عن شخصيته) ينظر ابن الأحمر : **روضة النسرين**، ص-ص.55-56؛ ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**، تقديم وتحقيق وتعليق : هاني سلامة، بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، 1421هـ/2001م، ص-ص.59-67.

المعاقل...»[1].

وإن لم يشر هذا النص للمدينة مازونة صراحة، إلاّ أنّنا لا نستطيع أن ننفي تأثرها نظرا لأهميتها بالنسبة لمغراوة ومجالها الطبيعي، حيث يمكننا أن نستنتج مثلا أنّ مدلول "عقر ديارهم" السابق يوحي بتأثر "المدينة" في مناطق مغراوة، لأنّه لا يمكن الفصل بين القبيلة (مغراوة) والأسرة المنديلية الحاكمة والمدينة مازونة، وهو ما سنلاحظه في التأثير المباشر للأنماط الحضرية الذي عرفته المدينة، حيث تتحكم طبيعة العلاقة التي ربطت القبيلة (مغراوة) والسلطة المتغيرة بالمنطقة.

وعلى الرغم من ذلك إلاّ أنّنا نلاحظ ممارسة مغراوة دورها كشريك قبلي مهم مع البدايات الهشّة للدولة الزيانية بحكم قرب مجالاتها[2]، فقد ساهمت مثلا مع يغمراسن في حملته عام 657هـ/1258م على السلطة المرينية [3]: «...وفيها أقبل يغمراسن بن زيان إلى رباط تازة فوصل إلى جلدأمان ومعه قبائل مغراوة وتجين، فخرج إليه أمير المسلمين يعقوب من فاس فهزمه، وفرّ يغمراسن أمامه إلى تلمسان وأحرق تافرسيت...»[4].

وإن كنّا نملك نصوصا أخرى توضح استمرار مغراوة على ولاءها لحفصي تونس الذين كانوا يتدخلون في تولية المند يليين[5]: «...وانصرف عسكر الموحدين والأمير أبو حفص إلى

1- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.207.

2- حيث عقد العباس المغراوي السلم مع يغمراسن الأمير الزياني : «ووفد عليه بتلمسان فلقاه بره وتكريما...وهلك العباس لخمس وعشرين سنة بعد أبيه سنة سبع وأربعين ، وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن منديل ، وصلحت الحال بينه وبين يغمراسن...»، ابن خلدون : **العبر**، مج.7، ص-ص.64-65؛ أمّا في النصوص التالية فقد ذكرت بنو توجين و لم تذكر مغراوة، ينظر ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.58؛ ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية** ، ص.65؛ ابن أبي الزرع : **الذخيرة السنية**، ص.76؛ ابن مرزوق: **المسند**، ص.113؛ وينظر أيضا السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.3، ص-ص.20-36.

3- ويشير ابن خلدون إلى حملة قبلها وهي حملة سنة 647هـ/1249م، حيث: «وصلحت الحال بينه وبين يغمراسن وصاروا إلى الاتفاق والمهادنة ، ونفر معه بقومه مغراوة إلى غزو المغرب سنة كلومان ، وهي سنة سبع وأربعين وستمائة هزمهم فيها يعقوب بن عبد الحق ، فرجعوا إلى أوطانهم وعاودوا شأنهم في العداوة .»، ينظر ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.64-65، وأيضا ص.156؛ ابن الخطيب: **رقم الحلل في نظم الدول**، تونس: المطبعة العمومية، 1316هـ/1898م، ص.72.

4- ابن أبي زرع: **الذخيرة السنية**، ص.89؛ وبالنسبة لتسمية جلدأمان: كلدمان ما بين تازي وأرض الريف ينظر ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.156.

5- **نفسه**؛ ومن بين هذه النصوص : «وفي هذه السنة وهي سنة اثنين وخمسين 652هـ، كان أبو عبد الله المستنصر بالله مستوطنا بحضرته التونسية قد طاعت له تلك البلاد الإفريقية وعماله ورجاله بمدينة مليانة والجزائر وغيرها من تلك البلاد الراجعة الآن إلى تلمسان، وكان ليغمراسن في هذا العام وبعده بحوز تونس أملاك وأسهام إحسان عليه من المستنصر بالله وانعام .»، ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب(قسم الموحدين)**، ص.406.

الحضرة وعقد لمحمد بن منديل على مليانة، فأقام بها الدعوة الحفصية على سنن قومه...»[1].

ويبدو أنّ هذه الفترة قد عرفت استقرارا نسبيا يجعلنا نتساءل إن كان من الممكن اعتبار أنّ النمو العمراني لمازونة كان إيجابيا فيها؟

في الحقيقة لا نستطيع تحديد طبيعة التوظيفات العمرانية للمنديليين في مازونة الذين ارتبطت بهم صفة تخطيطها، خاصة وأنّ المنطقة كانت بعيدة عن المشروع السياسي الزياني الذي لم يوّجه أنظاره لإضعاف مغراوة الشرق إلاّ بعد فشله في المنطقة الغربية.

لم يستمر يغمراسن الزياني في ممارسة سياسة المهادنة مع الشخصية المنديلية الأولى العباس بن منديل(تـ.647هـــ/1249م)[2]، وحتى خليفتها محمد بن منديل (تـــ. 662هـــ/1263م) الذي استمر حكمه خمسة عشر عاما [3]، حيث استغل لاحقا الخلافات التي كانت موجودة بين الأسرة المنديلية الحاكمة لتوسيع نفوذه بمناطقها [4]، يقول ابن خلدون: «فكان عماد رأيه فيهم التغريب بين بني منديل بن عبد الرحمان للمنافسة التي كانت بينهم في رياسة قومهم ...»[5]، حيث نجد أنّه في سنة (662هـــ/1263م) مثلا: « قتل ثابت وعائد ابنا هرقل المغراوي أخاهما محمد بن منديل وجعل البازي يأكل من لحمه وكانت مدة إمارته على مغراوة خمسة عشرة عاما وخمسة عشر يوما ...»[6]، وما حدث سنة (668هـــ/1269م) مع عمر بن منديل(تـــ.676هـــ/1277م)، حيث: «أعطا عمر بن منديل مليانة ليغمراسن فسلطنه يغمراسن

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.65-66.

2- يبدو أنّ الحملات العبد الوادية توسعت بالمنطقة الشلفية بعد وفاة العباس بن منديل سنة 647هـــ/1249م، فقد كانت علاقة بني عبد الواد بهاتين القبيلتين قبل هذا التاريخ ، وبعد سنة 642هـــ/1245م علاقة طيبة، فقد شاركت في موقعة أسلي بضواحي وجدة ينظر مصطفى الطالبي : **المرجع السابق**، ص، ص.177، 204؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.64-65؛ وعن واقعة وادي يسلي أو أسلي (من أحواز وجدة) ، ذكر ابن الأحمر مشاركة الأمير التوجيني عبد القوي بن العباس ، ينظر ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية**، ص-ص.65-66.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.65-66؛ ابن أبي زرع: **الذخيرة السنية**، ص.77.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.65-66.

5- **نفسه:** ص.87.

6- ابن أبي زرع : **الذخيرة السنية**، ص.101؛ ويظهر نص ابن خلدون المشابه لنص الذخيرة السنية اختلافات في تسمية الشخصيات المنديلية، حيث: «ثم هلك محمد بن منديل سنة ثنتين وستين لخمس عشرة من ولايته قتله أخوه ثابت وعابد بمنزل طواعيهم بالخيس من بسيط بلادهم ، وقتل معه عطية ابن أخيه سنيق وتولى عابد وشاركه ثابت في الأمر واجتمع إليه قومه وتقطع ما بين أولاد منديل وخشنت صدورهم ، واستغلظ يغمراسن بن زيان عليهم .»، ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.65-66.

على مغراوة وعزل أخاه ثابت بن منديل ...»[1]، حيث بدأ التدخل الزياني يظهر جليا في فرض الشخصيات الأميرية بمناطق مغراوة[2]، هذا التدخل يقابله تدخل آخر استطاع من خلاله المستنصر الحفصي سنة (668هـ/1269م) إقطاع بلاد مغراوة لمحمد بن عبد القوي التوجيني، لكن ما طبيعة هذا الإقطاع وكيف كان موقف مغراوة وحتى زياني تلمسان منه[3]؟

يقدّم النص السابق مسببات المظاهرة المغراوية، والتي تمكّن فيها يغمراسن من الاعتماد على هذه القبيلة في حملاته الغربية : «وأمكنة عمر من مليانة سنة ثمان وستين على شرط الموازاة والمظاهرة على إخوته فملكها يغمراسن يومئذ وصار الكثير من مغراوة إلى ولايته وزحفوا معه إلى المغرب سنة سبعين...»[4].

وعلى العموم يظهر لنا أنّ المندليين تقاسموا المدن في مجالات بلاد مغراوة كما اصطلح عليها، حيث يمكن أن نعتبر أنّ كل مدينة في هذا المجال مثّلت أنموذجا مصغرًا "للمدينة -الإمارة"، حيث تأخر الوجود العبد الوادي المؤثّر بالمنطقة على ما يبدو على الأقل حتى وفاة العباس بن منديل سنة 647هـ/1249م، وهي السنة التي حكم فيها محمد بن منديل مليانة وكثيرًا من أعمال الشرق[5]، وأتساءل إن اقتصر النفوذ المنديلي قبل ذلك على مدينة بعينها، أو مجال أقل من ذلك الذي أصبح عليه في فترة حكم محمد بن منديل، لكن للأسف لا يمكن أن نتبين ذلك مع انعدام الشواهد النّصية التي توضّح طبيعة الوجود المغراوي بالمنطقة.

ويبدو أنّ السلطة الزيانية في هذه الفترة بقيت مقتصرة على مجالاتها فقط [6]، بدليل خشية

1- ابن أبي زرع : **الذخيرة السنية**، ص.121؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.65-66؛ وبالنسبة لشخصية عمر بن منديل (ت.676هـ/1277م)، ينظر **نفسه**: ص-ص.65-66؛ ابن الحاج النميري : **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب** ، (**مصدر جديد من مصادر تاريخ المغرب الأدبي والحضاري في العصر المريني**) ، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص.505.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.65-66.

3- **نفسه**: ص-ص.156-157؛ يتحدث صاحب الذخيرة السنية عن المعاداة التي كانت بين يغمراسن الزياني ومحمد بن عبد القوي التوجيني أيضا سنة 670هـ/1271م، أثناء محاصرة يعقوب المريني لتلمسان وللتفصيل ينظر ابن أبي زرع : **الذخيرة السنية**، ص.132؛ وفي سنة 670هـ/1271م، أيضا هدّم محمد بن عبد القوي مدينة البطحاء ، أي أنّ لهذه القبيلة (القبيلة التوجينية) تأثيراتها في المنطقة الشلفية، ينظر ابن أبي زرع: **الذخيرة السنية**، ص.135.

4- عن هذه الحملة ينظر ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.60؛ ابن أبي زرع: **الذخيرة السنية**، ص-ص.129-132.

5- **نفسه**: ص.77.

6- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.91.

يغمراسن سنة (681هـ/1282م) أي حتى آخر دولته من مغراوة وبني توجين في حادثة ابنة الأمير الحفصي أبي إسحاق إبراهيم ابن الأمير أبي زكريا: «وكان قد خطب من الأمير أبي إسحاق إبراهيم ابن الأمير أبي زكريا ابن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ابنته لولده السلطان المرحوم أبي سعيد عثمان وأرسل للإتيان بها من تونس ولده أبا عامر وكان خروجها من هنالك سنة إحدى وثمانين، فارتحل أمير المسلمين أبو يحيى قدسه الله للقائها حفاية بها وإرضاء لأبيها السلطان أبي إسحاق فيها وخشية من قبيلي توجين ومغراوة عليها...»[1].

وإن سعى أيضا في هذه الحادثة إلى إضعاف مغراوة حيث: «توغل في بلاد مغراوة وملك ضواحيهم، ونزل له ثابت بن منديل على مدينة تنس فتناولها من يده...»[2]، فالإمارة المغراوية على ما يبدو حسب الشواهد النّصية المتاحة لدينا بقيت تمارس السيطرة على الجهات الشلفية في هذه الفترة، حيث لم يتمكن يغمراسن من فرض التبعية المغراوية القبلية والمدينية الكاملة.

وأظن أنّ الرؤية الزيانية الأولى لهذه المنطقة وساكنتها لا تختلف كثيرًا عن الأطوار التي يحدّدها ابن خلدون في بنية الدولة أو الملك[3]، فزيانيو يغمراسن ما زالوا على بداوتهم (حيث القبيلة ما زالت على صفائها الفطري)، وبالتالي لا يمكن الحديث عن سلطة واحدة مطلقة، فالعصبية في مرحلتها الأولى ترفض كل حكم مركزي منظم [4]، وإن كان الحديث على أنّ العلاقة مع أهل العصبيات وساكنة المناطق الذين خضعوا لسلطتها في فترات متقطعة علاقات تتسم بكثير من الرفق والتسامح لأنّها صادرة عن الخلال الحميدة للفطرة البدوية [5]، إلاّ أنّ مغراوة وغيرها من القبائل الشرقية يمكن اعتبارها استثناء لأنّها كانت قبائل طموحة جدا صعب على السلطة الزيانية دمجها[6].

1- يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج.1، ص.207؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.91؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.128-129.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.91.

3- ابن خلدون: **المقدمة**، ص-ص.130-135.

4- محمد عزيز الحبابي : "الدينامية المحركة للتاريخ عند ابن خلدون" ، ترجمة: فاطمة الجامعي الحبابي ، **المستقبل العربي**، السنة 06، مج.06، ع.56، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1983، ص.45.

5- محمد عابد الجابري: **المرجع السابق**، ص.223.

6 - الدراجي بوزياني: **العصبية القبلية**، ص.451؛

Sid Ahmed Banali, *Les deux grands siéges de Tlemcen dans l'histoire et la légende*, Alger, Entreprise Nationale du livre, 1984, p.21.

وهو ما أدّى إلى أن تشهد مازونة تراجعا عمرانيا أثناء القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي، فمثلا وصف عبد الواحد المراكشي (تـــ.647هـــ/1249م)، لمازونة على أنّها بليدة عند حديثه عن مسلك السفار من بجاية إلى مراكش: «فمن بجاية إلى مدينة تلمسان عشرون مرحلة وفيما بين ذلك بليدات صغار كمليانة ومازونة ووهران...» [1]، يعبّر عن الإشارة الوحيدة المباشرة التي تظهر نوعا ما النمط الحضري البسيط لمازونة مع نهايات الفترة الموحدية، فهي بليدة مثل ما عبّر عنها العبدري أيضا، ولكن بطريقة توحي لقارئ نصه أنّ المدينة قد اندثرت كليا: «فتيامنا منها على طريق مازونة مثوى خطوب الزمان ومناخ ركاب الحدثان، وهي بليدة مجموعة مقطوعة من بعض جهاتها بجرف واد منقطع شبه قلعة ولكنّها واهية حسا ومعنى وليس بها ما يتعرض لذكره البتة.»[2]، وإن كان أمر التراجع العمراني يبدو غامضا في هذا النص نوعا ما، حيث لا يمكننا تحديد ما يقصده بدقة، إلاّ أنّ طبيعة هذا الوصف تؤكد استنتاجنا السابق.

والأكيد أنّنا لا ننتظر تفصيلا من مؤرخي وجغرافي هذه المرحلة لسبب هذا التصنيف[3]، فهل كان هذا الأخير حقيقة واضحة مبنيا على حجم المدينة، لأنّ وصف مدينة معينة أنّها مدينة متوسطة مثلا إنّما يعتمد على إدراك الحجم الذي كانت عليه ، لأنّ خصائص المدينة الكبيرة تبدو أكثر ثراء كوجود الأسواق والمسجد الجامع والإنتاج الذاتي وغير ذلك وهو ما يقل في الأصناف الأخرى[4].

حيث يرى أحد الباحثين [5]، أنّ التعابير التي يتكرر ذكرها عند الجغرافيين من أمثال بلدة كبيرة أو بلد أو بلدة أو بليدة صغيرة، إنّما تقابل من النواحي الوصفية الجغرافية تعابير مدينة أو مدينة متوسطة أو مدينة صغيرة، فالبليدة تقابل المدينة الصغيرة أو المتوسطة، فهل كان الجغرافيون

1- عبد الواحد المراكشي: **المصدر السابق**، ص.289.

2- العبدري: **المصدر السابق**، ص.131.

3- نجد صاحب **مسالك الأبصار وممالك الأمصار** للعمري مثلا، يصنّفها ضمن المدن التسعة عشر في عهد أبي تشفين الزياني ، العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** ، السفر04، يصدره: فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا إيكهارد نويباور، ألمانيا الاتحادية : منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، جامعة فرانكفورت ، 1408هـــ/1988م، ص.78.

4- عن هذه الإشكالية ينظر:

Christine Mazzoli, «De ville à madina, de madina à ville», p. 20-40.

وينظر أيضا وليد عبد الله عبد العزيز المنيس : "جغرافيا الحضر(دراسة منهجية لجهود العلماء المسلمين في تطويرها)" ، **حوليات كلية الآداب**، الرسالة 65، الحولية 11، الكويت: جامعة الكويت، 1410هـــ/1989م-1990م، ص-ص.9-57.

5- عبد الجبار ناجي: **المرجع السابق**، ص-ص.92-117.

وحتى المؤرخين الوسطيين مدركين للتمييز الواقع بين مصطلحات المدينة أو البلدة وحتى القرية، هل كانت هذه المصطلحات مضطربة ومفتقرة إلى نظام معين ومحدد، لأنّ ما هو بليدة عند أحدهم هو مدينة وحتى قرية عند غيره، فهل يمكن لما يسمى بعلم المصطلحات أن يوفر لنا عناصر تسلسلية عمرانية أو يبين طبيعة التطور الحاصل للموقع[1]؟

1-2-2- (681هـ-706هـ/1283م-1306م-1307م) الوضع المنديلي غير المستقر:

1-2-2-1- مرحلة ما قبل حصار تلمسان (681هـ-698هـ/1283م-1298م):

يبدو أنّ المنطقة شكّلت ضرورة إستراتيجية للأمراء الزيانيين بدليل وصية مؤسس الدولة لخليفته أبي سعيد عثمان الأول (681هـ-703هـ/1282م-1303م)[2]، يقول ابن خلدون: «...وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك وتكاف حشد العدو بحشدك ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك فعلقت وصية الشيخ بقلبه وعقد عليها ضمائره وجنح إلى السلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك...»[3].

بدأ يتطور التأريخ للمدينة في هذه الفترة، حيث أصبحت تتداول في المعطى النصّي الخلدوني خاصة، عندما يتحدث عن حملة أبي سعيد عثمان الأول على بجاية سنة (686هـ/1286م-1287م)[4]: «...فانكف راجعا ومرّ في طريقه بمازونة فحاصرها وأطاعته وذلك سنة ست وثمانين ونزل لهُ ثابت بن منديل أمير مغراوة عن تنس، فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في ايالته ثم عطف في سنته على بلاد توجين فاكتسح حبوبها واحتكرها بمازونة استعدادا لما يتوقع من حصار مغراوة إياها...»[5].

ويمكن ملاحظة تأثير سياسة الحصار التي انتهجتها السلطة العبد الوادية تجاه المنطقة،

1- Christine Mazzoli, «De ville à madina, de madina à ville», p.19-40.

2- عن شخصية هذا الخليفة ينظر ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص-ص.60-61؛ ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية**، ص.68؛ وعن هذه الوصية يراجع ابن الأعرج السليماني: **زبدة التاريخ**، و.37، 38.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.92؛ ويراجع أيضا ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.38.

4- ينظر أيضا التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.129-130؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.208.

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.92.

وتوقعهم لحصار مغراوي للمدينة فيما تحدث عنه العبدري مثلا [1]، وإن كانت مدة الحصار الذي عرفته مازونة غير متاحة لدينا، إلاّ أنّه يمكن أن نتصور تجاوزها لأكثر من شهر كما حدث مثلا في حصار أبي سعيد عثمان الزياني لبرشك سنة (693هـ/1293م)[2]، ولنا أن نتساءل عن المقصود من خلال العبارة التالية: « ...ثم عطف في سنته على بلاد توجين فاكتسح حبوبها واحتكرها بمازونة استعدادا لما يتوقع من حصار مغراوة إياها...» [3]، لأنّه يبدو أنّ هناك اهتمام مغراوي كبير بمازونة مقارنة بغيرها من المدن أو المراكز الحضرية المغراوية مثل تنس، وهو ما يظهر أنّها ربما تميّزت بخصوصية حضرية مختلفة لدى الأسرة المنديلية.

لم يؤد التقارب المغراوي-المريني[4]، إلى ما كان يطمع فيه المنديليون بدليل مجموعة الحملات الزيانية على المنطقة الشلفية أو الشرقية بصفة عامة، مثل حملة سنة (689هـ/1289م) [5]: «ثم خرج سنة تسع وثمانين إلى بلاد مغراوة لما كانوا عليه لبني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان فدوّخها وأنزل ابنه أبا حمو بشلف مركز عملهم فأقام به ...»[6]، وحملة سنة (693هـ/1293م)[7]، التي استولى فيها زيانيو تلمسان على جميع أعمال مغراوة[8].

في الحقيقة لا تتيح النصوص التاريخية لنا معرفة مصير المدن المغراوية في هذه الفترة، وإن كان ما يظهره ابن سعيد المغربي المعاصر مثلا في هذا النص: «مدينة تنس وهي مشهورة بكثرة القمح ومنها يحمل في المراكب إلى سواحل الأندلس وغيرها وهي قاعدة مغراوة من زناتة...وفي شرقيها مستغانم وهي من فرض مغراوة وبينهما ستون ميلا، وينصب في شرقيها نهر الشلف...»[9].

1- العبدري: **المصدر السابق**، ص.131.

2- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.209؛ وعن مدينة برشك التي يوردها الوزّان بريشك ينظر الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص-ص.32-33؛ الحميري: **المصدر السابق**، ص.88؛ الإدريسي: **المصدر السابق**، ص.112؛ ابن حوقل: **المصدر السابق**، ص.78.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.92.

4- عبد الرزاق بنواحي : **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ لمحمد بن محمد بن الأعرج السليماني (1285هـ-1344هـ/1868-1925م)**، القسم الأوّل (دراسة وتحقيق) ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر ، فاس: جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، إشراف: أحمد ال غاري، 1417هـ-1418هـ/1996م-1997م، ص.142.

5- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.209؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.39.

6- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.93؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.209.

7- **نفسه**؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.39، 40.

8- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.93؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.209.

الشلف...»[1].

يطرح صورة مغايرة عن ذلك المتوقع من مخلفات الحصار مثلا، فهل كانت مازونة تعيش هذا الواقع المغاير؟

1-2-2-2- مرحلة الحصار الكبير (698هـ-706هـ/1299م-1306م-1307م):

لقد ساهم المنديليون أنفسهم في هذا الحصار[2]، لأنّهم كانوا يرغبون في التخلص من الوجود الوجود الزياني الضارب بمجالاتهم [3]، وهو ما يوّضحه ابن خلدون في هذا النص: «وأجمع غزو تلمسان ولحق بينهم يدي ذلك ثابت بن منديل المغراوي صريخا على ابن يغمراسن ومستجيشا بقومه فتقبله وأجاره وكانت أصاب الناس أعوام ثنتين وتسعين قحط ونالتهم سنة وهنوا لها...ووفد عليه سنة أربع وتسعين ثابت بن منديل أمير مغراوة مستصرخا به من عثمان بن يغمراسن فبعث من كبار قومه موسى بن أبي حمو إلى تلمسان شفيعا في ثابت بن منديل فردّه عثمان أقبح رد وأساء في إجابته فعاود الرسالة إليهم في شأنه فلم يزدهم إلاّ إصرارا فاعتزم على غزو بلادهم واستعد لذلك ونهض سنة أربع وتسعين...» [4]، إلاّ أنّ الأمور لم تسركما كان يعتقد ثابت بن منديل المغراوي، لأنّ المرينيين كانوا يطمعون في مد نفوذهم شرقا [5]، حتى أنّهم وصلوا لنواحي بجاية[6].

أصبحت مازونة منذ جمادى الآخرة سنة (699هـ/1299م) تابعة للسلطة المرينية[7]، و لم

1- ابن سعيد: **المصدر السابق**، ص.142.

2- عن هذا الحصار ينظر ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب ،** ص-ص.509-513؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان** ، ص-ص.130-131؛ ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية**، ص-ص.68-69؛ ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.61؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، ص-ص.144-146؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.39، 40.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.93؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، ص، ص.142، 144.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.219.

5- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.130؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، ص.145.

6- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.221؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، ص-ص.145-146.

7- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.221؛ أو في سنة 698هـ أو في 700هـ/1298م-1300م، حيث في النص التالي يورد التاريخ الأول : «وذلك يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر رجب سنة ثماني وتسعين وسألوه...فنزلها في شهر شعبان من السنة المذكورة...فملك ندرومة وهنين ووهران...والبطحاء ومازونة...» ، ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب**، ص-ص.510-511؛ أمّا التاريخ الثاني : «...وفيها فتح القصبات وبرشك وونشريس ومازونة...» ، **نفسه:** ص.541؛ السلاّوي: **المرجع**

تكن هي المدينة الوحيدة في المجال المغراوي التي دخلت في النفوذ المريني [1]: «وسارت عساكره في الجهات إلى أن بلغت بجاية كما نذكره وأخذ الرعب بقلوب الأمم بالنواحي، وتغلب على ضواحي مغراوة وتوجين وسارت فيها عساكره ودوّختها كتائبه واقتحمت أمصارها مثل مليانة ومستغانم وشرشال والبطحاء ووانشريس والمدية وتافركينت...»[2].

لا ندري حقيقة طبيعة الصفة التي أصبحت عليها المنطقة المغراوية، إلاّ أنّ ما يوضّحه ابن خلدون من أنّ السلطان المريني عقد لعلي بن محمد من بني ورتاجن [3]، بعد تمكّنهم من مغراوة التي يتزعمها راشد بن محمد بن ثابت بن منديل صهر السلطان المريني نفسه، وهي الحملة التي سقطت فيها مازونة بيد المرينيين[4].

ويبدو أنّ الاستسلام الذي تبنته مغراوة غير الموقف المريني بأن سلّم ولاية المنطقة لشخصية منديلية هو عمر بن ويفرن بن منديل، وهو "الشيخ المنديلي" الذي لم يتقبله صهر السلطان راشد بن محمد، والذي اعتبر نفسه أحق بحكمها منه[5].

تمكّنت شخصية راشد بن محمد هذه من أن تفرض نفسها على ساكنة مدينة مازونة، وهو ما نستطيع قراءته في هذا النص: «فآسف ذلك راشد بن محمد لما كان يراه لنفسه من الاختصاص، ولما كانت أخته حظية السلطان وكريمته ونافس عمر بن ويفرن في إمارة قومه، فلحق بجبال متيجة وأجلب على ما هنالك من عمال السلطان وعساكره وانحاش إليه مرضى القلوب من قومه فاعصوصبوا عليه وداخلوا أهل مازونة فانتقضوا على السلطان وملكوه أمرهم في ربيع من المائة السابعة، ثم بيت عمر بن ويفرن بمعسكره من أزمور فقتله واستباح العسكر...»[6].

ويظهر أنّ المدينة قد تأثرت كثيرا من سياسة راشد بن محمد تجاه السلطة المرينية، حيث

السابق، ج.3، ص.80.

1- ابن خلدون: **التعريف**، ص.29؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.3، ص.80.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.221؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.210.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.222؛ ابن خلدون: **التعريف**، ص.29؛ حيث يرد فيه باسم: علي بن محمد الخيري من بني ورتاجن.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.222.

5- **نفسه**.

6- **نفسه**: ص.222.

سعت هذه الأخيرة إلى فرض شخص محمد ابن عمر بن منديل المغراوي، على المنطقة المغراوية [1]، فنحن نستطيع أن نتبيّن ذلك من خلال قراءتنا لنص خلدوني آخر [2]، حيث سلّم راشد بن محمد المدينة "مازونة" لعلي وحمو ابنا يحي بن ثابت: « ...واستوصاهم بضبط البلد وأنّه مشرف عليهم من الجبل...»[3]، وهو الأمر الذي واجهه المرينيون بفرض حصار عليها: « ...وجاءت عساكر السلطان إلى بلاد مغراوة فتغلّبوا على البسائط وأناخوا بمازونة واضطربوا بمعسكرهم ساحتها وأخذوا بمخنقها واهتبل علي وقومه غرّة معسكر بني مرين فبيتهم سنة إحدى وسبعمائة وانفض المعسكر وتقبّض على علي بن محمد الخيري ثم امتنعوا عليه، وعاد المعسكر إلى مكانهم من حصارهم وجهدهم حالهم فترل إليهم حمو بن يحي على حكم السلطان و انفذوه إليه فتقبض عليه ثم نزل علي ثانية من غير عهد فأشخصوه إلى السلطان فلقاه مبرة وتكريما تأنيسا لراشد المنتزى بمعقله واقتحمت على أهلها عنوة سنة ثلاث فمات منهم عالم واحتملت رؤسهم إلى سدة السلطان فرميت في حفائر البلد المحصور إرهابا لهم وتخذيلا...»[4].

يعرض ابن خلدون هنا الاضطرابات التي ساهم فيها خروج راشد بن محمد على المرينيين، والتي أدّت إلى مقتل صاحبي مازونة علي وحمو ابني عمه ومن كان معتقلا معهما من مغراوة وانقسام هذه القبيلة بين راشد ومنيف بن ثابت [5]، وبين محمد بن عمر بن منديل التابع للسلطة المرينية.

وعلى العموم لا نستطيع هنا تحديد فترة هذا الحصار المريني، إلاّ أنّ هناك نص آخر لابن خلدون أيضا يساعدنا على تحديدها: «وأناخت العساكر على مازونة ووالوا عليها الحصار سنين وأجهدوهم.»[6]، إلاّ أنّ ما يمكن معرفته هو أنّ الوضع استقر على التبعية المرينية سنة (705هـ/1305م): «...ووفد محمد بن عمر بن منديل سنة خمس على السلطان فأوسعه حبا وتكريما وتمهدت بلاد مغراوة واستبد بملكها السلطان وصرف إليها العمال و لم يزل كذلك إلى أن

1- **نفسه**: ص.67.

2- **نفسه**.

3- **نفسه**.

4- **نفسه**: ص، ص.67، 222-223؛ ينظر أيضا ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص-ص.30-31.

5- وعن شخصية منيف، يراجع العمري: **المصدر السابق**، ص.72.

6- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.67.

هلك سنة ست...»[1].

لقد ضيّق المرينيون على المدينة والمنطقة المغراوية في هذه الفترة التي عرفت فيها اضطرابات وحصارا طويلا نسبيا عن ذلك الذي عرفته تلمسان ما بين (698هـ-707هـ/1299م-1307م) مثلا.

ويمكن أن نستنتج تأثيرات هذه الوضعية على المدينة ومجالها، فالحروب عادة ما تؤدي إلى مجاعات وغلاء في المعيشة[2]، حيث يكون ذلك أكثر مع المدن الأقل حجما، لأنّ حصار مازونة يكون أسهل من حصار تلمسان مثلا التي تتميز بحصانة عسكرية أكبر ، وبالتالي يكون صمودها أطول عن الأولى، وهو ما يحدث تراجعا عمرانيا بالإضافة إلى تواضع الإنتاج الزراعي والرعوي لاسيما في المناطق السهلية وتدمير حياة الاستقرار بها، لأنّ الفلاحين مهدّدون بالجوع والإفلاس في أي لحظة يمر بها الجيش ويتلف محصولهم عندئذ يصابون بالفقر ويجدون أنفسهم عاجزين عن دفع ما عليهم من كراء أو ضرائب، الأمر الذي يجعلهم يعزفون عن خدمة الأرض، وهو ما يؤثر سلبا على المنظومة الإنتاجية في شموليتها، وذلك بتهديدها للساكنة [3]، حيث يمكن إعادة الاستشهاد بالنص التالي لنتوضّح الصورة التي كانت عليها مازونة وساكنتها سنة (703هـ/1303م): «...واقتحمت على أهلها عنوة سنة ثلاث فمات منهم عالم واحتملت رؤوسهم إلى سدة السلطان فرميت في حفائر البلد المحصور إرهابا لهم وتخذيلا...»[4].

1-2-3- (706هـ-792هـ/1306م-1392م) بداية لتبعية إدارية مغايرة بالمنطقة:

1-2-3-1- المرحلة الأولى(706هـ-767هـ/1306م-1367م):

رأينا سابقا أنّ المنطقة الشرقية شكّلت امتدادا حيويا لسلطة تلمسان بدليل معاودة الحملات التأديبية على البلاد الشلفية لأبي زيان محمد بن عثمان (703هـ-706هـ أو 707هـ

1- **نفسه**: ص.223.

2- سميرة المزكلدي: **المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط (534هـ-776هـ/1139م-1375م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، فاس: ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، إشراف: هاشم العلوي القاسمي، 1424هـ-1425هـ/2003م-2004م، ص.63؛ ومن بين الدراسات التي تناولت المجاعات والأوبئة وتأثيراتها، ينظر مصطفى نشاط: "جوانب من التاريخ الاجتماعي للمغرب في العصر المريني -المجاعات والأوبئة-"، **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني**، وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003، ص-ص.111-145.

3- سميرة المزكلدي: **المرجع السابق**، ص.63.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.67.

/1303م-1307م) وأخيه أبي حمو موسى بن عثمان الأول (707هـ-718هـ/1307م-1318م)، أي بعد الحصار مباشرة[1]: «...فنهضا يوم الخميس العشرين لذي الحجة المذكور...في قبيلهما الأعز وأنصاره والمهاجرين إليه، فاستأصلوا مغراوة، وأنزلوهم من صياصي الجبال ومهدوا أرجاء الشلف وملكوا حواضره، واستنابوا بها القواد، واعتمدوا العرب فأجفلوا بين أيديهم إلى الصحراء فأتبعوهم غير هائبين ولا متوانين إلى أن ظفروا بالمراد فيهم استئصالا للأموال والأنفس وقطعا للدابر...»[2]، وهي الحملة التي لم تضمن استمرار تبعية المنطقة للسلطة الزيانية بدليل خروج أبي حمو الزياني إليها ثانية سنة (710هـ/1310م)، «...وأغرى لحينه عزمه بتذليل صعاب توجين ومغراوة، فأغزى جيوشه عقر دارهم، وتابع إليهم الحركات بنفسه وقواده...»[3].

لقد تغيرت السياسة الزيانية تجاه المنطقة، بأن تبنت سياسة بديلة ومغايرة، حيث بدأت تفرض عليها شخصيات غير منديلية أو حتى مغراوية لإدارتها[4]، بعد ما أبدته هذه الأخيرة من ولاء مضطرب، فولاء هذه المنطقة خاص جدا ، لأنّه مبني على أسس مصلحية حكمت تاريخ المنطقة الوسيط.

لا أستطيع أن أحدّد إن كانت شخصية مسامح العلجية [5] التي استعملت في المجال الشلفي بدأت مع حملة سنة (706هـ/1306م) لأبي زيان الزياني [6]، كما يشير النص التالي : «فقصد بلاد مغراوة وشرّد من كان هنالك منهم في طاعة بني مرين واحتاز الثغور من يد عمالهم، ودوّخ قاصيتها ثم عقد عليها لمسامح مولاه .»[7]، أو أنّها تأخرت حتى خروج أبي حمو أثناء حكمه سنة

1- عن شخصيتي أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن وأبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن ينظر ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية**، ص-ص.70-71؛ ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص-ص.61-62؛ وللتفصيل حول الموضوع ينظر ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.97؛ يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.212-213؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.135-136؛ ابن خلدون: **التعريف**، ص-ص.29-30.

2- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.212.

3- **نفسه**: ص.213.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.99؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.213.

5- هل يمكن أن تكون شخصية مسامح واحدة؟ إلاّ أنّ الدراجي بوزياني يعرّفها كشخصيتين مسامح مولى أبي زيان بن عثمان الذي استعمل على "عمالة" مغراوة، ومسامح مولى أبي حمو الأول، والذي استعمل على عمالة مغراوة، ينظر الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص-ص.190-191.

6- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.97؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.45.

7- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.97.

(710هـ/1310م)[1]: «وأغرى لحينه عزمه بتذليل صعاب توجين ومغراوة فأغرى جيوشه عقر دارهم، وتابع إليهم الحركات بنفسه وقواده...واستعمل عليه مسامحا بشلف بلاد مغراوة بالطبل والبند أيضا وثنى العنان إلى دار ملكه.»[2].

ويمكن ملاحظة أنّ ما أصبح عليه مسامح العلجي من "شارات ملوكية"، قيّدت من الامتيازات التي كانت للشخصيات المنديلية سابقا، وإن كانت مختلفة، إلا أنّها تدل على رغبة الزيانيين في إتباع سياسة جديدة لتخويف مناطق مغراوة، وفرض الطاعة عليها حيث: «تكمن خفايا الآلية الطنانة التي بفضلها يهجر الحكم أصوله المتواضعة ليرقى إلى الدراية السياسية والهيمنة القائمة على العنف الرمزي.»[3].

لقد استمر مسامح العلجي في مهمته بالمنطقة لسنوات أخرى، ونحن نملك العديد من الشواهد النصّية التي تبين ذلك، حيث أنّه في سنة (712هـ/1312م): «ونهض أيضا سنة اثنتي عشرة مشرقا فنزل وادي شلف وقدم بين يديه علجه مسامحا المذكور...»[4].

لقد تأخرت الرغبة المنديلية في معاودة دعوتها بالمجال الشلفي حتى سنة (714هـ/1314م) مع شخصية راشد بن محمد المغراوي.

إلاّ أنّ التحرك الزياني الذي قام به أبي حمو وفرضه لسياسة جديدة، حاول من خلالها التمركز بالمنطقة أفشلت هذا المشروع الإحيائي الجديد [5]: «...وكان راشد بن محمد المغراوي خلال هذا قد ثار ببوادي شلف وجدد خلق دعوته، فنهض لحينه السلطان أبو حمو رحمة الله عليه نحوه وترك بتلمسان ولده السلطان أبا تاشفين، ونزل وادي تهل من شلف وابتنى به القصر المعروف باسمه هنالك لحصار بني أبي سعيد شيعة راشد بن محمد وفر المذكور إلى زواوة منحازا إلى فئة الموحدين...»[6].

1- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.213؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.135-136.

2- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.136؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.99؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.213؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.47، 48، 49.

3- سالم حمّيش: **المرجع السابق**، ص-ص.101-102.

4- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.213؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.52.

5- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.136-138؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.47.

6- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.213؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.136-138؛ وعن شخصية شخصية أبي تاشفين يراجع ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية**، ص-ص.72-73؛ وعن القصر الوارد في النص هو الذي تحوّل

والملاحظ أنّ الدولة المرينية بعد حصار تلمسان إلى غاية (731هـ/1331م) مرت بفترة ضعف ملحوظ أرغمها على الاهتمام بشؤونها الداخلية، والعزوف عما يجري وراء حدودها، وهو ما سهّل المهمة الزيانية بالمنطقة الشرقية[1].

لقد ساهم هذا الوضع المستقر من الناحية الغربية في أن يلتفت أبو تاشفين (718هـ-737هـ/1318م-1337م) [2] إلى تجديد سياسة أبيه بإفريقية وبصورة أكثر عنفا[3].

وكانت أولى حملاته على بجاية سنة (719هـ/1319م)[4]، وأصبحت هذه الحملات خلال العقد اللاحق شبه سنوية أعقبها حصار مستمر، وهو ما يوضّح القوة التي أصبح عليها الزيانيون، والتي حتّمت التبعية للمنطقة الشرقية، التي استمر أبو تاشفين في تسخيرها للمدينة - المعسكر- تامزجزت ففي سنة (726هـ/1326م)[5]: «...أمر السلطان رحمه الله بحمل الزرع إليها من جميع بلاده الشرقية فشحنت مخازنها أقواتا نامية...»[6].

شغلت شخصية يحي بن موسى [7] مع هذا الأمير الزياني وظيفة العامل أو القائد على المنطقة الشلفية[8]، ولعل تسمية كبير قواد أبي تاشفين وصاحب الثغور الشرقية من أعماله أو صاحب

إلى قرية عمي موسى حاليا بين وادي رهيو والشلف ير اجع المزاري: **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.165-166، (ينظر هامشه)؛ وعن شخصية أبي تاشفين عبد الرحمان بن أبي حمو بن عثمان بن يغمراسن (718هـ-737هـ/1318م-1336م)، ينظر ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.62.

1- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.361.

2- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.143.

3- في الحقيقة كانت تلك الحروب تابعة لتنفيذ أغراض بني هلال-أهل الحول والقوة- والخلافات الواقعة بين زغبة ورياح ، وبين هؤلاء وسليم وهو ما يراه صاحب زبدة التاريخ، يراجع ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، ص.160.

4- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.216-217.

5- عند التنسي وردت تحت تسمية تامزيزديت ، يراجع التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.143، تامزجزجت أو تامزيرذكت، ينظر ابن الأعرج السليماني : **المرجع السابق**، و.62، وينظر أيضا ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.253؛ وفي هامش كتاب طلوع سعد السعود فإنّ تمزريدت الشرقية هي قرية آقبو الحالية على الضفة الغربية لوادي الصومام يراجع المزّاري: **المرجع السابق**، ج.1، ص.167.

6- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.217.

7- يعرّف ابن خلدون العامل "يحي بن موسى" كما يلي: «...فأصله من بني سنوس إحدى بطون كومية ولهم ولاء في بني كمين بالاصطناع والتربية ولما فصل بنو مكين إلى المغرب قعدوا عنهم واتصلوا ببني يغمراسن واصطنعوهم، ونشأ يحي بن موسى في خدمة عثمان وبنيه واصطناعهم...» ، ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.113؛ وعند التنسي: يسمى يحي بن موسى الجمي ، التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.144.

8- أو "العمل المغراوي" ، ينظر ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.106-107؛ ابن الأعرج السليماني : **المرجع السابق**،

القاصية الشرقية، توضّح نوعا من الطابع العسكري الذي اتسمت به [1]: «...ولما ملك أبو تاشفين استعمله بشلف مستبدا بها وأذن له في اتخاذ الآلة...»[2]،كالتي كانت لمسامح العلجي.

ويظهر لنا شاهد نصي آخر استمرار يحي بن موسى في المنطقة على ما يبدو حتى مجيء أبي الحسن المريني[3] إلى تلمسان ومحاصرته إياها سنة (735هـ/1335م) [4]، حيث راسله بالطاعة[5]: «...فلما نازل السلطان أبو الحسن تلمسان راسله بالطاعة والكون معه فتقبله وجاء به من مكان عمله فقدم عليه بمخيمه على تلمسان فاختصه بإقباله ورفع مجلسه من بساطه و لم يزل عنده بتلك الحال إلى أن هلك بعد افتتاح تلمسان...»[6].

ويبدو أنّ الفترة التي تلت ذلك استمرت فيها السياسة المرينية بالمنطقة [7]، حيث: «استعمل السلطان أبو الحسن عماله على الجهات .»[8]، لكن من هم هؤلاء العمال؟ لأنّ هناك أدلة نصّية توضح أنّ مغراوة وغيرها من القبائل الشرقية قدمت طاعتها لأبي الحسن المريني في حملته تلك

و.57.

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.256-257.

2- **نفسه**: ص.113.

3- **نفسه**: ص-ص.256-257؛ وعن شخصية أبي الحسن المريني المنصور بالله علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (731هـ-752هـ/1330م-1351م)، يراجع ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.35؛ ابن الأحمر: **النفحة النسرينية**، ص، ص.27، 47.

4- أو أنّه ملكها أي "أبو الحسن المريني" سنة سبع وثلاثين وسبعمئة 737هـ/1336م، ابن خلدون: **التعريف**، ص.30؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.219؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، ص.163

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.256-257.

6- **نفسه**: ص-ص.113-114.

7- يتطرق العمري في نصٍّ للتبعية المدينية للسلطة المرينية، ومن بينها مازونة: «...وأمّا تلمسان فمملكة تمادى الأمر عليها وهي مستقلة بنفسها...هذا السلطان إليه فصارت له قاعدة ثالثة، وأمّا المدن...والمستجد لهذا السلطان عند فتحه بسيفه لمدينة تلمسان وقتل ملكها أبي تاشفين عبد الرحمان ابن أبي حمو العبد الوادي فهو تسعة عشر مدينة وهي تلمسان ووجدة ومديونة وندرومة وهنين ووهران وتيمزغران وبرشك وشرشال وتونت ومستغانيم وتنس والجزاير والقصبات ومازونة وتاحجممت ومليانة والمدية ومّا صفروي وهي مما ورثه عن أبيه فهي قرية كبير ة لا مدينة وكذا البطحاء وتيمزّوغت مما فتحه فمن عدّها في المدن جعل جملة العدة خمسة وأربعين مدينة وإلاّ فالصحيح ما بيّناه...» ، العمري: **المصدر السابق**، ص-ص.78-80، ويقصد بالمريني أبي الحسن؛ كما أنّ العمري قد حدّد صفة المدينة على مازونة ، لأنّه عندما تحدث عن وما صفروي ألصق بها صفة قرية كبيرة.

8- كما أنّه في سنة 747هـ/1346م عقد أبو الحسن المريني لابنه أبو عنان على المغرب الأوسط تلمسان وأحوازها أي أنّ المنطقة أصبحت قريبة من إدارة السلطة المركزية المرينية، الزركشي: **المصدر السابق**، ص.82.

ساعدتهم على حكم مناطقهم[1]، لكن لا نستطيع أن نتبين طبيعة السلطة المغراوية التي كانوا عليها في تلك المرحلة: «...ونزل على تلمسان أوّل سنة ست وثلاثين وأقام محاصرا لبني زيان وتواردت عليه أمراء بني توجين ومغراوة وبني راشد...فولّاهم على الأعمال وكثرت جيوشهم سواده ودخل في طاعته سائر قبائل زناتة...»[2].

لأنّنا لا نستطيع أن نتبين الدخول المغراوي الجديد بالمنطقة إلاّ بعد حادثة القيروان[3] سنة 749هـ/1348م، التي فشل فيها أبو الحسن المريني (731هـ-752هـ/1331م-1351م) نتيجة اجتماع مصالح القبائل العربية بهذه المنطقة، ومصالح زعماء بني عبد الواد والمنديليين وغيرهم

1- السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.3، ص، ص.124، 126؛ ابن الأعرج السليماني : **المرجع السابق**، ص.163؛ وينظر أيضا ابن مرزوق: **المسند**، ص.301؛ وإن كان في المناقب المرزوقية إشارة إلى شخصية أبو محمد عبد الواحد بن محمد كاتب العسري بالجهة الشلفية وهي شخصية غير مغراوية في عهد السلطان المريني أبي الحسن المريني وبالتحديد سنة 736هـ/1335م، ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص-ص.255-256.

2- السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.3، ص.126، حتى أنّه حسب تعبير صاحب الإستقصا أصبح ملكا لزناتة بعد أن كان ملكا لبني مرين، **نفسه:** ص.126، وما يزيد في صعوبة الإجابة على تساؤلنا حول طبيعة السلطة المغراوية بالمنطقة نص السلاّوي أيضا: «وتمكّن أبو الحسن من جمع كلمة زناتة حتى صاروا تحت لوائه، وسد بكل طائفة منهم ثغرا من أعماله .»، **نفسه:** ص.126، كما أنّ مغراوة وبني توجين كانوا ضمن عسكر أبي الحسن، ينظر **نفسه:** ص.160.

3- ابن خلدون : **العبر**، مج.7، ص-ص.68-69؛ ابن قنفذ: **الفارسية**، ص-ص.170-173؛ ابن الشمّاع : **المصدر السابق**، ص-ص.95-97؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.149-150؛ ويشير صاحب الملعبة الكفيف الزرهوني إلى حركة أبي الحسن المريني إلى القيروان، ومشاركة مغراوة وغيرها، وانهزامه بذلك المكان:

وزنات الناصية على الغـــــــرا	وأهل التدريس حمالة القرآن.
كان فيها من صناديد آيت مرين	ست عشر ألف أو تنيف عاد.
أولاد زيان وروس بني توجيــن	مع مغراوة ورهط عبد الواد.
لاكن الشوك ما يعطي التيـــــن	أو يجني الورد من عروق الدار.

ينظر الزرهوني الكفيف: **ملعبة**، تقديم وتعليق وتحقيق: محمد بن شريفة، الرباط: المطبعة الملكية، 1407هـ/1987م، ص، ص.70، 71، 98، 99 وما يليها؛ الزركشي: **المصدر السابق**، ص-ص.84-85؛ وعن مشاركة مغراوة وبني توجين في هذه الحركة، يراجع أيضا السلاّوي : **المرجع السابق**، ج.3، ص-ص.160-163؛ وعن هذه الحادثة أيضا (أي حادثة القيروان) تراجع الرسالة رقم : (297) حول هزيمة أبي الحسن المريني بالقيروان وما بعدها ، هذه الرسالة صادرة عن سلطان غرناطة يوسف بن إسماعيل من إنشاء ابن الخطيب إلى السلطان أبي الحسن علي، الأرجح جوابا على رسالة عنه أخبر فيها -فيما يبدو- بتمكّنه من الوصول سالما إلى مدينة تونس بعد هزيمته في معركة القيروان (749هـ/1348م)، وردت الرسالة في **"ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب"** لابن الخطيب، أحمد عزّاوي: **الغرب الإسلامي خلال القرنين 7هـ، 8هـ (دراسة وتحليل لرسائله) -الفعالية المرينية في الغرب الإسلامي (731هـ-759هـ/1331م-1358م)**، ج.3، الرباط: الرباط-نيت، 1428هـ/2007م، ص-ص.184-185؛ ابن الأعرج السليماني : **المرجع السابق**، و.66، 67؛ عبد الحميد حاجيات : **أبو حمو موسى الزياني**، ص.24؛ ابن أبي دينار: **المرجع السابق**، ص-ص.130-131.

في استعادة ملكهم[1]، ذلك أنّ السياسة التي اتبعها أبو الحسن في التدخل في شؤون القبائل العربية بإفريقية، قد دفعت هذه القبائل في نهاية الأمر إلى الثورة العامة عليه على أبواب القيروان، والتي كشفت النقاب عن هشاشة هذه الهيمنة التي عجزت عن القبول بالخصوصيات المختلفة والمصالح المحلية والقبلية الضيّقة، بالإضافة إلى الوضع المالي الهش والافتقار إلى التماسك الداخلي حتى في صلب الدولة ذاتها، وهو ما أنهى عمليا الفكرة الإحيائية المرينية للبلاد المغربية الموحدة، والذي تحقق جزئيا مع أبي الحسن الأكحل (731هـ-752هـ/1331م-1351م)[2].

تمكّن علي بن راشد (ت. 752هـ/1351م) من إحياء المشيخة المغراوية (إن صح التعبير): «...آخر شهر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين وسبعمئة، ثم استألفوا مغراوة المرؤوسين بعلي بن منديل وعلي بن راشد...ومروا بجبل بني ثابت المصاقب لقسنطينة شمالها فثار بهم أهله...وبه انخزع علي بن منديل المغراوي لخيفة أوجسها، فاستقل علي بن راشد بإمرة قومه ثم ارتحلوا إلى طيتهم...وانتهوا إلى شلف ففيه انخزلت مغراوة بدعوة علي بن راشد أميرهم بعد مقاسمته السلطانين المرحومين على التعاون والتعاضد في الخير والضير ...»[3]، ويظهر هنا تملك علي بن راشد لمازونة سنة (749هـ/1348م) في حادثة مقتل قاضي مازونة سرحان [4]: «...كان مقيما بها لدعوة السلطان ثم سوّلت له نفسه التوثب والانتزاء فدعا لنفسه وقتله علي بن راشد وقومه...» [5].

1- يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج.1، ص.236؛ التنسي : **نظم الدر والعقيان** ، ص.150؛ ابن قنفد : **الفارسية**، ص.170؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.3، ص.163؛ عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص.25؛ الزركشي: **المصدر السابق**، ص-ص.84-85؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.67-68.

2- ايفان هربك : "تفكك وحدة المغرب السياسية" ، **تاريخ إفريقيا العام : إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر**، المشرف على المجلد : ج.ت.نياني، مج.04، باريس-بيروت: اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) – المطبعة الكاثوليكية، 1988، ص.106؛ ويراجع أيضا ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.68-69.

3- هو علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل ، وللتفصيل حول إحياء المشيخة المغراوية يراجع يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.236؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.150؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص، ص.68، 69، 116، 281؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.68.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.281؛ وفي الملعبة للزرهوني نجد في قصيدته هذا البيت:

سرحان الوغد طاعت الطاعا في مازونة يفرق الكسوات.

ومعنى أطاعته الطاعة أي الرعية: ومعنى طاعت الطاعا: أطاعته الطاعة أي الرعية.

الكفيف الزرهوني: **المصدر السابق**، ص.104؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.68.

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.281.

لم يلتزم مغراويو المنطقة الشلفية بسياسة المصالحة هذه [1]، وهو ما تسبب في الحملة الزيانية سنة 750هـ/1349م قام بها السلطان أبو ثابت بن عبد الرحمان بن يحي بن يغمراسن بن زيان الزياني[2]، حيث بايعت فيها ساكنة مازونة السلطان أبي سعيد بن عبد الرحمان بن يحي بن يغمراسن بن زيان الزياني [3]: «...وقد استحكمت العداوة بينه وبين مغرواة، وكان قد استجرها ما قدمناه من قعودهم عن نصره فنهض إليهم في شوال من سنته والتقوا عدوة وادي رهيو فاقتتلوا مليا ثم انكشفت مغراوة ولحقوا بمعاقلهم واستولى أبو ثابت على معسكرهم وملك مازونة وبعث ببيعتها إلى أخيه السلطان أبي سعيد ...»[4]، لكنّه لم يلبث أن أعاد مصالحتها سنة 751هـ/1350م لمواجهة أبي الحسن المريني، فقد شارك الأمير المغراوي علي بن راشد مع أبي ثابت الزياني في حملته التي انتصر فيها على الأمير المريني أبي الحسن المريني في 10 شعبان 751هـ/1350م[5]: «فالتقى الجمعان بتيعزيزين.»[6]، إلاّ أنّ علي بن راشد المغراوي انهزم فيها أمام الناصر المريني.

إنّ مشاركة مغراوة وزعيمها علي بن راشد إلى جانب بني عبد الواد جاءت بعد رفض أبي الحسن رغبة الشيخ المغراوي الذي: «اشترط لنفسه التجافي له عن ملك قومه بشلف.»[7].

لم تستمر هذه العلاقة على حالها بعدما فعلته مغراوة بقتلهم: «بعض بني عبد الواد غيلة.»[8]، حيث يظهر نوع من العلاقة الحسنة جمعت مغراوة الشلف ومريني فاس، مثلتها شفاعة

1- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.150-153؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص، ص.117، 119، 120؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.242-243.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.118.

3- يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج.1، ص.243؛ وعن شخصية عثمان بن عبد الرحمان بن يحي بن يغمراسن (أبي سعيد) (749هـ-753هـ/1348م-1352م)، ينظر ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص-ص.64-65.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.118.

5- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.244.

6- أمّا عند التنسي "بتيعزيزين"، التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.153؛ وينظر أيضا ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.119؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.243-244؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.152-153.

7-ابن خلدون : **العبر**، مج.7، ص-ص.68-69؛ يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.236-237؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.70-71.

8-التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.153، (حيث سنة 752هـ/1351م قتلت مغراوة بمازونة محمد بن عمر الجمّي الذي

أبي عنان لهم لدى أبي ثابت عند حصاره لهم[1].

فيمكن ملاحظة تواصل سياسة الحصار على مناطق مغراوة [2] أو العدو الأصغر [3] كما عبّر عنها ابن خلدون نتيجة التقارب المريني-المغراوي[4].

فكان حصار سنة (752هـ/1351م)[5]: «...فاشتد الحصار على مغراوة وأصاب مواشيهم العطش فانحطت دفعة واحدة من الجبل تطلب المورد فأصابهم الدهش ونجا ساعتئذ علي بن راشد إلى تنس فأحاط به أبو ثابت أياما ثم اقتحمها عليه غلابا منتصف شعبان من سنته فاستعجل المنية وتحامل على نفسه فذبح نفسه وافترقت مغراوة من بعده وصارت أوزاعا في القبائل وقفل أبو ثابت إلى تلمسان...»[6].

وعلى العموم استمرت السلطة المغراوية بالمدينة على الأقل حتى سنة 752هـ/1351م، حيث يورد الشاهد النصي التالي رواية مقتل محمد بن عمر الجمي بمازونة: «...وفي أول هذا الشهر أو ثانيه (شوال752هـ) اتفق أن وصل من تونس (محمد) بن عمر الجمّي مجتازا على مغراوة فقتلوه غيلة بمازونة...فاهتاجت لذلك حمية السلطانين المرحومين...» [7]، والتي أدّت إلى حملة أبي ثابت الزياني عليها في محرم سنة 752هـ/1351م.[8]

كان في طريقه من تونس مجتازا على البلاد المغراوية)، ينظر يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.244.

1- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.153-154؛ يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.244-245؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.3، ص.183.

2- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.244.

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.120.

4- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.153-154.

5- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.244؛ ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.120.

6- **نفسه:** ص.120؛ أمّا في نص ابن الأعرج السليماني يوضح أكثر صورة مغراوة بعد هذا الحصار حيث : «...فشتت جموعهم واستنزلهم من صياصيهم وهلك حصونهم وعواصمهم واستلحم عامتهم ومن نجا منهم لحق بأهل الدول وأحياء العرب وصاروا جندا وحشما وأتباعا و لم يعد لهم جمع آخر الدهر وعمرت أوطانهم قبائل عرب بني هلال والمعقل لما تغلبوا على سائر البلاد...»، ابن الأعرج السليماني : **المرجع السابق**، و.29؛ **نفسه:** و.70؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.153؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.245.

7- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.244؛ وفي الحقيقة لا أستطيع أن أحدّد من هي "مغراوة" هل يقصد السلطة الموجودة بالمنطقة أم الساكنة ؛ وهو النص الذي يعبّر عن أهمية "المدينة" كمنطقة عبور بري في تلك الفترة ؛ عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص.29.

8- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.244؛ عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص-ص.29-30.

وعلى الرغم من أنّ الفترة التي استقر فيها أبي ثابت الزياني بالمنطقة الشرقية، « ...خيم بوادي شلف أشهرا بث بها الناس دعاته...» [1]، إلاّ أنّ سياستهم فشلت بعد خروج صنيعتهم بالشلف علي بن هارون بن ثابت بن منديل[2]، وإن تغلبوا عليهم لاحقا.

في الحقيقة إنّ نمط التفكير القبلي الذي حكم المنطقة ساهم في تأزيم الوضعية، لأنّ الاستقرار الزياني بقي حبيس المزاج المتقلب الذي تميّزت به القبيلة المغراوية، ومع أبي عنان المريني (749هـ-758هـ أو 759هـ/1348م-1358م)[3]ظهرت سياسة جديدة لمريني فاس حيث أعاد إحياء مشروع أبيه التوسعي، وإن بشكل أقل طموحا وأكثر واقعية[4].

حيث بدأ تغلبه سنة (753هـ/1352م) وتمكّن من بسط سلطته إلى بجاية [5]، استمرت السياسة المرينية نفسها بالمنطقة مع أبي عنان الذي : «...بث عماله في نواحيه وثقف أطرافه وسمى إلى تملك افريقية...»[6].

صراحة يبدو أنّ رغبة هذه القبائل في الحفاظ على استقلالها الكامل أو النسبي تتلاءم مع رغبة المرينيين أيضا في الضغط بواسطتها على تلمسان كلّما قامت هذه الأخيرة بتهديد الثغور المرينية الشرقية[7].

وقد تراجع الدور المريني بالمنطقة مع أبي سالم [8] الذي واجه مشاكل داخلية في المغرب

1- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.245؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.3، ص.183؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، ص.190.

2- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.246.

3- وعن شخصية: المتوكل على الله فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق(المكنى بأبي عنان) (749هـ-759هـ/ 1348م-1357م)، يراجع ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.37؛ ابن الأحمر: **النفحة النسرينية**، ص، ص.27، 51.

4- سالم حمّيش: **المرجع السابق**، ص.109.

5- الزركشي : **المصدر السابق** ، ص-ص.93-94؛ ابن خلدون : **التعريف**، ص، ص. 63، 95؛ ابن الشماع : **المصدر السابق**، ص.102؛ ابن الأعرج السليماني : **المرجع السابق**، ص.175؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.245؛ عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص-ص.31-34.

6- السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.3، ص.183؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.72.

7-كما يشير النميري إلى الشخصية المغراوية عمر بن منديل بن محمد شيخ مغراوة في النص التالي : «وكذلك أخذ عمر بن منديل بن محمد شيخ مغراوة الذي فرعهم بالمحتد الرفيع المكان ، وكان أصله فيهم ثابتا لكنّه ابن عبد الرحمان. ..»، وهي الشخصية التي كانت لها علاقة مع المرينيين، ابن الحاج النميري: **المصدر السابق**، ص.505.

8- عن ترجمة أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي بن عثمان ابن يعقوب ابن عبد الحق (760هـ-762هـ/1358م-1360م) المكنى بأبي سالم، ابن الأحمر: **النفحة النسرينية**، ص، ص.28، 56، 57؛ ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.41؛

الأقصى في شوال سنة 760هـ/1359م[1]، الأمر الذي سهل على أبي حمو [2] استرجاعه لناحية شلف بعد حملات عديدة بها[3].

1-2-3-2- مازونة إقطاع لبني عريف: "قراءة في المسألة الهلالية":

اتبع الأمراء الزيانيون والمرينيون والحفصيون نفس الخطوة التي أقدم عليها الموحدون في إقطاع أولي العصبيات القوية في محاولة لكسبهم واتقاء شرهم [4]، حيث انحصر دور العرب فيما يمكن أن تقدّمه قوة مقاتلة مرابطة في البلاد ومستنفرة للسخرة ورئيسها كان مستعدا لتجنيد الفرسان، أو أن يكلف في وقت السلم بجباية الضرائب أو مساندة الأمير أو الموظف المكلف بالجباية[5].

حيث يمكن أن نحدّد طبيعة الإقطاع للبدو العرب في إقطاع التسكين والتأليف[6]، نظرا للدور الذي تقدمه للسلطة، فقد ساهمت في التشكل السياسي للمغرب الوسيط، إذ أنّ كل سياسة دفاعية أو توسعية لا تعول عليهم أو لا تدخلهم في الحسبان كثيرا ما تؤول إلى الفشل[7].

يوضّح الشاهد النصّي التالي صورة المنطقة والعملية الإقطاعية بها، والتي تمكّن فيها محمد بن

عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص-ص.101-103، نقلا عن مخطوط **زهر البستان**، و.48و، 50ظ، 51و.ظ.، 52ظ، 54ظ، 55ظ؛ المقري: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، مج.6، بيروت: دار صادر، 1408هـ/1988م، ص-ص.22-24.

1- السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.4، ص-ص.33-34.

2- عن شخصية أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمان بن يحي بن يغمراسن (760هـ-791هـ/1358م-1388م)، ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية**، ص-ص.76-82؛ ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.66.

3- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.185؛ وللتفصيل ينظر يحي بن خلدون: **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق: ألفرد بل، ج.2، الجزائر: مطبعة فونطانة الأخوين وشركائهما الشرقية، 1328هـ/1910م-1911م، ص.50 وما يليها؛ عن مخطوط **زهر البستان**، و.18ظ، 19و، نقلا عن عبد الحميد حاجيات : **المرجع السابق**، ص.92؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.75، 76.

4- ابن الأعرج السليماني : **المرجع السابق**، ص.147؛ الدراجي بوزياني: **العصبية القبلية**، ص.481؛ عبد العزيز فيلالي : **تلمسان**، ج.1، ص.20؛ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر : **المرجع السابق** ، ص.334؛ علي أومليل : **المرجع السابق**، ص.122؛

Atallah Dhina, *Le royaume Abdelouadid*, p.82-90.

5- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.374.

6- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.1، ص.325.

7- سالم حمّيش: **المرجع السابق**، ص.109؛ مصطفي أبو ضيف أحمد عمر: **المرجع السابق**، ص.167.

عريف من تملك مازونة إقطاعيا سنة (767هـ/1367م): «...ولحق أخواه أبو بكر ومحمد بقومهم فمكروا بالميمون ودسوا عليه من قتله غيلة من ذويهم وحاشيتهم واستبدوا برياسة البدو ثم لما نصب بنو حصين بن زيان ابن عم السلطان أبي حمو للملك كما نذكره ورشحوه للمنازعة سنة سبع وستين وسبعمائة هبت من يومئذ ريح العرب وجاش مرجلهم على زناتة ووطئوا من تلول بلادهم بالمغرب الأوسط فأعجزوا عن حمايته وولجوا من خروجها ما قصروا عن سده ودبوا فيها دبيب الظلال في الفيوء فتملّكت زغبة سائر البلاد بالإقطاع من السلطان طوعا وكرها رعيا لخدمته وترغيبا فيها وعدة وتمكينا لقوته حتى أفرجت لهم زناتة عن كثيرها ولجؤوا إلى سيف البحر...وتماسك السلطان بالأمصار وأقطع منها كلميتو لأبي بكر بن عريف ومازونة لمحمد بن عريف ونزلوا لهم عن سائر الضواحي فاستولوا عليها كافة وأوشك بهم أن يستولوا على الأمصار، وكل أول فإلى آخر ولكل أجل كتاب وهم على ذلك لهذا العهد...»[1].

ينتمي محمد بن عريف[2] إلى القبيلة الأعرابية الهلالية "سويد"[3] التي ربطتها علاقة حسنة مع بني عبد الواد في بداية دولتهم[4]، حيث أقطعها يغمراسن بن زيان (633هـ-681هـ/1236م-1283م) أراضي البطحاء[5]وسيرات ومنحوها ضرائب هذه الأراضي[6]، وهي وهي السياسة التي لم تستمر مع يغمراسن أيضا، فترلوا بجوار بني توجين "خصوم" بني عبد الواد[7]، لأنّ بعد تمكن بني زيان من فرض سلطتهم على تلمسان أبدت زغبة سلوكا استقراريا

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.6، ص.48.

2- محمد بن عريف-شيخ سويد-كما ورد في زبدة التاريخ، ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، ص.217.

3- ينتمي أولاد عريف لقبيلة سويد الأعرابية الهلالية إحدى بطون بني مالك بن زغبة، الذين كانوا أحلافا مع العطاف والديالم لزناتة بني بادين، مصطفي أبو ضيف أحمد عمر: **المرجع السابق**، ص.167؛ وللتفصيل حول مواطن هذه القبيلة البدوية يراجع:

Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement*, p. 145, 226, 242, 243, 244, 245; Georges Marçais, *Les Arabes en Berbérie*, p. 271, 588–595.

حيث أنّ هذه القبيلة تحتل مناطق التل والصحراء من المغرب الأوسط في المنطقة الواقعة بين مليانة والونشريس، حيث تكون سويد والديالم في النواحي الجنوبية للمنطقة التلية إلى غاية أعالي وادي مينا.

4- وعن بداية علاقة عرب زغبة مع بني عبد الواد أو مع يغمراسن، ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.36.

5- البطحاء: مدينة كبيرة متحضرة جدا وآهلة بالسكان، بناها الأفارقة في عصر قريب في سهل فسيح ينبت فيه القمح بكثرة، وكانت تحقق لملك تلمسان دخلا يقدر بعشرين ألف مثقال، لكنّها خرّبت أثناء الحروب التي استعرت بين ملوك تلمسان وبعض أقاربهم من سكان جبل الونشريس حسب تعريف الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص-ص.27-28.

6- ابن خلدون: **العبر**، مج.6، ص.96؛ مصطفى الطالبي: **المرجع السابق**، ص.152

7 - ابن خلدون: **العبر**، مج.6، ص-ص.45-46.

بدخولها للمجالات التلية باعتبارها حليفة لزناتة، حيث مثّل العرب "البدو" أحد المكونات الأساسية للجيش الزياني وهو ما مكّنهم من أن ينالوا امتيازات مالية هامة عن طريق الإقطاع يجبون الضرائب ويأخذون نصيبهم منها [1]، فيما تقدم المعقل [2] المجاورون لها من الغرب ليأخذوا مكانها، ولكن ما إن تقوى حكم زناتة بتلمسان حتى دفعت زغبة عن التلول فعادت منتجعة بالصحراء، و لم تتمكن من التقدم إلى التل والتحصل على إقطاعات إلاّ في فترات الضعف[3].

ويظهر هنا أنّ التلاقي المجالي الأعرابي الهلالي-المغراوي بحكم قرب مناطق الإقطاع تلك من مجالاتها، كان منذ بدايات الدولة الزيانية في القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي، حيث استعملها يغمراسن بن زيان خاصة لتقليص النفوذ المغراوي والتوجيني[4].

إلاّ أنّي أحاول أن أجانب الحديث عن القبائل الأعرابية الفاعلة في الدولة الزيانية، وأركز على القبيلة سويد التي أثّرت في المنطقة الشلفية وفي مازونة أيضا ، لكن ما طبيعة إقطاع محمد بن عريف في المدينة (مازونة)؟

لقد تعددت معاني كلمة الإقطاع [5] -فيما رأيناه سابقا- حول ما يمنح من امتيازات لقبائل أو أشخاص مقابل قدر من الخدمة التي ينتظر أن تقدم للسلطة، ويمكن أن نستشهد برأي أحد الباحثين الذي يشبه الإقطاع بحق استغلال ولاية أو مقاطعة مقابل خدمة [6]، لكن هل هو استغلال للمحاصيل الزراعية، أم أرض للرعي أم استغلال لماذا؟

يذهب آخر إلى أبعد من ذلك عندما يتحدث عن تطور مفهوم الإقطاع من تفويض

1- الهادي روجي إدريس: "المجتمع في المغرب بعد زوال الموحدين"، **تاريخ إفريقيا العام : إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر** ، المشرف على المجلد: ج.ت.نياني، مج.4، باريس-بيروت: اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة)-المطبعة الكاثوليكية، 1988، ص.123.

2- نسبة إلى معقل بن الحارث بطن من مدحج من القحطانية، كانت مواطنهم في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بالمغرب الأقصى، وكانوا مجاورين لبني عامر من زغبة في مواطنهم ما بين قبلة تلمسان والمحيط الأطلسي.

3- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.1، ص.103؛ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: **المرجع السابق**، ص.321؛ إيفان هربك: المرجع السابق، ص-ص.107-108.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.6، ص.45.

5- يعرّف أكبر جميل عبد القادر أكبر الإقطاع بإعطاء موقع معين ذي حدود خارجية محدّدة لفريق ما لإحياء ذلك الموقع، والمقطع هو الحاكم أو السلطة المركزية، وللمزيد حول الإقطاع، ينظر جميل عبد القادر أكبر: **المرجع السابق**، ص-ص.58-60، 181.

6- جورج مارسي: **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي**، ص.325.

السلطة لشخص أو لجماعة على رقعة محددة إلى جباية الأعشار، على استغلال أرض فلاحية على استخلاص فوائد الرعي، على قبض رسوم تؤدى على الأبواب أو الممرات أو القناطر أو الأسواق ...الخ[1].

في الحقيقة لا نستطيع تبين طبيعة إقطاع المدينة مازونة لمحمد بن عريف، لأنّنا أمام فراغ نصّي، إلاّ أنّه يظهر أنّ شخصية محمد بن عريف كانت مؤثرة في تاريخ المنطقة كغيرها من الشخصيات العريفية التي كانت لديها "حضوة" لدى السلاطين المرينيين وهو ما شكّل "حساسية" لدى السلطة الزيانية[2]: «كان العرب من سويد إحدى بطون زغبة فئة بني مرين وشيعة من عهد عريف بن يحي مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، فكانوا عند بني عبد الواد في عداد عدوهم من بني مرين مع طاغية الدولة بني عامر أقتالهم فكانوا منابذين لبني عبد الواد آخر الأيام...»[3].

لم تتأخر شخصية محمد بن عريف عن سلوك طريق مغاير محابي للزيانيين مثل خالد بن عامر[4]، فأذعن لطاعة أبي حمو الزياني وضمن له طاعة أخيه أبي بكر : «...ضمن له العدول بأخيه عن مذاهب الخلاف عليه وطال سعيه في ذلك ...»[5] في حملته على أبي زيان، إلاّ أنّ محمد بن عريف تأخر في ذلك مما أدى إلى نكبته: « ...فأمّهمه السلطان وحملة خالد بن عامر عدوه على

1- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.371.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص، ص.126، 127، 133، 135، 146؛ وعن دور هذه الشخصية العريفية يراجع يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص.80؛ وعن مشاركة هذه الشخصية في الصراع بين أبي حمو وأبي زيان القبي ينظر عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص.100، (حيث ينقل معلوماته عن **مخطوط زهر البستان** و.40و-41و)؛ وعن هذا الولاء العريفي-المريني ، يراجع التنسي: **نظم الدر والعقيان** ، ص-ص.184-185؛ وأيضا ابن مرزوق: **المسند**، ص-ص.367-368.

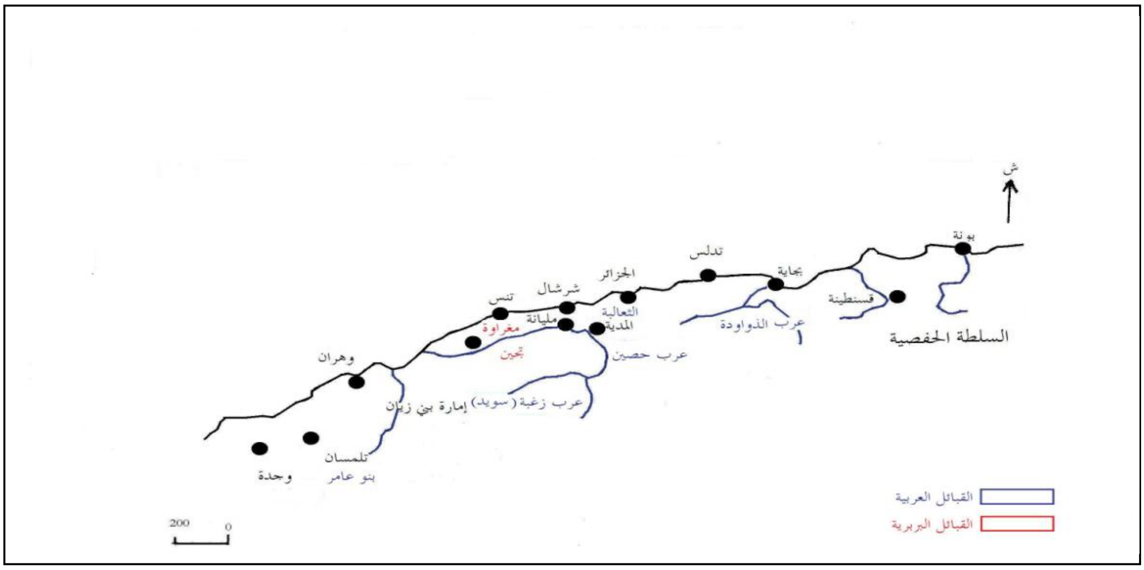
3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص-ص.126-127.

4- خالد ابن عامر: كان على رأس قومه بني عامر بعد وفاة أخيه شقير بن عامر (761هـ/1359م)، أو كبير بني عامر ابن خلدون: **التعريف**، ص.132؛ وعن بني عامر حسب التعريف الوزّان المتأخر: هم من بني هلال المقيمون بتخوم مملكتي تلمسان ووهران يرحلون إلى صحراء تيكورارين ويستأجرهم ملك تلمسان، وهم ذوو شجاعة فائقة وثروة طائلة عددهم نحو ستة آلاف من أحسن الفرسان وأقواهم عتادا، الوزّان: **المصدر السابق**، ج.1، ص.51؛ وعن بني عامر أيضا، عبد القادر المشرفي: **المرجع السابق**، ص.14؛ عبد العزيز بنعبد الله: **الموسوعة المغربية**، ص.112؛ عبد الحميد حاجيات: "دور بني عامر في تاريخ الغرب الجزائري أيام الدولة الزيانية "، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية**، تلمسان: جامعة أبي بكر بلقايد، ع. مشترك 3-4، 1425/2004؛ عبد الوهاب بن منصور: **المرجع السابق**، ج.1، ص.423.
Pierre Boyer, «Historique des Béni Amer d'Oranie, des origines au Senatus Consilt», *ROMM*, V. 24, 1 (1977), p.39-85.

5- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص.223.

نكبته فتقبض عليه وأودعه السجن...»[1].

وعلى العموم أظن أنّ السياسة الإقطاعية تلك لم تستمر طويلا على الأقل حتى سنة 769هـ/1369م "حادثة سجن محمد بن عريف"، لأنّه يبدو أنّ في حالة نكث المقطع للعهد يكون من السهل أن تترع منه وتقدم لطرف آخر أو أن تستعيدها السلطة، وهو ما ستعيشه مازونة لاحقا، خاصة وأنّ البدو العرب استغلوا فترات الضعف وتمكّنوا من اقتطاع بعض جهات الدولة الطرفية[2]، حيث أرجعها أحدهم إلى ضعف قاعدتها الاقتصادية الضيقة الأحادية الجانب، فقد كان سكان الدولة التي تضم أقل مناطق التل خصوبة يتألفون من فئة مستقرة قليلة العدد ومن جمع كبير من الرعاة الرحل الذين كانوا بدورهم عرضة لمناوشات العرب القادمين من الجنوب ممّا أفقدهم مراعيهم بصفة مستمرة، فالزناتيون الذين استمروا في الترحل عبر فضاء البلاد المغربية، الذي أخذ يضيق أمامهم مع تقدم القبائل العربية[3].



خريطة رقم: 10 (قبائل المنطقة الشلفية)

1-2-3-3- المرحلة الثالثة (767هـ/1367م إلى نهاية القرن 08هـ/14م):

لم يكن حكم أبي حمو الزياني موسى الثاني الزياني (791هـ/1359م-1389م) يمثل

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.132؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص.223.

2- ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.83؛ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: **المرجع السابق**، ص.228

3- علي أومليل: **المرجع السابق**، ص.177.

فترة استقرار تامة للدولة الزيانية [1]، فقد اضطر هذا الأخير أحيانا لأن يخرج من عاصمته لتشغلها السلطة المرينية[2]، وكانت أطولها مع عبد العزيز المريني [3] (722هـ/1371م-774هـ/1372م أو1373م)، الذي تمكّن من فرض تبعية المنطقة الشرقية، حيث: «عقد عليها للولاة والعمال.»[4]

إلاّ أنّه يبدو أنّ الجهات الشلفية كانت تعرف ثورة حمزة بن علي بن راشد المغراوي [5]، لذلك يصعب تحديد طبيعة "الإدارة" في المدينة خاصة والمنطقة "الشلفية" عامة.

لقد رافق العودة الزيانية سنة (774هـ/1372م أو 1373م) محاولة لعلي بن هارون المنديلي لإحياء الإمارة المنديلية سنة 775هـ/1373م[6]، والذي كان رجوعه يعبّر عن سياسة مرينية لإضعاف نفوذ زياني تلمسان بالمنطقة، بعد أن كان صنيعتهم فيها حمزة بن علي بن راشد قد أبدى سلوكا انفصاليا أدّى إلى مقتله سنة 772هـ/1372م[7]: «...وجهز الكتائب مع

1- التنسي: **نظم الدر والعقيان** ، ص.178؛ السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.4، ص-ص.67-68؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.84-86؛ ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص.67.

2- ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية** ، ص-ص.77-78؛ ابن الأحمر: **روضة النسرين** ، ص-ص.67-68؛ السلاّوي: **المرجع السابق** ، ج.4، ص. 58؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق** ، ص، ص. 201، 203، 209؛ عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص-ص.99-101، (ناقلا معلوماته من مخطوط **زهر البستان** ورقة 38و-39ظ، 40و، 42و-ظ).

3- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.135؛ ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية**، ص-ص.79-80؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص-ص.235-242؛ ابن خلدون: **التعريف**، ص.135؛ عبد العزيز بن أبي الحسن علي بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (المكنى بأبي الفارس)، (747هـ-774هـ/1346م-1372م)، عن شخصيته ينظر ابن الأحمر: **روضة=**

=النسرين، ص، ص.43، 44، 68، 69؛ ابن الأحمر: **النفحة النسرينية**، ص، ص.29، 61، 62؛ ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، ص.201؛ ابن خلدون: **التعريف**، ص.135.

4- السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.4، ص-ص.57-58.

5- حمزة بن علي بن راشد المغراوي: من بيت الملك "مغراوة" فرّ من معسكر الوزير أبي بكر ابن غازي أيام مقامه عليها، فاستولى على شلف وبلاد قومه، ابن خلدون: **التعريف**، ص.139.

6- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص.281.

7 - ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.434؛ ابن خلدون: **التعريف**، ص، ص.139، 153، 154؛ ويتحدث ابن الأحمر عن عن مكانه "سلطانية" للشخصيات المنديلية: مثل السلطان المتوكل على الله علي بن السلطان راشد بن السلطان محمد بن السلطان ثابت بن السلطان منديل المغراوي ملك مليانة وشلف كانت علامته: "والحمد لله والشكر لله"، وكذلك كانت علامة ابنه (صاحب ابن الأحمر) السلطان حمزة ملك تيطري، ابن الأحمر: **مستودع العلاّمة ومستبدع العلاّمة** (اعتمادا على نسختين حقّق إحداهما وقدّمها لمؤتمر الدراسات المنعقد بالرباط 1933م، محمد تركي التونسي، وراجع هذه النسخة وقارنها مع الأخرى وعلّق على الهامش محمد بن تاويت الطنجي)، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم السياسية (جامعة محمد الخامس)، بمساهمة

وزيره عمر ابن مسعود بن منديل بن حمامة لحصار حمزة بن علي بن راشد من آل ثابت بن منديل كان ربي في حجر الدولة ونشأ في جو نعمتها وسخط حاله لديهم، فترع إلى وطن سلفه عن مغراوة ونزل بجبل بني بوسعيد فأجاروه وبايعوه على الموت دونه وسرح السلطان وزيره إلى الأخذ بمخنقهم فترل عليهم وقاتلهم...»[1].

حيث يصوّر النص التالي حادثة مقتل حمزة بن علي بن راشد الرهيبة، والتي توضّح أهمية المنطقة بالنسبة لمريني فاس: «إلى أن تقبضوا عليه وقادوه إلى الوزير بن الغازي بن الكاس فأوعز إليه السلطان بقتله مع جملة أصحابه فضربت أعناقهم وبعث بها إلى سدة السلطان وصلب أشلاؤهم على خشب مسندة نصبها لهم ظاهر مليانة...»[2].

شرع علي بن هارون في تنظيم شؤون إمارته التي أصبحت تشمل نواحي مليانة ومازونة وتنس لإحياء ما كان لأجداده ومستغلا لفرصة الفراغ السياسي بتلمسان [3]، حيث أبي حمو الثاني لا يزال شريدا في أقاصي الصحراء [4]: «...فانتهز علي بن هارون ورهطه الفرصة بمغيبه في القطر فعادوا إلى شلف وبلغه الخبر فأغذ نحوهم السير غازيا ففروا أمامه وتذمموا بجبل زاتيمة فخيم أعزه الله ظاهر مازونة مزاحما بمنكب إضافته معقلهم...»[5].

لقد أعاد علي بن هارون عملياته بالمنطقة في السنة نفسها أي 774هـ/1372م أو 1373م[6]، وأظنّ أنّ هذه العملية هي التي تغلبوا فيها على عطية بن موسى [1] في نواحي مازونة:

المركز الجامعي للبحث العلمي (تحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث)، ص.23؛ والعلامة هي رمز بواسطة عبارة يتخذه السلطان لإضفاء طابع الرسمية على مكاتباته، منعا للتزوير والتلفيق، وتوضع على المكاتبات أحيانا علامة واحدة، بينما يضع آخرون في مكاتبتهم علامتين تسمى الأولى بالعلامة الكبرى والثانية بالعلامة الصغرى والتي توضع في آخر الكتاب: الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص.168.

1- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.330؛ وفي بغية الرواد تورد هذه الشخصية بـــ "عمر بن مسعود التيربيعي" ، يراجع يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص-ص.244-245؛ وعن جبل بني بوسعيد، يراجع الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.45.

2- ابن خلدون: **التعريف**، ص-ص.153-154؛ ويراجع أيضا ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.70.

3- **نفسه:** ص-ص.336-337.

4- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص.269؛ وحسب رواية بغية الرواد فإنّ المرينيين هم من ولّوا علي بن هارون: «...ثم ارتحل القوم مغربين بعد أن صرفوا علي بن هارون بن منديل بن ثابت المغراوي وقبيله إلى وادي شلف...»، **نفسه:** ص.269.

5- **نفسه:** ص.281.

6- **نفسه:** ص، ص.279، 285.

«...وبغتوا عطية بن موسى، فانحاز عنهم القهقرى إلى مدينة تنس فحصروه بها...» [2]، بعد أن تمكّن من أن يضم إليه خالد بن عامر وسويد والديالم والعطاف وتوجين، فاكتسى الصراع صبغة جديدة إذ أصبحت الثورة تعم قبائل المناطق الشرقية كلها تقريبا، وقد واجهها أبو تاشفين الزياني[3] بفرض سياسة "التوطّن" بمازونة[4]، وهي الحملة التي نجحت وأدّت إلى مقتل رحمون المنديلي [5]كما يوضّحه النص التالي: «...واستمر أبو زيان ولفه غير مصدقين النجاة إلى مألفهم وعاد علي بن هارون المغراوي وقومه إلى وطنهم وقد خذلتهم الأطماع وتبرأ منهم الغواة...فهنالك استوطن أبو تاشفين بلد مازونة واستعد بها لطول المقام...»[6].

وهناك إشارة أخرى لتوطن أبي حمو الزياني نفسه سنة (775هـ/1375م) في المنطقة القريبة من مازونة أثناء حصاره لمغراوة، وأظن أنّها كانت بعد العملية التي قام بها أبي تاشفين، بدليل أن هذا الأخير قد التقى والده بالقرب من المدينة أثناء حصاره لمغراوة، وقد استمر ذلك حتى عام 776هـ/1374م[7]: «...واستمر فلقيه ولده المولى أبو تاشفين صان الله مجده بإزاء مازونة ونزلا معا ظاهر تيمزوغت آخذين بمنخنق طائفة الغي مغراوة وأمر مولانا أمير المسلمين أيده الله بتشييد البناء هنالك لسكناه واستعد لمطاولتهم الحصار بالأقوات النامية تجلب إلى معسكره المنصور من كل قطر وولده المولى الأعلى أبو تاشفين أعزه الله يراوحهم بالقتال ويغاديهم...»[8].

ويمكن أن نستنتج مثلا هنا أنّ مازونة قد مثّلت نموذج "المدينة-المعسكر" [9] للزيانيين، حيث

1- هناك نص في بغية الرواد يظهر هزيمة مغراوة على يد عطية بن موسى سنة 774هـ/1372م: «أنهض نصره الله مولاه عطية بن موسى بالجيوش العديدة لاستئصال مغراوة وتطهير البلاد من دنسهم فلقيهم بظاهر مازونة مرتين هزمهم فيها ونكث قواهم فانحلت عرى ضلالهم ولجؤا إلى المعاقل مستحصنين بدمائهم، واستوطن هو تيمزوغت مركز دائرتهم وركن بغاتهم، فراجعت ساعتئذ تنس ومليانة بيعة الخليفة...»، يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص-ص.275-276.

2- **نفسه**: ص.279.

3- **نفسه**: ص-ص.279-280.

4- **نفسه**: ص، ص.281، 286.

5- **نفسه**: ص.280.

6- **نفسه**: ص.286.

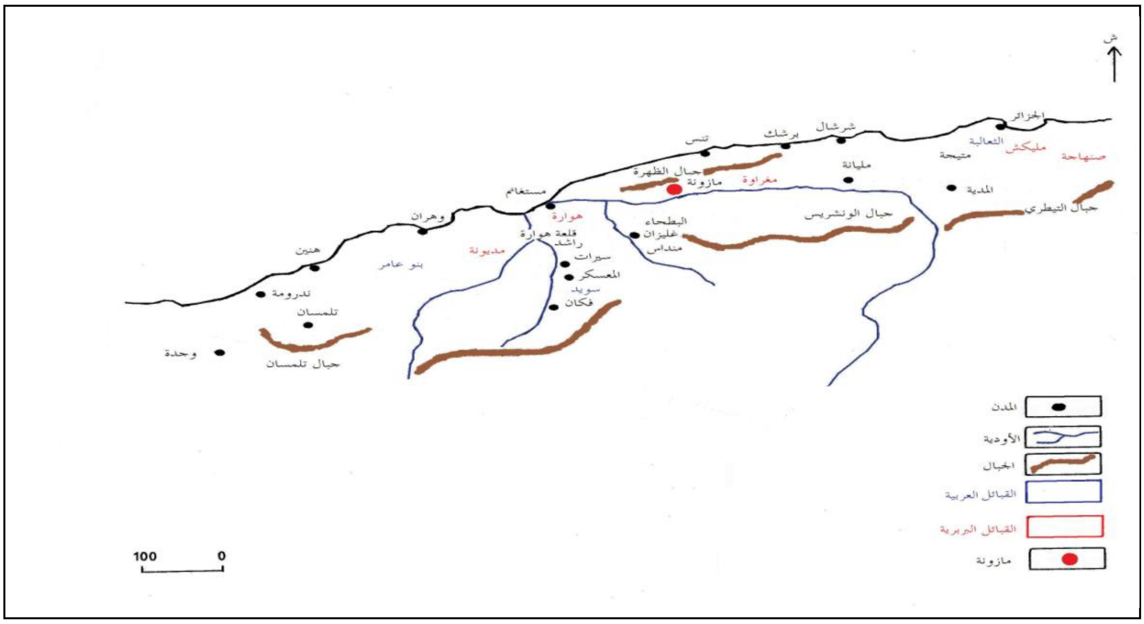
7- **نفسه**: ص، ص.286، 299؛ وعن شخصية أبي تاشفين عبد الرحمان بن أبي حمو، ابن الأحمر: **تاريخ الدولة الزيانية**، ص.82.

8- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص.286.

9- يسمى المعسكر عند الزيانيين بالمحلة، وكانت المحلة تضم بالإضافة إلى العساكر وعيالهم، السلطان وعياله كذلك، وتتألف

عرفت ناحيتها مواجهات لمرتين بين عطية بن موسى (مولى أبي حمو) والقبيلة مغراوة أدّت إلى هزيمة هذه الأخيرة -على الأقل حتى سنة (776هـ/1376م)- أين تم تعيين القواد والعمال بالبلاد الشرقية عامة[1]، ويبدو أنّ عطية بن موسى استمر قائدا على مازونة وناحيتها حتى سنة (777هـ/1377م) على الأقل : «...وانجمع رأيهم على غدر القائد عطية بن موسى بمازونة عشية يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول فافرغ الله عليهم الصبر ومنحهم...»[2].

إلاّ أنّ فشل محاولة علي بن هارون هذه ساهمت في إنهاء "الأمل المنديلي" في بعث إمارتهم بالمنطقة، واضطروا إلى تقديم ولاءهم لأبي حمو الزياني والخضوع لسلطته[3]، وأصبحت هذه القبيلة لا تمثل قوة يحسب لها، ولا تلعب دورا سياسيا يسترعي الاهتمام : «ومحي أثر مغراوة وانقرض أمرهم وأصبحوا خولا للأمراء وجندا في الدول وأوزاعا في الأقطار كما كانوا قبل هذه الدولة لا خبرة لهم.»[4].



الحلة في الغالب من فازات السلطان وأخبيته، وخيام المقاتلين وأخبيتهم، بما في ذلك القواد ومشائخ القبائل ورؤسائها المناصرين للسلطان، وتستخدم المحلة بدولة بني عبد الواد-في غالب الأحيان-عند حشد العساكر في منطقة التجمع، أو عند الحركات للغزو والفتوحات، أو عندما تتطلب ظروف الحصار الذي يضرب حول مدن الأعداء وحصونه، وفي واسطة السلوك يوصي أبو موسى الثاني ولده بأن يترل في المحلة (المعسكر) الفئة المسماة بالأنصار على يمينه وعلى يساره وأمامه وخلفه، ويكون بذلك السلطان في القلب محاطا بمماليكه (حرسه الخاص) ودخلته ينظر الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص-ص.259-260.

1- يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص، ص.299، 309، 310.

2- **نفسه**: ص-ص.328-329.

3- **نفسه**: ص-ص.308-309.

4- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.70.

خريطة رقم: 11 (توزيع قبائل المنطقة الشلفية)

1-2-4- مرحلة القرن 09هـ/15م إلى بداية المرحلة التركية : تراجع الدور المغراوي القيادي بالجهة الشلفية:

بعد تغلب أبي تاشفين الزياني (792هـ-797هـ/1389م-1394م) على أبيه أبي حمو، دخلت الدولة الزيانية في مرحلة الانحلال كانت خلالها إمّا تابعة لفاس المرينية أو لتونس الحفصية، و لم يكن لها خلال ذلك إلاّ دورا باهتا في السياسة المغربية العامة[1].

في الحقيقة لا يمكن تتبّع هذه السياسة الزيانية المتأخرة التي لم تسمح لها ظروفها بممارسة سلطة متكاملة ومستقلة بمناطق نفوذها خاصة وأنّ الفوضى السياسية والفتن الداخلية أفقدتها الكثير من الأقاليم والمناطق التي خرجت عن سيطرتها المباشرة وصارت تتحكم فيها بعض القبائل[2]، فمثلا في فترة حكم أبي العباس أحمد العاقل (834هـ-866هـ/1431م-1462م) نجد أنّه: «...تلاشى ما كان له من الهيبة في النفوس واضمحل واستولى المتغلبون على الأوطان،

1- التنسي: **نظم الدر والعقيان** ، ص، ص. 180، 181، 184-186؛ ابن الشمّاع : **المصدر السابق**، ص.116؛ عبد الباسط بن خليل: **نيل الأمل في ذيل الدول**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ج. 6، بيروت: المكتبة العصرية، 2002، ص، ص.156، 200، 201، 208؛

عبد الباسط بن خليل: *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siécle* thése, complémentaire ،pour le Doctorats-lettres, par Robert Brunshvig ,Paris Ve, Larose éditeurs, 1936 ص، ص.69، 70، 89؛ =

و عن السلطة الحفصية بالمنطقة يراجع أيضا الزركشي: **المصدر السابق**، ص، ص. 152، 153، 157؛ ومن بين الدراسات التي اهتمت بهذه الموضوع روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.1، ص، ص. 256-258، 290-291؛ عطا الله دهينة: "امتداد نفوذ الحفصيين إلى المغرب الأوسط"، **الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني)**، الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة-المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص-ص.432-434؛ عبد العزيز فيلالي: **تلمسان**، ج.1، ص-ص.66-83؛ إيفان هربك: **المرجع السابق**، ص.109؛ و عن مثل هذه الفكرة أي فيما يخص إشكالية انحلال الدولة في البلاد المغربية فيما بين 758هـ-869هـ/1357م-1465م، يراجع:

Mohamed Kably, *op.cit.*, p.199-218.

2- فمثلا في عهد محمد الثابتي ضعف شأن الملوك الزيانيين، وأخذت بعض المدن مثل: تنس والجزائر وتدلس (دلس) تستقل عن السلطة المركزية، كما أنّ كثيرا من قبائل العرب خلعت طاعة السلطان وأصبحت تنضم إلى أعدائه كلما هجموا على أراضيه يراجع عبد الحميد حاجيات: "خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية"، **كتاب الجزائرفي التاريخ**، ص-ص.455-456؛ وينظر أيضا الزركشي: **المصدر السابق**، ص.157.

وكثر الثوار من الزناتية والعربان...»[1].

ومن هنا يمكن ملاحظة أنّ الأسطوغرافية الزيانية في هذه المرحلة لم تعد تتبنى في كتاباتها مصطلح مغراوة بشكل كبير كما كانت سابقا، فمثلا في دولة أبي عبد الله محمد المستعين بالله سنة 841هـ/1437م، لم تكن هناك أي إشارة للدور المحتمل من هذه القبيلة المؤثرة بالمنطقة، حيث : «...لما وصل وطا حمزة بايعه أولاد بليل، ثم بايعته مليكش، ثم بنو عمر بن موسى أهل ايبلي، ثم جمهور الثعالبة وبعض حصين وتوجه إلى الجزائر فحاصرها مدة طويلة حتى ضاق الأمر بمن فيها، ففر مقاتلها وأذعن من بقي فيها وأسلموا البلد فدخلها أولا ولده مولانا المتوكل ضحوة في تاسع عشر رجب، وعشي ذلك اليوم دخل أمير المسلمين المستعين ثم بعد ذلك وجّه ولده الأرضى مولانا المتوكل بجيش جهزّه له ومحله أقامها فمهّد متيجة وتقدّم إلى المديّة فافتتحها ، ثم أقام حركة أخرى توجه فيها إلى مليانة فأفتتحها وتمادى إلى تنس فافتتحها فخطب له بالاستقلال في هذه المدن كلها وفي كل ما كان من أعمالها... »[2]، وكذا في ثورة أبي عبد الله محمد المتوكل (866هـ-873هـ/1461م أو1462م-1468م) سنة 866هـ/1461م أو1462م: «ولما كانت سنة ست وستين نهض مولانا من مليانة متوجها إلى المغرب والنصر أمامه، فاستولى على وطن بني راشد ثم على هوارة ثم افتتح مستغانم وتمزغران ثم عمد إلى وهران فافتتحها، ثم توجه إلى تلمسان...»[3]، فهل هذا مؤشر لاندماج قبيلة مغراوة؟ وتراجع دورها أمام سلطة بديلة بالمنطقة؟

يبدو أنّ المعطى النصّي المنقبي يقدّم صورة مغايرة عما سبق التحدث عنه، حيث أورد صاحب روضة النسرين نصا في غاية الأهمية يتحدث فيه عن طبيعة التبعية الإدارية للمنطقة الشلفية في هذه الفترة المتأخرة في حادثة شرفاء مغراوة [4] و الشيخ أحمد بن الحسين الغماري (ت.

1- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.247-248؛ و تراجع أيضا الصفحات التالية: 184-186، 228.

2- **نفسه:** ص-ص.250-251 .

3- **نفسه:** ص.254.

4- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ 14-15الميلاديين**، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، إشراف: عبد العزيز فيلالي، 1429هـ-1430هـ/2008م-2009م، ص، ص.374، 376؛

وعن شرفاء المنطقة الشلفية ومازونة يراجع أبو القاسم الزياني: **تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب** ، تقديم وتحقيق: رشيد الزاوية، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، 1429هـ/2008م، ص، ص.54، 81-83، 86-87؛

(866هـ-874هـ/1469م) في عهد السلطان الزياني أبو عبد الله المتوكل على الله 873هـ/1462م-1488م)، والذي جاء نصّه كالتالي: «...كنت عند الشيخ رحمه الله يوما وقد أتاه جماعة من الشرفاء الكائنين بوطن مغراوة من بلاد الشلف يشكون جور عامل وطنهم وأنّه تنقصهم وأهاليهم وسواهم على غيرهم من الرعية فأشتد غضب الشيخ لذلك، ثم بعث للخليفة مولانا أمير المؤمنين المرحوم بفضل رب العالمين قدّس الله تربته وأسمى في الدار الآخرة رتبته وطلب منه في أن يكتب للعامل بتأكيده عن الشرفاء، فلما وصله رسول الشيخ سمع مقالته قال له: قل لسيدي أحمد أنّي قد عزلت هذا العامل عقوبة له على إهانته للشرفاء وسأتقدم لمن يلي هذا العامل بتأكيد الوصية عليهم في تعظيمهم واحترامهم، فسرّ الشيخ بذلك كثيرا ودعا لمولانا بالرحمة لما ينفعه الله به...»[1].

و على العموم فقد عبّر الوزّان عن وضعية المدينة مازونة المخرّبة في أواخر الفترة الوسيطة: «من قبل ملوك تونس تارة ومن قبل الثوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب حتى أصبحت اليوم قليلة السكان، وهم إمّا نسّاجون أو فلاّحون وجميعهم تقريبا فقراء، لأنّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالأتاوات.»[2] .

و كذا وصف مارمول كاربخال للحروب التي كانت بين أقارب ملك تلمسان، والتي أدّت إلى تراجعها الحضري ، حيث:«كانت بها منازل جيّدة، دمّرتها الحروب ولاسيما تلك الحروب التي ذكرنا أنّها كانت بين أقارب ملك تلمسان، الذين عاثوا فسادا في عدد من مدن هذه الإيالة...»[3]، بالإضافة إلى عرب المنطقة الشلفية الذين: «يكنّون لهم العداء أذاقوا الويل لأهلها منذ المرة الأخيرة التي تحطمت فيها المدينة، حتى لم يبق فيها سوى عدد من فقراء النسّاجين، يصنعون المنسوجات القطنية والصوفية، ومع هؤلاء عدد من العمال لا يربحون ما يساوي المقادير التي يجبرون على دفعها لحكام مدينة الجزائر وللعرب مقابل السماح لهم بفلاحة الأرض.»[4]

و للأسف فإنّ غياب شواهد نصّية أخرى تجعلنا لا نتعمّق كثيرا في وضعية المدينة وناحيتها

Touati Houari, «En relisant les Nawazil Mazouna», p.83-94.

1- ابن صعد: **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**، مراجعة وتعليق وتحقيق: يحي بوعزيز، الجزائر: المؤسسة الوطنية للإشهار، 2004، ص.233؛ و يمكن قراءة نص نازلة مازونية تحدّثت عن وظيفة قائد البلد والوالي أي عن الطبيعة الإدارية في مدينة تنس المنتمية للمجال الشلفي المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.2، و.49 .

2- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36.

3- مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359.

4- **نفسه.**

خاصة في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وبداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، إلاّ أنّنا نلاحظ من خلال النّصين السابقين لحسن الوزان ومارمول كاربخال تراجع الدور المغراوي بهذه الجهة أمام الدور الحفصي أو المريني أو الأعرابي الهلالي وحتى الدور الزياني المتمثل في خلافات الأسرة الزيانية الحاكمة وبداية تأثير النفوذ الإسباني[1].

لكن ماذا يعني كل هذا؟ وما طبيعة التخريب الذي تحدّثت عنه تلك النصوص؟ لأنّه كما يبدو لنا فالمدينة استمرت كمنطقة صراع حتى بداية المرحلة التركية.

يتحدث هاينريش فون مالتسان *(Henriech Von Maltsen)* في رحلته أنّ مازونة وحتى ابتداء الفترة الحديثة كانت جزءا من مملكة تنس تحت سلطة القبيلة العربية "النبيلة" التي تحمل اسم "محال"[2].

وحسب مذكرات خير الدين بربروس فإنّ مدينة تنس: «كانت في وضع لا تحسد عليه من الخلاف والنزاع فذاق الأهالي من ذلك الأمرين، ولأجل ذلك كان من السهل أن يتسلط الأسبان على هذه البلدة...»[3]، ثم يضيف متحدثا عن رغبة عرّوج في ضم هذه المدينة التي كانت

1- عبد العزيز فيلالي: **تلمسان**، ج.1، ص-ص.66-80.

2- فون مالتسان هاينريش: **المرجع السابق**، ج.1، ص.234؛ وفي هامش كتاب القول الأوسط هناك إشارة إلى لقب أطلق= =على قياد العديد من قبيلة المحال وهو أحميدة العبد (كبير سويد) بجهات الشلف ومستغانم ابتداء من القرن الثامن الهجري، يراجع الراشدي: **القول الأوسط**، ص-ص.66-67 (هامش ص.67)؛ أمّا في كتاب عجائب الأسفار، فإنّه يذكر أنّ الإمام المازري هو الذي جعل كتابا في نسب قبائل أهل المغرب الأوسط، وقد ذكر فيه أنّ الأمحال أهل البطحاء من بني هلال ، كما قال ابن خلدون وأنّ الذين يقال لهم المضارب كبني دقيش وبني حميدة العبد (حميدة العبد) من قادة قبيلة سويد المعروفة بالأمحال: «مواطنها بين مستغانم والشلف، وبني عراج من بني مخزوم من ذرية صعصعة بن الحارث بن حارثة من ذرية هشام بن إسماعيل المخزومي، وقد أجمل ابن خلدون والمشاهد الآن من أقرّ الأمحال للمضارب بالسيادة والتعظيم والتسليم لهم يشهد للمازوني وقد كان من قبل تلاشي أمرهم وركود ريحهم لا يزوجون بناتهم الأمحال مع أنّ الأمحال لا يتوهمون ذلك ولا يطمعون فيه تعظيما لهم، قد أخذوا ذلك عن أبائهم .»، ينظر أبو راس المعسكري: **عجائب الأسفار** ، ص.162؛ وعن التسلط السويدي العربي بالمنطقة الشلفية في هذه الفترة، يراجع **نفسه:** ص.124؛ وعن عرب المحال وعن أحميدة العبد ينظر أيضا:

محمد بوركبة: "جوانب من مخطوط (قلعة بني راشد) لأبي عمر بن عثمان القلعي (تـــ.القرن 18م/19م)"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ع.1، 1424هـــ/2003م، ص.110؛ Moulay Belhamissi, *Histoire de Mostaganem* ,2éme édition, Alger, Société Nationale D’édition et de diffusion, 1982, p.55-56-67-70 ; Jacques Berque, «Retour à Mazouna», p. 156.

ويرى مولاي بلحميسي: أنّ مملكة تلمسان تقلصّت إلى أن أصبحت لا تتعد العاصمة ونواحيها واستولى المحال على وادي شلف الخصب، وخرج معظم قبائل الونشريس والظهرة وكوّنت مدن مازونة والمدية ومليانة إمارات مستقلة، مولاي بلحميسي : " نهاية دولة بني زيان"، **مجلة الأصالة**، السنة 04، ع.26، 1395هـــ/1975م، ص.31.

تتبعها مازونة مجاليا: «...كان أخي الغازي عرّوج يرغب في ضم هذه البلدة إلى نفوذه في هذه الأثناء أرسل ملك إسبانيا كارلوس عشر قطع بحرية متظاهرا برغبته في حماية أمير مدينة تنس، أمّا قصده الحقيقي فقد كان يتمثل في النيل من المسلمين، هذا وقد كان لسلطان تنس فرقة إسبانية تتولى حمايته، إلاّ أنّها كانت تقوم بنهب كل ما يقع تحت يدها من ممتلكات الأهالي وتحمله في السفن وترسلها إلى إسبانيا...ثم علمنا بعد ذلك أنّ ابن أخ سلطان تلمسان قد استولى على تنس بدعم من الأسبان، وبما جمعه حوله من الأعراب، وأنّ أهالي تنس الذين أنقذناهم من ظلم الأسبان قد رضوه أن يكون أميرا عليهم...»[1] .

أمّا مازونة فلم ترد إلاّ في إشارة عابرة في مذكراته كمنطقة نزاع بينه وبين الأمير الزياني عبد الله حيث قال: «أعددت جيشا وسرت به إلى تلمسان فلحق بنا في الطريق الأمير محمد فقبّل يدي وانضم إلى جيشي في هذا الوقت كان الملك عبد الله قد خرج من تلمسان وسار إلينا ، فالتقينا في مازونة حيث اشتبكت قواتنا هناك، تمكّن جيشي من تشتيت قوات الملك عبد الله وأسره، فأمرت على الفور بضرب عنقه وألبست ابنه الخلعة السلطانية وأجلسته على عرش تلمسان...»[2].

إلاّ أنّ هناك معطيات أخرى تناقض ما يمكن تصوّره من هذه النصوص السابقة، مثل التوافد الأندلسي الذي عرفته المدينة مع نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي (سنة 892هـ/1486م)[3]، لأنّ الهجرة لم تكن لتتم لو أنّ المدينة لم تعرف استقرارا في هذه الفترة،كما أنّ مازونة مع بدايات المرحلة التركية أصبحت عاصمة لبايليك الغرب منذ سنة 971هـ/1563م، و الذي استمر حتى سنة 1113هـ/1701م، بموجب التنظيم الإداري الذي عرفته الجزائر عام 970هـ /1562م[4]، وهذا يعني أنّ المدينة امتلكت خصوصيات المدينة-

---

3- خير الدين بربروس : **مذكرات خير الدين بربروس** ، ترجمة: محمد درّاج ، الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع، 1431هـ /2010م، ص.80.

1 - **نفسه**: ص-ص.82-83.

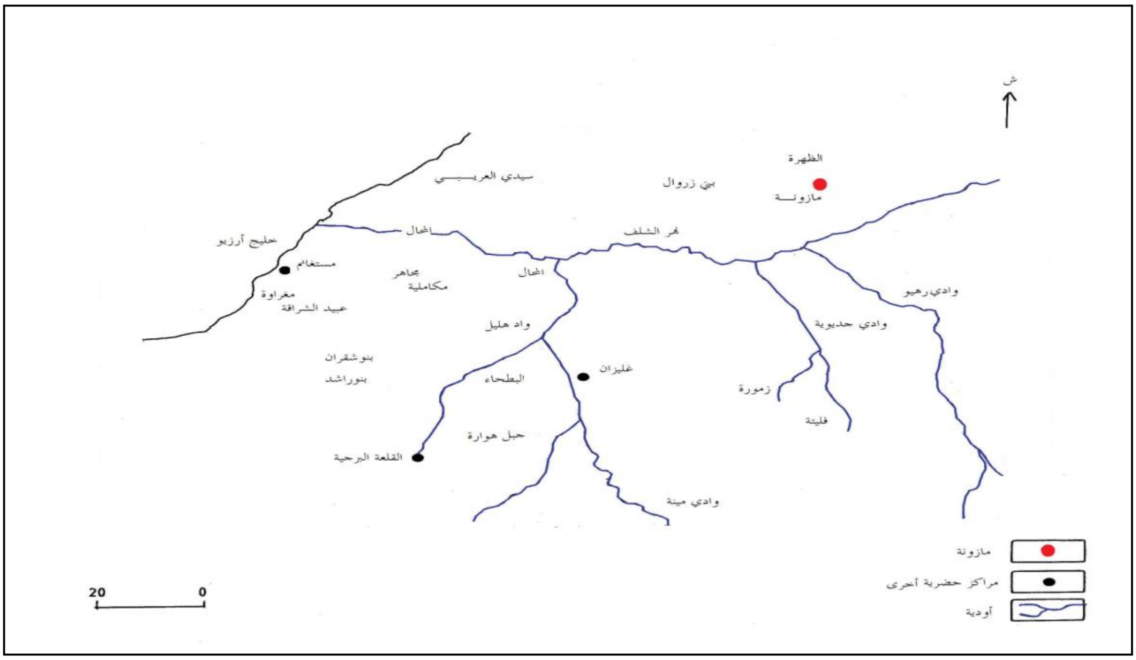
2- **نفسه**: ص.132.

3 - مؤلف أندلسي: **آخر أيام غرناطة وهو كتاب نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر** ، حقّقه وقدّم له: محمد رضوان الداية، دمشق: دار حسان للطباعة والنشر، 1404هـ/1984م، ص-ص.140-142.

4- من بين الدراسات التي اهتمت بالتاريخ الحديث لهذه المدينة ينظر مثلا جمال قنان: **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500م-1830م**، الجزائر: منشورات المؤسسة الوطنية للطباعة، 1987؛

؛ Djilali Sari, *op.cit*; moulay Belhamissi, *op.cit*; Youcef Loukil, *op.cit.*

العاصمة إن صحّ التعبير.



خريطة رقم: 10 (**قبيلة المحال**)

(**الراشدي: القول الأوسط، ص.80**.)

ومن بين النصوص التي أرّخت لهذه الفترة ، يراجع أبو راس الناصري المعسكري: **فتح الإله ومنّته**؛ الراشدي: **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، الجزائر: منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، قسنطينة: مطبعة البعث، 1973م؛ المزاري: **طلوع سعد السعود –في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر–** تحقيق ودراسة: يحيى بوعزيز، ج. 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990م؛ ابن حمادوش: **لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983؛ الزياني: **دليل الحيران**؛ مسلم بن عبد القادر: **أنيس الغريب والمسافر في طرائف الأخبار والنوادر** ، حقّقه ونشره: رابح بونار، الجزائر : 1974 (وترجمه أدريان دلبيش ونشره في المجلة الإفريقية عام 1874م)؛ أبو عبد الله محمد التامقراتي: **النفحة المسكية في أخبار السفارة التركية** (م.خ.ع.بالرباط)؛ عبد القادر بن عيسى المستغانمي: **مستغانم وأحوازها عبر العصور** ، مستغانم: المطبعة العلاوية، 1996.

Henri leon fey, *Histoire d'Oran (la domination Espagnole)*, Oran, Edition dar ELGharb, 2002.

2- مازونة: المدينة والعمل "المغراوي أو الشلفي":

2-1- العمل أو العمالة (إشكالية المصطلح السائد):

يشير محمد حسن إلى فكرة تطور مفاهيم المصطلحات المجالية[1]، والتي تعبّر عن حركية دلالية رافقت السلطة للوحدة الإدارية والجبائية التي تتبعها، وهو ما يمكن ملاحظته في دراسته للفحص ، الذي لم يستعمل للدلالة على الأرض الزراعية فقط، إنّما كان له ارتباط كبير بالناحية الزراعية للمدينة، حيث اقترن ذكره بالمدن، فهو المجال الزراعي المحيط بها والذي لا يقتصر على زراعة الحبوب مثلا، إنّما يشمل كذلك الأشجار والمغروسات وعادة ما تحيط به حدود طبيعية مثل المرتفعات والأنهار[2]، وهو المصطلح الذي تطور في العصر الحفصي -حسبه- إلى مقاطعة إدارية وجبائية تسمى تارة "عمل" [3] ومن ثمة "وطن"، ويبدو أنّ هذا المصطلح الأخير قد رافق مصطلح "العمل" أيضا، فهو الجزء التابع له حسب برنشفيك[4].

في الحقيقة لم يتداولا مصطلحي الفحص والوطن في الإسطوغرافية الخاصة بالمنطقة الشلفية بصورة كبيرة-على الأقل فيما هو متاح لدينا- منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي والقرون اللاحقة أيضا، حيث اقتصرت على اعتماد مصطلحات أخرى بصفة أكبر وهي العمالة، الكور، العمل، بلاد، ناحية، وطن، وحتى المنطقة الشرقية (التي تضم مجالات أوسع بالإضافة إلى الناحية الشلفية، جبل وانشريس، متيجة، جبال تيطري أيضا) [5]، حيث يظهر واضحا أنّها لم تتبن لفظا مشتركا، وإن كان مصطلح العمل يبدو أكثر استعمالا من غيره.

يصوّر برنشفيك العمل على أساس أنّه دائرة ترابية أساسية تكتسي في آن واحد صبغة عسكرية وجبائية، والذي يقسّمه إلى "أوطان" أو "أحواز" ذات صبغة جبائية أيضا [6]، وإن كنا

1- محمد حسن: **الجغرافيا التاريخية**، ص-ص.213-214.

2- **نفسه:** ص.214.

3- فهل يقصد بالعمالات أو العمل الإقليم ما يكون من إقليم تحت حكم ما ويضاف إليه؟ يراجع صابرة خطيف: **فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية (633هـ-791هـ/1235م-1388م)، الجهاز الديني والتعليمي**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسنطينة: قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، إشراف: محمد فرقاني، 1424هـ-1425هـ/2003م-2004م، ص.154.

4-روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص.112.

5- عن المنطقة الشرقية (جبال الظهرة، الونشريس، الشلف، التيطري)، يراجع يحي بوعزيز: "المقاومة في جبال الونشريس وحوض الشلف وجبال الظهرة "، ص.2.

6-روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص-ص.112-113.

ندرك جيدا تلازمية لفظة الشلف بالعمل (إن اعتمدنا هذا المصطلح على غيره مما هو متاح لدينا) المرتبط بالمدينة مازونة وعلاقته بالذهنية الجماعية لساكنتها وللمنطقة الشلفية أيضا [1]، حيث يظهر تراجع المعطى القبلي مغراوة أمام المعطى الجغرافي سهل شلف الواقع بين مدينتي مستغانم والجزائر[2].

إلاّ أنّ ما يعارض تبعية هذه الوحدة أي العمل للسلطة بصورة دائمة، نزعة الانفصال التي تتبناها المجموعات المتوطنة أو الأصيلة بالمنطقة، فعندما تتلاشى علاقة الارتباط مع السلطة المركزية، تبرز من جديد بكل وضوح طرق الحكم الذاتي السلفية، ويقع العمل بها تلقائيا كأنّها لم تتوقف أبدا عن العمل والسيطرة[3].

2 –2– المدينة (مازونة) والعمل (وحدة إدارية وجبائية ؟):

يصعب علينا تحديد طبيعة العلاقة التي ربطت المدينة والعمل في هذه الفترة التي عرفت فيها انتماءها للسلطة المركزية تغييرات عديدة [4]، فالمدينة التي تمثل الوحدة الإدارية المحليّة الأساسية لا يمكن الفصل بين إدارتها وإدارة العمل أو العمالة، لأنّه لم يرد في النصوص ما يفسّر تلك العلاقة، أو حتى الاختلافات المحتملة بين الشكلين [5]، فحسب جورج مارسي (***George Marçais***) فإنّ: «تغير المؤسسات يتم بصفة أسهل من البشر.»[6]

فهل ترجع إدارة المدينة إلى إدارة العمل بأن تمثّل هذه الأخيرة نفوذا عليها، أو أنّها تتبع

1– هنا يجب الإشارة إلى أنّ ابن خلدون مثلا ربط بين القبيلة والمجال الجغرافي بمصطلح "العمل" ، «وملك عمل مغراوة بشلف.»، ابن خلدون: **التعريف**، ص.29.

2– مثلا عندما يتكلم صاحب الاستبصار في القرن 6هـ/12م: «وعلى نهر شلف مدينة قديمة أزلية فيها آثار أوّلية تسمى شلف، وإليها ينسب النهر الكبير...»، لكن يبدو أنّ التسمية توسعت لتضم المنطقة التي يحيط بها هذا النهر، مؤلف مجهول (ينسب لابن عبد ربه الحفيد): **المصدر السابق**، ص.171.

3– روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص.99.

4– الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص–ص.186–187؛ وعن نظرة عطا الله دهينة لطبيعة الإدارة المحلية ينظر عطا الله دهينة: الحياة السياسية والإدارية، **الجزائر في التاريخ**، ص.471.

5– الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص–ص.192–194.

6– جورج مارسي: **تلمسان**، ص.85؛ مثلا نجد عند ابن خلدون أنّه بمجرد تغير رأس السلطة يتغير معها رأس العمل مثلا بعد الحصار مباشرة، «ورد أعمالها عليهم، فوفى لهم بذلك، وعاد إلى المغرب، وارتحل ابن أبي الطلاق والخيري والكناني من مليانة راجعين إلى المغرب.»، ابن خلدون: **التعريف**، ص.30.

السلطة مباشرة؟ وهل اختلفت الإدارة المركزية عن الإدارة القبلية المنديلية التي كانت تضفي على نفسها صبغة سلطوية أيضا؟

يبدو أنّ هذا الإشكال مرتبط بطبيعة "الإدارة" في المنطقة الشرقية عامة، لأنّ تنظيمها لم يكن ثابتا وهو ما صعب التحكم فيها، فالعملية ارتبطت أكثر بتنفيذ الأوامر وإعداد الوسائل المالية والعسكرية اللازمة التي يتولاها أصحاب الأعمال والأشغال، أو إحدى جماعات "المخزن المغربي" كما يراها عبد الله العروي[1].

إلاّ أنّ الأمر غير الواضح في الإدارة الزيانية مثلا أنّ القادة [2] أو العمال[1] وحتى الولاة على

1- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص-ص. 369-370؛ وعن مصطلح المخزن كما يراه عبد الله العروي أنّ السلطة لا تمارس إلاّ بتواجد ثلاثة وظائف وهي: الوزارة التي تخطط، الكتابة التي تبين وتعلن والأشغال التي تنفذ هذه الوظائف هي مضمون المخزن كما أنّه أشار إلى احتمال اشتقاق كلمة المخزن حيث كانت تؤخذ العشور عينا وتذخر في مخزن لتموين الجيش أثناء حركاته، **نفسه**: ج.2، ص.370؛ كما يظهر النص التالي وظيفة من استعملتهم السلطة المرينية مثلا في المنطقة : «ولما تغلب السلطان على ضواحي شلف ومغراوة واستعمل على حسبان الجباية وجعل إليه ديوان العسكر هنالك وإلى نظره اعتراضهم وتمحيصهم، فنزل على مليانة مع من كان هناك من الأمراء مثل علي بن محمد الخيري والحسن بن علي بن أبي الطلاق العسكري، إلى أنّ هلك السلطان أبو يعقوب، ورجع أبو ثابت البلاد إلى أبي زيان وأخيه أبي حمو...»، ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص، ص. 245، 388؛ وهو نفسه تقريبا ما ورد في التعريف لابن خلدون حيث: «...وملك عمل مغروة بشلف وحاضرته مليانة فبعث عليها الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر، وعلي بن محمد الخيري من بني ورتاجن، ومعهما- لضبط الجباية واستخلاص الأموال- الكاتب منديل بن محمد الكناني...»، ابن خلدون: **التعريف**، ص-ص.29-30. =

=توجد دراسة لـــ: جورج مارسي (*Georges Marçais*) بعنوان:

«Le Makhzen des Beni Abd-Al Wad rois de Tlemcen», dans (*mélanges d'histoire et d'Archéologie de l'occident musulman*, T. I, Alger, Gouvernement général de L'Algérie sous direction des Beaux-Arts (imprimerie officielle du gouvernement général de l'Algérie), (1957), p.51–57.

وتوجد الدراسة نفسها عن المخزن لجورج مارسي (*Georges Marçais*) في:

BSGAO, 1940.

2- وعن تسمية "القائد" التي توحي بوظيفة عسكرية خالصة لهؤلاء، والعلة في ذلك أنّ الدولة التي لم تعرف الاستقرار الدائم، فهي في مجملها "تاريخا للفتن والحروب"، وهو ما أدّى بالأمراء الزيانيين أن يختاروا على رأس إدارتهم المحلية قادة عسكريين ليضمنوا حماية عمالاتهم، وليلتزموا بطاعة سلطانها، وعن وظيفة القواد (ج.قائد) في الدولة العبد الوادية ينظر أبو حمو الزياني: **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1279هـــ/1862م، ص-ص.12-14؛ ووداد القاضي: "النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني ومكانها بين النظريات السياسية المعاصرة لها"، **مجلة الأصالة**، الملتقى التاسع للفكر الإسلامي، قسنطينة: مطبعة البعث، السنة04، ع.27، 1395هـــ/1975م، ص.66؛ ومن جملة المعاني التي يعبّر عنها لقب"القايد"، حسب برنشفيك المتعلق بتلك الوظيفة الخاصة بالاشتراك مع الاسمين القديمين المعروفين "الوالي" و"العامل"، يراجع روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص.112؛ الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص-ص.196-197؛ كما نجد استعمال

رأي بعضهم[2] الذين تم تعيينهم لم تعرف حدود مهامهم [3]، إذ يبدو أحيانا بأنّهم على رأس المدن، وأحيانا أخرى يبدو أنّهم على رأس العمالات الواسعة [4]، مثل شخصية عطية بن موسى الذي لا يعرف طبيعة الإدارة التي كان يمثلها، فهل مثّل إدارة العمل الشلفي[5] أو إدارة المدينة مازونة[6]، ففي

مصطلح القواد أو القادة عند النميري: **المصدر السابق**، ص.284؛ كما يتحدث ابن الصباح عن القياد ، ابن الصباح: **أنساب الاخبار وتذكرة الأخبار (رحلة المدّجن الحاج عبد الله بن الصباح النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة**)، هذّبها وأصلح خللها وعلّق حواشيها: محمد بنشريفة، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2008، ص.92.

1- وعن مصطلح العمال ، ينظر أبو حمو الزياني: **المصدر السابق**، ص-ص.9-10؛ حيث يجب على الملك أن يختار لوظيفته العامل رجلا عارفا بجباية الخراج، يجمع الكفاية والدربة والضبط والأمانة والديانة، وذلك حتى لا يضيع على الملك أي حق من حقوقه المخزنية ولا تصاب الرعية بالظلم ينظر وداد القاضي: النظرية السياسية، ص-ص. 60-61؛ وهل يكون العامل أحد الشخصيات الأميرية الزيانية بالجهة الشلفية كما ورد في مخطوط زبدة التاريخ، ويلاحظ استعمال صاحب مخطوط زبدة التاريخ لمصطلح العمال، ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.47؛ وعن استعمال هذا المصطلح وشروط العمال، أبو حمو الزياني: **المصدر السابق**، ص.72؛ كما تظهر فئة العمال بشكل واضح في تاريخ أبي حمو حيث مثّلت فئة شديدة التأثير على مقادير الأمور في دولته، وهو فيما يبدو "الحاكم" في لغة أبي حمو حسب رأي وداد القاضي ، يراجع وداد القاضي: النظرية السياسية، ص، ص.57، 60، 61، 64؛ الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص.197.

2- حيث يتحدث جورج مارسي عن تعين يغمراسن لولاة في مدن مجاله ، جورج مارسي: **تلمسان**، ص.38؛ وهو المصطلح المستعمل في الاستقصاء بمعية مصطلح "العمال"، السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.4، ص-ص. 57-58؛ وحسب عبد الحميد حاجيات فإنّ مصطلح "الولاة" كان متداولا أيضا عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص.198؛ وفي نص المسند عندما يتحدث عن أبي الحسن المريني "في ملاحظته لأحوال رعيته"، نجده يستعمل مصطلحي القائد والوالي معا، ابن مرزوق: **المسند**، ص.174؛ وكما يظهر النص التالي: « ومن العجائب أيضا أنّ خراج عامين عند الولاة وجده عونا على المعضلات لا يقدم قائدا إلاّ وجاءه بخراجه معه، ولا يعطي صفقة يده حتى يعطي ما جمعه...»، مخطوط **زهر البستان**، و.19ظ، نقلا عن الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص-ص.296-297.

3- الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص، ص. 193، 194، 197؛ أبو حمو الزياني: **المصدر السابق**، ص.72؛ حيث وحسب=

=وداد القاضي فإنّ أبي حمو تعامل بنوع من الاهتمام مع الرجال الذين يعيّن هم في تصريف أمور دولته ومنهم العمال والقضاة والقواد، وإذا كان لم يوفق في اختيار معظمهم، وداد القاضي: النظرية السياسية، ص.28؛ و لم تكن هذه الوظيفة مقتصرة على السلطة الزيانية، حيث كانت مع السلطة المرينية أيضا مثل ما فعل السلطان عبد العزيز المريني، السلاّوي: **المرجع السابق**، ج.4، ص-ص.57-58، فهل اختلفت طبيعة التقسيم الإداري للمرينيين عن نظرائهم الزينيين؟ عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص-ص.198-199.

4- وفي واسطة السلوك لا يوضّح مكان ممارسة عملهم وينظر أيضا الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص-ص.193-194.

5- عطية بن موسى بن فارس "قائد على الجيش وعلى الشلف" ، **نفسه**: ص.269؛ وحسب أبي زكريا يحي بن خلدون فإنّ عطية بن موسى قائد الجيش بشلف: «وقائده عطية بن موسى بن فارس بجيش شلف ه...»، يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص، ص.161، 184، 329.

6- **نفسه**: ص.329.

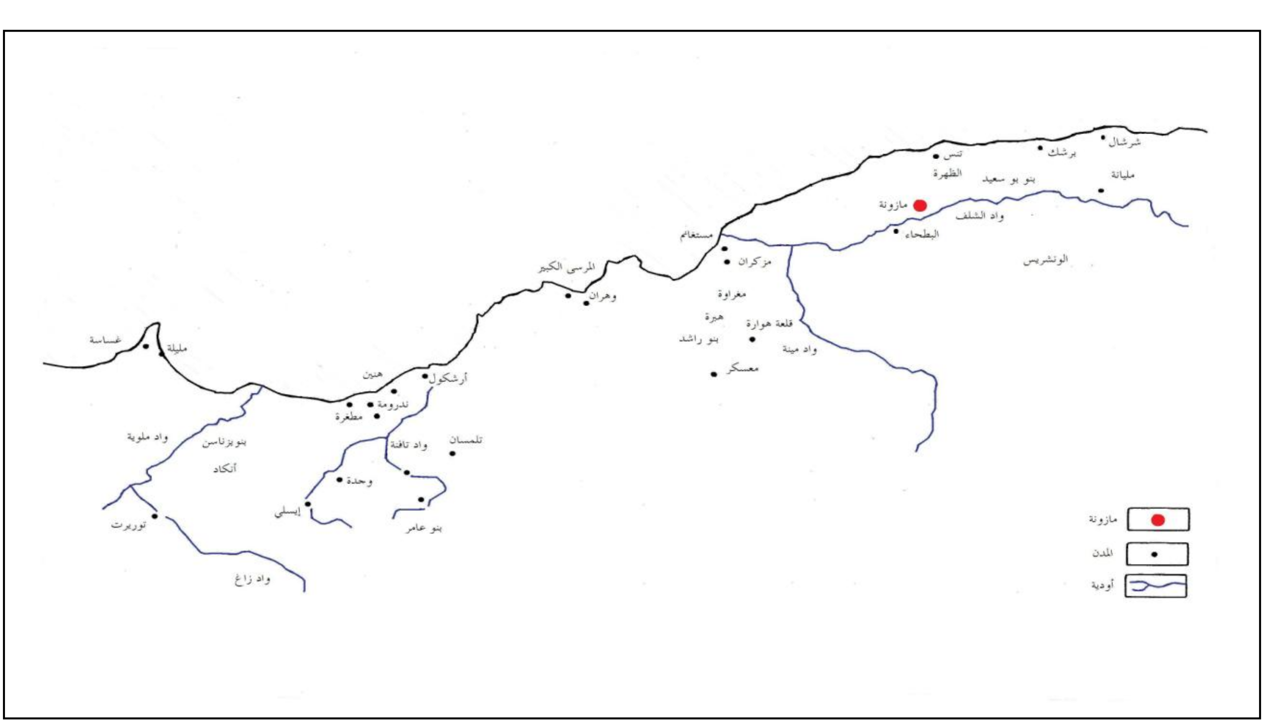
سنة (767هـــ/1367م) نصّب أبو حمو الزياني عطية بن موسى على شلف : «بعد أن صرف إلى كور قطره قوادها...وإلى شلف عطية بن موسى...وتقدم إلى جميعهم باستركاب الجيوش واقتناء العدد وإقامة الحركات...»[1]، إلاّ أنّ مازونة في تلك السنة كانت مقطعة لمحمد بن عريف، وهذا يعني أنّ تبعيتها الجبائية الكاملة لم تكن للسلطة، وبعد ذلك نجد أنّ مقر هذه الشخصية كانت بمازونة[2]، فما طبيعة هذا التواجد الذي تخلله وجود قمة السلطة في المدينة نفسها أو ناحيتها والمتمثلة في أبي حمو الزياني وابنه أبي تاشفين[3]؟ حيث يمكن اعتبار أنّ رأس الإدارة المركزية توطّن بالمدينة وإن كان لفترة قصيرة.

ويمكن ملاحظة أنّ الإدارة المحلية التي مثّلتها أحيانا كثيرة الشخصيات المنديلية حاولت لفترات متقطعة الانفصال والسعي لإقامة حكم مركزي خاص بها، ونحن ندرك أهمية مدينة مازونة بالنسبة لبني منديل، إلاّ أنّي لم أسجل محاولات انفصالية فردية أخرى لمن تم تعيينهم، سوى محاولة القاضي سرحان بمازونة أثناء حادثة القيروان الشهيرة التي انهزم فيها أبي الحسن المريني، حيث أطاعته العامة في مازونة كما يوضّحه الكفيف الزرهوني في ملعبته[4]:

سرحان الوغد طاعت الطاعا في مازونة يفرق الكسوات.

فهل مارس القضاة سلطات خاصة بالمدن؟ وما طبيعة السلطة التي كان يمارسها سرحان القاضي؟ أو انفصال يحي بن موسى عن السلطة الزيانية وتقديم ولاءه للسلطة الغريمة .

إلاّ أنّ تهميش الأسطوغرافية السياسية للمنطقة ما بعد القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، يجعلنا نتساءل عن وضعية الإدارة المحلية والمدينية التي يبدو أنّها أصبحت مماثلة من حيث تبعيتها لتلك التي عرفتها السلطة العبد الوادية مع نفوذ أعرابي أكثر وضوحا.



خريطة رقم: 13 (مملكة تلمسان عند الوزّان)

(الوزّان: المصدر السابق، ج.2، ص.6.)

الفصل الرابع:
دواخل مازونة (بداية لمعطيات نصّية محلية)

I-المخطط العمراني الوسيط لمازونة وناحيتها (محاولة تشكيل).

II- مقــاربة حول قضايا مازونية.

I- المخطط العمراني الوسيط لمازونة وناحيتها (محاولة تشكيل):

1- التشكيل العمراني الأساسي (طبيعته وإشكالياته):

1-1- الطبوغرافية الأمنية:

لا يمكن تصوّر أنّ الضرورة الأمنية لمازونة قد تأخّرت عن بداية نشأتها القديمة وحتى الوسيطة، فالحماية الطبيعية التي فرضتها طبونوميتها حسب ما يوضّحه الإدريسي مثلا: «وهي مدينة بين أجبل، وهي أسفل خندق...»[1]، لم تكن لتحرم ساكنتها من التفكير في "السور" كثقافة معمارية أمنية ضرورية في المدينة الإسلامية المغربية[2].

وإن كان السور كواقع عملي معاش في مازونة تناوله الخطاب الفقهي الوسيط المتأخر، ضمن اختلاف الفقهاء حول مسألة إصلاحه، فنحن نملك جوابين لأبي الفضل العقباني[3] (تـــ.854هـــ/1450م-1451م) وللبرزلي[4](تـــ.842هـــ/1438م) لسؤال تقدّم به يحي بن

1- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص.128.

Roger le Tourneau, *Les villes musulmanes*, p. 13–14-2

3- ولترجمة شخصية أبي الفضل قاسم بن سعيد العقباني، يراجع ابن مريم: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله: محمد ابن أبي شنب، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، 1406هـــ /1986م، ص-ص.147-149؛ التنبكتي: **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج (في تراجم المالكية)**، ضبط النص وعلّق عليه: أبو يحي عبد الله الكندري، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1422هـــ/2002م، ص-ص.281-282؛ التنبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، 2.ج.، طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1398هـــــ/1989م، ص-ص.365-366؛ القلصادي : **تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب (طبع باسم: رحلة القلصادي)**، دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان ، ط.2، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1398هـــ/1978م، ص-ص.106-107؛ الونشريسي: **وفيات الونشريسي (ضمن: ألف سنة من الوفيات)**، تحقيق: محمد حجي، الرباط : مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1396هـــ/1976م، ص.144؛ السّخاوي: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ج.6، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ص.181؛ ابن القاسم مخلوف: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، خرّج حواشيه وعلّق عليه: عبد المجيد خيالي، مج .1، ج.1، بيروت: منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنّة والجماعة (دار الكتب العلمية)، 1424هـــ /2003م، ص-ص.367-368.

4- عن أبي القاسم بن أحمد البرزلي، يراجع التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص-ص.285-287؛ السّخاوي: **المصدر السابق** ، مج.6، ج.11، ص.133؛ الشفشاوي: **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر** ، تحقيق : محمد حجّي، الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1397هـــ/1977م، ص.423.

موسى المغيلي المازوني (تـ. 883هـ/1478م) عن سور مازونة حين تهدم أكثره[1]، وعلى الرغم من أنّ نصّه غير متاح لنا في معيار الونشريسي، إلاّ أنّنا نستطيع أن نحيله إلى النص النوازلي التالي الموجود في مؤلف "المازونية": «...سئل الإمام الحافظ سيدي أبو القاسم البرزلي عن مسألة دار مجاورة لسور البلد والدار المذكورة مبنية على جرف وقد تهدم حائطها الذي هو سور البلد من أعلاه إلى منتهى الجرف من أسفل، فأراد أهل البلد بنيان ما خرّب من سور البلد وطلب صاحب الدار المذكورة بنيان ما تهدم من داره أعني سور بلدهم الذي يلي داره فامتنع من ذلك فهل يا سيدي يجب عليه بنيان ما تهدم من حائطه لكونه ينتفع به أو يجب على أهل البلد توظيف بنيان ما خرب من سور بلدهم لكونه منفعة تعود على سائرهم...»[2].

لقد أثير اتجاه إصلاح سور مازونة لدى أبي الفضل العقباني في جوابه على هذه النازلة المازونية، والذي جاء نصه كالتالي: «...أكثر ما رأيت في كلام المتأخرين المنع من الأخذ في هذا جبرا، ورأيت لابن الحاج في الإشراك في الزرع أو الجيران يتفق بعضهم على الاستيجار على من يحرس زرعهم وأبى بعضهم يجبر الآبي، قال وبذلك أفتى ابن عتاب في الدرب يتفق الجيران على إصلاحه ويأبى بعضهم من ذلك يجبر من أبي، وهذا المذهب عندي أولى وأرجح إن كان العداء مع عورة البلد يتحقق أو يظن وإن النجاة مع الإصلاح، وأمّا إن رىء أن يد الظالم تمتد على كل حال فلا وجه لجبر أحد...»[3]، وكذلك عند أبي القاسم البرزلي (مفتي تونس) الذي أجاب بمسؤولية بناء جدار السور إذا كان متصلا بدار أحدهم أو غير ذلك: «...أمّا إن كان سور البلد هو حائط الدار كما هو في بعض القصور ويخاف على البلد منه إن هو لم يبن فيجب على صاحب الدار أن يبني أو يبيع ممن يبني، وأمّا إن كان السور مستقلا بنفسه والدار مستندة إليه أو من قريب منه والبلد يخاف عليه مما وقع، فإن كان للسور حبس صير إليه ووجب طلبه لجميع أهل البلد حتى يصلحوا ما انثلم من السور، وكان من قام به محتسبا أحدهم (كذا)، وإن لم يكن له حبس وفرض

1- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.5، ص.351.

2- المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.2، و.5-6؛ يظهر من صيغة السؤال الوارد في المازونية مظهرا طبوغرافيا للمدينة مازونة، وأنّ سبب الهدم ليس إغارة مثلا، (حيث مثّل السور وحدة طبوغرافية ذات منفعة)؛ وهناك نص مشابه لهذا تقريبا في مخطوط المهذب الرائق: «لو خاف أهل قرية أو حصن على أنفسهم من غارة العدو واتفقوا على إنشاء باب لغلق ذلك أو سورا وبناء ما تهدم منه وأبى بعضهم ذلك هل يجبر عليه لأنّها منفعة عامة أو لا وكذلك لو أرادوا بناء مسجد في القرية لإقامة جماعة أو استئجار إمام أو مؤذن فأبى من ذلك بعضهم هل يجبر أم لا وهذه ضروريات كثيرا ما تقع عندنا.»، المازوني: **المهذب الرائق**، و.38.

3- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.5، ص.351.

البلد أنّه يخاف على جميع البلد منه فإنّه يفرض صلاحه على كل من له ملك فيها أو له مال لا يصونه إلاّ السور فيفرض ذلك على قدر الأموال ويصلح به السور أو يبيع ممن يشارك هؤلاء في البناء، وأعرف نحو هذا في العتبية، وإن كان إنّما يخاف على من ولي ما الهدم خاصة دون ما بعد إلاّ نادرا فهذا أفتى اللخمي فيه في مسألة السور على الجنات بأن يصلحوا على التعاون في بناء ما انثلم من السور، وظاهر فتواه أن تكون من البعيد إعانة ومواساة ليست هي كالقريب من ذلك...».

وقد أورد الونشريسي جوابا آخر موافقا لمسألة إصلاح السور، لم تمكننا صيغة الجواب من تحديد صاحبه، والتي جاء نصّها كالتالي: «...وأجاب أيضا عما يقرب من ذلك وهو من له دار لصق بسور البلد بحيث إنّ جدارا منها هو سور البلد الهدم، فقال له أهل الحصن ابن دارك ليصان الحصن فأبى هل يقضي عليه بذلك أم لا؟ فأجاب: الحمد لله، مسألة الدار التي حائط منها في سور البلد إن جرى عرف أو عادة بأن ما يليه شيء من الحبس بناه كبعض قصور القرى فبناؤه على الذي هو بجواره، وإن كان لم تجر بذلك عادة فالبناء على مال الحبس إن كان للسور حبس، وإن لم يكن له حبس أو كان لا يقوم به فبناؤه على جماعة البلد على قد ملكهم فيها إذا كان موضعا يخاف منه على البلد إن لم يبن...»[1].

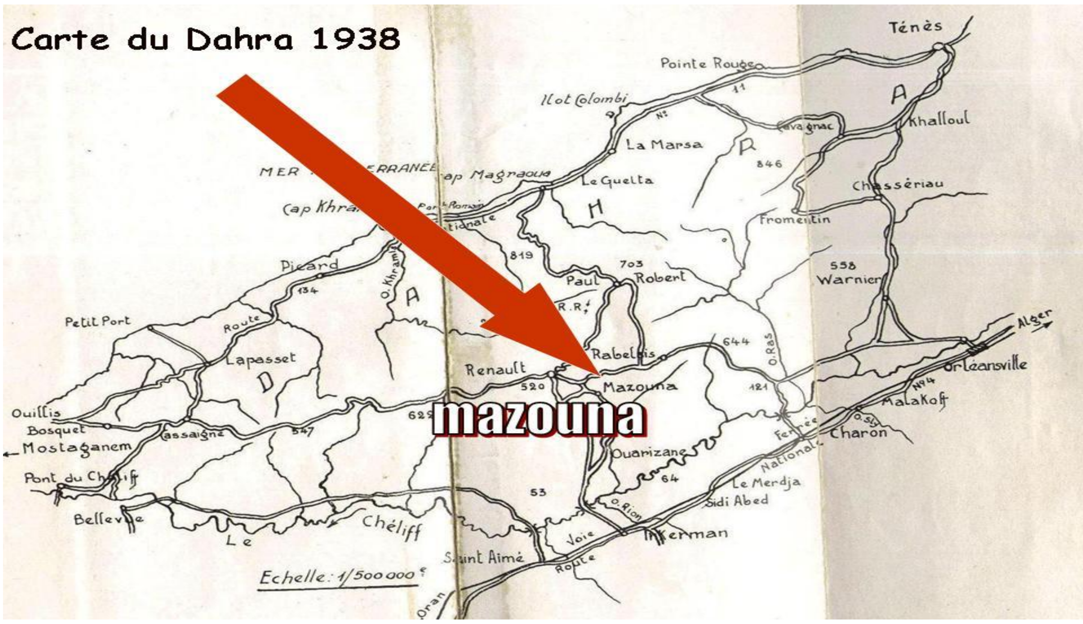
يوضّح هذا النص النوازلي أهمية السور كوحدة طبوغرافية (معمارية) أساسية في المدينة مازونة من الناحية الأمنية دون المساس بالحريات الشخصية (الفردية الخاصة)، فإن كان الاهتمام السياسي يخضع لظروف محددة فإنّ المصالح التي تقرّها الحريات الخاصة هي الأكثر ارتباطا به سواء في حالتي الهدم أو البناء، ولذلك فهو يعتبر مرفقا خاصا مرتبطا بالأحياء السكنية أكثر من كونه مرفقا عاما[2]، فهل تم إصلاح السور، وهل يمكن ربط تهدمه بالوضع العام الذي عايشته المدينة مازونة وناحيتها في تلك الفترة؟

يبدو أنّ المدينة كانت تملك أكثر من سور واحد بدليل روايتي الوزّان[3]، ومارمول كاربخال[4]، وإن كانت متأخرة، حيث تتحدث عن «أسوار متينة» و«عالية حصينة» محيطة بها، إلاّ

1- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.5، ص-ص.351-352.
2- سناء عطابي: **المرجع السابق**، ص.147.
3- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36.
4- مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359.

أنّني لا أستطيع أن أجزم إن كان السور الذي تحدثت عنه النازلة الفقهية السابقة داخليا، غير تلك الأسوار التي أشارت إليها الروايتين الأخيرتين، وما يمكن ملاحظته أنّ "الخندق والجبال" التي وضّحها الإدريسي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي كحماية طبيعية[1]، والسور الذي تأخرت صورته الملموسة نصّيا في الروايات الوسيطة حدّدت "طبوغرافية المدينة".

كما تأخر الحديث أيضا عن أبوابها التي تصلها بالخارج، وبالمحاور التجارية الهامة إلى الكتابات الحديثة التي بيّنت وجودها: «وكانت الأبواب تقود نحو طرقات ضيقة كالباب الجنوبي نفس الشيء بالنسبة للباب الذي يقود نحو طريق سيدي محمد بن علي.»[2]، ولا ندعي إن كان هذا الأمر هو ما كانت عليه المدينة في الفترة الوسيطة، فهل مسّ التغيير الطبوغرافية الأمنية لمازونة مع بداية الفترة الحديثة؟



خريطة رقم: 14 (الظهرة سنة 1938.)

1-2-المسجد الجامع والمساجد الأخرى (الملحقة بمعمار المدرسة ومساجد الأحياء):

لقد شكّل المسجد أحد مسبّبات النمو العمراني المنظم في المدينة الإسلامية، بحكم موقعه الوسط الذي كان شرطا حتى يتم التعرف على جميع ساكنتها، ويكون قريبا من كل موضع في

1- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص.128.

2- فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.150.

المدينة، فيسهل التوصل إليه من أطرافها المختلفة للصلاة الجامعة، وهذا يعني توجه تخطيط شوارع المدينة الإسلامية إلى المسجد الجامع توجها رئيسا[1]، والذي قد تدعمه مساجد أخرى أقل أهمية في أحياءها السكنية أو (حاراتها) بعد أن تشهد عملية التوسع العمراني[2].

في الحقيقة لا نستطيع تبيّن بداية هذه الوحدة الطبوغرافية بمازونة[3]، إلاّ أنّ إشارة الحسن الوزّان المتأخرة عن وجود مسجد جامع وبعض المساجد الأخرى[4]، تعبّر عن التوسع الحضري الذي عرفته مازونة أواخر العصر الوسيط.

1- يرى جورج مارسي (*Georges Marçais*) أنّ المسجد يجب أن يشغل منطقيا وسط المجمع العمراني، فهو القلب الروحي للمدينة (و هو مركز إشعاع فكري ومركز النشاط الإقتصادي)، أو على الأقل تربطه علاقة ضيقة مع هذا النشاط، وهو الأمر المعمول به في المدينة الإسلامية الأصيلة، وحتى في المدن ذات التأسيس القديم ينظر:

Georges Marçais, «L'urbanisme musulman» dans *Mélanges d'histoire et d'archéoloqie de l'occident musulman*, T.1, Alger, Imprimerie officielle, 1957, p. 230.

؛و يراجع أيضا Roger le Tourneau, *Les villes musulmanes*, p. 13. ؛

وحول قضية مولد المسجد الإسلامي وتطوره، هشام جعيط: **نشأة المدينة العربية**، ص.98.

2- حيث يعتبر المسجد الجامع أحد المحاور الرئيسية التي تميّز تخطيط "المدينة الإسلامية" والتي تحدّد تطور عمرانها محمد عبد الستار عثمان: **المرجع السابق**، ص، ص.100، 102، 103.

3- ومن جملة مساجد مازونة التي تأسست في الفترة الوسيطة والحديثة حسب الطاهر جنّان: مسجد سيدي محمد الغريب (تايسارت) بني عام (391هـ/1000م) من طرف مغراوة الزناتية، مسجد سيدي عزوز بني في عام (494هـ/1100م) من طرف عبد المؤمن بن علي الموحدي، (ويظهر لنا أنّ هناك مغالطة تاريخية واضحة)، مسجد الهدى بوذلول بني في عام (854هـ/ 1450م) من طرف بني زيان، مسجد سيدي علي بن لحسن بوماتع بني من قبل عائلة الكتروسي عام (865هـ/1460م) و هدّمه الاستعمار الفرنسي عام 1850م، مسجد سيدي عبد الحق في القصبة بناه الأتراك عام (1009هـ/1600م)، مسجد سيدي محمد بن شارف بني في بداية عام (1112هـ/1700م) من طرف الأتراك، مسجد مولاي سويقا (بوعلوفة) بناه الشيخ بلمهل الكبير، مسجد المدرسة أسّسه أمحمد بن الشارف عام (1029هـ/1619م)، يراجع الطاهر جنّان: **المرجع السابق**، ص-ص.95-96.

لقد ذكر الطاهر جنّان هذه المساجد دون تحديد مصادر معلوماته، كما أنّني -للأسف- لم أتمكن من تحديد فترة تأسيس مساجد مازونة في الفترة الوسيطة؛ وهناك دراسة أخرى تحدثت عن مسجد سيدي عبد الحق المطهري التلمساني أصلا، المازوني دارا والذي اشتهرت عائلة "آل الكتروسي " بالتدريس فيه، ومسجد سيدي صالح بناحية "بوعلوفة" والذي اشتهر بتلقينه للعلوم الدينية، واستمر في أداء وظيفته التعليمية إلى غاية الوجود العثماني، إلاّ أنّه اعتمد فيها على رواية شفوية لبلحميسي الصادق،= =وهو باحث هاوي في تاريخ مدينة مازونة في 2003/10/01م؛ وفي رواية شفوية لمقابلة شخصية خاصة مع إمام مسجد سيدي عيسى وعزوز بتاريخ 2010/01/19م، أعتبر فيها أنّ أول مسجد في مازونة هو مسجد سيدي عيسى وعزوز بحي أبي ماتع، ثم مسجد الشيخ معمر ومسجد سيدي عبد الحق بالقصبة.

4- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36.

ولا ندري إن كانت إشارة جاك بيرك *(Jacques Berque)* عن وجود مسجد مركزي بالإضافة إلى مساجد أخرى منتشرة عبر الأحياء الأربعة للمدينة[1]، تعبّر عن نفس النمط الحضري الذي تحدّث عنه ليون الإفريقي؟ وهو ما يدّعمه النص النوازلي التالي: «...جوابكم سيدي فيمن عمد إلى دار تهدمت، وكانت مشتملة على بيوت شتى لأناس شتى، وعلى بيت حبّس على مسجد من مساجد بلده...»[2].

وهي الإشارة التي لا تحدّد لنا -للأسف- عدد و لا أسماء هذه المساجد و طبيعتها و أماكن تواجدها، كما أنّنا لا نستطيع الجزم إن كان المسجد في مازونة هو أول ما تمّ اختطاطه تماشيا مع العرف السائد في التكوين المعماري لأي مدينة إسلامية؟

وعلى العموم فقراءتنا للنصوص الوسيطية الكلاسيكية المتاحة لدينا لا تؤكد لنا واقع هذه الوحدة المعمارية أو الطبوغرافية وتطورها بمدينة مازونة في هذه الفترة، وإن كان البديل النصّي الفقهي و المنقبي يقدّم لنا نوعا من التفاصيل المهمة عن بعض أسماء هذه المساجد ووضعيتها الطبوغرافية، فمثلا في نص موسى بن عيسى المازوني التالي: «وكان رضي الله عنه مستترا في أحواله يخفي أمره كثيرا عن خدّامه وأمام فريضته الشيخ الفقيه الصالح سيدي عزوز المدفون عندنا بمازونة بركن مسجد أبي ماتع، وصار الناس في هذه الأواخر القريبة يقولون جامع سيدي عزوز لما ظهر لهم فيه بسببه من البركات...»[3].

1- أمّا الأحياء الأربعة حسب جاك بيرك *(Jacques Berque)* فهي: أولاد صغير (Ulàd ç-çeghir)، بوماتع (Bu Màta)، القصبة (El-Qaçba)، بوعلوفة (Bu ‘Allufa) وعن أسماء هذه المساجد الأربعة: مسجد سيدي محمد بن شارف (Sidi Muh’ammad ben Chàref)، مسجد سيدي عيسى بوعزة (ربما يقصد سيدي عيسى وعزوز) وقد تم تجديده و هو الأكثر قدما حسب بيرك، بناءه ريفي (.Sidi’ Aissa b-Bu Azza)، مسجد سيدي عبد الحق(.Sidi ‘ Abd al-H’aqq)، مسجد الحاج محمد (Hàjj Muh’ammad)، يراجع Jacques Berque, «Retour à Mazouna», p.153.

أمّا في سجل (طابلو) سنة 1839 م فإنّ بمازونة -حسبه- ثلاثة مساجد دون صوامع (حسب إحصاء سنة 1839م): يراجع سجل (طابلو) سنة 1839م، ص.283، نقلا عن أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.5، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998، ص.104، حيث يتساءل أبو القاسم سعد الله عن هذه المساجد بعد الاحتلال فهل حوّلت عن مقاصدها أيضا أو حوّل بعضها أو تركت لحالها وأهلها، يراجع **نفسه**.

2- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.1، ص.242.

3- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.55.

نجد أنّ هناك إشارة مباشرة لجامع سيدي عزوز الموجود بمنطقة أبي ماتع، والذي تغيّرت تسميته من جامع أبي ماتع نسبة إلى مكان وجوده بعد أن استمرت معه إلى غاية هذه الأواخر القريبة -بتعبير موسى بن عيسى المغيلي المازوني- فهل يقصد عصره؟ أي أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وبدايات القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.

و تبقى هذه المعلومة مهمة بالنسبة لتاريخ المدينة، خاصة وأنّنا لا نجد نصوصا أخرى مساعدة توضّح لنا هذه الوضعية الطبوغرافية المهمة، أمّا حاليا فقد استمرت معه نفس التسمية بإضافة " سيدي عيسى" ربما نسبة إلى والد أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني[1].



1- يذكر أنّ هذه المسجد يعود تاريخ بنائه إلى القرن السابع الهجري/13م، حيث أجريت عليه ترميمات خلال الفترة العثمانية، وقد جاء ذكر مساجد مازونة في وثيقة بخط الداي بكداش ذرية سيدي علي الكتروسي الشريف الحسني بتاريخ 1085هـ/1680م، حيث عيّن باشا الجزائر السيد أحمد أبي العباس عبد الله الشيخ أحمد بن خدة الكتروسي مفتيا وإماما بجامع سيدي عيسى وعزوز بحي بوماتع بمازونة مع أمر السلطات بحمايته وإعفائه من كل الإلتزامات، يراجع الطاهر جنّان: **المرجع السابق**، ص، ص.45، 94؛ مولاي بلحميسي: "دور مازونة في الحركة العلمية والثقافية"، ص.6؛ أمّا الموقع الحالي لمسجد سيدي عيسى وعزوز فهو يتوسط قصبة مازونة ويطل على عدة أحياء، حيث يحدّه من الجنوب والشمال حي بوماتع أو أبي ماتع، أمّا من الغرب مقهي شجرة التوت العتيق، وهو يبعد حاليا عن مدرسة مازونة بـــ: 300م تقريبا، وهناك من يرجع تأسيسه إلى حوالي سنة 494هـ/1100م، ويعتبر أقدم من جامع مدرسة مازونة، إلاّ أنّ هناك من يرجعها أيضا إلى القرن السابع الهجري/13م، ينظر يوسف بوكفة: **مدرسة مازونة الفقهية -النهضة والسقوط-**، رسالة ماجستير، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع (تخصص علم الاجتماع التربوي)، إشراف: بن عمر يزلي، 2002م-2003م، ص.12، الذي اعتبر فيه أنّ هذا المسجد هو أول مسجد بالمدينة، وهو نفس رأي إمام هذا المسجد الذي قمت بإجراء مقابلة شخصية معه، حيث قدّم معلومة في غاية الأهمية، ففي سبعينات القرن الماضي، وبالتحديد سنة 1972م، عثر في الجزء السفلي من المسجد على مقبرة جماعية نقلت رفاتها إلى المقبرة العادية وعلى آثار مادية وضعت في المتحف الوطني للجزائر العاصمة، كما أنّ هذا المسجد ذكر في مذكرة (*Tatareau*)، والذي أشار إلى أنّ بمازونة مسجدين ومقهى وكان هذا خلال 1833م، نقلا عن الطاهر جنّان: **المرجع السابق**، ص.95.

Tatareau, *Memoire sur la province d'Oran1833*, p.18-19.

صورة رقم: 05 (مسجد سيدي عيسى بن عزوز)

كما أنّ هناك نصا آخر لموسى بن عيسى المازوني أيضا عن مسجد كركار الذي نجهل مكان وجوده، إلاّ أنّ علاقته بشخصية "سيدي عزوز" توحي بقربه من المدينة أو بوجوده داخلها، لكن هذا يبقى مجرد احتمال حيث: «قال الشيخ لإمامه سيدي عزوز سر بنا لمسجد كركار، قال فسرت معه فلمّا قربنا منها عاينا شعاع ضوء القنديل يخرج من كوة فسبقني قليلا للمسجد ...»[1].

بالإضافة إلى إشارة مسجد زاوية الشيخ أبي يعقوب في حادثة "إغارة الأمير عبد القوي بن العباس التوجيني"[2] عليها[3]، فهل ارتبط هذا المسجد بمعمار زاوية الشيخ أبي يعقوب في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي الموجودة ببني حلوان بساحل مازونة؟

وبالإضافة إلى هذه المساجد هناك إشارة الأخرى "لمسجد الحومة"، الذي تحدّث عنه المازوني الأب في أخبار "سيدي أبي زكريا": «...و غير ما مرة قال لي أبي إذا حدّث عنه كان أبي يحدثني عنه هو وغيره من أسلافنا أنّه كان إماما ثبتا محققا مشاركا في فنون العلم يستحضر نحوا من أربعين ألف حديث بإسنادها وناظره مرة بهذا المسجد يعني مسجد حومتنا عالم قدم من بلاد المصامدة، في غير ما فن فوجده ثبتا في كل ما ناظره فيه...»[4].

ويبدو هنا أنّ التعدد واضح في مساجد مدينة مازونة التي انتشرت في أحياءها، كما تعبّر إحدى النوازل المازونية والمعيارية الناقلة عن الأولى أيضا عن وجود ظاهرة المساجد الملحقة بمدارس المدينة: «...وكيف إن أراد أن يحدث في المدرسة مسجدا والفرض أنّ هذه المدرسة قريبة من مسجد آخر هو عمدة المدرسة الأولى لقربها كثيرا من مسجدهم وغالب الظن أنّ هذا الباني ما أحدث هذه المدرسة بقرب الأولى ولا المسجد بها إلاّ ليضرّ بالمدرسة الأولى وبالمسجد المجاور لها،

1- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.99.

2- ورد بصيغة التجاني في نص المخطوط، **نفسه**: و.135.

3- **نفسه**.

4- ربما يتوافق وجود هذا المسجد مع الفترة التي كان فيها أبو مسعود بن عريف أي القرن 7هـ/13م، **نفسه**: و.210.

فهل رضي الله عنكم تهدم المدرسة والمسجد إن قصد الباني الإضرار وتفريق الطلبة وجماعة المسجد الأول أو لا...»[1].

وعلى العموم يتبيّن لنا من نص النازلة السابق مشاركة فقهاء المدينة في العملية العمرانية لمدارسها ومساجدها المرفقة، وهي الوضعية التي كانت لدى المرينيين مثلا، على الرغم من عدم تأكد وجودها بتلمسان الزيانية[2]، ولعل هذه المساجد الملحقة بهيكلة المدرسة وجدت لأداء بعض الفرائض أو جميعها على نحو ما يقرره الوقف، ذلك أنّه ربما لم يتخذ بغرض الانقطاع للعبادة بل معينا للطلبة على التفرغ للعلم[3].

1-3-المدرسة (الظهور المميز: قراءة في إشكالية التأسيس):

إنّ الإشكال الزماني مطروح في ضبط تاريخ بداية الظهور للمدرسة المازونية، التي شكّلت أحد الهياكل التخطيطية للمدينة، على الرغم من توفر نص المعيار المتأخر للونشريسي (تـــ.914هـــ/1508م) والناقل عن المازوني الابن (تـــ.883هـــ/1478م)، وهو التوقيت الذي يتأخر طبعا عن بداية ظهور مدرسة "السلطة الزيانية بتلمسان"[4]، والتي تأسست بعد فترة تجاوزت القرنين من الزمن عن نظيرتها المشرقية، وبما يزيد عن نصف القرن عن جاريتها الحفصية[5]

1- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.7، ص.243.

2- صابرة خطيف: **المرجع السابق**، ص.109.

3- أبو إسحاق إبراهيم ابن جماعة: **تذكرة السامع والمتكلم في آداب العلم والمتعلم**، تحقيق: محمد هاشم الندوي، ط.2، السعودية: رمادي للنشر، 1995م، ص.286، نقلا عن صابرة خطيف: **المرجع السابق**، ص.109.

4- عن المدرسة الزيانية، يراجع **نفسه**: ص.270، حيث كانت أول مدرسة أسّسها بنو عبد الواد، والتي أمر ببنائها أبو حمو موسى الأول بتلمسان في أول عهده، عبد الحميد حاجيات: **أبو حمو موسى الزياني**، ص.36؛ الحاج محمد بن رمضان شاوش: **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص-ص.397-400؛ عبد العزيز لعرج: "المدارس الإسلامية دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها (القسم الأول)"، **كلية العلوم الإنسانية**، الجزائر: جامعة الجزائر، ع. 01، 1421هـــ/2001م، ص-ص.119- 120؛

Georges Marçais, «Remarque sur les medersas funéraires en Berbérie, à propos de la Tachfiniya de Tlemcen», *extrait des mélanges*, Gaudefroy démombynes, 1934, p. 262.

5- عن بناء أبي زكريا الحفصي للمدرسة الشمّاعية، والمستنصر الحفصي وبناء المستنصر الحفصي لجامع الهواء ومدرسته: ابن أبي الضياف: **إتحاف أهل الزمان**، ج.1، ص، ص.199، 204، 205؛ عبد العزيز لعرج: المرجع السابق، ص-ص.118-119.

والمرينية[1] والتي وجدت من أجل المذهب المالكي واطراح المعتقد الموحدي[2].

ويمكن أن نتوضّح الكثير حول هذه "المؤسسة" بمازونة من خلال المسألة التي عرضها الونشريسي في معياره، حيث سأل شيوخ بجاية وتونس وتلمسان عن مسألة وقعت بمدينة مازونة، فكتب بها إلى هؤلاء الأعلام نص السؤال والذي جاء كالتالي[3]: «...جوابكم سيدي فيمن عمد إلى دار تهدمت وكانت مشتملة على بيوت شتى لأناس شتى وعلى بيت حبس على مسجد من مساجد بلده واشتراها من أربابها على أن يبنيها مدرسة بإزاء مدرسة أخرى هنالك قديمة، وجل ما اشترى به هذه البيوت من صدقات أمراء العرب، فلما كملت المدرسة وسكنها الطلبة مدة، توفيت امرأة أمير من أمراء العرب فكلم زوجها الفقيه الباني أن يدفنها في بيت من بيوت المدرسة فأجابه إلى ذلك على أن يعطيه زوجا ترابية باسم أبيه لا باسم المدرسة ثم إنّ الفقيه أيضا كلّم ناظر الأحباس بالبلد المذكور أن يناقله في البيت المحبس من الدار المشتراة بأرض بيضاء فلم يجبه الناظر إلى ذلك بل عزم على إعادة البيت كما كان، فقال له الفقيه الباني للمدرسة تفسد على عمل المدرسة، إذ البيت في وسطها، فقال له الناظر أنت تعمدت هذا بمعرفتك بموضع البيت وحدوده، هل تعمده للبناء بعد علمه بالبيت جرحه فيه أم لا؟ وهل منع الناظر من المناقلة صواب أم لا؟ وهل تمكينه العربي من دفن زوجته في بيت من بيوت المدرسة وأخذه الزوج الترابية عن ذلك باسم نفسه لا باسم المدرسة صواب أم لا؟ وكيف الحكم في الدفين وما أخذ عوضا عنه؟».

ويبدو أنّ مضمون النازلة المعيارية يختلف نوعا ما عن ذلك الموجود في النازلة المازونية حيث تظهر فيه المسألة أكثر تفصيلا: «...وسئل سيدي علي بن عثمان عن فقيه بني مدرسة سكنها طلبة العلم وإقراء العلم، ونجب من طلبته نجيبان فلما توفي الفقيه اختص بمدرسته أحد النجيبين ويقرأ فيها الطلبة، ثم إنّ الطلبة ربما أحدهم ثوى [كذا] بين هذين النجيبين مناقشة فيما يظهر والله

1- يقول صاحب المسند: «قد قدمنا أنّ انشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد، الملك العابد...»، ابن مرزوق: **المسند**، ص-ص.405-407؛ وعن المدرسة المرينية ينظر مصطفى نشاط: **المرجع السابق**، ص-ص.15-18؛ محمد المنّوني: **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ عبد العزيز لعرج: المرجع السابق، ص-ص.118-121.

2- يرى المنّوني أنّ الموحدين قد أسّسوا المدارس أيضا محمد المنّوني: **حضارة الموحدين**، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1989، ص، ص.14، 16-29، 203-208؛ عبد العزيز فيلالي: **تلمسان**، ج.2، ص-ص.324- 326.

3- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.7، ص-ص.242- 243.

تعالى أعلم بالباطن، فعمد الذي لم يترل المدرسة منها إلى إحداث مدرسة أخرى استقل في إنشائها، وتصرف فيها أبوابا والله تعالى أعلم بحقيقتها، وذلك أنّه عمد إلى دار قد تهدمت، وكانت مشتملة على بيوت من مساجد بلده وسماها من أرباجا [كذا]، وصرّح أنّه يشتريها برسم بناء مدرسة فيها فقالوا له كيف يخضع بيت الحبس الذي فيها...»[1].

إنّ فكرة البناء هذه والتي أقدم عليها أحد فقهاء مازونة (الذي لم يرد اسمه في نص النازلة)، قد تأخرت عن مدرسة أخرى بالمدينة والتي تم البناء بجانبها.

وهو ما أثار إشكالية فقهية حول نية الفقيه الباني من المدرسة الأولى القديمة حيث جاء السؤال كالتالي: «...وكيف إن أراد أن يحدث في المدرسة مسجدا، والفرض أنّ هذه المدرسة قريبة من مسجد آخر هو عمدة المدرسة الأولى لقربها كثيرا من مسجدهم وغالب الظن أنّ هذا الباني ما أحدث هذه المدرسة بقرب الأولى ولا المسجد بها إلاّ ليضر بالمدرسة الأولى، وبالمسجد المجاور لها، فهل رضي الله عنكم تهدم المدرسة والمسجد إن قصد الباني الاضرار وتفريق الطلبة وجماعة المسجد الأول أو لا...»[2].

ويبدو أنّ استحداث مدرستين بالمدينة لم يثر الكثير من الإشكال النوازلي (إشكال الخطاب الفقهي المتأخر)، حيث دعمته آراء الفقهاء المالكية، فالسيوري مثلا يرى: «...وأمّا ما سألت عنه من هدم المدرسة أو مسجدها لقصده بهما الضرار، فهذا مما لا أقول به ولا أستسيغه لأن كثرة أماكن العلم سبب عادي في كثرة طلب العلم وانتشار عدد طالبيه لوجدانهم الإعانة عليه ولو بالسكنى بموضع متيسر المرافق، وقد علم هذا من أحوال المدن، فالمدينة الخالية من المدرسة أو التي فيها مدرسة واحدة ليست في انتشار العلم بها كالتي لا يفقد الطالب فيها موضعا، بل يجد الرفق والإعانة حيثما سكن من مدارسها ومسجد المدرسة ليس في الحكم كغيره من المساجد المباحة لعموم الناس...فالعلة المتقررة في المسجد الضرار ليست متحققة في مسجد المدرسة، فالواجب عدم التعرض للموضع المذكور بالهدم إلاّ من الوجه المتقدم...»[3].

1- المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.2، و.56.
2- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.7، ص.243.
3- **نفسه**: ص-ص.245-246.

وكذلك جواب أبي القاسم البرزلي: «أمّا شراؤه هذه الدار وبناؤها مدرسته بأموال قوم قصدوا ذلك بها، وأنّها تكون حبسا، فعندي أنّها تجري على الحبس...وإحداث هذه المدرسة بقرب مدرسة أخرى أو جعل مسجد فيها بقرب المسجد الآخر ودعوى أنّ هذا ضرر فلا يقدح ذلك فيها، لأنّ قرب المدرسة من المدرسة ليس فيه ضرر إن احتيج إليها عمّر، وما لم يحتج إليه أغلق حتى يحتاج إليه...ومسجدها تابع لها ويصلي فيها أهل المدرسة ولا ضرر في ذلك...»[1].

ويظهر أنّ هذه الأجوبة لم تختلف حول أهمية المدرسة، حتى أنّ تعددها وقربها من بعضها لم يكن ليشكّل عائقا، وإن كان جواب أبي علي منصور بن علي بن عثمان (فقيه بجاية ومفتيها)[2] يخص ما ورد في ظاهر السؤال وليس غير ذلك: «...لاشك في خطأ الباني للمدرسة المذكورة على الوجه المذكور، ويجب على من له النظر في أمور المسلمين تعقب فعله فيثبت منه ما كان سداد ويبطل غيره، وأمّا تغييره لبيت الحبس ودفنه لمن ذكر وأخذه العوض، وإشهاده لابنه بما ذكر ونحو ذلك من فعله فجرأته فيها وتعديه لحدود الله أمر ظاهر بين يوجب فسقه وعزله عن ذلك وعن التعرض للمسلمين بالتصدي للتدريس وغيره حتى يتوب توبة ظاهرة لأنّ تركه على ما هو عليه فساد في الدين، ولا يجوز للناظر في الحبس تمكينه من تغييره، بل يجب عليه رده كما كان، ولو أدّى إلى فساد بناء هذا الفاعل وبالجملة فظاهر فعله الذي ذكرتم كله غير صواب ويغلب على الظن فساد نيته، فهذا أمره فيه إلى الله وغيره يجب تعقبه على ما تقدم فإنّه لا يقر فعله على الخطأ، إذا ظهر لما يدعيه من النية ولو كان صادقا أحرى ما ذكرتم كله، ولا يثبت إلاّ ما كان لله...»[3].

هذا الوضع لم يكن سابقا، حيث تصلّب علماء المغرب إزاء هذه المؤسسة التعليمية المرينية مثلا[4]، فالآبلي[5] يقول: «إنّما أفسد العلم كثرة التآليف وأذهبه بنيان المدارس.»[1]، قد يؤول هذا الواقع

1- **نفسه:** ص-ص.246-247.

2- **نفسه:** ص-ص.243-244.

3- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.7، ص-ص.243-244؛ أمّا عن الزوج (أو الزويجة) في عرف الفلاحين هو المساحة التي يحرثها محراث واحد في فصل الحرث يراجع محمود بوعياد: **جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، (في القرن التاسع الهجري/ 15م)**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص.33.

4- محمد القبلي: **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1987، ص.75.

5- الآبلي: هو محمد بن إبراهيم كان منشؤه بتلمسان وأصله من جالية الأندلس من أهل آبلة من بلاد الجوف منها، ابن خلدون: **التعريف**، ص.33.

الرافض إلى طبيعة الوضع الخاص الذي تميّزت به المدرسة المغربية عما يماثلها بالشرق الإسلامي، ذلك أنّ وضع المدارس بالشرق وضع متنوع يشمل ثلاثة أصناف: فهنالك المدارس الحرة التي يرجع الفضل في تأسيسها وتمويل مختلف وظائفها إلى الخواص من العلماء والأعيان من جهة، وهنالك المدارس شبه الرسمية ألتي أقامها وحبس عليها بعض الأمراء أو الوزراء أو غيرهم من أعيان الدولة الحاكمة من جهة أخرى، وهنالك المدارس الرسمية التي أمر ببنائها والإنفاق عليها السلاطين أنفسهم[2].

ويرى محمد القبلي أنّ المغرب انعدم فيه النوعين الأولين على الإطلاق، بمعنى أنّ مبادرة البناء والتمويل المنتظم قد أتت دائما من جهة السلطة دون غيرها، ثم ظلّت مختصة بها طيلة العصر المريني على الأقل[3]، وقد نتج عن هذا بالطبع تبعية هذه المؤسسات للسلطة الرسمية دون غيرها[4]، وهو حال المدرسة التلمسانية[5]، والتي ظلّت تشرف عليها بالتمويل وتعيين الأساتذة والمدرسين المالكية[6]، حيث لم يكن للمرينيين والعبد الواديين عقيدة دينية خاصة، فأخذوا بالمذهب السني المالكي لاحتواء نخبة جديدة من الفقهاء تتحمل مسؤولية الدفاع عن مشروعيتها[7].

1- المقري: **المصدر السابق**، مج.5، ص-ص.275- 276؛ الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.2، ص-ص.479-480.

2- محمد القبلي: **مراجعات حول المجتمع**، ص.75.

3- **نفسه:** ص.75؛ وعن هذا الموضوع مثلا نجد نص ابن مرزوق عن علاقة السلطة ببناء المدارس: «ثم أنشأ رضي الله عنه في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة...»، ابن مرزوق: **المسند**، ص-ص.406-407.

4- **نفسه:** ص، ص.66، 78.

5- عبد العزيز فيلالي: **تلمسان**، ج.2، ص.326؛ عبيد بوداود: " قراءة في أوقاف مدارس و زوايا تلمسان الزيانية "، **المواقف**، معسكر: منشورات المركز الجامعي مصطفى اصطنبولي، ع.03، 2008، ص-ص.41- 48؛ وينظر مثلا:

Brousslard CH. (1858), «Moquée Oulad EL Imam», *RA*, 13. p.167–172;

Brousslard CH. (1859), «Les Inscriptions Arabe de Tlemcen 03 Mosquée Abou L.Hacen, Ou Bel- Hacen», *RA*, 15, p.161-172; Brousslard, CH. (1859), «Les inscriptions arabe de Tlamcen 9 mosquée et medersa de Sidi Boumedin», *R A*, 18, p. 401-419.

6- عبد الحميد حاجيات: **أبو حمو موسى الزياني**، ص.37؛ وعن سياسة أبي حمو الثاني مثلا، ينظر التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.179-180؛ عبيد بوداود: "قراءة في أوقاف المدارس"، ص-ص.41-49.

7- الهادي. ر. إدريس: "المجتمع في المغرب"، ص.119؛ يرى محمد المنوني أنّ هناك عاملا أخرا ساهم في دفع التوجه المالكي إلى الأمام وإبراز عدم تدخل المرينيين في توجيه الفكر المغربي توجيها معاكسا، حيث تركوا لمن يهمهم الأمر حرية الاختيار، وفي هذا الاتجاه كانت الفيئة إلى المذهب المالكي بعد النزعة الظاهرية في العهد الموحدي، فإنّ فقهاء المغرب هم الذين اختاروا،=

فالثقافة التي نشرتها المدارس هي ثقافة رسمية أو شبه رسمية، إذ تتولى السلطة إعطاء أجور المدرسين ومنح الطلبة[1]، إلاّ أنّه يبدو أنّ طبيعة التسيير في المدرسة المازونية مختلفة عن ذلك المتداول في تلمسان مثلا.

يظهر جليا أنّ الأحباس هي من كانت تموّل المدارس والمساجد[2]، حيث شكّلت الأوقاف محدّدا رئيسا في برامج نظام ومداخيل المدرسة في الفترة الزيانية[3]، وهي موجّهة لدفع مرتبات الأساتذة والطلبة والعاملين بها، إضافة إلى ما تحتاجه من تجهيزات وإصلاح وصيانة وما يخصص للطلبة من فرش مؤونة[4]، ويجهل إن كانت كل المدارس الزيانية وغيرها أيضا تتكفل بمؤونة الطلبة الطلبة إضافة للجراية، فقد كان هناك مثلا من يحبس قبل موته الأملاك والعقارات على المساجد والمدارس[5]، ويظهر أنّ مسألة التحبيس كانت متداولة في مازونة[6] عند قراءتنا للنص التالي: «...فلمّا كملت المدرسة وسكنها الطلبة مدة توفيت امرأة أمير من أمراء العرب فكلم زوجها الفقيه الباني أن يدفنها في بيت من بيوت المدرسة، فأجابه إلى ذلك على أن يعطيه زوجا ترابية باسم أبيه لا باسم المدرسة، ثم إنّ الفقيه أيضا كلّم ناظر الأحباس بالبلد المذكور أن يناقله في البيت المحبس من الدار المشتراة بأرض بيضاء فلم يجبه إلى ذلك بل عزم على إعادة البيت كما كان، فقال له الفقيه الباني للمدرسة تفسد على عمل المدرسة إذ البيت في وسطها فقال له الناظر أنت تعمدت هذا بمعرفتك بموضع البيت وحدوده...»[7].

=بمحض إرادتهم، العودة إلى هذا المذهب، بينما كان دور الدولة لا يعدو عملية التنفيذ المعزز بالتشجيع، حيث كان لهذا الموقف أثره في نهضة الفقه المالكي خلال هذه الفترة، محمد المنوني: **ورقات**، ص.236؛ مصطفى نشاط: **المرجع السابق**، ص.17.

1- محمد حسن: **المدنية والبادية**، ج.2، ص.708؛ محمد القبلي: **مراجعات حول المجتمع**، ص.78.

2- محمد المنوني: **ورقات**، ص-ص.125-126.

3- عبيد بوداود: "قراءة في أوقاف المدارس"، ص-ص.41-49.

4- صابرة خطيف: **المرجع السابق**، ص-ص.288-289.

5- **نفسه**: ص.289.

6- يرى محمد حسن أنّ بعض العلماء ذهبوا إلى رفض هبة الأعراب للمؤسسات العامة مثلما وقع في مدينة مازونة لما تصدق أحد أمراء العرب على مدرستها "بزوج ترابية"(ربع عقاري لنحو 12هكتارا)؛

محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.2، ص، ص.643، 702؛ الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.7، ص.246.

7- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.7، ص-ص.242-243؛ وعن قضية أو إشكالية الأوقاف على المساجد والمدارس بحسب واقفيها، ينظر **نفسه**: ص-ص.237-239، كما أنّ عبيد بوداود تطرق إلى مسألة أو عملية الاعتداء على الأحباس، عبيد=

لقد اقترن وجود المدرسة وهي مؤسسة مستحدثة بالمدينة دون القرى والبوادي فالقرية حسب محمد حسن مركز توطين ريفي يفتقر إلى مؤسسات إدارية وإلى سلطة سياسية هامة، فتواجد المعالم الإدارية والسياسية بالمدينة وانعدامها بالقرية هو الاستثناء الأساسي الذي يفرق بين الاثنين[1]، إلى حد أنّ الونشريسي عرّف المدينة بكونها مجالا توجد به مدرسة والتي تتميّز عن المسجد بكونها مؤسسة تأوي الطلبة والشيوخ الغرباء[2]، وتوفر لهم السكن والتدريس في ظروف حسنة لتوفر الغرف والبيوت وكثيرا ما اكتسبت هذه المؤسسة صبغة خاصة، إذ أنّ صاحبها يتحكم في تسييرها بنسبة كبيرة[3]، وهو ما لاحظناه من خلال النص السابق بالنسبة للفقيه الذي بنى المدرسة المازونية الثانية.

ويظهر جليا من خلال النصوص السابقة تصميم المدرسة المازونية البسيط، فهي عبارة عن دار تحوي بيوتا للطلبة[4]، لكن هل يمكن أن تشبه نوعا ما التصميم العام الذي تحدّث عنه أحد الباحثين[5]؟ وهو فناء داخلي تتوسطه نافورة، وتحيط به أروقة تفتح عليها مساكن الطلبة وتطل على أحد الجوانب قاعة كبيرة فيها محراب تستخدم في آن واحد كقاعة درس ومصلى مخصصا حسب جورج مارسي[6] للمشائخ وتلامذتهم فهو دار علم ومأوى للصلاة في نفس الحال ويكفي

=بوداود: "الاعتداء على الأحباس نماذج من تاريخ المغرب الإسلامي"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.11، 2010، ص-ص.43-62.

1- محمد حسن: **الجغرافيا التاريخية**، ص، ص.18، 25؛ محمد حسن: **المدنية والبادية**، ج.2، ص.707؛ علي الإدريسي: "جوانب من المشهد الفكري والعلمي في المغرب زمن ابن خلدون"، **الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي، زمن ابن خلدون**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكدال، 1427هـ/2007م، ص.20.

2- محمد حسن: **المدنية والبادية**، ج.2، ص-ص.707-708؛ كمال أبو مصطفى: **جوانب من حضارة المغرب الإسلامي –من خلال نوازل الونشريسي–** الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1997، ص.117.

3- علي الإدريسي: المرجع السابق، ص.20.

4- يلاحظ أسبقية الفترة الموحدية أو المرابطية في الإيواء.

5- م. طالبي: "إشعاع الحضارة المغربية وتأثيرها على الحضارة الغربية"، **تاريخ إفريقيا العام، إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر**، المشرف على المجلد: ج.ت.نياني، مج.4، باريس-بيروت: اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة)-المطبعة الكاثوليكية، 1988، ص.84.

6- يراجع أيضا:

Georges Marçais, «La conception de villes dans l'islam».

لهذا الدور المزدوج لتمييز طابع المدرسة (كمؤسسة) إسلامية ووسيطية بحتة[1].

ولا نستغرب إذا تماشى الوضع التعليمي بمازونة مع الركود العلمي الذي عرفته المنطقة المغربية الوسيطية، فالمدرسة حسب أحدهم شأنها شأن الزاوية جاءت لتقبر الجدل الفكري الذي ازدهر في القرون السابقة، وتعوضه بتدريس الفقه والحديث واللغة وغيرها من العلوم التقليدية[2].

حيث يمكن ملاحظة طبيعة المسائل المعرفية الدينية التي كانت تتداول لدى الطلبة المازونية[3]، فمثلا يشير الونشريسي(تـ.914هـ/1508م) إلى إحدى النوازل التي كانت لطلبة مازونة "أيام الشيوخ " لكن من هم هؤلاء الشيوخ؟ وإن كانت تطرح "العلاقة الأسرية" لأحد طلبتها، وهذا نص النازلة: «...وقعت بمدينة مازونة نازلة أيام الشيوخ وهي أنّ بعض طلبتها شكى إلى صديق له سوء عشرة زوجته معه فقال له (طلقها فقال له) إن طلقتها تنتقم في نفقة العدة وتسيء الطلب فقال له طلقها وأنا المأخوذ بنفقتها والمتحمل بها تحمل حمل لا حمالة هل يكون الطلاق بائنا لوجود العوض في أصل الطلاق أو رجعيا، وكأنّه إنّما ألزم نفسه ما يلزمه بعد الطلاق واختلف فيها يومئذ طلبتها، ولا أدري ما وقع به الفصل من النظر من بين الفريقين...»[4]

وأيضا حول مسألة عقيدية وقع فيها اختلاف بين طلبة مازونة (على قول مدرس يخلط في صفات الله تعالى)[5] توجه بها طلبة مازونة لمحمد بن مرزوق[6]، وسعيد

1- جورج مارسي: **تلمسان**، ص.53.

2- محمد حسن: **المدنية والبادية**، ج.2، ص.708؛ م.طالبي: "إشعاع الحضارة المغربية"، ص.84؛ علي الإدريسي: **المرجع السابق**، ص-ص.9-28.

3- يتداول مصطلح طلبة مازونة كثيرا، خاصة في الكتابة المحلية المازونية، ينظر مثلا المازوني: **المهذب الرائق**، و.17.

4- الونشريسي: **المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق**، دراسة وتحقيق: عبد الرحمان بن حمود بن عبد الرحمان الأطرم، ج .2، دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، 1426هـ/2005م، ص.554.

5- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.12، ص-ص.345-346.

6- محمد بن مرزوق الحفيد (تـ.842هـ/1438م): التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص-ص.391-398؛ القلصادي: **المصدر السابق**، ص-ص.96-98؛ السّخاوي: **المصدر السابق**، مج.4، ج.7، ص-ص.50-51؛ ابن مريم: **المصدر السابق**، ص-ص.201-214؛ابن القاسم مخلوف: **المرجع السابق**، ص-ص.364-365؛ الشوكاني: **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ويليه الملحق التابع للبدر الطالع**، جمعه: سنة 1348هـ بالقاهرة محمد بن محمد بن يحي بن زبارة الحسني اليمني الصنعاني، وضع حواشيه: خليل المنصور، مج .2، ج .2، بيروت : منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،

العقباني[1]، وعيسى الغبريني[2] وجاء نصها كالتالي[3]: «...ما يقول سيدنا الإمام في مسألة تطارد فيها طلبة مازونة مع فقيه في مجلس تدريسه، وذلك أنه قال: أن الله رأى أشخاصنا قبل وجودنا وسمع أصواتنا في الأزل، ونحن عين العدم، فقال له بعض من حضر أليس السمع والبصر لا يتعلقان إلاّ بوجود ولا موجود في الأزل إلا الله وصفات ذاته؟ فسرمد (كذا) على قوله فقلنا له لعلك ترى أن ذلك معني راجع للعلم كما تقوله المعتزلة والقاضي في بعض أقواله فقال: لم أدر ذلك...»[4].

إذن لابد أن نصحح الاعتقاد السائد عن تأخر "المدرسة" في مازونة إلى الفترة الحديثة العثمانية[5]، فأغلب الدراسات التي تناولت هذه "الظاهرة" في المغرب الأوسط جانبوا الحديث عنها

1418هـ/1998م، ص.45؛ الوادي آشي: **ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي**، دراسة وتحقيق: عبد الله العمراني، بيروت: دار الغرب=

=الإسلامي، (منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر)، 1403هـ/1983م، ص-ص.293-294، 305-306؛ الكتاني: **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، اعتناء: إحسان عباس، ج.1، ط.2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1402هـ/1982م، ص-ص.523-525؛ ابن القاضي: **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد (ضمن ألف سنة من الوفيات)**، تحقيق: محمد حجّي، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1396هـ/1976م، ص.248؛ المقري: **المصدر السابق**، مج.5، ص-ص.420-433.

1- عن سعيد بن محمد بن محمد بن محمد العقباني (ت.811هـ/1408م)، يراجع التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص-ص.189-190؛ التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص-ص.138-139؛ أحمد بن القاضي: **لقط الفرائد**، ص.236؛ الوادي آشي: **المرجع السابق**، ص-ص.129-130؛ ابن مريم: **المصدر السابق**، ص-ص.106-107؛ الونشريسي: **وفيات الونشريسي**، ص.137؛ ابن فرحون: **الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، دراسة وتحقيق: مأمون بن محي الدين الجنّان، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ/1996م، ص-ص.204-205؛ الداودي: **طبقات المفسرين**، تحقيق: علي محمد عمر، ج.1، مركز تحقيق التراث بدار الكتب (مكتبة وهبة)، 1392هـ/1972م، ص.183؛ الشفشاوي: **المرجع السابق**، ص.431.

2- عيسى بن أحمد بن يحي أبو مهدي الغبريني المالكي (ت. 816هـ/1413م)، قاضي تونس وعالمها، السّخاوي: **المصدر السابق**، ج.6، ص.151؛ الوادي آشي: **المرجع السابق**، ص-ص.129-130.

3- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.12، ص-ص.345-346.

4- **نفسه.**

5- عبد المجيد مزيان: "المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار"، **مجلة التاريخ**، الجزائر: المركز الوطني للدراسات التاريخية، ع.22، 1986، ص، ص.8-9، 19؛ فون مالتسان هاينريش: **المرجع السابق**، ج.1، ص-ص.234-235؛ قدور بوجلال: **المرجع السابق**، ص-ص.186-204؛ محمد الأمين بلغيث: " مدرسة مازونة الفقهية خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وآثارها"، **دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي**، دار التنوير للنشر والتوزيع،

على الرغم من توفر النص النوازلي[1].

وإن كنّا لا نعلم أماكن تواجد المدرستين اللتين تم التعرض لهما، فمدرسة مازونة الحديثة التي أسّسها الشيخ محمد بن الشارف المازوني (1029هـ/1619م) أي مع نهاية القرن العاشر الميلادي/السادس عشر الميلادي[2]، والتي تتوسط المدينة (حيث قام بشراء قطعة أرض تتشكل من ثلاثة أجزاء محاذية لبعضها البعض)[3] اعتبرت المؤسسة التعليمية التاريخية الأولى فيها، إلاّ أنّه يبدو لنا واضحا تقاليد المدرسة كوحدة طبوغرافية هامة في المدينة[4].



426 ... ن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي (قراءة تاريخية)، غير منشور؛

Jacques Berque, «Les hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siécle», p.1326; id., «Retour à Mazouna», p.153; id., *L'intérieur du Maghreb XVe-XIXe siécle*, p.19-22,24-25; Charles Géniaux, «Mazouna», p. 452.

1- يتحدث عبد المجيد مزيان عن مدرسة مازونة على أنّها نموذجا مصغرا لمدارس تلمسان ينظر عبد المجيد مزيان: "الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل الإستعمار"، **مجلة الثقافة**، السنة 15، ع.90، 1985، ص.41.

2- عن الشجرة الشريفة التي ينتسب لها: أبو طالب محمد بن علي بن عبد الرحمان بن محمد المعروف بابن الشارف (الشخصية المؤسسة) بن أحمد بن على بن عبد العزيز بن علي بن منصور بن محمد بن عمر البلداوي بن محمد بن عبد الله بن موسى بن مسعود بن الحسن بن سليمان بن إبراهيم بن عيسى بن محمد بن أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسنين بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم عن مخطوط، ج.2، كتاب الأصل المازوني (مخطوط بالمدرسة) عن إحدى الدراسات التي تحصلت عليها، وإن كانت هذه الشجرة هي لمحمد أبو طالب بن علي بن عبد الرحمان، وعن مدرسة مازونة الحديثة يراجع أبو راس الناصر المعسكري: **فتح الإله ومنته**، ص.20؛وهناك من ينسب مؤسسها إلى محمد بن شريف الأندلسي ينظر فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.169 ؛

Moulay Belhamissi, *Mazouna*, p.49.

3- يوسف بوكفة: **المرجع السابق**، ص-ص.29-30.

4- حيث اعتبرت مازونة بلد الفقه بالقطر الجزائري، الكتاني: **المرجع السابق**، ج.1، ص.506.

1-4- الهياكل التخطيطية الأخرى: لحديثة)

1-4-1- الدور و الاحياء المازونية: (مقاربة حول تواصل النسق العمراني الوسيط في الفترة الحديثة):

يقدّم ليوبولد تورس بالباس تصوّرا عاما عن صفة تصميم شوارع المدينة الإسلامية المشرقية والمغربية والأندلسية، فهي في معظمها مفتوحة عند طرفيها كشوارع المدن الحديثة، إذ كانت طرقا للمرور والتنقل دون انقطاع، وكانت مخصّصة لحركة المرور العام في المدينة ولدخول المساكن الواقعة على جانب من جانبيها في آن واحد[1]، وإن جاء هذا الوصف عاما، فما هو الوضع الذي كانت عليه مدينة مازونة؟



صورة رقم: 07 (دروب أحياء المدينة العتيقة)

إنّ الصورة الأولى التي توفرت لنا عن المسكن المازوني، والتي جاءت معلوماتنا عنه قليلة توضّح وصفا حضريا متميزا للمدينة في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، حيث اعتبر

1- ليوبولدو تورس بالباس: **المرجع السابق**، ص.425.

الإدريسي أنّ بها «مساكن مونقة»[1]، وهو ما ذهبت إليه الروايتين المتأخرتين للوزّان ومارمول كاربخال، حيث ذكر الأوّل أنّ المدينة كانت «متحضرة جدا في القديم»[2]، أمّا الثاني فوصف منازلها بالجيدة[3].

ويظهر جليا أنّ مازونة لم تستمر على هذه الوضعية الحضرية، خاصة وأنّ المدينة عرفت اضطرابات، يمكن أن نتوضّح نتائجها من خلال إشارة العبدري السابقة[4]، ومن خلال نصّي الوزّان ومارمول كاربخال[5]، حيث يظهر النّص الأول ما يلي: «...لكن دورها قبيحة فقيرة... لكنها كثيرا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة ومن قبل الثوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب، حتى أصبحت اليوم قليلة السكان، وهم إمّا نسّاجون أو فلاّحون وجميعهم تقريبا فقراء، لأنّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالأتاوات...».

أمّا النّص الآخر لمارمول كاربخال يوافق ما ذكره الوزّان فهو يؤرخ لنفس الفترة تقريبا ولنفس الظاهرة أي التراجع الحضري لمازونة: «...كانت بها منازل جيدة دمرتها الحروب ولاسيما تلك الحروب التي ذكرنا أنّها كانت بين أقارب ملك تلمسان الذين عاثوا فسادا في عدد من مدن هذه الأيالة...كان سكانها في الماضي على درجة كبيرة من الغنى لأنّ بلادهم كثيرة القمح والماشية، ولكن العرب الذين يكنّون لهم العداء أذاقوا الويل لأهلها منذ المرة الأخيرة التي تحطمت فيها المدينة، حتى لم يبق فيها سوى عدد من فقراء النسّاجين يصنعون المنسوجات القطنية والصوفية ومع هؤلاء عدد من العمال لا يربحون ما يساوي المقادير التي يجبرون على دفعها لحكام مدينة الجزائر وللعرب مقابل السماح لهم بفلاحة الأرض...».

ويمكن هنا قراءة ظاهرة الفقر التي أصبحت منتشرة بالمدينة مع نهاية الفترة الوسيطة وبداية الحديثة، والتي حدّت من إمكانية ساكنتها في بناء دور متميزة فالبنايات القائمة: «حديثة ولا تساوي شيئا »[6]، لكن الوجود الأندلسي المتأخر بمازونة يجعلنا نعتقد باحتمالية التأثير الذي قد

1- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص.128.

2- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36.

3- مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359.

4- العبدري: **المصدر السابق**، ص.131.

5- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36؛ مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359.

6- **نفسه**: ص.359.

يكون مسّ العمارة المازونية بعد 897هـ/1491م، حيث: «...وخرج ما بقي من أهل غرناطة في خمسة عشر يوما إلى بجاية ووهران وبرشد(برشك) وزوالة ومازونة ونفطة...»[1]، لكن كيف كان ذلك؟ وأين استقر هؤلاء الوافدين الجدد؟ وهل كان استقرارهم مستقلا وهو ما كان سيقدّم خصوصية معينة وأكيدة للأحياء في المدينة؟

فإذا كان المهاجرون الأندلسيون بإفريقية مثلا قد جلبوا معهم تقنيات البناء[2]، فهل حدث نفس الأمر في مازونة؟

يبدو أنّنا لا نستطيع تلمّس الوضع الحقيقي للدور والأحياء المازونية إلاّ من خلال ما قدّمته الكتابة الحديثة، خاصة وأنّ الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان (*Henriech Von Maltsen*) (1852م-1857م)، وهي المرحلة التي زار فيها المغرب[3]، ينفي التدخل الفرنسي في العمارة المازونية، والذي يساعد على بقاء وتواصل النسق الطبوغرافي الحديث وحتى الوسيط أيضا[4]: «...وهي مدينة عربية خالصة وكنا قد وصلناها في المساء، وكانت مازونة الأولى من هذا هذا النوع الذي رأيته في الجزائر، والذي احتفظ بطابعه العربي، و لم يشوّه بعد تناسقه الشرقي أي بناء أوروبي، لقد كان أسلوب العمارة في هذه المدينة الداخلية طبعا أبسط وأفقر بكثير من الحي العربي في مدينة الجزائر، إلاّ أنّها في جوهرها من نفس النمط...».

كانت مازونة في الفترة الحديثة تتشكل من أربعة أحياء كبيرة[5]، ولكل منها أحياء أخرى صغيرة، حيث تكون الدروب والطرقات ضيقة بها، والمنازل متداخلة في بعضها البعض[1]، كما يتوفر كل حي على مسجده الخاص به[2]، وهذه الأحياء الأربعة هي:

1- مؤلف أندلسي: **نبذة العصر**، ص-ص.140-141.

2- روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص.296.

3- ونفس الأمر بالنسبة لـــ ريتشارد (*Richard*) الذي اعتبر مازونة بلدا جميلا جدا له أصالة عربية ينظر:

Richard (CH.), *Etude sur l'insurrection du Dahra (1845-1846)*, Alger, 1846.

نقلا عن الطاهر جنان: **المرجع السابق**، ص.15؛

Y. Loukil, *Mazouna, Anciénne capitale de Dahara*.

4- فون مالتسان هاينريش: **المرجع السابق**، ج.1، ص.231.

5- Jacques Berque, «Retour à Mazouna», p. 153.

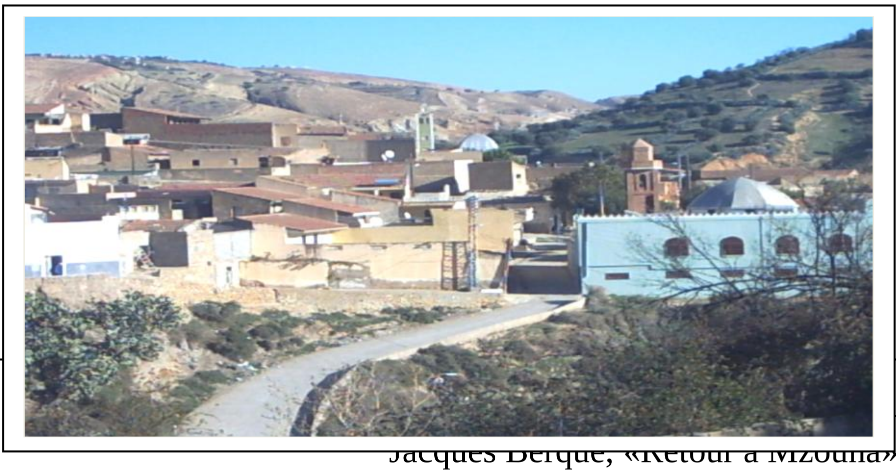
وهناك من قسّم منطقة مازونة في 18 نوفمبر 1869م إلى ثلاثة أحياء أو بلديات هي: حي بوماتع (Boumata)، حي بوعلوفة (Bou Halloufa)، حي القصبة (Kasbah)، ينظر جنان الطاهر: **المرجع السابق**، ص.28؛ وعن حي بوعلوفة فقد ذكر المازوني الأب هذا المصطلح بمازونة وسمّاه مجشر أبي علوفة، المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.307.

1 - حي أولاد السائح (*Ouled-Es-Sayah*) في الشمال[3].

2 - حي بومعطة أو بوماتع (*Boumata*) في الشرق[4].

3 - حي تيسارت (*Tassarte*) في الجنوب[5].

4 - حي القصبة (*Kasbah*) في الغرب[6].



1- فتيحة الواليش

2- Jacques Berque, «Retour à Mzouna», p.153.

3- عن أولاد السايح بمازونة يقول صاحب القول الأوسط: «...ثم أخذها من يد بني زيان أبو الحسن المريني قال الشيخ علي بن أبي زرع في القرطاس أنّ بني مرين من ذرية ماخوخ الزناتي، ثم قال في موضع آخر أنّهم من نسل قيس بن غيلان، وهم كثيرون منهم مقر بغدامس وآخرون بالحامة، وهم أولاد الشيخ العبدلي، وأولاد على أبهلول بمجاجة، وأولاد السايح بمازونة...»، الراشدي: **القول الأوسط**، ص.63.

Y. Loukil, *Mazouna, Ancienne capitale de Dahara*; Moulay Belhamissi, *Mazouna*, p. 19
.

4- *Ibid*.

5- *Ibid*.

6- *Ibid*.

وهو حي تركي، كما يتحدث مولاي بلحميسي على وادي تامدة (l'Oued Tamda) يقسّم المدينة إلى قسمين مازونة (Mazouna) وبوعلوفة (Bouallоufa)، ينظر . Moulay Bouhamissi, *op. cit.*, p. 18–19

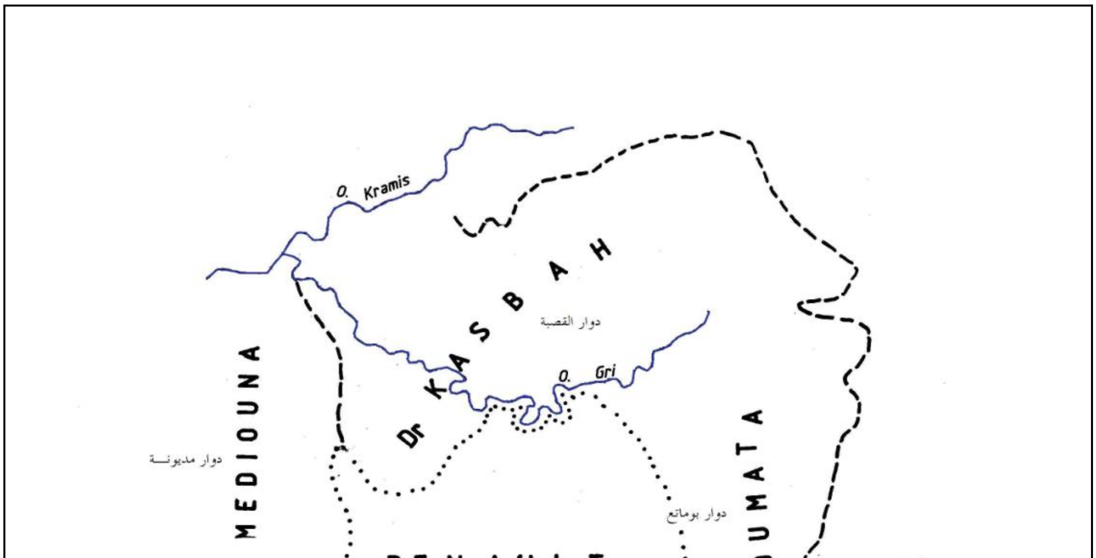
؛كما يشير يوسف لوكيل إلى وجود ثلاثة أحياء أخرى بأسماء بربرية وهي تاسرت(Tasserte)، وأجدير (Adjedir) وبودلول (Boudelloul de Adelil)، Y. Loukil, *op. cit.*

صورة رقم: 08 (قصبة مازونة)



صورة رقم: 09 (حي بوعلوفة)

إنّ المساحة الواسعة التي تمتد عليها مازونة، وتوفر جامع ومساجد أخرى يظهر التوسع العمراني الذي أصبحت عليه المدينة مع نهاية الفترة الوسيطة، وبالتالي احتمالية وجود أحياء مختلفة، لكن هل كانت بنفس الصورة الحديثة السابقة؟



مخطط رقم: 01 (**أحياء مازونة في الفترة الاستعمارية**)

(**Djilali Sari, *op.cit.*, p.98.**)

لقد طرح النص النوازلي المازوني وغيره مسائل عن أحكام الجوار في الأحياء السكنية للمدينة "المغربية" خاصة فيما يتعلق بـــ "الضرر" حول فتح الأبواب والنوافذ والكوة والبناء العالي، وغيرها من الأمور التي تؤدي إلى أضرار مادية وحتى معنوية[1]، لقد جاءت هذه النوازل في بعضها عامة، حيث يمكن أن تكون قد وقعت بمازونة، لكن لا يمكن تبيّن حقيقة ذلك.

1- سناء عطابي: **المرجع السابق**، ص.107.

Nejmeddine Hentati, «la rue dans la ville de l'occident musulman médiéval d'après les sources Juridiques malikites.», *Arabica*, T. L-3(2003), p .273-305.

يوصف المترل المازوني بأنّه ذو شكل عربي، يحتوي على أقواس داخلية وساحة مركزية مفتوحة غير مغطاة، يغلب عليه الشكل المربع واللون الأبيض، ولا يتوفر على نوافذ تربطه بالعالم الخارجي، حتى وإن وجدت تكون عالية، وباب المترل عريض، ومن مادة خشبية، حيث يتوفر بعد الدخول من الباب المركزي مدخل يسمى بالسقيفة توجد به مقاعد مبنية، هذا الممر يقود إلى الساحة المركزية غير المغطاة، مربعة الشكل ويحيط بها أقواس بداخلها، حيث تتواجد الغرف والمرافق الأخرى[1].

ويوافق وصف البيت المازوني من الخارج نوعا ما ما ذكره الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان (*Henriech Von Maltsen*): «...وكان كثير من بيوت مازونة ذات الطابق الواحد التي تغطيها السطوح مبنيا من الحجر وذلك يعني بالنسبة لمدينة تقع في داخل البلاد درجة عالية من العمران، فالإنسان لا يعثر عادة في داخل البلاد إلاّ على البيوت المبنية من الآجر وكان الدهان الأبيض يخلع على هذه البيوت منظرا لطيفا ضاحكا...»[2].

ويبقى هذا واقع دور وأحياء المدينة في الفترة الحديثة، لكن أيضا يمكن ملاحظة تواصل الوضع الطبوغرافي الوسيط، والذي لا يتم إلاّ بمرافقة عمل أثري جاد في المنطقة المازونية.

1-4-2- المعمار المائي (التهيئة المائية):

تهدف دراسة المعمار المائي في المدن إلى ربطه بالجوانب الحضارية المتعلقة بالاقتصاد والمجتمع والحكم والثقافة[3]، وهو ما يكاد ينفرد به ابن خلدون في إطار حديثه عن عوامل نشأة وتطور الحواضر[4]، فمقاربته لا تقتصر على الكشف عن البنيات الجغرافية والديمغرافية للمنشآت المائية فحسب، وإنّما تعالج كذلك المحدّدات الكامنة وراء توليد "المعمار المائي الحضري" وتطوره وصلته بالعمر البيولوجي للحضارة، حيث يقترن الماء والتعمير بثقافة الترف لدى الحضريين[5]، حتى أنّ

1- فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.148؛ Y. Loukil: *op. cit* ; 148

2- فون مالتسان هاينريش: **المرجع السابق**، ج.1، ص.231.

3- سعيد بنحمادة: **الماء والإنسان في الأندلس خلال 7هـ و8هـ/13م و14م- إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2007، ص.102.

4-ابن خلدون: **المقدمة**، ص.322.

5- سعيد بنحمادة: **المرجع السابق**، ص.102.

Moulay Belhamissi, *op.cit.*, p. 21; y. loukil, *op.cit.*

ومن بين الدراسات التي تناولت قضايا المياه نجد:

أسطورة تأسيس مازونة ارتبطت في إحداها بالماء، كما عبّرت الكتابة المحلية المازونية عن العلاقة بين ذهنية الساكنة مع المجال المائي النهري الشلفي خاصة .

ويبدو أنّ قضايا "المعمار المائي" التي ركّزت التصورات المعاصرة على الوصف الخارجي لها، أوقعتها في إشكالية التفكيك والاختزال والنمطية، ومن ثم اتّسمت غالبيتها بضيق الأفق المنهجي والاستغراق في تأصيل العناصر الهندسية والفنية من دون البحث عن المضمون وكيفية تأثيره في "المعمار المائي الحضري"[1].

لتبقى النصوص الوسيطة المختلفة تشكل بديلا يمكّن من وضع مدونة لـــ "المعمار المائي الحضري"[2].

حيث أعتبر الماء من العوامل الممدّنة للمجال[3]، واعتمدت مصادره ومجاريه ضمن الشروط الواجب مراعاتها في مواضع الحواضر الوسيطية ومواقعها[4]، وهو ما لم يتداول في المجال المائي لمدينتنا على الرغم من أنّها لم تكن خالية من مصادر الماء[5]، فهي تقع على حافة وادي واريزان

Nejmeddine Hentati, «l'eau dans la ville de l'occident musulman médiéval d'après les sources juridiques Malikites», *Revue d'Histoire magrébine*, 28éme Année, 102-103(2001), p. 165–219.

1- سعيد بنحمادة: **المرجع السابق**، ص، ص.98، 101، 102.

2- **نفسه**: ص.97؛ سناء عطابي: **المرجع السابق**، ص.92؛ عمر بنميرة: "قضايا المياه بالمغرب الوسيط، من خلال أدب النوازل"، **التاريخ وأدب النوازل**، تنسيق: محمد المنصور، محمد المغراوي، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، 1995، ص-ص.77-85؛ عمر بنميرة: "قضايا المياه بالمغرب الوسيط، من خلال أدب النوازل"، **الثقافة والفقه والمجتمع (نماذج من المغرب الوسيط)–دراسة تاريخية–**، الرباط: جذور للنشر، 2006، ص-ص.91-103.

3- سعيد بنحمادة: **المرجع السابق**، ص.97.

4 - Richard (CH.), *Etude sur l'insurrection du Dahra*.

=

=، نقلا عن الطاهر جنان: **المرجع السابق**، ص.16؛ ويتضح من خلال النوازل والفتاوى الفقهية أنّ مصادر السقاية في بلاد المغرب هي: الأمطار والعيون والآبار والأودية (أي الأنهار) والصهاريج، كمال أبو مصطفى: **جوانب من حضارة المغرب**، ص.57.

5- فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص، ص.39، 47.

(أحد روافد نهر الشلف)[1]، حيث كان يوجد بالقرب منها شلال تسقط منه مياه الوادي السابقة من ارتفاع نحو 20 مترا[2].

إنّ جغرافية المدينة هذه توحي باحتمالية وجود السواقي أو الينابيع والعيون التي تشكل مصدرا آخر من مصادر المياه، والتي تعتمد في استمراريتها على الظروف الطبيعية، فقد تعرضت مياه وادي الشلف مثلا لنقص تحدّث عنه صاحب "الملعبة" أو وفرة بيّنتها مختلف النصوص الجغرافية الوسيطة[3].

وتعبّر العيون عن "وحدة معمارية مائية" تستعمل في مختلف الأنشطة المدينية، وإن كان أغلبها طبيعيا ومنبعها من الجبال، لكن هل تم استحداث طرق الري في الفترة الوسيطة، حيث توافق مياه العيون والآبار البساتين الزراعية[4]؟

لم يتعرض الخطاب الفقهي الوسيط بالمغرب الأوسط لمسألة "العيون"[5]بشكل خاص حسب إحدى الدراسات، إلاّ من خلال التأكيد على طهارة مائها، وبعض الأمور التي تأتي مشتركة مع الآبار وباقي المياه الراكدة[6].

1- أحمد توفيق المدني: **كتاب الجزائر**، ط.2، البليدة-القاهرة: دار الكتاب للنشر-دارالمعارف، 1382هـ/1963م، ص، ص.219، 220.

Moulay Belhamissi, *op. cit.*, p. 13.

2- فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.150؛ سميرة المزكلدي: **المرجع السابق**، ص-ص.53-54.

؛فمثلا يعتمد النظام المائي بالجزائر على الأودية والمنابع الطبيعية والآبار، وذلك بسبب المعطيات الطبوغرافية المناخية للمنطقة، مصطفى بن حمّوش: **المرجع السابق**، ص.137.

3- يشير صاحب الملعبة إلى ذلك في حركة أبي الحسن المريني:

أمارا من شلف لمن جمع   من فقد الما والغلا في الزاد.

الكفيف الزرهوني: **المصدر السابق**، ص.72؛ وفي هامش هذا الكتاب يشير المحقق إلى أنّ المؤرخين لم يتطرقوا إلى ما ذكره الكفيف في الغلا وفقدان الماء في هذه المرحلة، **نفسه**: ص.72؛ كما يشير المازوني إلى الري من مياه شلف خلال فصل الجفاف، ابن سعيد المغربي: **المصدر السابق**، ص.141.

4- سعيد بنحمادة: **المرجع السابق**، ص-ص.203-204.

5- عن أهمية العيون في المدينة الإسلامية محمد عبد الستار عثمان: **المرجع السابق**، ص-ص.247-248.

Nejmeddine Hentati, «l’eau dans la ville de l’occident musulman médiéval», p.163–220.

6- سناء عطابي: **المرجع السابق**، ص.92.

ويبدو أنّ الخطاب الفقهي المحلي تناول إشكال الماء وتشريعاته المتعددة والمرتبطة بطابع الحياة الدينية والعملية[1]، وبحكم أنّ المجتمع المازوني هو مجتمع فلاحي بالدرجة الأولى، فلا نستغرب أن يحتل الماء حيّزا هاما ضمن الانشغال اليومي لساكنته، وأن يكون مثارا للتراعات والخصومات المستمرة[2].

ويمكن أن نستشهد بنازلة من النوازل المازونية حول مسألة "تقسيم المياه" مثلا، فقد كانت مدة السقي في دورة أسبوعية، تنقسم بدورها إلى خمسة أجزاء يومية يتداول عليها الناس من الفجر إلى الضحى ومنه إلى الزوال ومنه إلى العصر ومنه إلى المغرب ثم الليل[3]، فالخطاب الفقهي هو من يحدّد دورها، وينظم الاستفادة منها[4]، حيث تتفرع الجداول والسواقي عادة إمّا من المصدر المصدر المائي الواحد كالأودية، وإمّا من الخزانات والصهاريج المعدّة لتجميع المياه وتوزيعها بالتساوي بين المستفيدين[5]، والمرتبطة بمشاكل السقي وحقوق المياه، وهي في ذلك لا تكاد تختلف تختلف عن نوازل الأرض لما تثيره من قضايا تتعلق بالملكية الفردية والجماعية ولما تبرزه من أضرار تلحق بأصحابها من جراء الغصب والتعدي وتداول حقوقها بالبيع والشراء والسلف والكراء[6]، وعلى الرغم من توفر النص النوازلي حول قضايا "الماء"، إلاّ أنّنا لا نستطيع اعتماده مباشرة فيما يخص مازونة ولا نستبعد أيضا إمكانية حدوثها بها.

لقد مثّلت المنعطفات السياسية في الغالب تجديدا في الطرق المعتمدة في علم المياه وقدّمت في كثيرا من الأحيان إضافات ذات شأن، دون أن يعني ذلك إتلافا لإرث قديم أثبتت التجربة فائدته،

1- من بين هذه النصوص الفقهية التي تحدّثت عن السواقي والعيون، الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.5، ج.8، ج.9، ج.10.

2- سهيرة المزكلدي: **المرجع السابق**، ص.52؛ سعيد بنحمادة: **المرجع السابق**، ص.74؛ الدراجي بوزياني: **العصبية القبلية**، ص، ص.208، 211، 213؛ وينظر أيضا كمال أبو مصطفى: **جوانب من حضارة المغرب الإسلامي**، ص-ص.57-61؛ ويراجع عن مثل هذا الموضوع عمر بنميرة: "قضايا المياه"، **عن الثقافة والفقه والمجتمع**، ص-ص.91-92؛ عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص-ص.65-66.

3- محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع –أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي(من القرن 6هـ إلى 9هـ/12م-15م)**–الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999، ص-ص.363-364

4- سناء عطابي: **المرجع السابق**، ص.85.

5- سعيد بنحمادة: **المرجع السابق**، ص.57.

6- محمد فتحة: **المرجع السابق**، ص.357.

فقد ترك المغاربة الأصليون ومن حلّ بأرضهم من البونيين والرومان والبيزطيين شواهد على انجازاتهم[1].

وقد وجدت آثار مائية بمازونة وناحيتها ينسبها بعضهم إلى الفترة الرومانية، وحسب أحد الباحثين فالمناطق التي كانت تسودها الحضارة الرومانية تقدّمت في وسائل الري أكثر من غيرها، لاسيّما أنّ إفريقية الرومانية كانت زراعية قبل كل شيء، فمنذ تلك العهود بذلت جهود لتنظيم المياه ورفعها إلى ما حول أودية الأنهار أو جلبها من أماكن بعيدة، وفي هذا كان حظ البلاد الشرقية والأندلسية أفضل من الغربية، فهل هذا مؤشر لتواضع التجربة الرومانية بالمدينة وناحيتها؟

إلاّ أنّه يبدو لنا أنّ استعمال هذه الآثار المائية قد تواصل عند ساكنة المدينة، فالمغاربة وحتى مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي عملوا على الاستفادة من مياه الأنهار والعيون وجرّها إلى البسائط بوسائل متعددة منها شق الترع وتفريع الأنهار لجداول[2]، وعلى الرغم من هذه الشهادات إلاّ أنّنا نعجز عن إثبات مشاركة الإنسان المازوني الوسيط في استحداث تقنيات مائية أخرى أو تطوير تلك القديمة لتتوافق مع الواقع الحضري الجديد الذي أصبحت عليه المدينة، حيث أظهرت بعض الدراسات توفر مازونة على ثلاثة عناصر مائية أرجعتها للفترة القديمة[3]، وهو ما بيّنه غزال (*Gsell*) في كتاباته عن اكتشافه بالمنطقة أماكن الري المهيئة بكل من منطقة عين الذهب (*Dahb*)، وعين تنسري (*Tinesri*) وتامدة (*Tamda*)[4].

1- محمد حسن: **الجغرافيا التاريخية**، ص-ص.251-252.

2- أحمد عز الدين موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص-ص.61-62؛ ويمكن ملاحظة التأثير الروماني في المعمار المائي بالمدن المغربية

Nejmeddine Hentati, «l'eau dans la ville de l'occident musulman médiéval», p.163-164.

، حيث يطرح نجم الدين هنتاتي هذه الإشكالية بصورة عامة في المدن؛

Djilali Sari, *op.cit.*, p.32.

؛ ويلاحظ أيضا أنّ النظام المائي في مدينة الجزائر قد اندثر و لم تبق منه إلاّ بعض الأطلال، ولا تزال بعض العيون الجافة داخل مدينة القصبة وآبار داخل البيوت تشهد بذلك، وقد بدأ اندثار هذا النظام مع مشاريع الإدارة الفرنسية لتوسيع المدينة وإعادة صياغتها حسب أهدافها العسكرية والاستيطانية، ولا ندري إن كان نفس الأمر قد وقع بمازونة، يراجع:

مصطفى بن حمّوش: **المرجع السابق**، ص.136.

3- Stéphane Gsell, *Altas Archéologique*, p.7.

Djilali Sari, *op. cit.*, p.32 . Moulay Belhamissi, *Mazouna* , p.13-14;- 1

1- عين الذهب (شمال غرب مازونة): حسب إحدى التقارير فإنّ هذه العين كانت تعطي حوالي 10 لترات في الثانية، وقد استعملت منذ القديم في الفترة الرومانية وبعدها في الفترة الوسيطة (وهو مالا يمكن تبينه) في سقي البساتين وتزويد السكان بالماء عن طريق السواقي والأودية الصغيرة، وبعد ذلك بني لها حوض وأصبح يسيل منه الماء على ارتفاع 06 أمتار[1].



صورة رقم: 10 (عين الذهب)

2- عين تنسري: يبدو واضحا من تسمية هذه العين أصولها البربرية القديمة، وهي تعطي من 10 إلى 12 لتر في الثانية بها حوضان مخزنان (وتأتي متقابلة)، (الأول طوله 08 أمتار وعرضه 04 أمتار بعمق 03 أمتار)، والآخر يتسع على طول 08 أمتار وبعرض 02 متر وبعمق 03 أمتار، وهي قديمة ترجع للفترة الرومانية أيضا، حيث بنيت هذه الأحواض لتتجمع فيها المياه، ثم توزع على البساتين، وعلى مدينة مازونة أيضا، إلاّ أنّ الماء بها بدأ يتناقص في حجمه، وإن تحدثت بعض المراجع عن عملية بناء أحواض أخرى في الفترة الوسيطة، بدل تلك القديمة التي هدمت[2].



الطاهر جنا...

1- ومن بـ...

Enquête a... sous la direction ... *sur la* ... 18-19.

، نقلا عن: الطاهرجنان: **المرجع السابق**، ص.31.

كما يتحدث يوسف لوكيل عن العثور على شلال بعلو 15 مترا، على بعد حوالي مئة متر من مازونة يصب في وادي تامدة، يراجع . Y.Loukil, *op. cit*.

2- **نفسه**: ص.30؛ Belhamissi Moulay, *Mazouna* ,p.13.

صورة رقم: 11 (عين تنسري)

3- عين تامدة: تحمل هذه العين اسما بربريا، وقد وجد في نواحيها حجارة منقوشة دلّت على استعمالها القديم (أي في الفترة الرومانية)[1].



صورة رقم: 12 (منطقة تامدة)

وبالإضافة إلى تلك العيون الثلاثة، وردت تسمية "عين برقش" و"عين قدور" أيضا في المدينة حسب إحدى المراجع، هذه الأخيرة التي تصب في وادي شلف، حيث تغذي المدينة والبساتين المجاورة لها ووازيزان[2].



1- **نفسه**: ص.31؛ *Loukil Y., op.cit.*

2- **نفسه**: ص.31.

صورة رقم: 13 (عين برقش)

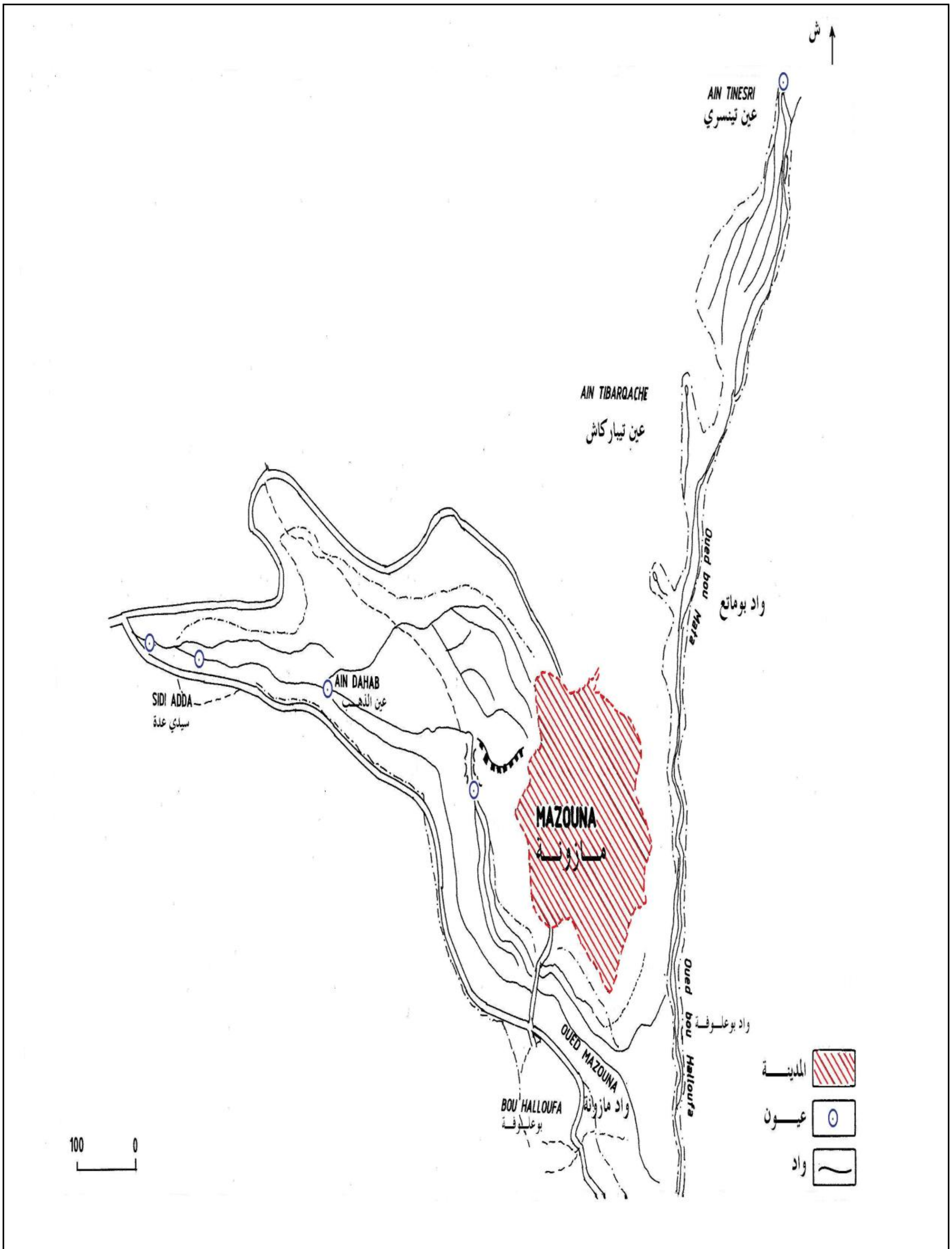
ولا ندري إن كانت هذه التسميات تداولت لدى الساكنة المازونية في الفترة الوسيطة أيضا، لأنّ الحديث عن العيون لم يتداول في نصوصها، حيث يبدو أنّ هذا النظام المائي قد اندثر بعضه وهناك بعض الآثار لعيون جافة، لكننا لا نعرف طبيعة وفترة استعمالها.

إنّ هذه الشواهد الأثرية تظهر عدم إتلاف المدينة الوسيطة لإرثها المعماري القديم[1]، لكن الأمر الذي يبقى مجهولا عندنا هو طبيعة تعامل الجماعة المازونية في الفترة الوسيطة مع هذا الواقع، فهل مورست تقنية معينة ومختلفة لتوفير وتوزيع الماء في المدينة وناحيتها؟



صورة رقم: 14 (عين داخل المدينة العتيقة)

1- مصطفى بن حمّوش: **المرجع السابق**، ص.136.


ش
AIN TINESRI
عين تينسري
AIN TIBARQACHE
عين تيباركاش
Oued bou Mata
واد بومائع
AIN DAHAB
عين الذهب
SIDI ADDA
سيدي عدة
MAZOUNA
مازونة
Oued bou Halloufa
واد بوعلوفة
OUED MAZOUNA
واد مازونة
BOU HALLOUFA
بوعلوفة
100
0
المدينة
عيون
واد

مخطط رقم: 02 (مواضع عيون المدينة)

(Djilali Sari, *op .cit.* , p.63.)

1-4-3- وحدة "السوق" والطبوغرافية التجارية:

يعتبر السوق من الوحدات البنيوية الأساسية التي تقوم عليها الحياة اليومية في المدينة الإسلامية[1]، والتي عالجتها النصوص الفقهية من خلال تنظيمات المجال التجاري المتعلق بالأسواق خاصة[2].

فالسوق والجامع والزاوية...، يدرج ضمن إطار الأعمال ذات المصلحة العمومية التي تبرز رفاهة ودعة السكان المادية والمعنوية[3]، فابن خلدون الذي عرّف الترف بأنّه الهدف الأقصى الذي تسعى إليه الحضارة المدنية أي الإسراف في المأكل والمسكن والملبس، وهو الترف الذي لا يكون متاحا إلاّ في المدن الكبيرة، لأنّ المدينة الصغيرة أو القرى لا تملك الوسائل التي تتوفر للمدينة "العاصمة" أو أن تكون أقل منها كثافة[4].

حيث تختلف أهمية الأسواق حسب أهمية المدينة، وسعة النشاط الاقتصادي بها، فكلما صغرت المدينة، وقلّت حضارتها، ضعفت ظاهرة "السوق" فيها، وبعدت مدة قيامها فبحكم

1- يراجع مقال إبراهيم القادري بوتشيش: " الأسواق في المغرب و الأندلس خلال العصر الوسيط تنظيماتها و معطياتها الإحصائية"، **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ص-ص.98-113؛ وعن طبوغرافية السوق، يراجع عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص-ص.293-295.

2- سناء عطابي: **المرجع السابق**، ص.99.

3- عبد العزيز الدولاتلي: **المرجع السابق**، ص.149.

4- **نفسه.**

اكتفاء أهل البادية بالضروري، اكتفوا بالأسواق التي تعقد أسبوعيا، والتي يعرض بها الضروري من السلع فقط، وكلما اشتدت البداوة قلت الحاجة إلى الأسواق حيث تصبح تعقد فيها سنويا[1].

بيّن الإدريسي في (قـ.06هـ/12م) وجود إحدى أنواع هذه الأسواق، وهو السوق الأسبوعي في مدينة مازونة، وهو ما يعبّر عن بساطة متطلبات ساكنتها في تلك الفترة[2]، ولكن دون أن يحدّد اليوم الخاص به، وفي نفس الإطار ركّز على هذا النوع في كثير من المدن التي تكتسي أهمية أقل مقارنة بالمدن الكبيرة، حيث تحتاج هذه المدن إلى يوم تجتمع فيه الباعة من كل مكان خاصة البوادي، فتكون الفرصة سانحة لعرض مختلف أنواع المنتوجات خاصة الأطعمة وغيرها[3]، والتي يبدو أنّها تحتل أطراف المدينة: «...وأسواق عامرة...ولسوقها يوم معلوم يجتمع إليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والألبان والسمن والعسل كثير بها...»[4].

لكن هل يمكن معرفة طبيعة تطور هذه الوحدة في المدينة مازونة؟

تعرض نصّا الوزّان[5] ومارمول كاربخال[6] لمتهني النسيج في مازونة، إلاّ أنّهما لا يوضّحان لنا مكان ممارسة وعرض هذا النشاط وغيره ربما[7]: «...حتى لم يبق فيها سوى عدد من فقراء النسّاجين يصنعون المنسوجات القطنية والصوفية، ومع هؤلاء عدد من العمال لا يربحون ما يساوي المقادير التي يجبرون على دفعها لحكام مدينة الجزائر وللعرب مقابل السماح لهم بفلاحة الأرض...»، «...وهم إمّا نسّاجون أو فلاّحون وجميعهم تقريبا فقراء، لأنّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالأتاوات...».

وهنا تظهر العلاقة القوية بين إنتاج الصوف وجغرافية البداوة ببلاد المغرب لاقتران هذه المادة بتربية الماشية في مجالات الإنتاج والترحال خاصة، وقد مثّلت الأسواق الريفية المجمع الأول

1- الدراجي بوزياني: **العصبية القبلية**، ص-ص.343-344.
2- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص-ص.128-129.
3- سناء عطابي: **المرجع السابق**، ص.100
4- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص-ص.128-129.
3- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36.
4- مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359.
5- عن حرفة النسيج وأهميتها في العصر المريني مثلا ينظر مصطفى نشاط: "الحرف في العصر المريني: حرفة النسيج نموذجا"، **إطلالات على تاريخ المغرب**، ص-ص.80-91.

لهذه المادة باعتبارها نقاط التقاء بين البدو المنتجين للصوف والحضر المستعملين له تجارة وتصنيعا[1]، ولعل هذا ما كان منتشرا بمازونة.

فقطاع الغزل والنسيج أعتبر الممول الأساسي للنشاط التجاري في العصر الوسيط، حتى أنّ البعض نعتها " بحضارة النسيج"[2]، حيث اعتبر ابن خلدون أهل المغرب متأخرين في الصنائع باستثناء صناعة الصوف[3]، حيث تعتبر من أهم الصناعات المتداولة بالبلاد لسيطرة نمط الإنتاج الرعوي ووفرة تربية الماشية وجودة الصوف[4]: «...كان سكانها في الماضي على درجة كبيرة من الغنى لأنّ بلادهم كثيرة القمح والماشية...»[5].

وإن كان النسّاجون في مازونة مع نهاية الفترة الوسيطة عرفوا مرتبة متواضعة، عكس ما ذهب إليه أحد الباحثين في حديثه عن تطور صناعة النسيج في حوض البحر المتوسط ومشتغليها مع الفترة الحفصية، فقد ارتفعت مكانتهم في المجتمع حتى أصبحت صناعتهم من ضمن الصناعات الرفيعة المخصّصة "لوجوه الناس"، وذلك -حسبه- بشهادة العالم ابن عرفة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وأنّ انتماء الحاكة إلى المهن "الخسيسة" لم يكن أمرا ثابتا[6].

وإن كانت صناعة النسيج هي الغالبة في المدينة، إلاّ أنّ ذلك لا يعني انعدام حرف ومهن أخرى قد تكون أقل كثافة من سابقتها، ويحق لنا أن نتساءل إن كانت مرتبة هذه الصنعة مختلفة ومتطورة عن تلك التي عرضها الوزّان[7] ومارمول كاربخال[8] في القرن 10هـ/16م.

إلاّ أنّ توضيح طبيعة الطبوغرافية التجارية لمازونة يبقى من الأمور الصعبة، فالمعلومات المتاحة لدينا عنها قليلة ولا تساعدنا على تحديد أماكن ممارسة هذه الحرف والمهن في المدينة، فهل مورست في الأحياء أو المسكن الشخصي؟ أم كان لها سوقا خاصا؟

6- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.1، ص.474.

7- **نفسه**: ص.473.

3- ابن خلدون: **المقدمة**، ص.374.

4- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.1، ص.474.

5- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36.

6- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.1، ص-ص.478-479.

7- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36.

8- مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359.

وسنحاول أن نتعرف لاحقا عن حركية الممارسات التجارية بالمدينة، حتى يمكننا فهم هذا الوضع الغامض نصّيا.

2- نمط العمران الصوفي بمازونة وناحيتها والتطور الوظيفي:

2-1- من الرباط أو الرابطة إلى الزاوية:

يمثّل المكان ضرورة عملية في البناء الصوفي، فقد اشترط الصوفية لممارسة طقوسهم التعبّدية «مكانا وزمانا وإخوانا»[1]، إلاّ أنّه لم يكن مرتبطا بصفة معينة أو بدلالة وظيفية واحدة، وقد شمل هذا "المكان التعبّدي": الرباط أو الرابطة والزاوية والحصن والمحرس والقصر والمنظرة والمسجد والضريح (أي قبر الولي أو الصالح)، وما انضاف إلى ذلك من الأمكنة المبنية أو غير المبنية مثل: الكهف والغار والنوالة والعريش والخيمة والقيطون[2]، وهي الأمكنة التي عرفت تطورا تاريخيا تاريخيا مرتبطا بالنمط الوظيفي الذي خصّصت له.

2-1-1- ظاهرة الرباط أو الرابطة بالناحية الشلفية:

إنّ الرباط الذي أقيم في قرى الساحل أو بالقرب منها وأحيانا في المناطق الداخلية لبلاد المغرب[3]، ارتبط مفهومه منذ البداية في المشرق ثم في البلاد المغربية بالمرابطة للجهاد وحراسة الثغور

1-عبد الطيف الشاذلي: **التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري**، منشورات جامعة الحسن الثاني، 1989م، ص.167.

2- **نفسه:** ص.168.

3-آمال لدرع: **الحركة الصوفية في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633هـ-1236م/962هـ-1555م)**، ماجستير في التاريخ الوسيط، قسنطينة: جامعة منتوري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، إشراف: بوبة مجاني، 1426هـ-1427هـ/2005م-2006م، ص.252؛ نللي سلامة العامري: **الولاية والمجتمع – مساهمة في**

الثغور على حدود المواجهة بين المسلمين وأعدائهم، لهذا فإنّ الربط كانت حصونا على سواحل إفريقية أولا ثم المغرب الأوسط والمغرب الأقصى لتعزز هذه الوظيفة الجهادية بسلوك طبعته المجاهدة والإقبال على العبادة كنوع من الاستعداد الروحي للجهاد[1].

وكان الرباط عبارة عن موقع قد يشمل مدنا بأكملها في حال التعبئة، وقد يكون مسجدا يأوي إليه المنقطعون في الحالات العادية[2].

ويبدو أنّه منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ارتبطت الوظيفة التعبّدية أكثر بهذا "المكان" على الرغم من احتفاظها بدورها "الجهادي" الأول لتصبح مقاما للعبّاد المنقطعين للعبادة والزهد والمجاهدات الصوفية أي الرابطة[3]، والتي انتقل مفهومها إلى المغرب في حدود القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي: حيث استغلت كذلك كمأوى للغرباء من الصوفية أو للمنقطعين من العباد وتحمل شيوخ التصوف إنشاءها بالقرب من المدن أو في محيطها لممارسة شعائرهم التعبّدية والاجتماع بتلاميذهم ومريديهم وإحياء الليالي وحلقات السماع[4].

تحدّث ابن خلدون عن المفارقة الاجتماعية للعرب البدو، خاصة منها عرب سويد التي مارست سلوكا حضريا بتأسيسها لرباط "تعبّدي" في الموضع الذي بنيت فيه قلعة تاوغزوت –بني سلامة لاحقا– عن طريق اتصال مريديها "بالمدينية"، وأخذهم عن كبار الشيوخ المتصوّفة، مثل ما حدث مع أبي مسعود بن عريف مع أبي مدين شعيب (تـ.594هـ/1198م) في بجاية، حيث تمدرس على يده وعاد إلى باديته ليشرع في نشر تعاليمه في جبال شلف والاعتكاف على التعبد

التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي–، تقديم: هشام جعيط، مج.12، تونس: منشورات كلية الآداب بمنّوبة، جامعة منّوبة، ص-ص.103-109؛ محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.2، ص.735؛ سهام دحماني: **المرأة والتصوف في المغرب الإسلامي من القرن 6هـ/12م–إلى القرن 9هـ/15م**، مذكرة الماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسنطينة: جامعة منتوري، إشراف: بوبة مجاني، 1427هـ-1428هـ/2006م-2007م، ص-ص.35-37.

1- محمد المغراوي: **العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين**، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، الرباط: جامعة محمد الخامس (أكدال)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، إشراف: عز الدين عمر موسى، أحمد التوفيق، 1422هـ-1423هـ/2001م-2002م، ص.303.

2- **نفسه**: ص.304.

3- آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.252؛ سهام دحماني: **المرجع السابق**، ص-ص.37-38.

4- محمد المغراوي: **المرجع السابق**، ص.304.

وتعليم المريدين[1]، وبداية الحديث عن انتشار الطريقة "المدينية" بالبلاد القريبة من المجال الشلفي بين عرب سويد والديالم خاصة خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[2]، وهي الفترة التي أخذ فيها شيوخ الزوايا والرباطات بنشر التصوف في الأرياف والمدن وتبسيطه لجعله في متناول العامة من الساكنة وأهل الريف[3]، فالتطور الحاصل في "جغرافية الانتشار الصوفي"، تمّ عن طريق تأسيس الزوايا في البادية وفي المناطق البعيدة عن مركز الولي أو الصالح[4].

في الحقيقة إنّ العمران الصوفي بالمغرب الأوسط –حسب إحدى الدراسات– ارتبط بأنماط بنائية مختلفة احتضنت أشكالا خاصة للأنشطة الصوفية وطقوسها في مرحلة القرنين الثامن والتاسع الهجرين/الرابع عشر و الخامس عشر الميلاديين، والتي عرف فيها المغرب الأوسط تطورات في المجالين الساحلي و الداخلي[5]، وإن كان الواقع الشلفي ارتبط خاصة بالمجال الثاني الذي عرف فوضى ناتجة عن نشاط قطاع الطرق و اللصوص، والذي أدّى إلى بعث "مؤسسة الرباط" من جديد، ثم ما لبثت أن صارت فضاء لطقوس المرابطين في إطار يمكن أن يسمى بالتصوف المنظّم، وما صاحب ذلك من تطور في عمران الربط ووظائفها[6].

ويبدو أنّ الحاجة حتّمت العودة إلى نظام الرباط في القرنين الثامن و التاسع الهجريين /الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين بعد اختفاءها في أوائل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وتحوّل أكثرها إلى رابطات ممثّلة في الرباط القصر و رباط المريدين و رباط الذكر والسماع ورباط الإغاثة، ولعلّها بتسمياتها هذه ارتبطت بنمط وظيفتها أكثر من أي شئ آخر[7].

1- ابن قنفذ: **أنس الفقير**، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي، أدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، (جامعة محمد الخامس، كلية الآداب)، ص .40؛ الطاهر بونابي: **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين /12و13الميلاديين – نشأته، تياراته، دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي–(مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي للجزائر خلال العصر الوسيط)**، عين مليلة: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م، ص.128.

2- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.340.

3- ألفرد بيل: **المرجع السابق**، ص.405.

4- **نفسه:** ص.410.

5- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.596

6- **نفسه.**

7- **نفسه:** ص.597.

فظهور ربط الذكر و السماع و التي كانت مقصدا للعامة و الخاصة خلال القرن 9هـ/15م في بوادي المغرب الأوسط وعلى سواحله، بالإضافة إلى رباط "الإغاثة" -والذي تسبّبت اعتداءات قطاع الطرق في قيامه- والذي لم يكن إنشاؤه يكلف عناء ومؤونة، فيكفي أن يقيم فرد في موضع يحرسه فيسمى ذلك رباطا للإغاثة[1]، حسب المعطيات النصّية المحلية يعبّر عن طبيعة الانتشار الواسع لهذا النوع من الربط بالمنطقة الشلفية.

و على العموم فنحن لا نملك أدلّة نصّية عن توفر أنماط أخرى لهذه الربط أو الرابطات بالمنطقة الشلفية، حيث ارتبطت هذه الأمكنة "بقداسة شعبية"، وأصبحت مجالا للتبرك، وهو ما أدّى إلى ارتفاع أصوات الفقهاء مطالبين بضبط وظيفة الرباط و شروط السكن فيه وظروف العسس وأوقاتها، وهذا ما اصطلح عليه بأزمة الرباط في القرن 9هـ/15م[2].

2-1-2- الزاوية في الناحية الشلفية أو الزاوية الشلفية:

أخذت دلالة "الرابطة الصوفية" تزول من التداول المصطلحي الصوفي منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، لتحل محلّها "الزاوية"، والتي تأخر ظهورها بالمغرب الأوسط مقارنة بنظيرتيها بالمغرب الأقصى وإفريقية، حيث عرفت هاتين الأخيرتين انتشار هذا النمط العمراني منذ أواخر الفترة المرابطية وبداية المرحلة الموحدية[3].

حيث شهد تطور هيكلها العمراني ووظائفها بالمغرب الأوسط حسب الأدلة النّصية الوسيطة الأولى بطئا، فزاوية أبي زكريا يحي الزواوي (تـ.611هـ/1215م) في بجاية مثلا

1-الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.2، ص.403؛ الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.600.

2- **نفسه**: ص.601.

3- مسعود العيد: "المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، **سيرتا**، قسنطينة: جامعة قسنطينة، السنة: 06، ع.10، 1408هـ/1988م، ص-ص.5-6.

كانت عبارة عن بناية صغيرة ملحقة بمسجد ينعزل فيها للخلوة والعبادة ويقوم على خدمته بعض من أهله بينما كان يؤدي صلواته الخمس ويعقد دروسه في المسجد[1].

ويبدو أنّه منذ النصف الثاني من القرن 7هـ/13م أصبح هذا المصطلح أكثر انتشارا في ظل تغييب أو تداخل بعض المصطلحات الرديفة، حيث بدأت تظهر الزوايا كشكل خاص للمؤسسة الدينية والفكرية والاجتماعية في المغرب الأوسط[2]، والتي لا يستبعد أن تكون قد ورثت وظائف الرابطات وهيكلها المعماري، على الرغم من أنّ الرابطة التي نشأت في النصف الثاني من القرن 5هـ/11م لم تغادر الساحة الدينية والثقافية ببجاية وتلمسان، حيث ظلّت حتى نهاية النصف الأول من القرن 7هـ/13م تقوم بوظائف التعبّد وإيواء الطلبة، وتدريس التصوف وعلوم أخرى وممارسة الأوراد والأذكار[3].

في الحقيقة يبدو أنّ هناك مغالطة تاريخية حول الممارسة الصوفية في البلاد الشلفية فعلى الرغم من عدم امتلاكي للأدلة النصّية الكافية التي يمكنني من خلالها تتبع تطورات هذه الظاهرة بها، إلاّ أنّي لا أوافق ذلك التجاهل الذي أبدته بعض دراسات التصوف بمجال المغرب الأوسط حولها، وهذا اعتمادا على إشارة ابن خلدون السابقة وابن قنفذ أيضا.

ولا أدري إن كان مصطلح الزاوية يتناسب مع الوضع الصوفي الأول بالبلاد الشلفية، فبعض النصوص المنقبية والتي اهتمت بشخصية "أبي مسعود بن عريف"، تحدّثت عن قبره كمزار للتبرك: «ومن أصحاب الشيخ أبي مدين رضي الله عنه الشيخ الصالح الشهير أبو مسعود بن عريف من جبال شلف بأرض تلمسان وكان مجاب الدعوة مشهور البركة وقبره بجبال شلف يزار ويتبرك به.»[4]

وقد تكون إشارة تلقي يعقوب بن عمران البويوسفي على يد أبي مسعود بن عريف، تجيز الاعتقاد بوجود "مكان صوفي" نجهل صفته خاص بالشيخ الصوفي الشلفي: «وهو شيخ والد

1- الغبريني: **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق: رابح بونار، ط.2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص-ص.137-138، نقلا عن الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.607؛ نللي سلامة العامري: **المرجع السابق**، ص.123.

2- آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.254.

3- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.607.

4- ابن قنفذ: **أنس الفقير**، ص.40.

جدي للأم يعقوب بن عمران البويوسفي، فإنّه ارتحل إليه في صغره فأدّبه وهذّبه وأحسن تربيته وقرّبه وانتفع على يده، وأمره بالانصراف إلى وطنه، فأقام به زاوية، ووجد ببركته مكانة سنية...»[1].

وحتى العبارة التالية توحي بوجوده أيضا: «...وحدّث الشيخ عن شيخه أبي مسعود الحكاية المشهورة، وهي أنّه قال: نمت ليلة قريبا من شيخنا أبي مسعود في خلوته...فسمعت كل شعرة تذكر الله تعالى بلسان فصيح...»[2]

لذلك قد نتماشى مع رأي الدولاتلي في أحد تصنيفاته للزاوية، والتي عبّر عنها بالزاوية الحاوية لجثمان الولي أو الزاوية المقبرة (أو التربة)، والتي يقصدها الناس للزيارة والتبرك، وهو الصنف الذي يرث المكان الذي يسكنه الرجل الصالح أو موقع خلوته سواء كان خارج المدينة أو داخل أسوارها[3]، فقد ساهم جثمان الشيخ الصوفي (الصالح) أو المرابط الذي يدفن في بيت داخل الزاوية في إبراز مشهدا جديدا من مشاهد العمران الصوفي الذي أضفى على الزاوية طابع القداسة، فازدادت انفتاحا على الوسط الاجتماعي والديني المحيط به[4].

وتعد كتب المناقب من أثرى المؤلفات بالمعلومات الخاصة بهذه الأماكن المقدّسة والعالقة بالذاكرة الشعبية الشفوية خاصة، كما أنّ هذه النصوص المنقبية ساعدت على إبراز التطور الوظيفي للزاوية بالبلاد المغربية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وهو ما أبرزه ابن مرزوق الخطيب (تـ.781هـ/1379م) في مسنده، حيث أصبحت مكانا لإيواء وإطعام الواردين عليها من الفقراء والمسافرين والزوار والمحبّين في قوله: «...و الظاهر أنّ الزاوية عندنا في المغرب هي المواضع المعدّة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين...»[5].

1- **نفسه.**
2- **نفسه:** ص-ص.41-42.
3- عبد العزيز الدولاتلي: **المرجع السابق**، ص.141؛ م.طالبي: "إشعاع الحضارة المغربية"، ص.84.
4- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.409؛ ويراجع أيضا روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص.354؛ محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.2، ص.763.
5- ابن مرزوق: **المسند**، ص.413.

والتي أكدّها ابن صعد التلمساني (تـــ.901هــ/1496م)، عندما شدّد على أهمية السماط أي بساط الطعام الطويل بقوله: «...ولابد للسماط للجالس ومن يمشي...»[1]، لكن أي نمط وظيفي كانت تمثله الزاوية بالمنطقة الشلفية؟

يشير أحد الدارسين إلى نمط الزاوية الريفية الذي ظهر أول مرة بالمغرب الأوسط خلال القرن 7هــ/13م في سياق التحول الإجتماعي الذي عرفته القبائل الهلالية نحو الاستقرار وممارسة الزراعة، والتي أطلق عليها اسم المدشر أي البناء الصغير المتصل بالأرض الزراعية[2]، وحينها كانت مجرد مأوى للمسافرين يلجؤون إليه في الليل ويحتمون فيه من برد الشتاء، ويأمنون به من خطر اللصوص ومن هنا اتخذت صفة الزاوية الملجأ[3]، والتي انحصرت وظيفتها خلال القرن 8هــ/14م في الرباط و الجهاد لتأمين السبل للمسافرين ثم ما لبثت في القرن 9هــ/15م أن اكتسبت مكوّنات دينية واقتصادية و اجتماعية وسياسية طبعت مسارها في علاقاتها بمنظومة التصوف والسلطة ومجتمع الريف والبادية[4]، مثل الزاوية المدشر التي بناها بنو راشد للولي يحي المديوني في موطنهم[5]، وكذلك ما قام به سيدي سينا في سهل البطحاء الذي تمكّن من أن يحرك المريدين لخدمة الزراعة فأضحى إنتاجها وهبات الناس للزاوية موارد قارة ينفق منها على المريدين والوافدين عليها، الأمر الذي يبيّن قيام هذه الزاوية بوظيفة الإيواء والإطعام[6]، ومن هنا تبدو الزاوية الريفية[7]

1- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص.104.

2- المدشر أو المجشر: صيغة فصيحة تعني مكان الجشر، والجشر في قواميس الفصحى هو إخراج الدواب للرعي، ومنه الجشر - بفتح الجيم والشين- وهو القوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ويبيتون مكانهم ولا يرجعون إلى أهليهم ومن هنا كان معنى (المجشر) في عربية الغرب الإسلامي: القرية الصغيرة أو المجتمع السكني البدوي كالدوار، وقد عرفت الكلمة تطورا صوتيا في المغرب الأقصى فأبدلوا الجيم دالا فقالوا (مدشر)، وقالوا في (جشر): (دشر) وأحيانا (دشار)، عبد العالي الودغيري: "الألفاظ المغربية-الأندلسية في معيار الونشريسي"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط: ع.17، 1992م، ص-ص.44-45.

3- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص، ص.341، 623.

4- **نفسه**: ص.623.

5- ابن مريم: **المصدر السابق**، ص.306.

6- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.623.

الريفية[1] وقد انتفى منها التعليم الصوفي الراقي، والدراسات العلمية على عكس الزاوية الصوفية والزاوية المدرسة بالمدينة[2].

فقد ذكر الوزّان مثلا ما يعكس التربية الصوفية البسيطة في زاوية سيدي سينا بالبطحاء الذي كان يلزم مريديه بالصلوات العادية و بعض الأوراد و يعلّمهم بعض أسماء الله الحسنى ويوصيهم بذكرها عدة مرات باليوم فقط دون تربية صوفية مركّزة أو فقه واسع ينتفعون به[3]، لكنّها أوجدت مفهوما جديدا للتعاون والعمل المشترك بين أفراد القبيلة أو ما أطلق عليه ابن مريم اسم التويزة[4]، وحسب موسى بن عيسى المغيلي المازوني أيضا، فقد ظهر مرابطوا "الذكر والسماع والسماع والرقص والشطح" الذي يمارسون أنشطتهم بالزوايا أو الربط بقرى وبوادي زناتة[5].

وقد يكون بعض العمران الصوفي بالمنطقة مثّل نموذج الزاوية الضريح[6]، الذي صار في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مكانا يشّع منه المقدس وعنده تقضى حوائج الناس ويمارس من خلاله الولي سلطته الكاريزماتية[7]، ومثال ذلك زاوية أبي يعقوب بن عبد الله بن محيو الهواري ببني حلوان بساحل مازونة[8]، وقبر واضح الشلفي[1]، وقبر أبي الربيع المديوني، وفاتح بن يوسف، وأبي زكريا بن علي، وأبي مسعود بن عريف[2].

1- عن الانتشار الواسع للزوايا في البوادي والقرى والمدن، ينظر محمد حسن: **الجغرافيا التاريخية**، ص.24؛ ألفرد بيل: **المرجع السابق**، ص.410؛ فقد حظيت الزاوية الريفية حسب محمد حسن بسلطة في الآن نفسه مادية ومعنوية، وكان للولي الصالح "كاريزما" قادرة على الحد من حركات البدو وحرابتهم، وعلى توطين عمال الزراعة وتأمين هذه العملية بمعنى آخر على الفصل بين المجالين الزراعي والبدوي، وتوطيد سلطة المخزن الحفصي في المنطقة حسبه، ففي النصف الثاني من القرن الثامن الهجري انتشار الزوايا الريفية في المفاصل المجالية الهامة، وقد منحهم المخزن الحفصي الأرض تحبيسا لتوطين المجموعات الزراعية وضمان ريع عقاري ثابت وقوى اجتماعية مساندة ومناصرة، محمد حسن: **الجغرافيا التاريخية**، ص.246.

2- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص، ص.611-616، 618-622.

3- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.29؛ مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.326.

4 - ابن مريم: **المصدر السابق**، ص.306.

5- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.192 ومايليها.

6- آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.260؛ وعن الزاوية الضريح أو الزاوية الحاوية لجثمان الولي، عبد العزيز الدولاتلي: **المرجع السابق**، ص.141؛ والتي يعطيها اسم آخر وهو الزاوية المقبرة (أو التربة).

7 - نللي العامري: **المرجع السابق**، ص.256؛ الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.624.

8- هل هي نفسها زاوية أبي يعقوب العشاشي بالشلف، الزياني: **دليل الحيران**، ص-ص.59-60؛ أو أبي يعقوب العشعاشي يراجع الراشدي: **القول الأوسط**، ص-ص.51-52.

ويبدو أنّ العملية البنائية للزوايا بالمنطقة استمرت حتى نهايات الفترة الوسيطة، حيث ساهم أحمد بن يوسف الملياني الراشدي (تـــ.927هـــ/1520م) الذي هجر زاويته بـــ "رأس الماء" في حدود سنة 911هـــ/1505م، وقضى العقدين المتبقيين من عمره متنقلا في نطاق غرب المغرب الأوسط في "يلل" من وطن "بني وغدمن" أو وغدّوا من شمال القلعة ومصراتة ثم تانصرت القريبة من مازونة ثم أخيرا بسهل الشلف، وفي كل هذه المحطات كان يؤسس الزوايا ويتصدّر لمشيختها[3].

2-2- أنماط أخرى:

تعتبر الأضرحة والقبور في المدينة الإسلامية -والتي تقع في معظم الأحوال خارج أسوار المدينة بالقرب من الطرق المؤدّية إلى الأبواب الرئيسية للمدينة-[4]، أحد مكوّنات العمران الصوفي أيضا والمرتبط بطقوس البركة والتضرع التي تبنّاها المجتمع الشلفي وحتى المازوني في تلك الفترة[5]، وهي الأضرحة التي شملت حتى صوفية القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، والتي ارتبطت بأبواب المدن وأسوارها، وفي الطرق الرئيسية بالبوادي وعند السواحل، وهي التي خصّها المازوني الأب في نصه المنقبي مبيّنا وظيفتها وطبيعتها[6].

1- أبو البيان واضح بن عاصم المكناسي دفين الجانب الشرقي من خنق وادي رهيو من جبل آفرشان، الزياني: **دليل الحيران**، ص-ص.58-59؛ الحفناوي: **تعريف الخلف برجال السلف**، تحقيق: محمد أبو الأجفان، عثمان بطيخ، بيروت -تونس: مؤسسة الرسالة-المكتبة العتيقة، القسم: 02، 1402هـــ/1982م، ص-ص.587-588.

2- وهناك شخصيات أخرى ذكرها الحفناوي مثل: سيدي أبي عبد الله الهواري التنسي، سيدي أبي يحي وسيدي يحي بن أمهبول، الحفناوي: **المرجع السابق**، القسم: 02، ص.584.

3-الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.537؛ وعن شخصية سيدي أحمد بن يوسف الراشدي وهو أحد من جمع بين علم الحقيقة والشريعة، ولقد انتهت إليه رياسة السالكين وتربية المريدين بالبلاد الراشدية والمغرب بأسره، وغير ذلك من ساير البلاد، واجتمع عنده جماعة من أكابر المشايخ من العلماء والصالحين من تلامذته، يراجع محمد بن محمد الصباغ: **نسمات الأزهار ومناقب الأبرار**، و.7؛ أمّا عن رأس الماء الموجودة بوطن بني راشد ويلل وتانصرت، يراجع **نفسه**: و.10، 36، 128، 161.

4- عن ثقافة الاعتقاد بالضريح في المجتمع التلمساني مثلا عبد العزيز فيلالي: **تلمسان**، ج.1، ص-ص.151-152.

5- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.601.

6- **نفسه**.

وتعتبر أرجوزة الفلك الكواكبي في أولياء منطقة الشلف لأبي عبد الله بن المغوفل (تـ.1023هـ/1614م)[1]، أهم عمل عالج موضوع صوفية الشلف بعد مؤلف صلحاء وادي شلف لموسى بن عيسى المازوني ومؤلفاته المناقبية الأخرى، والذي تحدّث فيها على نسب الرجال وعلى مواطنهم ومواطن قبورهم -التي اختفت للأسف وضاع معها أحد الشواهد المادية- واعتبر ذلك خدمة لأهل الطريقة "القادرية"، وسلما للوصول إلى آداب الطريق وإلى الحقيقة، وكتب ذلك بأسلوب موجز مقربا به ما بعد من المسائل والمعارف[2]، قائلا:

وبعد فالقصد بهذا الرجـــز   تقريب ما نأى بلفظ موجز
ظاهر اللفظ ليس بالمعقـــد   ليحصل النفع به للمبتدي
سمّيته بالفلك الكواكـــــبي   وسلم الراقي إلى المراتـــب
أعني مراتب السلوك للمريد   في الابتدا والانتهاء للمزيد
وبعد ذا نذكر ما وعيـــت   من الأشياخ وعنهم رويـت
مناقب بعض أهل الإغاثـــة   ما شاؤهم في القرون الثلاثة
في أول السادس وفي السابع   والثامن إلاّ بعض في التاسع[3]

جمع ابن المغوفل في أرجوزته أخبار أولياء المنطقة الشلفية من القرن السادس الهجري إلى التاسع الهجري/الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين[4]، حيث تحدّث عن أخبارهم وعن مناقبهم

1- لقد عاش ابن المغوفل أو المغوفل أبو عبد الله بن محمد بن واضح بن عثمان بن عيسى بن فكرون بن القاسم بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد السلام بن أمشيش الحسني، في بداية العهد العثماني، ورجزه قصير وبسيط، ومن سوء حظه أنّ أحدا لم يعمد إلى شرحه وتوضيح التراجم التي لمح إليها أو اختصرها، وبذلك ظلّ محتوى الرجز غامضا فكثير من الأسماء التي وردت فيه غير معروفة إلاّ للناظم، والظاهر أنّ ابن المغوفل كان بسيط المعرفة وأنّه سجل في هذه الأرجوزة ما وسعته ذاكرته أو أخبره به الناس ووجده في بعض المصادر عن حياة صلحاء الشلف وعمله محشو بالأساطير والخرافات والتقاليد الشعبية أكثر من بعض الأخبار والحقائق العلمية، ولكن عمله على كل حال يعكس روح العصر، أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ج.2، ص.351؛ ويعرف المغوفل ببوعبدل أيضا، وهو المشهور في مؤلفات الغرب الجزائري القديمة (الرجز مخطوط في المكتبة الوطنية)، الجزائر، رقم: 2259، في سبع صفحات، يراجع أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ج.2، ص.118.

2- **نفسه**: ص-ص.116-117.

3- أبو عبد الله المغوفل: **فلك الكواكب وسلم الرقي إلى المراتب**، زاوية معسكر (نسخة مصورة عن الشيخ بلقرض)، و.1، 3.

4- وهذا بعض من نص الرجز:

وسمّى بعضهم أهل الغوث وآخرين البدور، وتحدّث عن خصائص المريدين والأولياء ودرجات كل منهم وسلوكهم نحو الآخرين، والغرض من ذكرهم كما قال هو التبرك بهم لينتبه العاقل ويتوب المذنب، ومن هؤلاء الشيوخ رجال سكنوا البطحاء، لكنّ قبورهم قد اندرست باندراسهم، إلاّ ما ندر كالشيخ أبي عمران موسى المشذال الذي أفاق وسكن قرية أخرى وهو من علماء الظاهر والباطن، ومن أشراف هوارة ومنهم أيضا أبو أيوب والبزاغتي وراشد وعبد الجليل المسيلي، وابن أبي العافية والسعدي صاحب الكرامات التي أخاف بها الأمير لولا أنّ هذا قد طلب العفو منه، وأرسل إليه الهدية فعفا عنه ورضي، ومنهم أحمدوش الملقب بالأحمد الزاهد الذي كان يتقن تجويد القرآن والذي أصبح معلما للصبيان بأجرة مع لذيذ طعام.

وبالإضافة إلى هؤلاء هناك آخرون بغرب وشرق وجنوب القلعة يدافعون عن البلاد وهم حرّاس لها ضد ظلم الحكام ولكن انعكس الأمر بسوء الحال فذل العزيز وفقر الغني، وذكر المغوفل بعد ذلك شيوخه وخصّ بالذكر علي الجوثي الذي قال إنّ الأرض قد ازيّنت به وأنّه حمل لواء العلم، وكان يجمع بين السنّة والتصوف وكان يجيد الحديث والتفسير والمنطق والأدب، « فالزمان لايأتي بمثله.»[1].

منهم رجال سكنوا البطحـــاء ... كانوا بها بدورا أصفيــــــــــــاء

لم يعرفوا قبورهم في عصرنــــا ... إلاّ مع التمني في امــكانـــنــــــــا

فكلهم دروا بانـــــــــــدراس ... زمانهم فهم من.................

لم يبق إلاّ النــزر والخلفــــــــا ... جرى عليه الدهر نيله غــفــــــا

وبعضهم أفــاق لمريد فـــــــــلا ... في الحصن بل في قــرية منفصــــلا

كأبي عمران مـــوسى المشـــذال ... الموصوف بالفضــل والكمـــــــال

جاز كثيرا من العلــم الظاهـــر ... ومثل ذلك في الســر المستتـــــــر

وكم من مغيــث استغاثـــــــه ... به وقد عجلتـه الإغاثـــــــــــة

وبطيب هـــوارة يلقـــــــــــب ... وإلى الجانب الرفيــع ينســـــــب

وكأبي أيـوب وكالبزاغـــــــــة ... وراشد وابـن العافيـــــــــــــة

كان من يعرفهم تحــــــــــولا ... وكل من بعدهـــم بالأرض جهـــلا

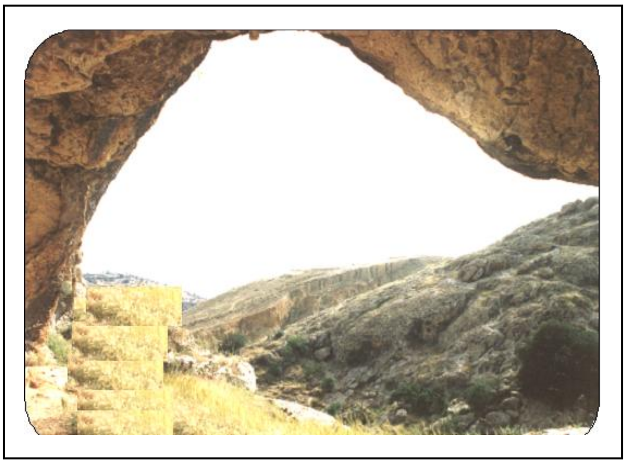
فكلهم خفــوا سوى اليسيــــــر ... مقابرهم في المدفن الأثيـــــــــر

أسماؤهم مجهولة لا تعــــــرف ... والأضرحة ميزهـــا من يعـــــرف

أبو عبد الله المغوفل: **فلك الكواكب**، و.3؛ ويراجع أيضا الزياني: **دليل الحيران**، ص-ص.58-61.

1- أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ج.2، ص.117.

وعلى العموم فقد ارتبطت بقبور بادية الشلف وساحل مازونة صفة الحرم، حيث كانت ملجأ لاعتصام الناس من اللصوص وقطاع الطرق[1]، مثل قبر واضح الشلفي وقبر أبي يعقوب بن عبد الله بن محيو الهواري ببني حلوان بساحل مازونة، وقبر أبي الربيع المديوني وفاتح بن يوسف وأبي زكريا بن علي وأبي مسعود بن عريف[2].



صورة رقم: 15(كهوف تنسري)

كما أنّ الجبل تموقع كمعلم بارز في المشهد العام للعمل الصوفي، ما إن اكتسحت الظاهرة الصوفية ملامح الفعل الاجتماعي في المغرب، ومن خلال إلقاء نظرة على المتاح من أدبيات الرصيد الصوفي، يبدو الجبل بقوة في النص المنقبي يؤدي دورا أساسيا في العملية الدينية والتمظهر الصوفي[3]، وهو ما مثّله جبل آفرشان أو وافرشان بجبال الشلف[4]، الذي أخذ صيته من ملازمة الصوفي أبي البيان واضح لكهوفه وغيرانه[5]، وهوما يوضّحه موسى بن عيسى المازوني في هذا النص: «...وقالوا إنّ هذا المكان الذي تحوّل إليه الشيخ هو المعروف عندنا بثغور...ثم انتقل عنه للموضع الذي قبضه الله فيه وبني فيه خويمة وهي المسماة تاعشوشت...قبلة جبل وافرشان بقبيلة

1- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.606.

2- عن قبر واضح الشلفي بجبل وافرشان أو آفرشان يراجع المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.116؛ الصباغ: **نسمات الأزهار ومناقب الأبرار**، و.94؛ وعن قبر أبي يعقوب بن عبد الله بن محيو الهواري ببني حلوان بساحل مازونة، **نفسه:** و.208، وعن قبور أبي الربيع المديوني، فاتح بن يوسف وأبي زكريا بن علي وقبر أبي مسعود بن عريف بجوار تيمزوغت، **نفسه:** و.214، 293.

3- آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.249.

4- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.57.

5- **نفسه:** و.68-69.

مكناسة، فكان يتعبّد فيها وفي كهوف هناك إلى أن اشتهر أمره...»[1]، بالإضافة إلى ما رواه حفدته لموسى بن عيسى المازوني عن هذا الشيخ الصوفي: «...وحدّثني من عاصرته من حفدته أنّه قال لإمامه سيدي عزوز سر بنا لكهوفنا بجبل وافرشان فإنّ الفقراء والواردين يردون هنا علينا وليس عندنا ما نطعمهم وجيراننا لا يهون عليهم بذل متاعهم...»[2].



مخطط رقم: 03 (المخطط العمراني للمدينة سنة 1879)

(فتيحة الواليش: المرجع السابق، ص.193؛ **Moulay Belhamissi, *Mazouna* ,p.90**)

II– مقاربة حول قضايا مازونية:

1– بيوتات ونخب مازونية:

1–1–البيت المغيلي المازوني:

هل يمكن اعتماد مصطلح "البيت" مع الأسرة المغيلية؟

يعبّر لفظ البيت في الفترة الوسيطة عن مميّزات تختص بها وتكتسبها أسرة معينة، وتستمر فيها على مدار ثلاثة أو أربعة آباء في مجال العلم والتصوف والثروة والجاه والفروسية والشجاعة

والصلاح، فالبيت هو: «ما كانت له سابقة ولاحقة وعماد حال ومساك دهر فإن كان ذلك فهو بيت...»، ويراد بالسابقة ما سلف من شرف الآباء، وباللاحقة ما لحق من شرف الأبناء، وبعماد الحال الثروة وبمساك الدهر الجاه[1].

والبيت من الألفاظ التي شاع استعمالها في القرن 8هـ/14م من طرف نخبة المغرب الأوسط، الذين كتبوا مثلا في مناقب أسرهم الصوفية، أو في البيوتات التي عاصروا أحفادها وأرّخوا لها[2].

وإن كان روبار برنشفيك ***(Robert Brunschvig)*** يعتبر أنّ تكوين عائلات مشهورة من العلماء، يعبّر عن اتجاه جديد منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي والنصف الثاني منه، أو كما عبّر عنها باحتكار الفقه من قبل بعض العائلات بالوراثة مصحوبة بنقص لا جدال فيه في عمق وطرافة الدراسات الشرعية، دون أن يكون هناك أي ارتباط متين بين الظاهرتين[3].

إنّ تبني لهذا المصطلح[4]، وربطه بواقع الأسرة المغيلية التي تنتسب إلى القبيلة الزناتية البترية مغيلة، والتي يحدد ابن خلدون مواطنها بنواحي تلمسان[5]، يعبّر عن المكانة التي كانت عليها داخل المجتمع المحلي المازوني، لكن للأسف لا تتوفر لدينا مؤلفات أو معلومات خاصة بهذا البيت كتلك التي ظهرت حول بيوتات تلمسان أو قسنطينة مثلا، فنحن ببساطة لا نستطيع أن نحدد مثلا إن كان هذا البيت أصيل المدينة مازونة أم وافدا عليها.

1-1-1- مؤلف الدرر المكنونة في نوازل مازونة (المرجعية الفقهية المغربية الشهيرة والبيت المغيلي):

لقد أبرز الباحثون الغربيون خاصة منهم الفرنسيين المهتمون بعلم الإسلاميات ***(Les Islamologues)***، خصوصية وأهمية الفتاوى والنوازل الفقهية في التاريخ الاقتصادي

1- عبد الكريم بن هاشم الكتاني: **زهرة الآس في بيوتات أهل فاس**، تحقيق: علي بن المنتصر الكتاني، ج.1، الدار البيضاء: منشورات مطبعة النجاح الجديدة، 2002، ص.45.

2- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.179.

3- روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص.331.

4- لم أجد هذا المصطلح مستعملا في النصوص المترجمة لهاتين الشخصيتين المغيليتين.

5- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.12.

والاجتماعي والثقافي الإسلامي عامة والمغربي بصفة خاصة، لتكون نقطة تحول في كتابة التاريخ الحضاري والمونوغرافي المغربي من خلال حركية النص الفقهي، وتغيير النظرة التي كرّست فقرها الوثائقي[1].

ومن بين هؤلاء كلود كاهن *(Claud Cahen)*، روبار برنشفيك *(Robert Brunschvig)*، الهادي روجي إدريس *(Hady Roger Idris)*، وجاك بيرك *(Jacques Berque)*[2]، هذا الأخير الذي ساهم بشكل كبير في لفت الانتباه إلى نوازل مازونة[3]، ومن ثمّ الاهتمام بتاريخ المدينة والمنطقة المهمّش سابقا، حيث وظّف هذه النوازل وغيرها في كتاباته (السوسيولوجية خاصة) عن البلاد المغربية، كما أنّه قد أفرد لها أحيانا أعمالا مستقلة باعتبارها المؤطر القانوني للنشاط الاجتماعي والاقتصادي المجتمعي الوسيط والحديث أيضا، ودعا في مقاله حول نوازل مازونية-التي كتب فيها وحدها أكثر من دراسة- الباحثين المغاربة إلى الاهتمام بهذا النوع من الوثائق الجديدة في أبحاثهم التاريخية[4].

ففي سنة 1970م مثلا عندما نشر جاك بيرك *(Jacques Berque)* مقاله الموسوم بـ: *« Les Hilaliens Repentis ou L'Algérie rurale au xv^{e} siècle d'après un manuscrit jurisprudentiel »*، حول الهلاليين (البدو العرب) والريف في المغرب الأوسط خلال القرن 9هـ/15م، اهتم فيه بتوضيح بعض القضايا التي تناولها

1- محمد المختار ولد سعد: "الفتاوى الفقهية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي الموريتاني -وقفة تأمل-"، **الكرّاسات التونسية**، الثلاثية الرابعة، 1996م، ع.175 (XLIX)، تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، ص-ص.14-15.

2- **نفسه**؛ وعن عمل جاك بيرك في النوازل يراجع:

Miquel André, «sur les lieux», *RMMM*, V. 83, 1(1997), p. 135-138.

3- Touati Houari, «En relisant les Nawazil Mazouna», p.75-76.; Jacques Berque, «Les hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siécle», p.1325; id., «En lisant les Nawâzil Mazouna», p.31-39; id., «Retour à Mazouna», p.150.

4- محمد المختار ولد سعد: المرجع السابق، ص.16.

النص الفقهي المازوني، معتبرا هذه النوازل وثيقة تاريخية هامة مساعدة على بعث الكتابة في التاريخ المغربي[1].

1-1-2- أبو زكريا يحي بن أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني (883هـ/1478م):

لقد ساهم العثور على مخطوط الدرر المكنونة في نوازل مازونة في التعريف بشخصية الابن أبي زكريا يحي بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني، الذي فاقت شهرته صيت والده موسى بن عيسى بن يحي المغيلي، هذا الأخير الذي تعرّفه كتب التراجم بنسبته لابنه "صاحب النوازل"، حيث يذكر التنبكتي في ترجمته له: «موسى بن عيسى بن يحي المغيلي قاضي مازونة، وصفه بعضهم بالفقيه الأجّل المدّرس المحقق القاضي الأكمل وهو والد صاحب النوازل...»[2].

تحدّث المهدي البوعبدلي في مقاله: "الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي"، عن اكتشاف وثيقة كتبها أحمد بن يحي الونشريسي في تلمسان قبل نكبته سنة 874هـ/1469م بثلاث سنوات وهي عبارة عن تقريض تأليف أستاذه أبي زكريا يحي بن موسى المغيلي المازوني: "الدرر المكنونة في نوازل مازونة"، وهذا التقريض مجهول تماما -حسب البوعبدلي- حيث لم يشر إليه أحد من مترجمي الونشريسي[3]، كما لم يشيروا إلى الظروف التي

1- Jacques Berque, «Les hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siécle», p.150; id., *L'intérieur du Maghreb*, p. 1328-1334,1350-1353 ; id., «Retour à Mazouna», p. 25-29.

2- التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص.482.

3- اكتشف هذا التقريض بعد استقلال الجزائر، وبالضبط سنة 1964م، اكتشفه المرحوم الشيخ نعيم النعيمي مفتش الشؤون الدينية بولاية قسنطينة في عهده، إذ استعار نسخة "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" من خزانة الشيخ عبد القادر بن يسعد بقرية الدبة ناحية قلعة بني راشد قرب غليزان، (كان هذا الشيخ من المتخرجين على يد الشيخ بن محمد بن علي المجاجي المتوفي سنة 1008هـ/1599م، وانتصب للتدريس بقرية الدبة، وكون خزانة جمعت نوادر المخطوطات، وضاع معظمها فيما ضاع من كتب التراث)، فوجد أنّ النسخة نقلت من خط مؤلفها وعليها تقريض الونشريسي المذكور سمّاه ناسخه "بالإجازة"، وقال أنّه نقله من خط الونشريسي، المهدي البوعبدلي: "الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي"، **مجلة الأصالة**، ع.83-84، الجزائر: إصدار وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، 1980، ص.26، للأسف لم يتوفر لنا نص هذا التقريض المهم؛ ويتحدث الأستاذ أبو القاسم سعد الله عن مراسلاته مع الشيخ المهدي البوعبدلي، والتي يطلعه فيها على ما تحتويه مكتبته الثرية، ومن بين ما يتحدث عنه تآليف الونشريسي الهامة إجازته -كما سمّاها- وفي الحقيقة هي تقريضه للدرر أو للدرة المكنونة في نوازل مازونة، ترجم فيها (أي الإجازة) للشيخ المازوني، وعرّف بالظروف التي انتقل فيها إلى تلمسان، حيث أنّ

اجتمع فيها بالمازوني الابن، وهذا نص التقريض: «الحمد لله مستحق الثناء والحمد والصلاة والسلام على سيدنا محمد حائز أوصاف الكمال في كمال المجد، وبعد فإنّي لما طلعت السفر الثاني على أرمزة الأنكحة والبيوع من التأليف الجامع المانع المطبوع المقيّد هذا على أول ورقة منه المترجم بالدرر المكنونة في نوازل مازونة، جمع الفقيه الشيخ القاضي العالم العامل المفيد الجامع الشامل الحافظ الحافل الكامل المشار إليه في سماء المعالي بالأنامل، الصدر الأوحد العلاّمة العلم الفضال ذي الخلال السنية وسنى الخصال شيخنا ومفيدنا وملاذنا وسيدنا ومولانا وبركة بلادنا أبي زكريا سيدي يحي ابن الشيخ الفقيه الإمام علم الأعلام...أبي عمران سيدي موسى...»، إلى أن قال: «قد أحرز خصلها وجمع فرعها وأصلها، ورفع عنها نقاب الشيب والشكوك وأوضح نتائج الرسوم والصكوك وشيخيه صاحبه أعظم الله مثوبته بكل نكتة بديعة، من علم القضاء والفتوى، وكل حقيقة ودقيقة تمسّ إليها الحاجة، وتعم بها البلوى وحشد عيون نصوص مالكية المغرب والمشرق وجند ونشر ألويته الخفاقة على كل من ألّف في الفن وبنى...والسلام الجزيل الجميل الأتم الأطيب الأهم يعتمد سيادة مؤلفه من كتابه العبد الفقير الجاني، على البعد والتداني ولحمها بالسر والمعاني عبيد الله تعالى أحمد بن يحي بن محمد بن علي الونشريسي، جاز الله سبحانه وتعالى ولطف به وكتب في العشر الأول...عام إحدى وسبعين وثمانمائة عرفنا الله خيره.»[1].

وعلى العموم فإنّ جل النصوص المترجمة لشخصية هذا القاضي "والفقيه والعلاّمة" تتفق تقريبا في اسمه وكنيته أي أبي زكريا يحي بن أبي عمران موسى بن عيسى بن يحي المغيلي المازوني[2]، ماعدا صاحب البستان الذي ذكر أنّ اسم والده إدريس المازوني[3].

ولد أبو زكريا يحي بن أبي عمران المغيلي بمازونة ودرس بها على يد والده[4]-للأسف لا

المازوني لم يعرفه مترجموه إلاّ بكونه توفي بتلمسان ودفن بها، أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ج.5، ص-ص.372-373؛ =

=Jacques Berque, «En lisant les Nawâzil Mazouna», p. 31; id., «Retour à Mazouna», p. 154; id., *L'intérieur du Maghreb*, p. 23.

1- المهدي البوعبدلي: الجوانب المجهولة، ص-ص.26-27.

2- التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص-ص.509-510؛ التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص.637؛ الونشريسي: **وفيات الونشريسي**، ص.150؛ ابن القاضي: **لقط الفرائد**، ص.267؛ الشفشاوي: **المرجع السابق**، ص.448؛ الحفناوي: **المرجع السابق**، القسم: 01، ص.189؛ ابن القاسم محمد مخلوف: **المرجع السابق**، ص.383.

3- ابن مريم: **المصدر السابق**، ص.42.

4- التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص.509؛ ابن القاضي: **لقط الفرائد**، ص.267.

يمكننا تحديد تاريخ ميلاده- إلاّ أنّه توفي سنة 883هـ/1478م[1]، كما أنّه درس بتلمسان على كبار فقهائها وصوفيتها مثل قاسم العقباني(تـ.854هـ/1450م) و ابن زاغو (تـ.845هـ/1441م)[2] ومحمد بن العباس التلمساني (تـ.871هـ/1467م)[3] وابن مرزوق الحفيد (تـ.842هـ/1438م-1439م)، ليتولى منصب قضاء مازونة و تنس[4] -لسنوات لا يمكننا تحديدها- ومنصب التدريس أيضا[5]، وبعد علو صيته توجّه إلى تلمسان بطلب من السلطان الزياني محمد بن أبي ثابت، المتوكل على الله (866هـ/1461م-873هـ/1468م)[6]، يقول الونشريسي: «حين أورد هذا الشيخ المذكور حضرته العلية صحبة ركابه، وجعله أحد مشيخته

1- وهناك من يقول أنّ وفاته كانت سنة 803هـ/1400م بتلمسان، الحضيكي: **طبقات الحضيكي**، ج.2، تقديم وتحقيق:=

=أحمد بومزكو، الدار البيضاء:مطبعة النجاح الجديدة، 1427هـ-2006م، ص.612؛ الونشريسي: **وفيات الونشريسي**، ص.150.

2- يراجع عنه التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص-ص.118-120؛ التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص-ص.60-62؛ ابن القاضي: **درّة الحجال في غرّة أسماء الرجال**، حقّقه وعلّق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية (منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السّنة والجماعة)، 1423هـ/2002م، ص.36؛ القلصادي: **المصدر السابق**، ص-ص.102-106؛ الوادي آشي: **ثبت الوادي آشي**، ص.105؛ ابن القاضي: **لقط الفرائد**، ص.250؛ ابن مريم: **المصدر السابق**، ص-ص.41-44؛الحفناوي: **المرجع السابق**، القسم: 01، ص.46؛ عادل نويهض: **معجم المفسّرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مج.1، ط.3، تقديم: حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1409هـ/1988م، ص.71؛ ابن القاسم محمد مخلوف: **المرجع السابق**، مج.1، ج.1، ص.366؛ الزركلي: **الأعلام -قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين-**، ج.1، ط.3، بيروت: 1389هـ/1969م، ص.143؛ الزركشي: **المصدر السابق**، ص.140؛ الحجوي: **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، ج.2، القسم 3 و4، بيروت: دار الكتب العلمية، 1416هـ/1995م، ص.302.

3- أبو عبد الله محمد بن العباس التلمساني (تـ.871هـ/1466م-1467م)، التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص.431؛ ابن مريم: **المصدر السابق**، ص-ص.223-224؛ السّخاوي: **المصدر السابق**، مج.4، ج.7، ص.278؛ ابن القاضي: **درّة الحجال**، ص.279؛ ابن القاسم محمد مخلوف: **المرجع السابق**، مج.1، ج.1، ص-ص.381-382.

4- المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.2، و.49؛ المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.3، ص.76.

5- المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.2، و.49.

6- وقد عاصر المازوني الابن أبو العباس أحمد (834هـ/1431م-867هـ/1463م)، محمد المتوكل(866هـ/1462م-877هـ/1473م) وأبو عبد الله الثابتي (877هـ/1473م-910هـ/1505م) أي في فترة انحلال الدولة الزيانية وتبعيتها الخارجية.

الأعلام المشاورين لقصر المنصورة وعلى بابه، وها هو الآن يقري ويفيد ويعيد...»[1]، ليتوفى بها[2].

1-1-3- موسى بن عيسى المغيلي المازوني (تــ.833هــ/1429م-1430م):

شخصية مجهولة بتراث نصي مخطوط:

يعرّفه التنبكتي بـــ: «موسى بن عيسى بن يحي المغيلي قاضي مازونة وصفه بعضهم بالفقيه الأجّل المدّرس المحقّق القاضي الأكمل وهو والد صاحب النوازل...»[3].

ويعرّفه الحفناوي بـــ: «أبي عمران موسى بن عيسى المازوني عالم جليل وعامل أصيل تمكن في السنّة حتى لم يدع للبدعة مدخلا إلاّ سدّه ولا لأهلها مقتلا إلاّ قدّه فهو في الدين طود شامخ ذو مجد باذخ على أولياء مناضل، وفي سبيل الذبّ عن حماهم مقاتل...»[4].

لا تقدّم هذه النصوص وغيرها[5] توضيحات كثيرة لمختلف جوانب هذه الشخصية المؤثرة في الحركيّة العلمية لمازونة، والباعثة لما يمكن أن يسمى "بالتاريخ المحلي" للمنطقة الشلفية سواء في ممارساتها الحياتية أو الصوفية[6].

1- تقريض الونشريسي نقلا عن نور الدين غرداوي: **جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية بالمغرب الإسلامي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/14م-15م من خلال الدرر المكنونة في نوازل مازونة للمازوني**، مذكرة شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: عبد العزيز لعرج، 2005م-2006م، ص.85.

2- حيث خلد اسمه بحارة الرحيبة قرب باب الجياد المشهور في مدينة تلمسان، يراجع محمد بن رمضان شاوش: **المرجع السابق**، ص.437.

3- التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص.482؛ التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص-ص.605-606.

4- الحفناوي: **المرجع السابق**، القسم: 02، ص.583.

5- وهناك من يورده بـــ: "القاضي أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي الحاج الفاسي المازوني نزيل القيروان الشهير بالمغيلي المالكي عالم المغرب، قال صاحب الكشف كان سنة 791هـــ/1388م، ثم تحقق وفاته كما ذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ في سنة 430هـــ/1038م، إسماعيل باشا البغدادي: **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، مج.2، استانبول: وكالة المعارف الجليلة، 1955م، ص.480؛ أمّا عبد العزيز بنعبد الله فإنّه يذكر أنّ وفاته كانت سنة 791هـــ/1389م، عبد العزيز بنعبد الله: **معلمة الفقه المالكي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1403هـــ/1983م، ص.12؛ وترى الباحثة بوبة مجاني أنّه لا يمكن معرفة تاريخ ميلاده، إلاّ أنّه من أسرة علم وفقه درس في قريته، وبها تولى خطة القضاء التي توارثتها أسرته أبا عن جد، فوالده عيسى كان قاضيا بها، كما تولى هو ذات الخطة بها، بوبة مجاني: "كتب النوازل والأحكام مصدرا للتاريخ الاجتماعي -العصر الزياني نموذجا-"، **التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور**، قسنطينة: جامعة منتوري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية وقسم التاريخ (منشورات المخبر)، 2001م، ص.148.

6- **نفسه**: ص.149.



صورة رقم: 16 (قبر موسى بن عيسى المغيلي المازوني)

وعلى العموم فقد تمّ الاهتمام مؤخرا بالعديد من المؤلفات التي مازالت مخطوطة لموسى بن عيسى المغيلي واعتمادها في الدراسات التاريخية الوسيطية المتأخرة خاصة[1]، ومن بينها:

أ- المهذّب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق: [2]

ترى إحدى الدراسات أنّ من موقع عائلة أبي يحي موسى بن عيسى المغيلي المازوني-التي توّلت خطّة القضاء أبا عن جد-[3] قدّم المؤلف مخطوطه المهذّب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق نصوصا هامة وأصيلة حول الجهاز القضائي خلال العهد الزياني متعلقة بالقضاة والشهود والأعوان والفقهاء[4]، حيث أشار موسى بن عيسى المغيلي أنّ الهدف منه هو

1- هناك مخطوطات أخرى لم يتم بعد استعمالها ومنها: "**حلية المسافر وآدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه**"، عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، ط.2، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1400هـ/1980م، ص.281؛ حيث يذكر عدد من الباحثين أنّ هذا المخطوط مفقود، إلاّ أنّ هناك احتمال تواجده ببلدية مازونة أو أنّه ملك شخصي وأيضا مخطوط "**تحلية الذهب في علم القضاء والأدب**"، وهو كتاب في النوازل يتواجد في مكتبة العائلة العثمانية بطولقة (بسكرة).

2- يذكر التنبكتي عنوانه: **الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق** في سفر، التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص.482؛ وهناك من يورده بالعنوان التالي: **المهذّب الرائق في تدبير الناشئ من القضاة وأهل الوثائق**، إسماعيل باشا البغدادي: **هدية العارفين**، مج.2، ص.480؛ إسماعيل باشا البغدادي: **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مج.2، عني بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: رفعت بيلكه الكليسي، وكالة المعارف الجليلة، 1366هـ/1947م، ص.608؛ عبد العزيز بنعبد الله: **معلمة الفقه المالكي**، ص، ص.12، 23، 187، ويتحدث عبد العزيز بنعبد الله عن تواجد هذا المخطوط في المتحف البريطاني رقم: 242.

3- المازوني: **المهذب الرائق**، و.5.

4- صابرة خطيف: **المرجع السابق**، ص.33.

تدريب الناشئة -كما جاء في مقدمة مخطوطه-[1] من القضاة وكتاب الوثائق يرجعون إليه في أحكامهم، ودافعه في ذلك أنّ خطّة القضاء والوثائق في عصره تسلط عليها أصحاب البوادي الجاهلين بالأحكام فسامها كل مفلس وتسلطوا بذوي المناصب السلطانية لغلبة الفساد لضعف السلطنة الزيانية وانحصار سلطتها على البوادي والأرياف التابعة لها مما جعل القضاة عاجزين بدورهم على اختيار من يستحق خطّة الوثائق والقضاء[2]، فقد عرف عصر المؤلف جهل القضاة وعدم نصرة السلاطين لقضاتهم وغضّهم الطرف عما يصدر من عمالهم بانتهاكها حرمة القضاة، بينما الفقهاء لم يناصروا بعضهم بعضا، لذلك فهذا المخطوط أساسي لدراسة الخطط والوظائف الدينية خصوصا في فترة ضعف السلطنة الزيانية وتدهور أحوالها[3]، حيث يتحدّث فيه عن كيفية تعيين القضاة، الذي يتم من قبل السلطان أو قاضي الحضرة أو الحاجب وأيضا عن صلاحياته التي تشمل مجالات الحياة "العامة" للأفراد والمجتمع:

- في قضايا المنازعات.
- الممارسات الدينية.
- المسائل الشخصية.
- قضايا الأوقاف على المساجد والمدارس والزوايا[4].

لقد مثّل هذا المؤلف مرجعية نصيّة لمؤلف "النوازل المازونية"[5]، حيث استمد منه ابنه نوازله وأحكامه كما يشير إلى ذلك في مقدمة درره: «...فإنّي لما امتحنت بخطّة الفصل في عنفوان الشباب، وقادني إليها ما يعلمه الله من الأمور الصعاب، وكثرت عليّ نوازل الخصوم، وتوالت لديّ شكليات المعلوم، وقصر الباع عن إدراك مالا يتطرق إليه التباس، من نص جليّ واضح قياس، لجأت إلى كتب فيما يشكل من نوازل الأحكام...فضمّنت ما كنت جمعت وما

1- المازوني: **المهذب الرائق**، و.5؛ صابرة خطيف: **المرجع السابق**، ص.33.

2- المازوني: **المهذب الرائق**، و.99؛ بوبة مجاني: كتب النوازل والأحكام، ص.149.

3- المازوني: **المهذب الرائق**، و.2؛ بوبة مجاني: كتب النوازل والأحكام، ص-ص.149-150.

4- صابرة خطيف: **المرجع السابق**، ص-ص.156-157.

5- ألفت الدرر المكنونة في نوازل مازونة بين 845هـ-883هـ/1441م-1478م حسب مولاي بلحميسي: "دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية (من القرن 15إلى منتصف القرن 20م)"؛ Jacques Berque, «En lisant les Nawâzil Mazouna», p.38; id., *L'intérieur du Maghreb*, p.29-53.

جمع مولاي الوالد رحمه الله، وما وجدته بيد بعض الخصوم، وبيد بعض قضاة وطننا من أجوبة المتأخرين المتضّمنة مسائل العبادات، ومسائل العادات، مع ما كنت أسأل عنه أو سأله غيري مما يقع لي مع الأصحاب في المذاكرات أو في مجلس الإقراء من إشكال في كلام ابن الحاجب، أو شرّاحه...»[1]، كما أنّ معيار أبو العباس الونشريسي(تــ.914هــ/1508م) اعتمد على النوازل المازونية[2]، وبالتالي يكون المهذّب هو الأصل الذي اعتمد عليه أصحاب الأحكام والنوازل ممن جاء بعده مواد كتبهم[3].

أشار المؤلف موسى بن عيسى المازوني في نصّه إلى أنّ والده كان قاضيا في فترة كانت فيها الحاضرة الزيانية مزدهرة علميا[4]، في حين تكلّم في أكثر من موضع عن سوء الوضعية العلمية، وعن سوء وضعية القضاة وعدم نصرة الملوك لهم، كما أفاض في الحديث عن جهل القضاة وأنّ هؤلاء صاروا لعبة في تلك الفترة[5]، ويفترض أنّ هذا التأليف تم نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي أو خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، خاصة وأنّه لم ينجزه دفعة واحدة، بل انقطع عن تأليفه لمدة عشر سنوات، ثمّ استأنف العمل عليه في أوقات فراغه[6].

ب– قلادة التسجيلات والعقود وتصرّف القاضي والشهود: [7]

نجد في بداية هذا المخطوط مايلي: «قال الشيخ الإمام العالم العلم القدوة المحقّق المشارك القاضي الأعدل صاحب الأنقال الغريبة والتواليف العجيبة السيد أبو عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني أكرم الله مثواه...فلمّا ارتقيت لخطّة القضاء أعملت بصيرتي...ثم سألوني أن أقيّد

1- مقدمة مخطوط الدرر المكنونة في نوازل مازونة.

2- الحضيكي: **المصدر السابق**، ص.612.

3-بوبة مجاني: "كتب النوازل والأحكام"، ص.148.

4- لقد توارثت الأسرة المغيلية خطة القضاء أبا عن جد فوالده عيسى كان قاضيا بها، المازوني: **المهذب الرائق**، و.5؛ بوبة مجاني: كتب النوازل والأحكام، ص.148؛ بوبة مجاني: "المهذّب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق لأبي يحي موسى بن عيسى المغيلي المازوني (تــ.833هــ/1429م-1430م)، مصدر جديد من مصادر التاريخ."، **حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة**، ع.11، 1422هــ/2002م، ص.109.

5- صابرة خطيف: **المرجع السابق**، ص.33.

6- **نفسه**: ص.34.

7- إسماعيل باشا البغدادي: **هدية العارفين**، مج.2، ص.480؛ إسماعيل باشا البغدادي: **إيضاح المكنون**، مج.2، ص.608؛ عبد العزيز بنعبد الله: **معلمة الفقه المالكي**، ص، ص.12، 187.

لهم رسميات يمتدون بها لصناعة التوثيق على نحو ما يستعمله أهل وقتنا ويجري في هذا الأوان ببلدنا وإقليمنا، فتكاسلت لعجز طوقي عن ذلك فألحّوا عليّ، فاستخرت الله عز وجل في إجابتهم وجعلته أيضا تذكرة لنفسي مع كلال الذهن وقلة النشاط...وسمّيته ليكون اسمه وفق معناه قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود...وعلى منوال سيدي الوالد نسجت فإنّه كان مختصرا في كتابته في تمام حسن الحوك مطبوع السبك وبه تفقهت وبالشريف ختمت وعليه في كثير من الحزبيات عوّلت...»[1].

وهي إشارة لدوافع تأليف هذا المخطوط الهام الذي انتهى من كتابته عام 790-791هـ/1388م، كما يشير لذلك صاحب المؤلف نفسه: «انتهى هذا المجموع والحمد لله وكنت ابتدأت في تبييضه في أواسط شوّال من عام تسعين وسبعمائة (790هـ) فتخلص وتقيّد في هذا الكتاب وفرغ منه بعد تعطيل في بعض الأيام في ربيع الأول عام واحد وتسعين وسبعمائة (791هـ) عرفنا الله خيره وعرضت منه أماكن على سيدي الوالد متعني الله برضاه فاستحسنها وكتب بخط يده مؤلفه عبيد الله بن عبده موسى بن عيسى المازوني الدار المغيلي النجّار لطف الله به وسمح له.»[2]

ومن بين النصوص التي تشير إلى المدينة مازونة في هذا المخطوط قضية تبدو أنّها تداولت لدى ساكنتها في تلك الفترة، وهي كالتالي: «نوع آخر حضر بمجلس من وجب بمازونة الآن رعاه الله فلان والتعريف به ثابت لديه وزعم أنّه ابتاع كذا من فلان بثمن كذا قبضه منه، ووجد به الآن عيبا يسمى كذا وسأل منه النظر له بواجب الحكم فاقتضى نظره أنّ كلفة إثبات دعواه فاستظهر لديه برسم شرائه إياه تضمن أنّه ابتاع ذلك منه بعهدة الإسلام وبرسم تضمن أنّ بذلك عيبا يوجب الرّد ويغيب البائع غيبة متصلة عن وطنه منذ كذا بحيث لا يعلم وأنّه لم يؤب إلى الآن فثبت الرسمان لديه بموجب الثبت بقبوله لكذا وكذا فأجله بعد ثبوت ذلك أجلا مبلغه كذا، فانقضى الأمد ولم يات له خبر ولا وقع له على أثر فاحلف إذ ذلك فلانا على ما يجب فحلف عند مقطع الحق من جامع البلد المذكور على الواجب في ذلك، وبعد ثبوت هذا اليمين لديه بشهادة الموّجهين لحضورها عن إذنه أمر ببيع الكذا المذكور، فأطلق في النداء وهتف عليه في

1- المازوني: **قلادة التسجيلات**، و.1.

2- **نفسه**: و.170؛ وتعبر الجملة الأخيرة من هذا النص عن وظيفة النجارة التي كان يمارسها موسى بن عيسى المازوني، فهل كانت هذه المهنة متوارثة بين أفراد هذا البيت المغيلي مثلا.

الأسواق والتمست به الزيادة حيث ترجى فكان أقصى ما بلغ كذا على فلان فانفذ له دام رعيه البيع فيه بذلك بعد مباينته بالعيب الموجب لبيعه على الغائب ورضاه به بعد الوقوف عليه فقبض منه فلان عن إذنه كذا ودفع الشايط لفلان موقفا في أمانته إلى أن ياتي مستحقه بعد إخراج كذا منه للدلال وكذا الفايد المخزن وبعد ثبوت ذلك كله عنده على حسب نصه ومقتضى وصفه بموجب الثبت وتقصي الواجب حكم بذلك وامضاه على حسب نصّه ومقتضاه وأرجى الحجّة فيه للغايب وإن شئت زدت هنا بعد أن استشار في ذلك من حضرة من الفقهاء فأشاروا به عليه لما رأوا من صوابه شهد وتكمل...»[1].

وهناك نص آخر لوثيقة عزل شاهد بمدينة مازونة يورد اسم قاضي مازونة وعملها أحمد بن مفضل الهاشمي، وهو ما يقدم صورة عن الوضعية الإدارية للمدينة التي يرتبط بها "عمل"، لكن ما مجال هذا العمل؟ وهل هي تعبير عن التوسع الحضري الذي عرفته المدينة أواخر القرن الثامن الهجري/14م، وهذا نص الوثيقة: «...يقول القاضي بمازونة وعملها وتجين أحمد بن مفضل الهاشمي وفقّه الله تعالى وسدّده وأصلح يومه وغده أنّا عزلنا عن الشهادة الطالب فلانا، وكتب الوثيقة لما شاع من قبيح سيرته وبان للعيان من سوء سريرته عزلا تاما أعلن حكمه وأكدّ بالإشهاد في غير ما موطن رسمه حفظا للأموال والأبدان أن يضيع نصف النصاب في الشهادة فيهما بشهادته ويلحقهما أو أحدهما الأبدال والتغيير والألباس بكتابته جعلنا بذلك خط يدنا مصححا وبثبوت ما تضمّنه من غير إعذار لفشوّه مفصحا بعد أن ثبت لديّ من أحوال المعزول بشهادة من يضع اسمه عقبه من المبرزين وممن شهرت عدالته ما أوجب عزلته مع ما خبرته من أول قدومي على البلد إلى الآن من قبح سيرته ومذموم سريرته الدالة عليها دنآءة فعلته وبذلك حجة لليوم والغد وتصحيحا لهذا العقد أشهدت في تواريخ مختلفة وادبارات متعددة فالله حسيب من وقف على شيء منها فيخفيه ليلا يعز هذا المعزول بشهادته المسلمين فقبول شهادته ظلال وإقلال لمن كان بحلاه المذمومة من العارفين شهد على القاضي بمازونة وتجين وتجيز من أشهده به على نفسه بمجلس قضائه من حيث ذكر في تاريخ كذا وله خفآير بخطه وبغير خطه...»[2].

1- المازوني: **قلادة التسجيلات**، و.83.

2- **نفسه**: و.143.

كما أنّه يقدّم نصا آخرا عن ظاهرة الحبس أو الأحباس في مازونة فيما يلي: «...وإذا خرّب الوقف فأراد غير الواقف إعادته فللواقف أو لورثته منعه واستحسن للأجنبي إعادته إذا كان ذلك وقفا على جامع أو مدرسة أو وجه لا يعود فيه مرجع للعصبة الواقف، وقد نزلت ببلدنا فأذنت لمريد إصلاحه بذلك وكان عاصب المحبس يحتج عليه في ذلك وعلى من وافقني من طلبة البلد...»[1].

ويتحدث موسى بن عيسى المغيلي أيضا في مؤلفه هذا عن كتابته لأوراق أخرى عن الأحباس -التي لم تصلنا للأسف- وهي: "فريدة الاقتباس في كيفية النظر في الأحباس"، في النّص التالي: «...ولقد وضعت أوراقا سمّيتها فريدة الاقتباس في كيفية النظر في الأحباس لما رأيت من تبديل الأوقاف ببلدنا وقلّة اهتمام القاضي بتفقدّها على أنّي عاجز عن إصلاح ما فسد منها وغير طائق على ترتيب نظامها بحصول كثير من فوائدها في ذمم زعماء الوقت وتمسّكهم بجل أصولها ولا عليهم في ذلك من أحد والله تعالى حسيبهم ومتولي حسابهم وتجوز شهادة السماع في الحبس ويقضي بها وتقيدها في ذلك...»[2].

ويصنّف المهذّب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق وقلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود ضمن كتب الأحكام[3]، أو الوثائق التي هي وليدة التطورات الحاصلة في المجتمع وحركيته على جميع الأصعدة الاقتصادية والسياسية والثقافية[4]، وبما أنّ الوثائق تقسم إلى مجموعتين: الأولى وهي الوثائق المخزنية[5]، أمّا المجموعة الثانية -والتي تنتمي لها المؤلفات

1- **نفسه:** و.139.

2- **نفسه:** و.131.

3- عن تصنيف مخطوط المهذّب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق ضمن كتب الأحكام يراجع بوبة مجاني: "كتب النوازل والأحكام "، ص.147؛ بوبة مجاني: "المهذّب الرائق"، ص.109.

4- بوبة مجاني: "كتب النوازل والأحكام"، ص-ص.147-148؛ حامد العجيلي: **التوثيق وكتب الوثائق بإفريقية في العهد الحفصي**، شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، قسم التاريخ، إشراف: محمد حسن، 2001م-2002م، ص.95؛ وعن تاريخية ظهور كتب الوثائق ومميزاتها وأهميتها، **نفسه:** ص-ص.95-103؛ أمّا عبد العزيز بنعبد الله فإنّه يعرفها كما يلي: هي العقود التي يسجلها الموثقون العدول، عبد العزيز بنعبد الله: **معلمة الفقه المالكي**، ص.21.

5- الوثائق المخزنية: وتعني كل ما يصدر من الحكومة المركزية فيما يتعلق بالشؤون الداخلية والخارجية وما يحمله مبعوثوها إلى رؤساء الدول الأخرى وما يوقعه رؤساؤها أو وزراء مسؤولون فيها من اتفاقيات ومعاهدات مع غيرهم من الحكومات، **نفسه:** ص.9.

السابقة- فتضّم الوثائق شبه المخزنية التي يكتبها الموظفون الرسّميون في الدولة وتشمل أوراق الدواوين وسجلاتها ومشاريع القوانين والقوانين المعمول بها في أقسام الدواوين المختلفة[1].

ت- مخطوط مختصر ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار: [2]

قام أحد الباحثين -في هذه السنوات الأخيرة-[3] بالتقديم لمخطوط مختصر ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، والإشارة إلى أهمّيته، خاصة وأنّه يؤرخ لمرحلة هامة ولمنطقة همّشت فيما يسمى بتواريخ الأسر الحاكمة أو "تاريخ البلاط"، كما أنّه سيساهم في بعث مرحلة جديدة من الكتابة التاريخية المونوغرافية للمنطقة الغربية من المغرب الأوسط خاصة ولمجالها الحضري.

لم تتمّكن هذه الدراسة الموجزة من تحديد عنوان هذا المخطوط خاصة وأنّ الورقتين الأوليتين مطموستين تماما، حيث يبدأ بوضوح من الورقة 3ظ، والتي تتضمن العبارة التالية: «...بما كنت قيّدته في مناقب الصالحين، وما وصلوا إليه من سني المقامات...»[4]، وهو ما جعله يظّن أنّ هذا المخطوط هو اختصار لمؤلفه الذي ذكره الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف[5]: «أبو عمران موسى بن عيسى المازوني عالم جليل وعامل أصيل، تمكّن في السنّة حتى لم يدع للبدعة مدخلا إلاّ سدّه ولا لأهلها مقتلا إلاّ قدّه، فهو في الدين طود شامخ ذو مجد باذخ على أولياء الله مناضل، وفي سبيل الذبّ عن حماهم مقاتل، وقفت له على تأليف عظيم القدر كبير الفائدة، لخصّه من كتاب له في مناقبهم سماه: ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار،

---

1 - **نفسه**.

2- توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: ك.2343؛ هذا عن المختصر أمّا مخطوط **ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار** حسب عدد من الباحثين فلا يزال مفقودا، وإن كنت أعتقد بوجوده في الغرب الجزائري (زاوية بطيوة *Bettioua*) مثل ما أشار إليه الباحث جاك بيرك:

Jacques Berque, «Retour à Mazouna», p.154; id., *L'intérieur du Maghreb*, p.23.

ويسمى **بمناقب الشلفيين** هامش الزياني: **دليل الحيران**، ص.59؛ مولاي بلحميسي: "دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية (من القرن 15إلى منتصف القرن 20م)".

3- عبيد بوداود: "تقديم مخطوط مختصر ديباجة الافتخار"، ص-ص.1-9 .

4- **نفسه**: ص.1.

5- **نفسه**؛ الحفناوي: **المرجع السابق**، القسم: 02، ص.587.

واقتصر في ملخّصه على مناقب المشيخة المشتهرة بالصلاح في أوطان الشلف...وذكر فيه علما كثيرا نافعا يغسل أدران القلوب ويعذب إطلاعه لكل معتقد أديب...»[1].

ويشرح موسى بن عيسى المغيلي المازوني دوافع كتابته لهذا المخطوط في مؤلفه هذا، وذلك عندما طلب منه صديق له نسخة من هذا الكتاب، فيذكر: «...والسبب الباعث على ذلك فبنشره لسماع ذلك وللوقوف على ماقيّدته من ذلك ورغب إليّ بحق الصحبة أن أوجه له الأصل فتعذر عليّ بعثه ووعدته أن أضع له شيئا من فضائل شيخنا وسيدنا الشيخ الولي أبي البيان واضح وطرقا لما تحصل لديّ من مناقب غيره من صلحاء شلف المشهورين بالبركات وإجابة الدعوات، وما أيّدهم الله به من الكرامات، وأدمجت له عند تقييده له هذا مواعظ ذكية وأشعار معنوية ترفق القلوب وتذري الدموع وجلبت له شيئا من العجائب المأثورة عن القوم، وبعض أسرار أهل التصوف وأحاديث نبوية ومجاهدة القوم نفوسهم وكيفية أحوالهم تفيد بمجموعها رغبة في صحبة الفضلاء ونشاطا لزيارة الصلحاء والإخوان وحرصا في حضور مجالسهم برؤيتهم والتشبث بخدمتهم بعد أن صدرت هذا بمقدمة جليلة يستدل بها على ثبوت كرامة الصالحين والرد على من كره من الزائغين...»[2].

وفي خاتمة هذا المخطوط إشارة إلى الهدف من كتابته أيضا: «وهذا آخر ما قصدنا إليه من مناقب المشيخة الشلفية وبه أيضا رجال فضلاء لكنّهم دون مقام هؤلاء مع ما عرف من فضله وحسن شيمه أعرضت عن ذكرهم اكتفاء بأولئك، وإن لم يرتقوا في الشهرة والظهور مبلغ الطبقة...كمل جميع الديوان المبارك تأليف الشيخ الإمام العالم القدوة الصدر الأوحد سيدي موسى بن عيسى المازوني رحمه الله تعالى ورضي عنه.»[3]

وعلى العموم فقد اقتصر المازوني الأب في هذا المخطوط على التعريف بصلحاء وادي شلف، وجاء أيضا للدفاع عن كرامات الأولياء وشرعيتها من خلال ثبوت حدوثها لكبار

1- **نفسه**: ص.583.

2- موسى بن عيسى المازوني: **مختصر ديباجة الافتخار**، الخزانة العامة، الرباط، ك .2343، و.3 و، نقلا عن عبيد بوداود: "تقديم مخطوط مختصر ديباجة الافتخار"، ص.2.

3- موسى بن عيسى المازوني: **مختصر ديباجة الافتخار**، و.319، نقلا عن عبيد بوداود: "تقديم مخطوط مختصر ديباجة الافتخار"، ص.2.

الصحابة والتابعين والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالّة على ذلك، وللردّ على معترضي كرامات الأولياء، ثم الترجمة بعد ذلك للأولياء الشلفيين[1].

ويعبّر هذا المخطوط بالإضافة إلى صلحاء وادي الشلف[2]، وفضل الفقر والفقراء[3]، لموسى بن عيسى المازوني أيضا عن نمط الكتابة الصوفية، والتي هي عبارة عن جزء من كل تشترك مع هذا الكلّ في وسيلة التعبير، على أنّ الكتابة الصوفية أنواع متعددة: منها كتب طبقات الصوفية، والشعر التعليمي الصوفي، والرجز الصوفي والشعر الذي قيل في غرض التصوف والكتب التعليمية الصوفية[4]، وإن كانت الكتابة المناقبية أو المنقبية[5] أو الصوفية تشير إلى واقع الممارسة الاجتماعية تارة وتغيبها تارة، وقد تلتقي بالعمليتين معا في نص واحد[6]، فهي خليط من الواقع والمتخيّل، التاريخ والأسطورة، وقد يكون من المجازفة –حسب الشاذلي– محاولة عقلنة هذا الخليط واعتبار أنّ الجانب التاريخي منه يشكّل مادة توثيقية تعتمد، وأنّ الجانب الأسطوري لا يفيد، ذلك أنّ ترسّبات الإبداع الخيالي تتراكم فوق الحدث الواقع وتغفله باستمرار[7].

---

1 – عبيد بوداود: "تقديم مخطوط مختصر ديباجة الافتخار"، ص.3.

2 – عن نسبة هذا المخطوط لأبي يحي، بوبة مجاني: "كتب الأحكام"، ص.149.

3- يذكر محمد فؤاد الخليل القاسمي في فهرسة المكتبة القاسمية (مخطوطات الشيخ محمد بنعزّوز القاسمي الحسني الهاملي بعين وسارة، الجلفة)، مخطوط فضل الفقر والفقراء لموسى بن عيسى المازوني (الناسخ إبراهيم بن محمد الأندلسي 1024هـ/1615م، عدد الأوراق 145)، ضمن مخطوطات الشيخ سيدي المكي، وللأسف فإنّ هذه المكتبة لم تعد في متناول الباحثين)، محمد فؤاد الخليل القاسمي: **فهرسة مخطوطات المكتبة القاسمية (الجزائر)**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1427هـ/ 2006م، ص، ص .506، 521؛ بشير بن أبي بكر ضيف: **فهرست التراث الجزائري بين القديم والحديث (نماذج متنوعة للمعلوم والمجهول)**، تصنيف، ج .2، مراجعة وتقديم: عثمان بدري، الجزائر : منشورات ثالة، 2002، ص.249.

4- محمد مفتاح: **المرجع السابق**، ص-ص.210-211.

5- لطفي عيسى: **أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ**، تونس: دار سيراس للنشر، 1993م، ص، ص .10، 14؛ إبراهيم القادري بوتشيش: " واقع الأزمة والخطاب " الإصلاحي"، في كتب المناقب والكرامات (أواخر ق.6هـ وبداية ق.7هـ/12م-13م)"، **الإسطوغرافيا والأزمة دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة**، تنسيق: عبد الأحد السبتي، الرباط- الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس-مطبعة النجاح الجديدة، 1994، ص - ص.25-28؛ محمد المغراوي: **المرجع السابق**، ص، ص.342، 344، 383.

6- عبد الأحد السبتي: **النفوذ وصراعاته في مجتمع فاس من القرن السابع عشر حتى بداية القرن العشرين**، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2007م، ص.76.

7- عبد اللطيف الشاذلي: **المرجع السابق**، ص-ص.112-113.

فإنّنا بصراحة سوف لا نعمل على تعريف الظاهرة الصوفية -لاحقا- بمختلف مكوّناتها الغيبية، بل سنعمد إلى قراءة وتحليل بعض النصوص المنقبية عن المنطقة الشلفية، للوقوف على مدى مساهمتها في بناء معرفة متكاملة عن الواقع المجتمعي الشلفي بصفة عامة والمازوني بصفة خاصة.

1-2- نخب مازونية أخرى وواقع حركة الهجرة العلمية بالمدينة وناحيتها:

ليس من السهل التحدّث عن الشخصيات العلمية المازونية الأخرى المتاحة لدينا نصيّا، لأنّ ترجماتها القليلة جدا تأتي مختصرة ولا توضّح أبعادها الحياتية والعلمية وتأثيراتها المباشرة بالمدينة، خاصة وأنّ غالبيتها استقرت بالبلاد المشرقية، وبالتالي فالمدينة لم تكن بمنأى عن حركة الهجرة إلى المشرق خلال الفترة الوسيطة، وذلك رغم مصاعب الطريق البرّي الرابط بين المجالين، والتي أصبحت غير آمنة منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وظلّت كذلك في المرحلة اللاحقة، حتى صار أهل الأندلس والمغرب وإفريقية يتخوّفون من استعمال هذا المسلك الذي أهملت محطاته وغارت مياه آباره وطمست[1].

لكن هل تسببت الأزمة الحضرية التي مرّت بها مازونة خلال الفترة الوسيطة في هجرة نخبها العلمية؟

يقول ابن خلدون مثلا أثناء الحصار المريني على مازونة سنة 703هـ/1303م: «...واقتحمت على أهلها عنوة سنة ثلاث فمات منهم عالم واحتملت رؤوسهم إلى سدّة السلطان فرميت في حفائر البلد المحصور إرهابا لهم وتخذيلا...»[2]، وهي صورة عن الواقع الحضري المتأزّم الذي عرفته المدينة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

وليست كل الشخصيات التي سنقدم ترجماتها يمكن إثبات هجرتها من المدينة، فقد تكون مثلا نشأت بالمشرق بعد هجرة سابقة لعائلاتها، فهل كان ذلك بعد رحلة حج أم رحلة علم؟

1- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.2، ص.695.

2- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.67.

– حافي رأسه محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر أبو عبد الله محي الدين بن أبي محمد الزناتي[1]:

يعرّفه صاحب بغية الوعاة كما يلي: «الكملاني، نسبة إلى قبيلة من البربر الإسكندراني، الملّقب بحافي رأسه، لأنّه أقام مدة مكشوف الرأس، وقيل كان في وسط رأسه حفرة كبيرة، وقيل رآه رئيس بالثغر فأعطاه ثيابا جددا، فقال: هذا لبدني ورأسي حاف! فلزمه ذلك، ولد بتاهرت بظاهر تلمسان سنة ست وستمائة، وتصدّر للعربية زمانا وكان من أئمتها، أخذها عن عبد المنعم بن صالح التيميّ وعبد الرحمان بن الزيّات تلميذ محمد ابن قاسم بن قنداس صاحب الجزولي وأخذها أيضا عن نحوي الثغر عبد العزيز بن مخلوف الإسكندري وتخرّج به جماعة كثيرون وسمع من ابن رواج وأبي القاسم الصغراوي، وأخذ عنه تاج الدين الفاكهاني، قال الذهبي: وقال ابن فضل في المسالك: ذكره شيخنا أبو حيّان، وقال: كان شيخ أهل الإسكندرية في النحو، تخرّج به أهلها، ولا أعلمه صنّف شيئا فيه، سمع عليه البدر الفارقيّ الدريديّة وأجاز له، ومات في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وقال أبو حيّان سنة إحدى وله:

ومعتقد أنّ الرياسة في الكــبر   فأصبح ممقــوتا بـه وهو لايـدري

يجرّ ذيول العجب طالب رفعة   ألا فأعجبوا من طالب الرّفع بالجرّ !»[2]

وإن كان هذا النص لا يشير صراحة إلى مازونية هذه الشخصية، فإنّ صاحب الديباج المذّهب ينسبه إليها في ترجمته لتاج الدين الفاكهي أو الفاكهاني[3]، وكذا العبدري الذي التقى به

1- أو محمد بن عبد الله بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر أبو عبد الله جمال الدين الزناتي التلمساني ولد سنة 606هـ/1281م 680هـ/1281م أو 693هـ/1293م أو 691هـ/1291م، يراجع الكتبي: **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، مج.3، 1974، ص-ص.409-410؛ ابن القاسم مخلوف: **المرجع السابق**، مج.1، ج.1، ص.288؛ عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص.119؛ عباس بن إبراهيم المراكشي: **الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام**، ج.3، ص.217.

2- السيوطي: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج.1، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1384هـ/1964م، ص.138.

3- تاج الدين الفاكهي (الفاكهاني) العلامة النحوي: عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي المالكي الإسكندري (654هـ-731هـ/1256م-1330م)، السيوطي: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج.2،=

بالإسكندرية[1]، وأنشده مايلي:

قل لأهل الزمان حاشان ممّـــا   أصبحوا فيه مساق ســـواء
ما على شاعر هجاكم مـــلام   هل رآكم أحسنتم فأســـاء
كان من قد مضى يعلّمنا المد   ح وأنتم تعلمونا الهجـــاء[2]

- ابن حافي رأسه: (663هـ-725هـ/1265م-1325م)[3]:

يعرّفه العسقلاني بـــ: «محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن حافي رأسه أبو عبد الله الزناتي الإسكندري سمع من منصور بن سليم الجزء الخامس من فضل المحرم من تخريجه أجاز له الأديب مظفر بن محاسن الذهبي، وحدّث بالإسكندرية ذكره ابن رافع في معجمه قلت مات في شهر رجب 725هـــ.»[4]، وهي الترجمة التي تختلف مع ما ذكر في درة الحجال، والتي جاء فيها: «محمد بن محمد بن عبد الله الزناتي المالكي أبو عبد الله الشهير بابن حافي رأسه ولد سنة 663هـــ، وأجاز لخالد البلوي صاحب الرحلة سنة 737هـــ من نظمه:

=مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1384هـــ/1965م، ص.221؛ ويكنى بأبي حفص الاسكندري قرأ القرآن بالقراءات على أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد العزيز المازوني حافي رأسه وسمع منه، ابن فرحون: **المصدر السابق**، ص-ص.286-287.

ومن شعره:

عتبت على الدنيا لتقديم ناقص   وتاخير ذي فضل فقالت خذ العذرا
بنو النقص أبنائي وكل فضيلة   فأربابها أبناء ضرتي الأخـــــــرى

ومن شعره أيضا:

إذا ما الليالي جاورتك بساقط   وقدرك مرفوع فعنه تحـــــــــول
ألم تر ما لاقاه في جنب جاره   كبير أناس في بجاد مزمـــــــــل

يراجع عباس بن إبراهيم المراكشي: **المرجع السابق**، ج.3، ص.217.

1- ربما قد يكون التقى به في 25 ذي القعدة سنة 688هـــ/1289م، العبدري: **المصدر السابق**، ص.5.

2- **نفسه:** مكرر1؛ ومن بين المراجع التي تنسبه لمازونة، محمد بن القاسم مخلوف: **المرجع السابق**، مج.1، ج.1، ص.288؛ عباس بن إبراهيم المراكشي: **المرجع السابق**، ج.3، ص.217.

3- عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص.119؛ وحسب صاحب درة الحجال فإنّ سنة وفاته بعد 725هـــ/1325م، ابن القاضي: **درّة الحجال**، ص.154.

4- العسقلاني: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ظبّطه وصحّحه: عبد الوارث محمد علي، مج.2، ج.4، بيروت: منشورات محمد علي بيضون(دار الكتب العلمية)، 1418هـــ/1997م، ص-ص.118-119.

كأن لم يكن بين و لم تك فرقة   إذا كان مابين الفراق تلاقي.

و لم يذكر خالد وفاته في رحلته.»[1]

– **محمد بن عبد الملك بن عمر المازوني**: «الزاهد كان مشهورا بالصلاح صحب الكبار وتعبّد وانقطع.»[2]

– وفي ترجمة إبراهيم بن محمد بن علي البرهان أبو سالم التادلي يورد اسم شخصية مازونية شغلت منصب القضاء في الشام: «قال شيخنا في أنبائه: قاضي المالكية بدمشق ولد سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وولّى قضاء الشام وتكرّر عزله إمّا بالقفصي أو غيره ثم عوده إلى هذه المدة عشر مرار وكانت مدّة مباشراته ثلاث عشرة سنة ونصفا وكانت بعض ولاياته في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة عوضا عن الزين المازوني.»[3].

– يقدّم السخّاوي صورة عن شخصية محمد ناصر الدين المغربي المازوني وهي النسبة المباشرة للمدينة مازونة، وهذا نص التعريف: «محمد ناصر الدين المغربي الأصل القاهري المغني أحد الأفراد في معناه ويعرف بالمازوني انتهت إليه رياسة إنشاد القصيد على دكة السماع والتسبيح على المياذن والإنشاد بطريق الحجاز، وارتقى في ذلك إلى غاية فاق فيها، وتنافس الرؤساء فمن دونهم في سماعه وكنت ممن سمعه ونال عزا وسمعة مع عامية وطريقة غير مرضية مات في ليلة الجمعة ثامن جمادي الأولى سنة اثنتين وستين بعد مرض طويل بالفالج حتى كان لا يقدر على النطق فسبحان المعطي المانع ودفن من الغد وهو في عشر السبعين و لم يخلف بعده مثله سامحه الله وإيانا.»[4].

ونفس التعريف بهذه الشخصية تقريبا نجده عند صاحب النجوم الزاهرة: «وتوفي الأستاذ المادح المغني ناصر الدين محمد المازوني الأصل المصري أحد الأفراد في إنشاد القصيد وعمل السماع، في ليلة الجمعة ثامن جمادى الأولى سنة 862هـ، بعد أن ابتلى بمرض الفالج وبطل نصفه وسكت حسّه، وكان من عجائب الدنيا في فنونه، كان صوته صوتا كاملا أو ازاوئما، مع شجاوة ونداوة وحلاوة، كان رأسا في إنشاد القصيد على الضروب والحدود سافر غير مرّة إلى الحجاز حاديا في خدمة الأكابر، وكان له تسبيح هائل على المآذن، ففي هذه الثلاثة كان إليه

1- ابن القاضي: **درة الحجال**، ص.154.

2- العسقلاني: **المرجع السابق**، مج.2، ص.21.

3- السخّاوي: **المصدر السابق**، مج.1، ج.1، ص.155.

4- السخّاوي: **المصدر السابق**، مج.5، ج.10، ص.116؛ وقد يكون مولده سنة 792هـ/1389م.

المنتهى، وكان يشارك في الموسيقى جيدا، ويعظ في عقود الأنكحة وليس فيه بالماهر وفي الجملة إنّه لم يخلف بعد مثله، وفي شهرته ما يغني عن الإطناب في ذكره.»[1]

- **محمد بن عبد الله المازوني:** «نزيل تلمسان مات سنة ست وستين (866هـ/1461م) »[2].

- **أبو علي حسين بن محمد بن إدريس المازوني:** قاضي تنس[3] .

وإن جاء هذا العرض كلاسيكيا لتراجم شخصيات النخب المازونية بالمشرق والمغرب، إلاّ أنّ ما يمكن استنتاجه هو الحركية العلمية المبكرة للمدينة على الرغم من الأزمة الحضرية التي شهدتها مازونة خلال الفترة الوسيطة.

2- الممارسة الصوفية في مدينة مازونة وناحيتها:

2-1- بداية الظهور -دراسة في إشكالية-:

يعيش المجتمع المغربي كغيره من المجتمعات البشرية -مع تفاوت بسيط طبعا- مرحلة التفسير الغيبي للظواهر الطبيعية، ويعمد اعتبارا لذلك إلى تفسير كل ما يصادفه في حياته من عوائق كالكوارث الطبيعية والأمراض والأزمات بكونها تجلّيات قوى غيبية صادرة عن إرادة إلهية، ويكون ذلك التفسير منطلقا لعبادات تتخذ دريئة للخوف ومطيّة لمواجهة الأزمات[4].

والأكيد أنّ مجتمع حوض الشلف لن يكون استثناء -في هذا التفسير- خاصة بعد تحول القبيلة في المنطقة في ظل تقلّص سلطة الدولة المركزية في القرنين 8 و9 الهجريين /14و15م إلى مجال مناسب لممارسة التدين الشعبي بتوجيه من المرابطين وشيوخ القبائل، الذين كانوا يتمتعون بسلطة أدبية وروحية تبيح لهم التأثير والتوجيه والتأطير في ظل اختفاء السلطة الفقهية في المجال القبلي[5].

1- ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تحقيق: جمال الدين الشيّال، فهيم محمد شلتوت، ج.16، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1392هـ/1972م، ص-ص.192-193.

2- السخاوي: **المصدر السابق**، مج.4، ج.8، ص.121.

3- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.209-210؛ الصباغ: **نسمات الأزهار**، و.130.

4- عبد اللطيف الشاذلي: **المرجع السابق**، ص.111.

5- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.336.

«...ومن أصحاب الشيخ أبي مدين رضي الله عنه، الشيخ الصالح الشهير أبو مسعود بن عريف من جبال الشلف بأرض تلمسان، وكان مجاب الدعوة مشهور البركة وقبره بجبال شلف يزار يتبرك به...»[1].

يعبّر هذا النص الذي أوردناه سابقا عن بداية التأريخ للتصوف الشلفي -فيما هو متاح لدينا طبعا- والتي تكون قد بدأت مع الشخصية الأعرابية الهلالية العريفية أبي مسعود بن عريف، والغريب في الأمر أنّ الظاهرة بدأت مع هذه القبائل العربية الوافدة على الجهة الشلفية، لكن ماذا عن بدايات التصوّف البربري الزناتي المحلي بها[2]؟

يرى محمد حسن بخصوص التصوف العربي الهلالي أنّ الموحدين عندما قدموا إلى إفريقية في سنة الأخماس تصدّوا لمعارضة القبائل الهلالية، فحاولوا ترويضها واحتواءها بشتى الطرق، حيث كانت مؤسسة الزاوية إحداها، وابتداء من تلك الفترة أصبحت ظاهرة الاستتابة تجسد تاريخيا هذا التحول الاجتماعي والثقافي إذ أصبحت تعني فضلا عن المفهوم التقليدي نهاية فترة عصيان هذه القبائل وبداية الاندماج في النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي[3].

أمّا جاك بيرك (*Jaques Berque*) فقد أرجع هذه الظاهرة إلى الاستقرار الذي عرفته القبائل العربية، والذي مكّنها من التوبة وإنشاء الربط وإقامة الزوايا، خاصة وأنّ هذه القبائل قد خلت مضاربها من أي معلم ديني قبل استقرارها[4]، وذلك ما يعني أنّ تحولا هاما شمل المورفولوجيا الاجتماعية لهذه القبائل[5].

أمّا روبار برنشفيك (*Robert Brunschvig*) فقد اعتبر ذلك امتدادا للنزاع القديم القائم بين الأعراب الرحل والمستقرين، وكذلك بين الأعراب الرحل المتحالفين، وحيث

1- ابن قنفذ: **أنس الفقير**، ص.40.

2- يرى محمد مفتاح أنّ زناتة خلت أو كادت من الربط والزوايا وقتما كان لدى الصناهجة والمصامدة ربط وزوايا ومتصوفة، ومرد ذلك أنّ زناتة كانوا «آخذين بالكثير من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران، والإباية عن الانقياد للنصفة.»، محمد مفتاح: **التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن 08هـ/14م، القسم الأوّل -أسس وكيان-**، أطروحة دولة، الرباط: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف: محمد أركون، 1980م-1981م، ص.76.

3- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.2، ص.753.

4- Jacques Berque, *L'intérieur du Maghreb*, p.56-61.

5- جاك بيرك: "في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا"، ص.124.

تتداخل الأغراض الدنيوية مع الأغراض الدينية وكثيرا ما تطغى عليها، وحيث تتشابك التأثيرات وتتمازج الفئات الاجتماعية[1].

في الحقيقة هذه هي مجمل الآراء التي استشهدت بها إحدى الدراسات الحديثة[2]، لتفسير ظاهرة التصوف أو الرباط لدى العرب الهلالية الوافدة على الجهة الغربية من البلاد المغربية، خاصة منها عرب سويد المنتشرة في المنطقة الشلفية، والتي أثرت في ساكنتها.

وعلى العموم –حسب هذه الدراسة أيضا– فقد تبنت مجموعة من الباحثين المغاربة رأى جاك بيرك (*Jaques Berque*) السابق خاصة مثل: محمد مفتاح[3]، وعبد اللطيف الشاذلي[4]، ومحمد المغراوي –الذي يرى أنّ الاستقرار يمثل العمران ولا تصوف دون استقرار وعمران، لكنّه يشير إلى أنّ القبائل العربية التي وصلت إلى المغرب الأقصى بأعداد كبيرة منذ 584هـ/1188م لم تنخرط في الثقافة الدينية المغربية بما فيها التصوف إلاّ ابتداء من العهد المريني–[5] ومحمد حسن[6].

حسن[6].

وقد تمثلت حجّة هذه الأبحاث في مبدأ الاستقرار والتطور التاريخي للقبائل العربية، خاصة وأنّ هذه القبائل البدوية الدائمة الحركة والترحال لا تمكّنها طبيعتها المنافية للعمران من تكاثر أشكال الممارسة الصوفية، أو إنشاء العمران الصوفي الربط والزوايا وعلى الرغم من اتفاقهم حول هذا المبدأ، إلاّ أنّهم اختلفوا في تحديد الخصائص الدينية والاجتماعية لهذه الظاهرة[7].

لتستشهد فيما بعد برأي نللي سلامة العامري الذي يعبّر عن العلاقة الجدلية بين البادية والمدينة، حيث ترى في ظاهرة المرابطين تجربة صوفية مثّلت دور الجسر الرابط بين التصوف الحضري والتصوف البدوي، والتي حدثت بفعل جلوس التائبين من أفراد القبائل العربية بالمدينة إلى شيوخ التصوف ثم العودة إلى قومهم بمشروع إصلاحي لا تخص القبيلة التي ينتمي إليها التائب

1- روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص.351.

2- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص-ص.336-338.

3- محمد مفتاح: **المرجع السابق**، ص.76.

4- عبد اللطيف الشاذلي: **المرجع السابق**، ص.71.

5- محمد المغراوي: **العلماء والصلحاء**، ص.301.

6- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.2، ص.622.

7- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص-ص.336-337.

فحسب بل يتجاوزها إلى قبائل أخرى[1]، وهو ما حدث مثلا مع أبي مسعود بن عريف الذي أصبح ضمن المخيال الصوفي الشلفي[2]، وبذلك يمتزج ما هو صوفي بالمشروع الإصلاحي، مما يعني أيضا بقاء التجربة الصوفية منحصرة في الشخص الحامل للمشروع الإصلاحي، دون أن يكون بالضرورة قد شمل وسطه القبلي[3].

أمّا مصطفى أبو الضيف أحمد فكان رأيه أكثر شمولية –حسبه دائما- بما أنّه تناول الظاهرة بصورة مختلفة، حيث وصف ظاهرة المرابطين في القبائل الهلالية بعد سقوط دولة الموحدين، بأنّها مظهر ديني أخلاقي تجلت صورته في حياة رؤساء القبائل وأفرادها الذين كرّسوا حياتهم لعمل الخير ونشر العلم والدين وإغاثة الملهوف والمحتاج ومساعدة التجار والمسافرين ضد قطاع الطرق وإقامة الزوايا والربط[4]، فيما يبدو فإنّ هزيمة العرب في موقعة سطيف سنة 548هـ/1153م أدّت إلى تفكك عصبيتهم القوية إلى عصبيات ضعيفة، ففضّل بعضها الاستقرار والجنوح إلى التصوف والانقطاع للعبادة[5]، وهو ما يعكسه حديث عبد الرحمان بن خلدون عن تأسيس عرب سويد لرباط في الموضع الذي بنيت فيه قلعة تاوغزوت –بني سلامة- بعد ذلك[6]، بالإضافة إلى العلاقة التي تمت بين مريدي هذه القبائل والمدينة، وأخذهم عن كبار شيوخ التصوف مثل أخذ مسعود بن عريف وهو من عرب سويد عن أبي مدين شعيب(تـ.594هـ/1198م) في بجاية ثم عودته إلى الشلف وتأسيسه في وسط قبائل سويد والديالم زاوية أضحت أحد مراكز نشر الطريقة المدينية خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري/13م[7].

إلاّ أنّه يبدو لنا أنّ شخصية أبي زكريا المغيلي قد سبقت الحضور الصوفي العربي في المنطقة، وهو ما يوضّحه النص التالي: «...ذكر سيدي موسى بن عيسى المذكور أنّ الشيخ سيدي أبا

1- نللي سلامة العامري: **المرجع السابق**، ص.30.

2- ابن قنفذ: **أنس الفقير**، ص.40.

3- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.337.

4- مصطفى أبو الضيف أحمد: **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، خلال عصر الموحدين وبني مرين، 524هـ-876هـ/ 1130م-1472م**، الدار البيضاء: مطبعة دار النشر المغربية، 1982، ص، ص.252، 254.

؛ الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.338.

5- وعن مثل ذلك ينظر محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.2، ص.666؛ مصطفى أبو ضيف: **القبائل العربية**، ص.266.

6- ابن خلدون: **العبر**، مج.7، ص.163.

7- ابن قنفذ: **أنس الفقير**، ص.40؛ الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.340.

زكريا المغيلي أنّه كان جالسا مع جماعة من الفقراء، وقد حانت صلاة الظهر فقالوا له تصلي الظهر فأمهلهم ساعة فإذا شاب قدرا ابن عشرين سنة دخل عليهم فأقام أبو زكريا الصلاة، فتقدّم الشاب فصلا بهم، وكان الشاب حين دخل عليهم محترما في كسيته قصيرة عقدها على صدره وبيده لويحة فكوشف الشيخ بما هجس في صدورهم فأراد أن يظهرهم ولايته وبرهان تقديمه إياه عليهم فقال يا فقراء من يذهب منكم لمالقة لسيدي فلان العابد في حاجة ويعود فيصلي معنا العصر فسكتوا، فقام الشاب فقال يا سيدي أنا أمضي وأعود إن شاء الله، فذهب إليه فقدم له طعاما وأخبره أنّه فضله طعام تناول الشيخ أبو زكريا منه ثم رجع وصلا معهم العصر بجبل بيسد بين تنس وتيمزوغت وأخبره بقضية الرجل الذي في مالقة، ثم أقبل الشيخ أبو زكريا على الفقراء الذين عابوا عليه تقديمه للإمامة يعاتبهم وهذا الشاب هو سيدي مسعود بن عريف...»[1].

وهذا دليل على أنّ انتشار التصوف المحلي الزناتي بالمنطقة مزامن أو سابق للتصوّف الوافد العربي، لكن كيف كانت بداية هذه الظاهرة بالجهة الشلفية تبقى من الأمور الغامضة نصّيا؟ حتى أنّ النص الذي اقترحه أو طرحه علينا كتاب المعزى عن شخصية أبي البيان واضح بن عاصم الصوفي الشلفي التي تنبأ بها الصوفي سيدي أبي مدين المزامن لأبي مسعود بن عريف: «...ومن عز مناقب الشيخ سيدي أبي مدين أنّه لما اجتاز بالبلاد الشلفية حين أتى في سفرته التي توفي فيها بتلمسان نظر إلى موضعه فقال لأصحابه: أي وتد يكون هاهنا! كنيته أبو البيان واسمه واضح بن عاصم، فظهر هذا الشيخ بعد وفاة سيدي أبي مدين بسنين...»[2]، أظهرت أكبر شخصية صوفية بالناحية الشلفية التي تناولتها الكتابة المنقبية المحلية خاصة.

2-2- المتصوفة الشلفية والسلطة:

1- الصباغ: **نسمات الأزهار**، و.129-130؛ وعند موسى بن عيسى فإنّ الجبل هو جبل بيسة بين تنس وتيمزوغت، المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.214، وعن تكملة هذا النص: «...وهذا الشاب هو الشيخ الصالح سيدي أبو مسعود بن عريف نفعنا الله به وله صيت عظيم بهذه النواحي وشأن عظيم...»، **نفسه**.

2- الصومعي: **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق: علي الجاوي، أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996، ص-ص.203-204.

إنّ التفاعل مع ظاهرة "الصلاح" التي اندمجت فيها عناصر التكوين النفسي والفكري، جعل البنية الفكرية والنفسية لمختلف فئات المجتمع المغربي تتعلق بما وراء ظاهر الصلاح، ألا وهو البعد التقديسي، وهو ما شكّل أساس التعامل مع الفرد الصالح من قبل المجموعة كلها سواء أكانت تعبّر عن أنموذج العامة أم عن أنموذج السلطة[1].

فالمتصوفة على الرغم من أنّهم لم يستندوا إلى سلطة الحكم خدموا أهدافه، لأنّهم نشروا تيارا دينيا بعيدا عن المعارضة السياسية، معتدلا ومركزا على التقوى وتنمية العلاقة الروحية بالله، بل تيارا ينّمي عقلية الاستسلام واللجوء إلى الحلول السهلة، وبالتالي ساهموا في خضوع شريحة واسعة من الناس للدين دون وعي، ووجّهوهم نحو الاهتمام بتقديس الأولياء والاعتقاد في قدراتهم غير العادية، فكان تأثيرهم في المجتمع في اتجاه معاكس للمناهضة السياسية، وانساقت النخبة ذاتها إلى الإيمان بقداستهم[2].

فنظرا لسلطة الولي المؤسّسة على طابعه الكاريزماتي، ولطبيعته كمفوّض من غير مفوّض رسمي، تطرح للصالح أو الولي مشكلة نوعية العلاقة التي يجب أن يرسيها مع السلطان، إنّها مشكلة لأنّ الصالح لا يعيش تحت ظل إلزامات محددة واضحة من طرف هذا السلطان، لذلك فعلاقته بهذا الأخير لا تحمل علامات ثابتة، بل إنّها مشروطة بالحيثيات التي يعرفها المجتمع ككل[3].

في حين آخر يرى أنّ الولي يبتعد عن ذوي الرئاسة ويوحي الآخرين بإتباع هذا السلوك، لكن ما يرفضه الولي في الواقع هو القرب الظاهر من الحكم، ويبرّر الرفض بواسطة مفهوم المدنس[4].

1- آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.270؛ وعن مثل هذه الفكرة أيضا يراجع محمد فتحة: **المرجع السابق**، ص-ص.160-161.

2- صالح بعيزيق: **المرجع السابق**، ص-ص.431-432؛ وعن سلطة الولي يراجع سالم حمّيش: **الخلدونية**، ص.87.

3- نور الدين الزاهي: **بركة السلطان**، الرباط: دفاتر وجهة نظر-مطبعة النجاح الجديدة، 2007م، ص.64.

4- عبد الأحد السبتي: **النفوذ وصراعاته**، ص.75؛ وترى إحدى الدراسات أنّ معالجة علاقة السلطة والصوفية على ضوء ثنائية الاعتقاد والمعارضة، أي اعتقاد السلاطين في الصوفية ومعارضة الصوفية للسلطة بات من المعالجات الكلاسيكية السطحية، التي تكشف عن مضمرات هذه الظاهرة والمنطلقات المتحكمة فيها ولاسيما وأنّ الأفكار التي اعتمدت في هذا البناء مستوحاة من الحكايات الكرامية التي يكتنفها الشطط والخرافة والغموض، الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.697.

ويبدو أنّ السلطة المغربية استندت إلى شريحة الصوفية من منطلق حاجتها لتحقيق المشروعية الدينية، التي استمدتها كذلك من فعاليات دينية أخرى مثل الفقهاء والشرفاء، لأنّ قيام هذه الدول تم وفق سلطة العصبية والسيف[1].

فالزيانيون مثلا –الذين أرادوا إضفاء الشرعية على حكمهم باعتماد الدين أو النسب الشريف– كانوا يواجهون أزمة الشرعية التي ستزداد حدّتها مع أواخر الدولة الزيانية، حيث ازدياد الفتن الداخلية والتدخلات الخارجية وعودة الضغط المسيحي، فكان بروز السلطة الصوفية كسلطة موازية للسلطة السياسية[2].

فحجم الوجود الصوفي وسيطرته على الواقع المغربي بصفة عامة جعل مظاهر التقدير والتبجيل والتقديس تطبع أهم صور الموقف السلطوي الزياني اتجاه الصوفية، في حين شكّلت علاقات الودّ والتقارب المقابل الصوفي إزاء ذلك في أغلب الأحيان[3].

1- ينظر مثلا آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص، ص.265-268، 283؛ صابرة خطيف: **المرجع السابق**، ص.69؛ ومثال ذلك ما حدث مثلا مع أبي حمو موسى الثاني (760هـ-791هـ/1358م-1388م)، عندما وظّف عامل الشرف، يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.2، ص.106، ص.5 ومابعدها؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص-ص.190-191؛ عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.3، ص.39؛ الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.707؛ وما يعكسه ما ورد في كتاب "**واسطة السلوك**" لأبي حمو موسى الزياني، والذي أولى فيه اهتماما بهذه الفئة بالإضافة إلى مؤلف التنسي: **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، في عهد محمد المتوكل (866هـ-873هـ/1461م-1468م).

2- آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.267.

3- **نفسه**: ص، ص.268، 276-278؛ مسعود بريكة: **النخبة والسلطة في بجاية الحفصية**، شهادة الماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الأوسط، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، إشراف: عمارة علاوة، 1429هـ-1430هـ/2008م-2009م، ص.213؛ صالح بعيزيق: **المرجع السابق**، ص.431؛ وعن اهتمام السلطة الزيانية بالأولياء، التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص-ص.248-249، فمثلا تقدير يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية للصوفية، ورغبته في التقرب إليهم وفي الحصول على بركاتهم وحرصه الشديد على زيارتهم، ابن مريم: **المصدر السابق**، ص.224؛ يحي بن خلدون: **المصدر السابق**، ج.1، ص.112؛ لا يمكن التعميم فيما يخص علاقة السلطة والمتصوفة، حيث جاءت النصوص الكاشفة (سياسة السلطة تجاه الصوفية متشابكة مع ما هو ذاتي وخاص باعتقاد السلاطين في هذه الشريحة وبالتالي صار الفصل بينها عملية دقيقة نظرا لتداخل ذاتية شخصية السلاطين وسقوطها بظلالها على سياسة الدولة تجاه الصوفية، الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.707؛ وعن علاقة السلطة المرينية بالصوفية يراجع ابن مرزوق: **المسند**، ص.164، والذي يورد نص عن علاقة مرابطي الشلف بالسلطة المرينية: «وحضرت بين يديه عشية، وقد ورد المرابطون من جبال شلف للسلام عليه، فتقدم شيخ من المرابطين من بني أبي ميلك، وكان عرف به شيخنا الفقيه أبو موسى ابن الإمام فلما

فلا يمكن أن نعدم التوجه الاعتقادي للسلاطين في الصوفية مثل العامة، فذلك صار بنية أساسية في فكر إنسان القرنين 8 هـــ و9هـــ/14م و15م خاصة[1].

وتصوّر الكتابة المحلية المازونية صور العلائق المختلفة التي ربطت متصوفة ومرابطي المنطقة الشلفية والسلطة الزيانية، التي تنازلت مثلا عن جباية الضرائب بمنطقة رهيو القريبة من المجال الجغرافي المازوني نزولا عند رغبة المرابط سيدي عزوز وحجّتهم في ذلك أنّه من عباد الله الصالحين[2]، وإعفاء سيدي سينا بالبطحاء من الضرائب والإتاوات أيضا[3].

ولعل ما كان يوتّر العلاقة بين السلطة الزيانية والصوفية التفاف فئات المجتمع حول الصوفي وشهرته، ممّا يكسبه شعبية كبيرة، وأتباعا كثيرين، وبالتالي سلطة ونفوذا في المجتمع قد يمارس من خلالها تهديدا لسلطة السلطة والأغنياء على حد تعبير ألفرد بيل[4]، لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبّة والوقوف عند إشارتهم والتعبّد بما يتأولونه من عباراتهم[5].

فمثلا شهرة أمر أحد صلحاء الشلف وهو أبو البيان واضح الشلفي المتعبّد بجبل آفرشان بالشلف[6]، إنّما كان بعد علاقة توتر بينه وبين السلطان يغمراسن الذي نزل عليه بجيوشه ومحلاّته

دخل للسلام عليه ابتدر رأس مولانا (نصره الله) ليقبله ويحتضنه، على ما جرت عادة البادية، فزجره شيخنا وابتدره الحاضرون ليصدّوه، فقال (نصره الله): "لا، والله،=

= ما يمنع بل يترك على حاله لتحصل به البركة، فإنّ الرجل على نشاطه في النيّة، فلا يفسد اعتقاده".»، ابن مرزوق: **المسند**، ص-ص.162-163.

1- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.710؛ ويراجع أيضا محمد فتحة: **المرجع السابق**، ص.165.

2- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.306.

3- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص-ص.28-29؛ المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.2، و.44.

4- ألفرد بيل: **المرجع السابق**، ص.406.

5- آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.282؛ وحول هذه الفكرة أيضا تراجع سمية مزدور: **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588هـــ-927هـــ/1192م-1520م)**، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة: جامعة منتوري، إشراف: محمد الأمين بلغيث، 1429هـــ-1430هـــ/2008م-2009م، ص.149.

6- كان اشتهار أمر الشيخ الصوفي سيدي واضح في أواسط القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ونبّه حفيده أبو محمد في قصيدته أنّ اشتهار حاله في أوائل الستين منه، المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.76؛ ويراجع أيضا **نفسه**: و.51-52؛ التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص.126؛ يتواجد هذا الجبل (وافرشان) حسب دليل الحيران للزياني وطلوع سعد السعود للمزاري بوادي رهيو، الزياني: **دليل الحيران**، ص.58-59؛ المزّاري: **المرجع السابق**، ج.1، ص.163.

بأعلى خنق رهيو[1]، لكن الأمر انتهى بخضوع يغمراسن لأمر الصوفي أبي البيان واضح بعد تعرّضه لامتحان عسير من قبله[2].

وفي صورة أخرى لهذا التوتر انتهى نقاش حاد بين الصوفي أبي عبد الله محمد بن يحي والسلطان موسى بن عثمان بضرب السلطان للصوفي بمرفقة كانت بيده فردّها إليه الصوفي وأصابه، فلمّا انصرف أصاب السلطان الوجع في البطن مما اضطر إلى إعادته واسترضائه[3]، وما حدث مثلا مع قائد شلف الذي قام بتقييد الصوفي الحاج السعيد بالجبل، وما صوّرته كرامة هذا الولي في وجهها السياسي العنيف عندما تكسر ذلك القيد دلالة على انكسار الظلم أمام هذا الصوفي[4].

2-3- المتصوفة والممارسات المجتمعية -دراسة في ذهنية الساكنة الشلفية-

لقد برز التصوّف مع مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي كتيار له حضور قوي داخل المجتمع وساهم في التأطير الديني لساكنة الغرب الإسلامي[5]، حيث لم يقتصر المتصوّفة

1- للأسف لم نتمكن من قراءة اسم هذا الموضع في زمن موسى بن عيسى المازوني، المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.77؛ والذي يرد عند الحفناوي: بوزاني، الحفناوي: **المرجع السابق**، القسم: 02، ص.587.

2- **نفسه**: ص.587؛ المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.79، 80؛ الصباغ: **نسمات الأزهار**، و.132-134؛ ويراجع أيضا عن واضح الشلفي، ابن مرزوق: **المناقب المزروقية**، ص-ص.273-288؛ الصومعي: **المصدر السابق**، ص-ص.203-204.

3- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.299.

4- **نفسه**: و.300.

5- يرى القبلي أنّ الرواية المعاصرة للموحدين اهتمت بموقف الحكام المتطور من عقيدتهم الرسمية، دون أن تلتفت إلى موقف المحكومين من نفس هذه العقيدة وأهلها، وأغرب مافي الأمر أنّ هذا الموقف الأخير قد بدا واضحا وضوح المواقف التلقائية في المصادر المنقبية منذ الأوائل، بمعنى أنّه اقترانا ضمنيا بالإعراض عن كل من الطرف الحاكم، ومجموع الجهاز العقدي الذي يستند إليه، ولربما ازداد انصراف العامة عن نظرية "التوحيد" بسبب ما اتسمت به من "تقنية كلامية" ممتنعة وانتقائية نظرية في غير متناول الجميع والظاهر أنّ كلا من هذين العنصرين قد لعب لغير صالح العقيدة الموحدية ولفائدة حركة "الولاية" التي ارتبط انتشارها زمنيا بقيام الحكم الموحدي بالذات، محمد القبلي: "حول التحركات البشرية"، ص-ص.93-94؛ لكن ما إن آل الحكم للزيانيين تغيرت أوضاع المغرب الأوسط المذهبية، والتي عبّر عنها ألفرد بيل بمرحلة الانتقال بين مراعاة المبادئ الموحدية في التوحيد والعقيدة وبين العودة إلى مذهب مالك، ألفرد بيل: **المرجع السابق**، ص.305؛ آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.286.

المتصوّفة على أمور العبادة والتأمل أو التربية، بل اندمجوا في الحياة العامة وتدخلوا فيها[1]، وهي تدخلات لم تكن تصادف دائما هوى وقبولا لدى السلطة، ولكنّهم كانوا يعملون على تلبية مطالب المتصوّفة الذين كانوا يتدّخلون لإزالة ظلم، أو صون حق مهضوم[2]، فالتصوّف على حد تعبير أحد الباحثين: «هو ظاهرة إنسانية أفرزها مجتمع متأزم خائف يواجه بها الخوف من الطبيعة.»[3].

خاصة وأنّ المناخ الثقافي العام سمح بتكريس سلطة المتصوفة بل وتقديس رجالاتها، والإيمان من غير حاجة إلى جدال أو عقلانية بالأشياء الخارقة للعادة التي يأتون بها، وإن لم يقتصر الأمر على الجمهور الساذج بل اندمج في هذا التيار غالبية النخبة الفقهية أيضا[4].

وقد لعبت المؤلفات التي كتبت في مناقبهم دورا لا يستهان به في إشاعة أخبارهم وتعميمها إلى درجة أنّ المجتمع أصبح ولمدة طويلة يصدح بأفكارها، ويعيد إنتاجها باستمرار[5]، ونظرا لاندماج الولي هيكليا في الواقع القبلي الإقليمي لمجتمعه الخاص، فالراجح أنّ سلوكه المميّز قد أدّى إلى تجسيد نموذج "الحكم-البديل"، ضمن مناخ يغلب عليه افتقاد الحكم سواء بالنسبة للخصومات المجتمعية العادية أو بالقياس للنزاعات الجماعية الشاذة[6].

ويبدو أنّ الظروف التي عاشتها مازونة وناحيتها شكّلت أرضية خصبة لظهور الخطاب المنقبي لعرض حلول مشكلات ساكنتها من خلال كرامة الولي التي تحاول أن تقدم البديل لإصلاح أوضاع فقراء وعامة وربما حتى خاصة هذه الجهة.

فالمجتمع المازوني خاصة والشلفي عامة عانى كثيرا جرّاء غياب السلطة أو تغيّراتها المتعددة، فغيّب الحل السلطوي أمام البديل الصوفي، لذلك فقد عمل الصوفية على ملء هذا الفراغ مستعملين الطرق السلمية والحلول المستندة للقوة الروحية لأجل تخليص الناس من محنهم التي تلحق بهم، لدفع المضار، جلب المنفعة، كسب الرزق، إعانة الفقراء والإعالة بالمال والدعاء، وعن

1- محمد فتحة: **المرجع السابق**، ص-ص.159-161؛ محمد المغراوي: **العلماء والصلحاء**، ص.370.

2- **نفسه**: ص.164.

3- عبد اللطيف الشاذلي: **المرجع السابق**، ص.315.

4- محمد فتحة: **المرجع السابق**، ص.164؛ وعن مثل هذه الفكرة ينظر آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.17.

5- محمد فتحة: **المرجع السابق**، ص.164.

6- محمد القبلي: "حول التحركات البشرية"، ص-ص.94-95.

الغيث والنهي عن المنكر وإعادة الكثيرين من الخارجين عن قيم الدين إلى الطريق بتوبتهم[1]، أو للتخلص من حاكم ظالم، وكذلك لاستجلاب دعائهم وشفاعتهم وبركاتهم وللشفاء من المرض ولتفريج الكروب[2].

فكان الولي الطرف الأساسي في مشهد الكرامة، وهو الإنسان الذي تؤهله صفاته الجسمانية لتحقيق الفعل الخارق ضمن قصة هيبة فاعلة[3]، فالولي يردع ويتحدّى، وينتقم ويعاقب ويعفو ضمن سلطة تقوم على الخوف[4]، لذلك فهو بمثابة الزعيم الروحي في المجتمع، علما أنّ الاعتقاد به والإيمان العميق بكل الطقوس الصادرة عنه من كرامات وخوارق ومكاشفات ظلّت ذهنية راسخة في نفوس أفراد المجتمع حكاما ومحكومين على السواء[5].

لقد تجسّد دور الولي أكثر في أوقات الأزمات على اختلاف طبيعتها[6]، كما أنّ فكر

1- عن مسعود بريكة: **المرجع السابق**، ص.227؛ الذي ربط ذلك بالمجتمع البجائي وهو ما يوافق الوضع بالجهة الشلفية.

2- ألفرد بيل: **المرجع السابق**، ص.391؛ وينظر أيضا سمية مزدور: **المرجع السابق**، ص.149.

3- عبد الأحد السبتي: **النفوذ وصراعاته**، ص-ص.73-74؛ وعن هذه الخوارق يذكر المازوني عن صوفية الشلف الذين سمحت لهم مقاماتهم التعبدية أن يروضوا الأسود ويستخدمونهم في نقل وحمل الحطب من الغابة إلى حيث العمران، المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.292-294.

4- عبد الأحد السبتي: **النفوذ وصراعاته**، ص.74؛ ويرى بوتشيش أنّ الكرامة الصوفية بنية أساسية في الفكر البشري مرتبطة بنمط مجتمعي وبأسلوب معيشي معين وانعكاس لإكراهات اجتماعية، يراجع إبراهيم القادري بوتشيش: **الإسلام السري في المغرب العربي**، القاهرة: سينا للنشر، 1995، ص-ص.131-133؛ قلما يستطيع الصوفي التعبير عنها بشكل مباشر، فهو لا يملك القوة التي تمكنه من تغيير الأوضاع، لهذا وظفت الكرامة برموزها المتنوعة والهادفة للتعبير عن واقعه ورؤيته لإصلاح المجتمع وإعادة بنائه، إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص-ص.140-141؛ ويراجع أيضا آمال لدرع: **المرجع السابق**، ص.283؛ وناقشت نللي العامري سلطة الأولياء منطلقة من مفهوم السلطة الكارزمية ووسائل هذه السيطرة التي لخصتها في عناصر هي: البركة، قضاء الحوائج، الدعاء، الكرامة: نللي العامري: **المرجع السابق**، ص-ص.299-323؛ حيث كانت لهم تأثيرات في كل مجالات الحياة العامة والخاصة، وعلى كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وحتى العمرانية، وقد بدأت تتحدد معالم هذه السلطة الولائية بشكل بيّن منذ نهاية المائة السابعة هـ/13م، وبداية المائة الثامنة هـ/14م، نللي العامري: **المرجع السابق**، ص-ص.271-272.

5- الطاهر بونابي: **التصوف في الجزائر**، ص.172؛ الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.668؛ محمد المغراوي: **العلماء والصلحاء**، ص.345؛ فالتصوف حسب برنشفيك أصبح متلائما مع عقلية المؤمن المغربي سواء كان من العامة أو من الخاصة، وبفضل ما اكتساه من صبغة "وسطى" ما بين التدين الهادئ والتحمس المفرط، وما بين التدين الجاهل والجدلية الصارمة سرعان ما أصبح جذّابا، روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص.334؛ فالصوفية حسب برنشفيك وألفرد بيل كانت بشمال إفريقيا تيارا معتدلا مستمدا من منهج الغزالي، صالح بعيزيق: **المرجع السابق**، ص.431.

6- نللي العامري: **المرجع السابق**، ص.259.

"الكرامة الصوفية" ينشط في مرحلة الأزمات ليطرح البديل لها رغبة في تجاوزها[1].

وهو ما صوّرته النخبة في خطابها المنقبي، وأكدّت عليه، فالكرامة حسبها أحد العوامل الرئيسية في الوظيفة الاجتماعية، وبالتالي تطلّع إليها مجتمع المغرب الأوسط كمنقذ له من أزمات الجوع والجفاف، لذلك تترافق ثنائية الأزمة الاجتماعية والوظيفة الاجتماعية للكرامة في المشهد الاجتماعي، وعلى الرغم من محدودية فعاليتها في إنهاء الأزمة، إلاّ أنّها شكّلت مركّبا أساسيا في طمأنة المجتمع[2].

لقد أوردت الكتابة المنقبية المحلية المتمثلة في مؤلفات صلحاء وادي شلف ومختصر ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار وبستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعذن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار العديد من الأمثلة عن تجربة الولاية بالناحية الشلفية.

فقد خصّص أبو عمران موسى بن عيسى المازوني صدر كتابه"صلحاء وادي شلف" لإثبات كرامات الصالحين من خلال الحجج النقلية والرد على المنكرين لها[3]، فالكرامة حسبه لا تكون إلاّ لأهل اليقين المنقطعين لله[4]، فهي تزيدهم نشاطا فيجتهدون في خدمة مولاهم ويعظّمون جلاله في قلبهم فيزدادون تعلقا بطريق الآخرة[5]: «لا يلقاهم جبار بسوء إلاّ فصم ولا يستعصم بهم منتهك إلاّ عصم، ماذا أذلّوا بهيبتهم من الطغاة وقهروا بدعوتهم من الولاة ...»[6]، كما أنّه ذكر في تبجيلهم: «...يا أخي حرام عليك أن تراهم حتى تعرفهم وحرام عليك أن تعرفهم حتى تحبّهم، حتى توثرهم، وحرام عليك أن توثرهم حتى تبذل صحتك في خدمتهم...»[7].

1- إبراهيم القادري بوتشيش: "واقع الأزمة والخطاب "الإصلاحي""، ص، ص.26، 29-49.

2- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص، ص .660، 680؛ محمد المغراوي: **العلماء والصلحاء**، ص، ص .374-375، 379-380، 382؛ سمية مزدور: **المرجع السابق**، ص.70؛ وينظر مثلا لما تحدّث عنه الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص-ص.28-29.

3- المازوني: **صلحاء وادي شلف**، و.4.

4- **نفسه**: و.47.

5- **نفسه**: و.10.

6- **نفسه**: و.24.

7- **نفسه**.

لذلك فعلى كل متديّن ألاّ يعترض على أهل الطريقة بل يسلم عليهم، وألاّ ينازعهم أو يذكر أحوالهم، ولو كان بقلبه، لأنّ أصحاب الكرامات هم جواسيس القلوب، يرون الغيب من ستر رقيق[1]، وهو ما كان يقوم به المازوني نفسه، حيث كان يزور صلحاء وادي شلف، ويتبرّك بهم كقوله في زيارته للصوفي على بن عبّو، «زلفت مزارا وتبرّكت به وسألته الدعاء.»[2]، وكذا كرامة محمد بن موسى المازوني المجذوب[3] مع أبي الربيع سليمان بن أحمد بن سعيد القلعي، واعتقاد واعتقاد أبي العباس أحمد بن محمد بن زكري التلمساني وعلماء تلمسان في ولايته[4].

لم يعد ما يحرج المجتمع المازوني أو الشلفي بصفة عامة في أن يجهر ببركة صوفيته والاعتقاد بالولي بعد مماته والتسليم والانقياد له[5]، وهو ما تعكسه شهادة المازوني الأب عن تحول قبور صلحاء حوض شلف مثل قبر أبي الربيع المديوني وفاتح بن يوسف وأبي زكريا بن علي إلى مزارات يتبّرك الناس بها[6]، كما أنّهم جعلوا من قبر أبي يعقوب بن عبد الله بن محيو الهواري الذي اشتهر في أواخر القرن 6هـ/12م وأوائل القرن 7هـ/13م الكائن ببني حلوان بساحل مازونة، وأبي مسعود بن عريف محلا لطلب الشفاء من الأمراض والعاهات والتبّرك به[7]، حيث أنّ الله سبحانه وتعالى لا يردّ أو يخيّب من اعتصم بزاوية أبي يعقوب وقبره بساحل مازونة: «ومن مناقب الشيخ سيدي أبي يعقوب أنّه لّما غار جيش ابن غانية على زاويته، وكانت كثيرة العمارة...الناس إليه لانتشار الفساد في ذلك وسلبوا الأموال والأثاث والمواشي جاءه الشيخ بنفسه لمحلته، وكان نازلا بظاهر مازونة بالموضع المعروف الآن بتيزي، وكان رضي الله عنه حسبما قام الصون، فلما رآه قال ما لهذا...فقال في قلب الشيخ...»[8]، وأيضا: «...ولما أنهي لعبد القوي بن العباس التجاني

1- **نفسه:** و.10، 19، 47.

2- **نفسه:** و.300.

3- عن مصطلح المجذوب الذي هو نوع من أبطال التصوف الذي يسهل تحديد مظاهر صفاتهم الخارجية وتستعمل أيضا عبارات: البهلول والموله وساقط التكليف والمجذوب والهائم والغائب في الله ودائم الغيبة، الشاذلي: **المرجع السابق**، ص.84.

4-الصباغ: **نسمات الأزهار**، و.9، 21.

5- وهو ما يراه جورج مارسي الذي يتحدث عن الاعتقاد الكلي للقطاع الوهراني في الأولياء، جورج مارسي: **تلمسان**، ص.83.

6- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.293.

7- **نفسه:** و.39، 111، 208، 214.

8- وهو ناقص نظرا لعدم وضوح المخطوط الموجود لدي، **نفسه:** و.134 (حدوثها في بدايات القرن 7هـ/13م).

التجاني أنّ ذخاير مغراوة حصلت كلها بزاوية الشيخ أبي يعقوب جاء بقبيله ومحلّته ونزل بشلف وسار بجيشه للزاوية واستلبوا كل ما وجدوا وانتهك الحريم حتى جرّدوا النساء من داخل المسجد وكل ذلك على عين الشيخ فأجتاز عليه عبد القوي فقال له يا عبد القوي يا عبد القوي وكرّرها يعني الدعوى عليه لا له فانصرف عنه فما وصلوا للمكان المسمّى بتيزي أن يغمراسن (أو يغراسن) حتى خرجت أحشاؤه من دبره وأخذه وجع قوي، فصار الشيخ يرمق السماء بعينيه والنساء والولدان والشيوخ والكبار يبكون حوله وينتحبون فما وصلوا به أتى...حيث مجشر أبي حرش حتى مات أهزأ بالدعاء وتزدر به تأمل فيك ما صنع الدعاء...لا تخطى ولكن لها أمد وللأمد انقضاء...فلما رأى بنو توجين ما حلّ بأميرهم ارعووا وداخلهم الدهش فردّوا جميع ما استلبوه للزاوية حتى لم يبق منه إلاّ حمارة عليها حتى فكان حكمة الله كل ما دخلت حلّة من حللهم أنزل الله مصيبة بها فألهموا للدابة فعمدوا إليها وردّوها من شلف في تلك الليلة...»[1].

و لم تكن بطبيعة الحال القبور وحدها مزارا للساكنة من أجل الاستشفاء والعلاج، بل حتى الزاوية كانت مقصدا للعلاج من الأولياء القائمين عليها أو الاستشفاء بالأضرحة إن وجدت بها، وهو ما مثّلته زاوية الشيخ واضح الشلفي في أواسط القرن السابع الهجري/13م[2]، أو ملاذا للفقراء في وقت المجاعات كما حدث مع الولي أبي عمران موسى بن إسحاق في وقت المجاعة مع المرأة التي جاءت إليه تطلب منه الصدقة التي كان قد وزّعها للفقراء من ماله الذي ورثه حتى تضمن قوت عيالها[3]، أو التكفل بإطعام أبناء السبيل في الطريق لمواجهة نقص الغذاء والحد منه[4].

في الحقيقة لقد مثّلت زيارة الأولياء الصالحين ظاهرة عامة شملت النساء والرجال بل حتى السلاطين والفقهاء والعلماء[5].

1- **نفسه**: و.135-136؛ وعن الموقع المذكور في هذا النص (تيزي أن يغمراسن أو يغراسن) نجده عند الصباغ تيزان يغمراس يراجع الصباغ: **نسمات الأزهار**، و.90-91.

2- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.39، 76؛ الصباغ: **نسمات الأزهار**، و.135.

3- **نفسه**: و.139-140.

4- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.215؛ ويراجع الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.660.

5- سهام دحماني: **المرجع السابق**، ص.173؛ حيث كان التصوف المغربي بعيدا كل البعد عن النزعة الفردية الانعزالية، وكان شيوخه يحرصون على نشر الأخلاق التي تؤسس للتصوف الجماعي، فشجعوا بعض المظاهر التي تخدم هذا التوجه مثل الزيارات وإقامة المواسم وإحياء المناسبات الإسلامية والتجمع في الرباطات والوعظ والدعوة ثم الحج كما أنّ التصوف لم يفرز=

وعلى العموم فالكثير من الكرامات كانت تروى من طرف أبناء الصوفية وأتباعهم ليضمنوا توارث الصلاح وامتيازاته ضمن النسب الشريف للعائلة، والحرص على استمرار تدفق مساعدات المخزن وفي الاستحواذ على مشيخة الزاوية[1]، وهو ما عناه أبو عمران موسى بن عيسى المازوني في حديثه عن استمرار حرمة الولي في ذريته وسيادة فكرة تقديس أبناء الصوفية وتعظيمهم في المجتمع إلى أن أضحى ذلك سلوكا اجتماعيا[2]، كما حدث مع أحفاد أبي مسعود بن عريف، وهو من صوفية القرن6هـ/12م، الذين ظلّوا بنواحي الشلف إلى عهد المازوني الأب: «...وهذا الشاب هو الشيخ الصالح سيدي أبو مسعود بن عريف نفعنا الله به وله صيت عظيم بهذه النواحي وشأن عظيم وله حفدة محترمون بحرمته موّجهون من عيون محرّمة مستصحبة من وقت الشيخ وقبره مشهور بجوار تيمزوغت يزار ويقصد للاستشفاء متبرك به...»[3].

و لم يتوقف الدور الكرامي هنا بل تمّثل أيضا في ظاهرة الجفاف التي كانت أكثر حضورا في المنطقة الشمالية الغربية أي (تلمسان ووهران وشلف) قياسا بما كان موجودا في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية، فجاء النص المنقبي مرة أخرى معقولا في طرحه لقضايا الاستسقاء التي تكرّر ورودها ضمن نطاق المنطقة الشمالية الغربية عنها في المناطق الأخرى[4]، فكانت الساكنة تقصد الصوفية للتبّرك بها والاستعانة بها في الأغراض الزراعية والسقي –وهو النشاط الأكثر ممارسة بهذه الجهات– فكانوا يكتبون لها الحروز لحيواناتها حتى تقوم بمهمة الحرث مثلا على أكمل وجه[5].

وتظهر إيجابيات انتشار التصوف في هذه الجهة في تعريب مختلف الشرائح الشعبية بالمدن والأرياف، فبالإضافة إلى اكتساح القبائل العربية المناطق التليّة خلال هذه الفترة، وأثره في حركة

=مجموعات مستقلة فظّل شيوخه قبلة لجميع أنواع المريدين دون تمييز، وهذه الخاصة أعطته قوة إضافية، وأظهرت أنّه كان مرتبطا بالقيم والممارسات أكثر من تعصبه للشيوخ، محمد المغراوي: **العلماء والصلحاء**، ص.359.

1- مفتاح محمد: **المرجع السابق**، ص.220؛ الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.668.

2- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.139؛ الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.668

3- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، و.214.

4- الطاهر بونابي: **الحركة الصوفية**، ص.673.

5- المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.2، و.133.

التعريب، فإنّ الإقبال الشعبي على رجال التصوف وحرص هؤلاء على نشر التعاليم الصوفية، كان له أثره في تعريب ما تبقى من سكان بلاد المغرب الأوسط[1].

3- ملاحظات عن الواقع الفلاحي والتجاري المازوني:

3-1- الواقع الفلاحي:

إنّ الواقع الفلاحي في السهول الخصبة المنتشرة حول المدينة[2] في وصف الإدريسي المبكر[3]: «...ولها أنهار ومزارع وبساتين...وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصبا...»،

1- يلاحظ تعرب ساكنة مازونة بشهادة الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان: «...وكثير من سكانها الذين يتكلمون العربية اليوم يفخرون بانحدارهم منها...»، فون مالتسان هاينريش: **المرجع السابق**، ج.1، ص.234.

2- ترجع حيوية مازونة إلى خصوبة السهل الشلفي الذي تنتمي إليه وسهول وادي رهيو أيضا، كما يرى عز الدين أحمد موسى أنّ قصر الأنهار في بلاد الشرقية وضيق سهولها جعلا مناطق الزراعة السهلية ضيقة بالمقارنة مع ما في البلاد الغربية، حيث الزراعة تكون على ضفاف الأنهار والبسائط قرب العيون، والمعلوم أنّ مازونة تنتمي إلى المنطقة التلية الغربية، يراجع:

عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص، ص.57، 63؛ فون مالتسان هاينريش: **المرجع السابق**، ص، ص.224، 230؛ ويراجع أيضا:

L.Kergoat, *Paysan au Dahra Oriental (Algérie) Djebel Bissa, contribution à la connaissance de la condition paysanne en montagne forestière (Essai socio-historique)*, thése E.P.H.E. VIéme section, sous la direction de G.Tillon, Paris, 1972; Richard (Ch.), *Etude sur l'insurrection du Dahra.*

نقلا عن الطاهر جنان: **المرجع السابق**، ص.16؛ Moulay Belhamissi, *op. cit.*, p. 28 ؛

كما أنّ الدراجي بوزياني يسمي سهل التنس بالظهرة، يراجع بوزياني الدراجي: **نظم الحكم**، ص.211؛ فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.99.

Atallah Dhina, *Les états de l'occident musulman*, p.336-339.

3- الإدريسي: **المصدر السابق**، ص-ص، 128-129؛ كما يتحدث صاحب الاستبصار المعاصر لنفس الفترة تقريبا عن فحص سيرات القريب من قلعة هوارة حيث: «...و قرب هذه المدينة قلعة هوارة وهي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعناب وتحتها فحص طوله نحو 40 ميلا يشقه نهر سيرات ويسقي أكثر أرضه يسمى ذلك الفحص سيرات باسم النهر، ونهر سيرات هو نهر كبير مشهور يقع في البحر عند مدينة أزواو، وهي مدينة قديمة...»، وهو النص الذي يعبّر عن خصوبة المنطقة التلية الغربية يراجع مؤلف مجهول (ينسب لابن عبد ربه): **المصدر السابق**، ص.178؛ كما أنّ ياقوت الحموي في وصفه لمدينة البطحاء القريبة من مازونة والواقعة على رافد من روافد نهر سيق حيث تقع في سهل واسع، هو سهل سيرات المذكور عند مؤلف الاستبصار ينظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ج.1، بيروت:

وملاحظات الوزان[1] ومارمول كاربخال[2] المتأخرة: « والأراضي المزروعة جيدة تعطي غلة حسنة...»، «كان سكانها في الماضي على درجة كبيرة من الغنى لأنّ بلادهم كثيرة القمح والماشية...»، يقدّم تصورا هاما لحيوية اقتصاد مازونة وناحيتها (ربما لفترات زمنية متقطعة).



صورة رقم: 17 (منظر عام للمدينة)

فعلى الرغم من إقرار ابن خلدون بأنّ الفلاحة لا تساعد بشكل أساسي في التطور الاقتصادي، إذ هي من معاش المستضعفين[3]، إلاّ أنّه اعتبرها قوتا أساسيا لوجود الإنسان الذي «يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلاّ من دون القوت.»[4]، لأنّ أي خلل يحدث به يدفع

دار الكتب العلمية، 1410هـ/1990م، ص.662؛ وعن أهمية زراعة الحبوب ومنها القمح خاصة في سهل البطحاء وسهل تنس=

=ينظر لطيفة بشاري: **التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية، من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (13م-16م)**، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، إشراف: موسى لقبال، 1406هـ-1407هـ/1986م-1987م، ص-ص.240-242.

Pelissier, *Mémoires Historiques et géographiques sur l'Algérie*, p.405.

1- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36؛ كما يتحدّث أيضا عن مملكة تلمسان التي تتكون في معظمها من أقاليم جافة قاحلة، لاسيما في جزئها الجنوبي، لكن السهول القريبة من الساحل منتجة جدا نظرا لخصبها، والجهة المجاورة لتلمسان كلها سهول مع بعض المفازات...وكذلك في إقليم تنس وفوق بلاد الجزائر عدد لا يحصى من الجبال المنتجة، **نفسه**: ج.2، ص.10.

2- مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359.

3- ابن خلدون: **المقدمة**، ص-ص.365-366.

4- **نفسه**: ص.376، وتراجع أيضا الصفحات التالية 365-366؛ حيث يمكن ملاحظة ذلك من خلال رؤية إبراهيم القادري بوتشيش لوضعية وجدة حيث لم يكن بمقدور هذا النشاط الفلاحي أن يدفع بعجلة المدينة نحو التطور، إبراهيم القادري بوتشيش: مدينة وجدة، ص.154.

بالمجتمع إلى خطر المجاعة التي كان يعقبها في الغالب الوباء[1]، لذلك اعتبر ابن عبدون أنّ: «الفلاحة هي العمران وببطالتها تفسد الأحوال ويختل كل نظام.»[2].

ويظهر جليا تأثير الحروب والفتن في زعزعة النشاط الفلاحي بمازونة، حيث نتصور تقلص الأراضي المزروعة خاصة وأنّها منطقة سهلية والتفشي الواسع للرعي[3]، لأنّ المناطق الخصبة التي تفقد فلاحيها تشكل فراغا تملأه القبائل البدوية[4]، وهو ما يذكره أحد الباحثين[5]: «عندما لا تصبح الحقول طوال سنوات متعددة سوى مسرحا للمعارك أو مجرد ممر لعبور وحدات المحاربين التي تعيش من المنطقة وتمارس فيها سياسة الأرض المحروقة، فإنّ الأمر ينتهي بالفلاحين إلى الانصراف عن الاهتمام بمزروعاتهم، أو إلى عدم الاهتمام إلاّ بالحد الأدنى الذي يكفيهم للغذاء.».

1- سميرة المزكلدي: **المرجع السابق**، ص.62؛ وعن تأثير ذلك ينظر أحمد السعداوي: "المجاعات والأوبئة في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط: النتائج الديموغرافية"، **الديموغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي**، تونس: دار سراس للنشر، 1993م، ص-ص.27-48.

2- محمد بن أحمد بن عبدون: **رسالة في القضاء والحسبة**، نشره: ليفي بروفنسال، **ثلاثة رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب**، القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي، 1955م، ص.5، نقلا عن سميرة المزكلدي: **المرجع السابق**، ص.15؛ عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.163.

3- الدراجي بوزياني: **العصبية القبلية**، ص.315؛ سميرة المزكلدي: **المرجع السابق**، ص.63؛ كما توقفت الزراعة في البلاد المغربية في حملة أو لحركة الطويلة الأعوام لعبد المؤمن بن علي الموحدي (534هـ-540هـ/1139م-1145م)، عز الدين موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص.160؛ إلاّ أنّ ممارسة مغراوة للرعي وتربية الماشية كما يظهر في نصوص وسيطية كثيرة كانت بمثابة السمة البارزة لهذه القبيلة؛ وعن أهمية الثروة الحيوانية بالمنطقة لطيفة بشاري: **التجارة الخارجية**، ص-ص.245-253.

4- ينظر مثلا رؤيه محمد حسن للفلاحة أواخر العصر الوسيط، محمد حسن: "الريف المغربي في أواخر العصر الوسيط مدخل لدراسته من خلال نوازل المعيار الونشريسي" Actes du III congrés d'histoire et de la civilisation du Maghreb, (Oran 26-27-28Novembre 1983) T .1(O.P.U) Alger ,1987.، ص.98؛ وفي منتصف القرن الرابع عشر سجل ابن خلدون هذه الظاهرة، حيث تدهورت زراعة الأشجار وانتشار البداوة، واختفاء المدن والقرى أو خلّوها من سكانها يراجع م.طالبي: "إشعاع الحضارة المغربية"، ص.84؛ في حين يرى سالم حمّيش أنّ السبب الرئيسي لضعف الزراعة لا يكمن في سيطرة البدو على السهول الخصبة بقدر ما يرجع إلى سوء وعقم إقطاعية النظام العقاري، كما أنّ استهلاك الفائض الإنتاج في النفقات اللا منتجة حقا، سالم حمّيش: **المرجع السابق**، ص.77.

5- نقلا عن سميرة المزكلدي: **المرجع السابق**، ص.64؛

Mols (R.), *Introduction de la démographie historique des villes d'Europe du XIV au XVIII siécle*, T.2, Louvain, 1954, p. 460.

كما أنّ الضرائب مثّلت مشكلا آخر عانت منه فئات المجتمع المغربي وحتى المازوني الذي لن يكون مختلفا عنه طبعا، فلجوء الدولة إلى فرضها عادة ما يعبّر عنه وجود أزمة مالية تحاول السلطة معالجتها وتجاوزها بفرض سياسة جبائية إضافية، والتي عكست النصوص الفقهية النوازلية دورها الخطير في توجيه الفلاحة[1]، ويمكن ملاحظة مشاركة العرب الهلالية كذلك في هذه السياسة وتأثيرها الواضح بهذه الجهة التلية[2].

ومع هذا الوضع فلا غرابة أن تسيطر زراعة الحبوب الشاسعة على بقية المزروعات والتي يرجعها أحدهم إلى تدهور وضعية نظام المساقاة خاصة مع نهاية الفترة الوسيطة بسبب التحولات التاريخية للمرحلة[3]، ولأنّ الأشجار المثمرة كانت تتطلب عناية أكبر وعدم إمكانية تجددها سنويا[4]، وهو ما يقدّم المشروعية لما ذهب إليه ابن خلدون عن خصوصية الزراعة المغربية بصفة عامة، ومكامن وهنها المتمثلة أساسا في اضطراب الإنتاج الزراعي، وتدهور غراسة الأشجار وتربية الماشية فهي تبقى معرضة دائما للتقلبات السياسية والحملات العسكرية والتعسفات الجبائية[5]،

1- محمد حسن: الريف المغربي، ص، ص.98، 113.

2- ويمكن ملاحظة الانتشار الهلالي المؤثر بالمغرب الأوسط لذلك نجد أنّ التأليف المحلي سار في اتجاه التضييق على الأعراب المتسلطين والمعروفين بالنهب والحرابة، المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.1، و.180 وما يليها، ج.2، و.70؛ حيث يمكن مراجعة المسألة التالية الواردة عند الونشريسي، الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.2، ص-ص.435-437؛ ج.6، ص-ص.153-154؛

ابن الأعرج السليماني: **المرجع السابق**، و.98؛ ويراجع المقالين التاليين سعد غراب: "موقف الفقهاء المغاربة من المجموعات الريفية خاصة من خلال نوازل البرزلي"، Actes du -III- congrès d'histoire et de la civilisation du Maghreb (Oran, 26-27-28 Novembre 1983), Alger, O.P.U. 1987, p. 82-90.؛ سعد غراب: "كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية-مثال نوازل البرزلي-"، **حوليات الجامعة التونسية**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس: المطبعة الرسمية، ع.16، 1978م، ص-ص.83-85؛ سالم حمّيش: **المرجع السابق**، ص.56.

Jacques Berque, «Du Nouveau sur les Bani Hilal?», *Studia Islamica*, XXXVI, MCMLXXII(1972), p. 99-111.

3- محمد بن حسن: **القبائل والأرياف**، ص-ص.62-63؛ سعيد بنحمادة: **المرجع السابق**، ص.40، وهو نفس موقف عبد الله العروي الذي يرى: أنّ ضرر الحروب والثورات والفتن يلحق الشجر المثمر والحيوان أكثر مما يلحق بالمحاصيل الزراعية، والمغرب كما هو معلوم أرض غرس وغلة وكسب: عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.384.

4- سالم حمّيش: **المرجع السابق**، ص.77.

5- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36؛ و يجب أن نشير أنّ منطقة مازونة اشتهرت بإنتاج الحبوب، ونشير هنا على سبيل المثال إلى إنتاج فحوص وأحواز مازونة، يراجع فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.86، وأيضا: A.M.G.H.I. 228, *«Notice sur la ville de mazouna»*.؛

وعلى الرغم من ذلك تبقى ملاحظة الوزان ايجابية، وإن كنّا لا نستطيع تحديد طبيعة الإنتاج الزراعي الذي تحدث عنه في نصه[1]: «...والأراضي المزروعة جيدة تعطى غلة حسنة...».
لكن هل يمكن تتبع هذا الواقع وغيره من خلال النص النوازلي المحلي المتاح لدينا؟

للأسف لا نستطيع اعتماد النصوص النوازلية على الرغم من كونها مصدرا مهما تساعد على الاطلاع على وضعية "البادية" بكشفها عن طبيعة نظام الأرض في المنطقة المغربية[2]، فهناك مثلا أراض مملوكة يمكن لأصحابها كراؤها وتوريثها وبيعها وهبتها، وهناك أراضي أحباس[3]، وأراضي إقطاع تنازلت عنها السلطة السياسية القائمة لصالح جماعة أو فرد[4]، وهو ما يكون قد حدث مع محمد بن عريف السويدي سنة 767هـ/1367م، حيث يمكن أن نقرأ نازلة حول مسألة "الإقطاع" عند يحي المازوني (سؤال توجه به لشيخه أبي الفضل قاسم العقبائي (تـ 854هـ/1450م)، لكن لا يمكن تحديد مكان هذه الأرض المقطعة والتي جاء نصها كالتالي:

لطيفة بشاري: **التجارة الخارجية**، ص-ص.240-241؛ عن إنتاج (الحنطة، الفواكه، العسل وشمع العسل)، يراجع **نفسه:** ص، ص.243، 244، 256، 257.

1- محمد حسن: الريف المغربي، ص.94؛ وعن أنواع الأراضي والإقطاعات الزراعية كمال أبو مصطفى: **جوانب من حضارة المغرب الإسلامي**، ص-ص.61-64؛ ويمكن مراجعة الرسالة التالية لإليز فوقي(Elise Voguet) :

Entre réalités sociales et constructions juridiques, la vie rurale au Maghreb central d'aprés les nawâzil Mazûna (XVe siècle) ؛

بالإضافة إلى دراسة مهمة لإبراهيم القادري بوتشيش: مخطوطة "نوازل ابن الحاج"، مصدر جديد في تاريخ البادية بالمغرب والأندلس (قـ.5-6هـ)، **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي**، ص-ص.32-44، والتي تناول فيها سيادة الملكية الخاصة في البوادي، أشكال الاستغلال الزراعي ونظام السقي في البوادي وقضايا اجتماعية تخص المجال القروي، وأيضا إبراهيم القادري بوتشيش: العلاقات الإنتاجية بين المزارعين وأرباب الأراضي في المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري (قـ.12م)، **إضاءات حول الغرب الإسلامي**، ص-ص.77-83.

2- يراجع محمد حجي: **نظرات في النوازل الفقهية**، الدار البيضاء: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر-مطبعة النجاح الجديدة، 1420هـ/1999م، ص، ص.121، 123.

3- وهي فيما يبدو من الفتاوى الأرض التي يقطعها ولاة الأمر لأفراد نظير خدمات قدّموها للدولة، ولكنّها تتميز بأنّها ملكية خاصة لهؤلاء الأفراد ويجوز بيعها وتوارثها، أو ما أطلق عليها بالأرض القانونية، يراجع كمال أبو مصطفى: **المرجع السابق**، ص.63؛ وأيضا جورج مارسي: **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي**، ص-ص.323-325.

4- عبد الله العروي: **المرجع السابق**، ج.2، ص.371؛ محمد حجي: **المرجع السابق**، ص.121.

«...عن أرض معروفة لأناس ومنسوبة إليهم قديما...ويؤدون خراجها للإمام الخليفة، ثم إنّ الإمام ملّكها لرجل من شيوخ العرب لما رأى فيها من المصلحة تمليكا مطلقا عاما...»[1].

يبيّن الخطاب الفقهي المالكي أيضا الإنتاج في المجال الفلاحي، وخصوصا ما يتعلق بعلاقات الإنتاج التي تبرز في شكل عقود شراكة، كما هو الشأن في عقود المزارعة[2] والمغارسة[3] والمساقاة[4] وشركات العسل والحرير وفي شكل مؤاجرة بين العامل ومشغله[5]، كما هو الحال في أمور الرعي وبعض الأنشطة الزراعية، وإن كنت لا أستبعد وقوعها بالمجال الفلاحي المحيط بالمدينة، إلاّ أنّي أرى أنّ التحفظ في اعتماد النصوص النوازلية الغامضة في الجوانب المكانية والزمانية ضروري في معالجة هذه المسألة بالمدينة وناحيتها.

ويجب الإشارة أيضا إلى أنّ هذا الواقع عرف مظاهر التأثير الأندلسي المتأخر، حيث استفادت الزراعة من إدخال منتوجات جديدة، وتدعيم المعرفة الفلاحية بالمنطقة، مثال ذلك ما عرفته سهول وادي مينا نتيجة تمركز قبيلة بني غدو الأندلسية، التي عملت على إدخال ونشر زراعة القطن والأرز بهذه السهول[6]، وهو ما يظهره مثلا نص مارمول كاربخال الذي يتحدث عن

1- المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.3، ص-ص.94-96.

2- نظام المزارعة أو المشاركة بمعنى أن يقوم شخص بتسليم الأرض والبذور والبقر لشخص آخر يلتزم بالعمل والحراثة والزرع على أن يكون له نصيب معين من المحصول يتفق عليه في العقد، يراجع كمال أبو مصطفى: **المرجع السابق**، ص.65؛ محمد بن حسن: **القبائل والأرياف**، ص-ص.57-62

3- نظام المغارسة: يشبه نظام المزارعة، غير أنّه لم يكن يطبق إلاّ في الأرض التي تغرس بالأشجار أي تزرع بالغراسة، كمال أبو مصطفى: **المرجع السابق**، ص.65؛ محمد بن حسن: **القبائل والأرياف**، ص-ص.62-64؛ وعن المغارسة ينظر لنصوص مختلفة في المعيار، الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.6، ج.8؛ وعن عقود المزارعة والمغارسة والمساقاة وغيرها، يراجع المازوني: **الدرر المكنونة**، ج.3، صفحات عديدة؛ ويراجع أيضا مخطوط: **تحلية الذهب في علم القضاء والأدب أو (نوازل المازوني)**، و.137 وما يليها.

4- المساقاة: نوع من المزارعة المتعلقة بغراسة الأشجار المثمرة دون سواها، روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص-ص.205-206؛ محمد بن حسن: **القبائل والأرياف**، ص-ص.62-64.

5-كمال أبو مصطفى: **المرجع السابق**، ص.66؛ لقد ورد نص في مخطوط المهذب الرائق يتحدث فيه عن مثل هذه المسائل وعلاقتها بالمدينة مازونة: «...وأنظر ما استمر عليه عمل حراثي بلدنا وهو الرجل يعطي ثوره لمن يربطه ويأتيه بتبنه وعلفه من عند ربه ويطرح زبله ويتولى هو ما يجب على رب الثور من العمل من بين شراكه بنسبة ما أخذ الثور عليه من عشر أو نصف عشر هل يكون كمسألة الخماس أم لا؟»، المازوني: **المهذب الرائق**، و.103.

6- فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص، ص.60، 157؛ و ينظر أيضا:

عن المنسوجات القطنية بالمدينة: «...حتى لم يبق فيها سوى عدد من فقراء النسّاجين يصنعون المنسوجات القطنية والصوفية...»[1].



صورة رقم: 18 (منظر عام للمدينة)

3-2- التجارة المازونية بين الداخل والتواصل الخارجي:

يشير روبار برنشفيك إلى أنّ التجارة الحضرية لم تكن مفصولة عن الإنتاج ذلك أنّ نظام المجموعات الحرفية الصارم كان يشمل التجار والحرفيين على حد سواء، على أنّ بعض الحرفيين كانوا يبيعون منتوجاتهم مباشرة للعموم، ولكن مع ذلك فإنّ تداول وتبادل الممتلكات المنقولة سواء في المدينة أو البادية وبين المدن كانت لهما ظروفهما الخاصة كما كانا يثيران مشاكل خاصة أيضا[2]، وهو الوضع الذي قد يكون -كما رأينا سابقا- معمولا به في مازونة، التي لا نستطيع

Ministère de la Guerre, *Tableau des établissement français en Algérie*, 1839, Paris, imp. Royale, 1839-1840, p. 283;Yacono Xavier, *la colonisation des plaines du Chelif.*

1- مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359.

2- روبار برنشفيك: **تاريخ إفريقية**، ج.2، ص.244؛ ويراجع أيضا:

تحديد طبيعة الحرف التي كانت موجودة بها، لأنّ الصناعة النسيجية يبدو أنّها كانت منتشرة بشكل واسع[1]، لكن هذا لا ينفي أن تكون هناك صناعات حرفية بسيطة اعتمدت من طرف ساكنة المدينة، والتي بدأت تظهر في كتابات الفترة الحديثة مثل الدباغة[2]، وكذلك الصناعة الفخارية التي تحدث عنها الدكتور شو، (فتكوّن جبال الظهرة مثلا يتميز بوفرة المادة الطينية وغيرها)[3]، إلاّ أنّ هذه المجموعات الحرفية المحتملة لا يمكننا إدراك وجودها وأماكن عملها في الفترة الوسيطة.

ويظهر واضحا أنّ الجباية الممارسة على أصحاب الوظائف المعروفة لدينا ساهمت في إضعاف العمل المهني بالمدينة، وإضعاف ديموغرافيتها أيضا، خاصة تلك التي فرضتها أعراب المنطقة الشلفية، وهو ما يوضّحه النصين التاليين[4]: «...لكنّها كثيرا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة ومن قبل الثوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب، حتى أصبحت اليوم قليلة السكان، وهم إمّا نسّاجون أو فلاّحون وجميعهم تقريبا فقراء، لأنّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالأتاوات...»، «...ولكن العرب الذين يكنّون لهم العداء أذاقوا الويل لأهلها منذ المرة الأخيرة التي تحطمت فيها المدينة، حتى لم يبق فيها سوى عدد من فقراء النسّاجين يصنعون المنسوجات القطنية والصوفية، ومع هؤلاء عدد من العمال لا يربحون ما يساوي المقادير التي يجبرون على دفعها لحكام مدينة الجزائر وللعرب مقابل السماح لهم بفلاحة الأرض...».

Maya Shatzmiller, «L'organisation du travail dans l'Islam médiéval d'après les fatwas, Le cas du Mi'yar, Itinéraires d'Orient», University of western Ontario Canada, V. VI, p. 367-380.

1- عن الصناعة النسيجية بالمنطقة، ينظر لطيفة بشاري: **التجارة الخارجية**، ص، ص.253، 255، 279، 280، 281.

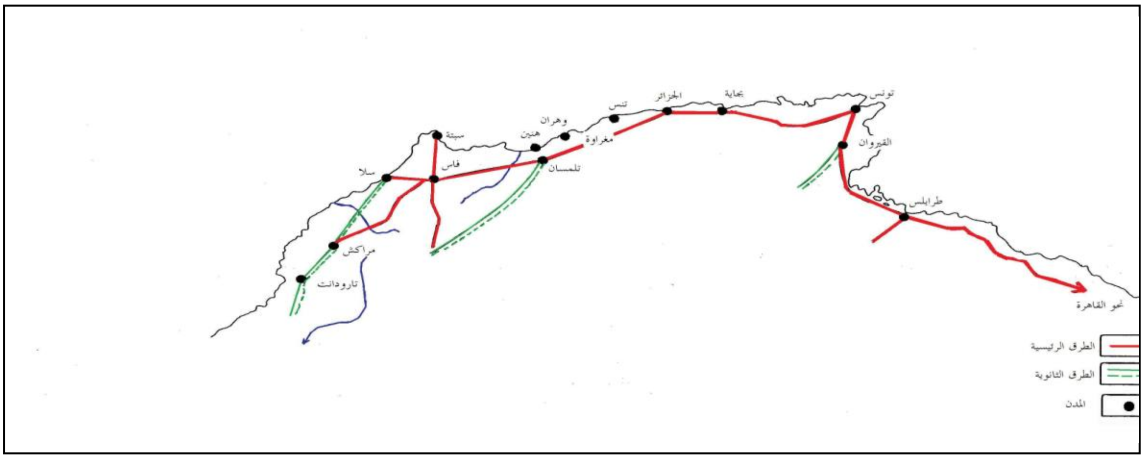
2- فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.62؛ و إن كانت هناك إشارة بسيطة في مخطوط القلادة والتسجيلات عن صناعة التصبين، يراجع **نفسه**: و.120.

3- **نفسه**: ص.62؛

Dr. shaw, *op. cit.*, p. 70-72; Djilali Sari, *op. cit.* , p. 37; Ricard Pierre, «L'artisanat indigéne en Oranie», *in BSGAO*, T. 61. Fax 214. 1940, p. 97-147 ; Yacono Xavier, *op. cit.*

4- الوزّان: **المصدر السابق**، ج.2، ص.36؛ مارمول كاربخال: **المصدر السابق**، ج.2، ص.359؛ ويلاحظ ورود بعض مسائل الجباية في مخطوط **المهذب الرائق** للمازوني، يراجع: و.56.

لم يؤد هذا الوضع التجاري الداخلي على ما يبدو إلى تقليص أهمية المدينة والمنطقة الشلفية كممر طبيعي يربط شرق المغرب الوسيط بغربه[1]، حيث يظهر واضحا استعمالاته القديمة، فقد كان مسلكا رومانيا حسب ما ذهبت إليه كلودات فنكار (*Claudette Vanacker*)، بالإضافة إلى المزايا الطبيعية التي يتيحها فهو ممر طبيعي سهل ويتوفر على المياه[2].



خريطة رقم: 15 (شبكة الطرقات التجارية والمنطقة المغراوية)

(Mohamed Kably, *op.cit.*, p.158.)

فالحركة التجارية التي تمر عبر تلمسان مثلا كان عليها أن تقطع مسلكان طبيعيان أحدهما يعبر وادي شلف أو سهول الداخل العليا ليتجه غربا عبر فتحة تازة آتيا من البلاد التونسية[3]، حيث يعبّر ابن بطوطة عن مسلك تجاري داخلي مشابه في ذهابه سنة 725هـ/1325م عندما مرّ بالمدن التالية: طنجة، تلمسان، مليانة، الجزائر، بجاية، قسنطينة، بونة، تونس، و لم يكن هذا

1- لكن هل يمكن ملاحظة كذلك تهديد انعدام الأمن وانقطاع الطرق للتجارة الداخلية وحتى الخارجية للمدينة وعن هذا التأثير فيما يخص البلاد المغربية ينظر سميرة المزكلدي: **المرجع السابق**، ص.98، وينظر لعمل الباحثة:

Bakhta Moukraenta, «Essai sur le réseau routier de l'ouest du Maghreb central d'après les géographes arabes (IXe-XIIe siécles) », *l'Africa romana*, Rabat, (2004). p.453-493.

2- صالح بعيزيق: **المرجع السابق**، ص.158.

3- جورج مارسي: **تلمسان**، ص.97؛ وينظر لما يشابه ذلك لطيفة بشاري: **التجارة الخارجية**، ص.78.

طبعا هو المسلك الوحيد[1]، فقد تحدّث العبدري في رحلته عن آخر يقع جنوبه، والذي تجنّب فيه الطريق المتجه إلى المدية، وسار نحو اليسار حتى وصل إلى مليانة، حيث مرّ بالمدن التالية: ميلة، بجاية، الجزائر، مليانة، تنس، مازونة، وهران، تلمسان، وجدة ...[2]، ويبدو أنّ هذا الطريق هو أشهر المسالك التجارية والرحالاتية التي تربط غرب البلاد المغربية بشرقها[3]، فالمدينة تقع على الطريق الكبير من الأطلسي إلى تونس، والذي يشمل مدنا شبيهة بتلك الموجودة بالطريق السابق وهي: مكناس، فاس، وجدة، تلمسان، القلعة، مازونة، مليانة، الجزائر، قسنطينة إلى غاية تونس[4]، بالإضافة إلى طريق عودة ابن بطوطة سنة 750هـ/1349م المغاير عندما عاد من رحلته بحرا ونزل بتنس[5] اتجه منها إلى مازونة ومن ثم المدن التالية: مستغانم[6]، تلمسان، ندرومة، تازة ثم فاس[7].

1- الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص.216.

2- العبدري: **المصدر السابق**، ص.22، وعن هذا الطريق يراجع **نفسه**: ص-ص.89-137؛ ويورد العبدري في مؤلفه القصيدة المشهورة للأديب أبي علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون في رحلته من قسنطينة إلى مراكش، التي كتب بها إلى أبي البدر بن مردنيش وهو بقسنطينة، حيث وصف مازونة عندما مرّ بها (وهذه المدن المذكورة في الرحلة: ميلة، بجاية، الجزائر، مليانة، تنس، مازونة، وهران، تلمسان، وجدة،...).

وفي مازونة مازلت صبا بوسنان المحاجر لوذعي

وقد عمل العبدري على شرح البيت الذي وصف فيه مدينة مازونة، ينظر **نفسه**: ص-ص.30-32؛ الغبريني: **المصدر السابق**، ص.280؛الحفناوي: **المرجع السابق**، القسم: 02، ص-ص.130-131.

3- الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص.216.

4- فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.62؛
Moulay Belhamissi, *op.cit.*, p.39.

5- استمرت سواحل المغرب الأوسط تجذب التجار القطلانيين وخاصة من ميورقة التي كانت البواخر تغادرها بانتظام سنة 703هـ/1304م إلى الموانئ الشرقية للدولة العبد الوادية مثل تنس و شرشال والجزائر، كما لم ينقطع النشاط التجاري القشتالي الإيطالي البروفانسي...في هذه المنطقة، ينظر:

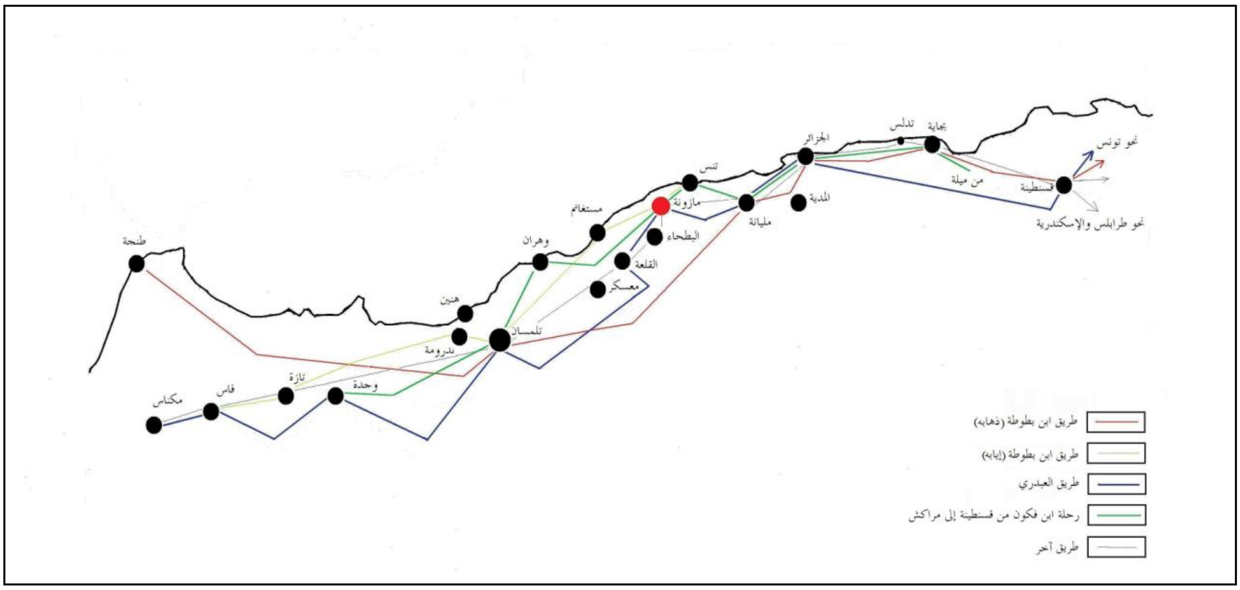
Dufoureq (Charles Emmanuel), *L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIVe siécles*, Paris, 1966, p.369.

نقلا عن لطيفة بشاري: **التجارة الخارجية**، ص-ص.39-40.

6- ذكر ابن سعيد المغربي وصاحب تقويم البلدان أنّ مستغانم هي فرضة مغراوة كما أنّ تنس قاعدة مغراوة من زناتة، ابن سعيد المغربي: **المصدر السابق**، ص.142؛ أبو الفداء: **تقويم البلدان**، نشره: رينود والبارون ماك كيكون مسلان، البارون دي سلان، باريس: دار الطباعة السلطانية، 1840م، ص.126.

7- ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غراب الأمصار وعجائب الأسفار)**، بيروت: دار صادر، 2001، ص.382؛ الدراجي بوزياني: **نظم الحكم**، ص.216؛ وقد تحدّث عبد الباسط بن خليل أيضا عن طريقه إلى تلمسان ومروره

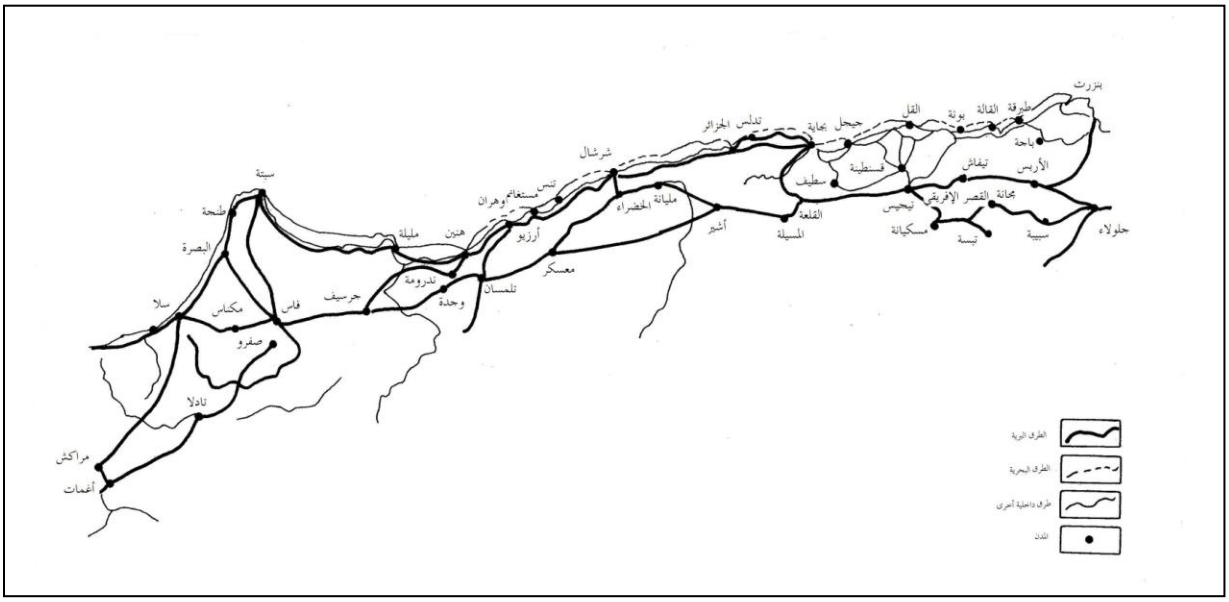
ويلاحظ هنا استعمال التجار لطرق تربط بعض المدن الساحلية بالداخلية (حيث قد يربط هذا الطريق مثلا مدينة مكناس ثم فاس ثم تلمسان وبعدها قلعة هوارة، البطحاء، مازونة ومليانة والجزائر ثم يتفرع إلى فرعين أحدهما يمر إلى تادلس ويقطع منطقة القبائل أو يحيط بها من الجنوب إلى بجاية ثم قسنطينة ويتحول إلى عنابة ويقطع حوض مجردة عبر باحة ثم تونس، ومن هناك يعبر قاعدة الرأس الطيب ولا يبتعد عن الساحل إذ يمر بسوسة ثم صفاقس وقابس وطرابلس والإسكندرية...)[1].



خريطة رقم: 16 (أهم الطرق التجارية والرحالاتية)

بمدينة مازونة وقلعة هوارة والبطحاء، **رحلة عبد الباسط (الروض الباسم)**، ص.41؛ كما تتحدث رسالة التجارة الخارجية لطيفة بشاري عن الخط المباشر جنوب إيطاليا-المغرب الأوسط، حيث كانت السفن الإيطالية الجنوبية تتوجه في بعض الأحيان مباشرة إلى موانئ المغرب الأوسط فتقطع المسافة بين سردانية وبين تنس في مدة عشرة أيام تقريبا، ثم تقصد مازونة فمستغانم، ومنها ينتقل التجار بسلعهم إلى مدينة تلمسان (وهو نفسه الطريق الذي اتبعه ابن بطوطة عندما كان عائدا من مصر إلى المغرب الأقصى) لطيفة بشاري: **التجارة الخارجية**، ص.108.

1- **نفسه**: ص.78.



خريطة رقم: 17 (أهم الطرق البرية والساحلية في بلاد المغرب الإسلامي)

(لطيفة البشاري: التجارة الخارجية، ص.336؛ وهي مأخوذة عن

Vanacker Claudette, *Géographie économique de l'Afrique du Nord selon les auteurs arabes, du IXe siècle au milieu du XIIe*, in Annales E.S.C., Paris, 1973.)

وإن كان هذا هو الواقع النصي الكلاسيكي، فهل يكون البديل في الخطاب الفقهي؟

يقرّ محمد فتحة بعدم تغطية النصوص النوازلية للنشاط التجاري بصورة شاملة، إلاّ أنّها توفر حسبه إمكانيات مهمة لدراسة مستويات تدخل الفقهاء في النشاط التجاري عن طريق الأحكام التي أصدروها في مختلف القضايا التي عرضت عليهم[1]، حيث تعطينا النصوص النوازلية سواء تلك الموجودة عند المازوني (تــ.883هــ/1478م) والونشريسي (تــ.914هــ/1508م) مثالا هاما عن فئة التجار المازونيين وإن كان في نص وحيد ومباشر، إلاّ أنّه يعبّر عن مشاركة مازونية في التجارة بين المدن القريبة: «...قال محمد البجائي لزيد المازوني إنّك وردت علي قاصدا شراء سلعة بجاية ومعك حرير وحنابل نريد بيعها فأكرمتك وقمت بحقك وكنت نجلسك في حانوتي بالقسارية وصرت تفعل ما تفعل الدلاّلون نبحث لك عن السلع ونأتيك بها من عند من يريد بيعها فما أعجبك أخذته، وما لم ترضه ترده هكذا فعلي معك إلى أن اكتفيت و لم تدفع لأحد شيئا، ثم قلت لي أنّي أريد أن أبعث هذه السلعة في البحر لبلد الجزائر، وأقيم أنا عندك حتى نبيع

1- محمد فتحة: **المرجع السابق**، ص-ص.291-292.

هذا الحرير، وهذه الحنابل وتخلص أرباب السلع، ثم بدا لك وعزمت على السفر في البر وأخذت تشد سلعتك...مشيت لأرباب السلع وقلت لهم إن صاحبكم يشد سلعته ويريد السفر فأقصدوه واطلبوا حقكم...فلمّا وصله أرباب السلع وطالبوه بمالهم استبقهم لداري ودخلوا علي في الدار وقال لي يا محمد نريد من فضلك أن تترك هذا الحرير وهذه الحنابل بيدك وتبيع ذلك وتخلص هؤلاء البائعين لئلا تفوتني الراحلة وفي حريري وحنابلي ما يفي بثمن السلع قال: فأحشمني وقهرني في نفسي قهر حياء قال: فقلت له: استغفر الله وكم من رطل هو حريرك هذا؟ فقال هو ثلاثة عشر رطلا، قال: فلم أجد بدا مما احتشمني فيه فقلت لأرباب السلع أنا نبيع ونخلصكم، فإن قيمة الحرير الآن كذا وقيمة الحنابل كذا، وفي هذا وفاء بحقكم قال وانصرف وسافر و لم أزن الحرير ولا علمت ما فيه إلاّ أنّه قال لي هو ثلاثة عشر رطلا، فلما أردت بيعه لم أجد فيه إلاّ عشرة أرطال خاصة فبعتها وبعت الحنابل، وبقي من حق البائعين ثمانية دنانير ذهبا وهي ثمن الثلاثة أرطال الباقية فأعطيتها البائعين من مالي...»[1] .

يقدّر أحد الباحثين سلعة هذا التجار المازوني بـــ.34,66 دينارا، وهو ما يقدّم صورة عن حجم المعاملات المتوسط إذ ما قورن بما يتداول لدى كبار التجار، حيث أنّ هذه الفئة كانت متكوّنة من أصحاب رؤوس أموال محدودة غير قادرة على التمويل في صفقات بعيدة المسافات أو ذات المدى المتوسط والبعيد[2].

يعبّر النص السابق عن نوعية السلع المازونية (الحرير والحنابل)[3]، والتي لا ندري إن كانت أصيلة المدينة أم أنّها من مناطق أخرى[4]، وكيفية تسويقها وإن لم يتح لنا معرفة زمن وقوعها ولا حتى إن كانت من العوائد التجارية المازونية القارة أن تحمل سلع منها إلى بجاية وربما غيرها من المدن القريبة، والعودة بسلع أخرى للمدينة التي اختلف في طريقة العودة إليها إمّا برا أو عن طريق

1- الونشريسي: **المعيار المعرب**، ج.5، ص-ص.107-108.

2- صالح بعيزيق: **المرجع السابق**، ص.439.

3- استمرت هذه الصناعة بمازونة أي المنتوجات القطنية والصوفية خلال الفترة العثمانية بعد أن أصبحت عاصمة ينظر:
Ministére de la Guerre, *Tableau des établissement français en* Algérie,p.283.
، يراجع أيضا فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.60.

4- عرفت الحقبة الوسيطة انتشار صناعة الحرير في العالم الإسلامي، محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.1، ص.475؛ ويرجح أنّ مازونة كانت محطة عبور وأنّ البضاعة كانت أندلسية أو مغربية، يراجع صالح بعيزيق: **المرجع السابق**، ص.180.

البحر، ولعل هذا ما يبيّن نوعا من الحيوية التجارية التي كانت عليها مازونة الوسيطة، عكس تلك التي أصبحت عليها في وصفي الوزّان ومارمول كاربخال المتأخرين.

الخـــاتمـــة

يؤمن ابن خلدون بالتحول التدريجي للقرى ككائن اجتماعي إلى المدن، إلاّ أنّه يقرّ بعملية التحول والتراجع العكسي أيضا، أي تحول المدن إلى قرى بخرابها واضمحلالها، وإن لم تكن هذه الفكرة صحيحة تماما، إلاّ أنّها تظل منسجمة مع منظومة الفكر الخلدوني الاجتماعي المتمركز حول تفكك الحضارات والدول بفقدانها "العصبية" تلك المرافقة للبداوة والموجودة في القرى، وعند الجماعات البدوية والقروية[1].

فهل كان النمو العمراني لمدينة مازونة العتيقة أي الوسيطة عفويا ، فوضويا، أم أنّه كان وليد العوامل الحضارية المختلفة والجغرافية وحتى التقنية؟ وهل يمكن أن نقيس عليه النظرة الخلدونية السابقة؟

يقول ليوبولدو تورس بالباس أنّ تكوين أي تجمع من التجمعات المدنية وتطوره تتدخل فيه عدة عوامل جغرافية واقتصادية وتاريخية بعضها دائم، والبعض الآخر مؤقت، وعندما تكون ظروف العوامل الثلاثة متوافقة تنشأ مدينة مزدهرة ومزدحمة ومستمرة في حياة نشطة، أمّا العوامل الجغرافية بجذورها العميقة، والبعيدة عن الإرادة البشرية ، والثابتة في أغلب الأحيان ، فهي التي تضمن بقاء المدينة من خلال كل أنواع خطوب الدهر، بالإضافة إلى أنّها هي التي تمنح المدينة استقلالا نسبيا أمام الإرادة البشرية[2].

لقد حاولت إيجاد إجابة لهذه الإشكالية المهمة، من خلال بناء شكل تصوّري لواقعها الحضري الوسيط ، وإن لم يكن بالشكل الكلي الذي أردته وذلك راجع ربما لنقص آليات ومناهج البحث التي اعتمدتها، والتي تحتاج إلى تجديد، واعتماد مقاربات أخرى ، خاصة وأنّ المدينة قد عرفت فعلا شيئا من التوسع أو النمو العمراني خارج المركز الأول بعد موجات التروح البشرية الريفية من زناتة المستوطنين بالبادية الشلفية، والمدن المجاورة ، وربما حتى من الهلاليين والأندلسيين في مرحلة متأخرة.

لقد عملت على إدراك مدى سعة الظاهرة العمرانية في المدينة ، أو فيما يتعلق بطبيعة ووظيفة الوحدات البنيوية المؤسسة في مازونة، و إشكالياتها المختلفة، حسب ما سمحت به النصوص المتاحة لديّ، إلاّ أنّ مجال البحث في هذا الموضوع يبقى مفتوحا، فالنصوص الأدبية

---

[1]- أحمد علي آزاد: المرجع السابق، ص-ص.165-166.

[2]- ليوبولدو تورس بالباس: **المرجع السابق**، ص.52.

الكلاسيكية لم تنته، وقد تظهر نصوص أخرى جديدة لم تتداول بعد، والمخلّفات أو الأبحاث الأركيولوجية، لم تحقق بعد الحد الأدنى في المنطقة المازونية ، فالغموض ملازم لتاريخ المدينة منذ البداية -أي من مرحلتها الانتقالية الفاصلة بين الفترة القديمة والوسيطة- وهو ما يعيق أي عمل شمولي لتاريخها الحضري الذي يبقى مبنيا على بعض البقايا الأثرية الجليّة، أو على ذاكرة شعبية ينتابها الكثير من التجاوز للحقيقة التاريخية ، لأنّ ليس كل ما تتداوله هذه الذاكرة المتعاقبة، يمكن أن يثبته النص أو الأثر المادي، وعلى الرغم من ذلك يمكن القول أنّ المدينة التي مثّلت في مرحلة ما -لا يمكن تحديد مجالها الزمني-، المدينة-الدولة *(Cité- Etat)* أو المدينة-الأميرية *(Cité - Princiére)* للمشيخة أو الجماعة الريفية "المغراوية"، ومع التناقضات المصلحية التي مسّت المجال الشلفي وحتى المازوني طيلة الفترة الوسيطة، إلاّ أنّها عرفت توسعا ونموا واضحا مع نمايتها لأسباب لم أتمكن بعد من تحديدها، لأنّ هناك فترة فراغ حضاري مرّت به ا نظرا لظروف العلاقة الو ظيفية بين السلطة السياسية المتغيرة، وبين بطء الحركة العمرانية، فلنا أتوقع مثلا أن تتدهور وضعيتها المدينية بصورة كبيرة، وهو ما يساعد في تشكيل شبه قطيعة لتاريخها الحضري ، على اعتبار أنّها تتعرض لفقدان نسيجها العمراني ولو نسبيا، حتى وإن استمرت الحياة البشرية بها.

وعندما نحاول أن نتتبع بصورة موجزة طرق التحول التي أدّت إلى إنشاء مازونة المدينة الزناتية المحلية الوسيطة، نجد أنفسنا مضطرين إلى اللجوء إلى تاريخية الحضور الروماني والبيزنطي وحتى الموري القديم المتداخل، والهدف من ذلك هو البحث عن مرحل ة من مراحل ظهور المدينة سبقت الفترة الإسلامية الوسيطة بالمنطقة، أم أنّ تكوينها كان ثمرة نمو فجائي برمته؟

وما يلفت الانتباه أيضا أنّ هناك تناقض في هذا التحول الحضري، فمن مدينة مغمورة إلى مدينة منهكة، ثم إلى واقع مديني مغاير مع البدايات المبكرة للفترة الحديثة أي كعاصمة إقليمية لمنطقة بابليك الغرب (971هـ-1113هـ/1562م أو 1563م-1701م)، وهذا يجعلنا نتساءل عن فكرة التدرج في النمو العمراني الذي تحدثت عنه بعض الكتابات المهتمة بالتاريخ الحضري، وهو ما لم تعرفه المدينة كما يبدو.

ولعل مشاركة الخطاب الفقهي المحلي المالكي في تنظيم المجال الحضري داخل مازونة مثّلت أحد هذه الأسباب، فهو الأداة الفاعلة التي تعبّر عن علاقة الفرد بالمجتمع والمدينة أيضا، لأنّه يحمل عوامل التحضر من خلال تنظيم العلاقة بين المعطيات الدينية والاجتماعية من جهة والوحدات

العمرانية من جهة أخرى[1].

وعلى الرغم من أنّه لم يكن خاصا بالمجال الحضر ي المازوني، بل جاء عاما في غالبيته، إلاّ أنّه عبّر عن فعالية السلطة الفقهية في تحملها مسؤولية المحافظة على نظامها الداخلي والتحكم في حركيّة توسعها، لهذا فهو قد أثّر في الخ ارطة الحضرية المازونية بمناقشته لمسائل خاصة بعمران المدينة، مثل ذلك إصلاح سورها، بناء مدرسة ثانية مجاورة لأخرى هي الأولى ، أي التخطيط والتوزيع وغيرها، وهذا يعني أنّ مازونة لم تكن تسير بطريقة فوضوية وعشوائية، أي أنّ سلطة الخطاب الفقهي المالكي داخل المدينة المغربية ومازونة التي ه ي جزء منها اكتسبت مكانة هامة ، سمحت له بتقديم مقترحاته وتوجيهاته استنادا للنص الفقهي في تنظيماتها المختلفة، فالفقهاء فيها قد تولّوا مناصب حسّاسة كالقضاء والفتيا، وبذلك يمكن القول أنّ الفقيه المازوني أصبح متحكما في منظومة الحركية الحضرية الخاصة بالمدينة، على الرغم من أنّ النصوص لا تتيح لنا التعريف بمكانة هذه النخبة المازونية وتأثيرها في تنظيم هذه الهيكلة العمرانية.

كما تتمثل الصعوبة أيضا في تحديد ماهية الترا تب الاجتماعي داخل المجتمع المازوني الذي أثّرت فيه تطورات المرحلة الوسيطة المحلية والمغربية، فهو مثّل إحدى المجتمعات التي مارست الاعتقاد في الأولياء، حيث كانت السمة التي طبعت الذهنية الجماعية لساكنته ، لأنّ الولي عندهم إن كان حيا أو ميتا هو المخلّص الذي يقوم بدور بطولي خارق للعادة من خلال تجاوزه للأزمات المختلفة، وذلك بفعالية الكرامة خاصة.

وبالعودة إلى علاقات مازونة بمحيطيها الريفي القريب والبعيد نسبيا معقدّة خاصة وأنّ المعطيات النصّية حولها قليلة، فهو يشكّل -حسبنا- المصدر الممون للمدينة بالمواد الزراعية والفلاحية، أي ما يساعد على ممارستها للصناعات الحرفية والنسيجية خاصة، وإن كان محمد حسن يرى أنّ هناك تباين بين المج الات الثلاثة الحضري والريفي والقبلي بإفريقية في العهد الحفصي، وضعف الانسجام بينها ، وما يعنيه ذلك من ظهور مدينة متطورة نسبيا لكنّها عاجزة عن السيطرة على كافة الناحية المحيطية بها، وريف مت خلف عر ف الأزمة بكل مظاهرها، والتي ينجم عنها بروز مظاهر التوتر بينها، التي تصل أحيانا إلى التراع وتكفير المدينة للبادية[2].

---

[1]- سناء عطابي: **المرجع السابق**، ص.151.

[2]- محمد حسن: **المدينة والبادية**، ج.2، ص-ص.815-816.

كما أنّ المدينة كانت نقطة مرور ضمن شبكة الطرقات التي وفّرت لها علاقات تجارية داخلية هامة مع بجاية والجزائر والمدن الداخلية القريبة، وحتى ثقافية مع تلمسان وغيرها من خلال ما عبّرت عليه النصوص النوازلية، المنقبي وحتى بعض كتب التراجم.

في الحقيقة لقد عرفت المدينة م ا يمكن أن يسمى بالقطيعة بين واقع سياسي مضطرب وثقافي ملفت، وهو ما مثّل بالنسبة لنا أنموذجا مميّزا خاصة وأنّ المدينة لم تكن بمرتبة أو مترلة المدينة-العاصمة (الكبيرة)، حتى نتجاوز هذه الوضعية المحيّرة ، ساهم في ظهور الكتابة المحلية النوازلية (الفقهية المالكية)، المنقبي والتوثيقية، وبعث تاريخ مغربي جديد سيكون مختلفا أو مكمّلا لذلك الذي تداولته الكتابات الكلاسيكية، وإن كان ذلك منتوجا خالصا لبيت علمي مازوني واحد، وهو البيت المغيلي وما قدّمه المازونيان الأب والابن.

وأخيرا يجب القول أنّ قصبة المدينة أو حيّها العتيق الذي يفترض أنّه مازال يحمل معالم النسق العمراني الوسيط والحديث أي التركي لم ينل حقه من الدراسة والبحث، ويعتبر جان فرانسوا تروان أنّ وجود مركزين في المدينة العربية الإسلامية : مركز تقليدي وآخر عصري يجب أخذها بعين الاعتبار، لأنّ هذه الازدواجية التي أدخلت تحولات هائلة على العمارة الإسلامية ترتب عنها في الغالب تدهور المركز التقليدي خاصة[1].

وهو ما عرفته التمدنية المازونية التي تدخل فيها الأثر الاستعماري الفرنسي، بعد إحداث لاهتزاز وتغيير في بنيات المنطقة، وحتى بعد الفترة الاستعمارية أيضا، إلاّ أنّ هناك نصوص وثائقية أرشيفية تركية عثمانية هي بصفة قاطعة تساعد على إدراك جزء من حقيقة المدينة الوسيطة المتأخرة، مثال ذلك ما هو موجود في الأرشيف الوطني الجزائري من سجلات البايليك[2].

---

[1]- محمد الناصري: "المدينة العربية الإسلامية بين الأصالة والمساءلة"، **دروس جامعية افتتاحية 1984– 2002 في الفكر والحضارة والمجال**، أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، 2002، ص.160.

[2]- وهي:

فهرس 23 ب: علبة 146، رقم السجل: 233، الرقم القديم: 146، السنة: (1701م–1702م–1704م–1705م)، سجل يتضمن: ذكر محصول البيوت والغرف والمخازن المحبسة في المدن الآتية: مستغانم، تلمسان، مازونة .

فهرس 28 ب: علبة 205-216، رقم السجل: 311، الرقم القديم: 216، السنة: (1760م–1765م) و(1808م–1809م)، سجل يتضمن: ذكر الأوقاف عموما مفصّلة حسب عدد من المدن الجزائرية: الجزائر، البليدة، المدية، مازونة، شرشال، التنس.

فهرس29 ب: علبة 217–245، رقم السجل: 328، الرقم القديم: 233، السنة: (1741م–1742م–1784م–1785م)، سجل يتضمن: ذكر دخل الأوقاف في المدن الآتية: المدية، مليانة، شرشال، بجاية، مستغانم، مازونة.



صورة رقم: 19 **(صور من المدينة العتيقة)**

علبة رقم 16: رقم السجل: 74-104، السنة (1009هـ-1175هـ/1600م-1761م)، رسوم ملكية للأماكن بداخل وخارج المدن الآتية: وهران، مازونة، مليانة.

نقلا عن فتيحة الواليش: **المرجع السابق**، ص.200 .

قائمــة المصادر والمــراجع

□□ □

قــائمة المصــادر والمــراجع

المصادر المخطوطة:

- السليماني الحسني أبو عبد الله محمد بن محمد بن الأعرج (تـ.1344هـ/1925م):
- **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، الرباط: مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 170.
- الصباغ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي (كان حيا سنة 962هـ/1555م):
- **نسمات الأزهار ومناقب الأبرار ومعدن الأنوار** ، مازونة (غليزان): مخطوط بمكتبة محمد الصادق بن الحميسي (بلحميسي).
- المازوني أبو زكريا بن أبي عمران يحي بن موسى بن عيسى المغيلي (تـ.883هـ/1478م):
- **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، الجزائر: مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، ج. 1، رقم: 1335، ج.2، رقم: 1336.
- المازوني أبو عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني (تـ.833هـ/1429م):
- **صلحاء وادي الشلف** ، الرباط: مخطوط بالخزانة العامة للمخطوطات والوثائق، رقم: 2343/ك. (نسخة مصورة -ميكروفيلم-).
- **المهذب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق** ، قسنطينة: متحف سيرتا الوطني، 1997، رقم: 14، (نسخة مصورة عن مخطوط بولصباع عبد الهادي).

- **قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود**، مكتبة العائلة العثمانية بطولقة (بسكرة).

- المغوفل أبو عبد الله بن محمد (تـ.1023هـ/1614م):

- **فلك الكواكب وسلم الرقي إلى المراتب**، زاوية معسكر (نسخة مصورة عن الشيخ بلقرض).

المصادر العربيــة :

- ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي (تـ.807هـ أو810هـ/1404م أو 1407م):

- **روضة النسرين في دولة بني مرين (طبع باسم تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان)**، تقديم وتحقيق وتعليق : هاني سلامة، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، 1421هـ/2001م .

- **روضة النسرين في دولة بن مرين** ، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور ، ط.3، الرباط: المطبعة الملكية، 1423هـ/2003م.

- **مستودع العلامّة ومستبدع العلامة** ، (اعتمادا على نسختين حقق إحداهما وقدّمها لمؤتمر الدراسات المنعقد بالرباط 1933م محمد التركي التونسي، وراجع هذه النسخة وقارنها مع الأخرى وعلّق على الهامش محمد بن تاويت الطنجي، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم السياسية (جامعة محمد الخامس) ، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي (تحت إشراف معهد مولاي الحسن للبحوث).

- **النفحة النسرينية واللمحة المرينية** ، حققه وقدّم له: عدنان محمد آل طعمة ، دمشق: دار سعد الدين (مطبعة الشام)، 1992.

- الإدريسي أبو عبد الله الشريف محمد بن محمد الحمّودي (توفي بعد سنة 560هـ/1164م):

- **المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق (في القرن السادس الهجري/الثاني في عشر الميلادي)**، حققه ونقله إلى الفرنسية: محمد حاج صادق، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.

- الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي (ت ـ. في النصف الأول من القرن 04هـ/10م):

- **المسالك والممالك**، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني ، مراجعة: محمد شفيق غربال ، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، دار القلم (الجمهورية العربية المتحدة)، 1381هـ/1961م.

- بربروس خير الدين (تـ.953هـ/1546م):

- **مذكرات خير الدين بربروس** ، ترجمة : محمد درّاج، الجزائر : شركة الأصالة للنشر والتو زيع، 1431هـ/2010م.

- ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (تـ.779هـ/1377م):

- **رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، بيروت: دار صادر، 2001م.

- البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (تـ487هـ/1094م):
- **المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)** ، بغداد: مكتبة المثنى ، (د.ت.).
- البيدق أبو بكر علي الصنهاجي:
- **أخبار المهدي بن تومرت** ، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1395هـ/1975م.
- التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد:
- **رحلة التجاني قام بها في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي (من سنة 706هـ إلى سنة 708هـ)**، قدّم لها حسن حسني عبد الوهاب، تونس: المطبعة الرسمية، نشريات كتابة الدولة للتربية القومية والشباب والرياضة ، نشريات كتابة الدولة للمعارف، 1377هـ-1378هـ/1958م.
- ابن تغري بردي جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (874هـ/1469م):
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، تحقيق: جمال الدين الشيّال ، فهيم محمد شلتوت ، ج.16، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1392هـ/1972م.
- التنبكتي أحمد بابا (تـ1036هـ/1626م):
- **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، 2.ج.، طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1398هـ/1989م.
- **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج في تراجم المالكية** ، ضبط النص وعلّق عليه: أبو يحيى عبد الله الكندري، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1422هـ/2002م.
- التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني (تـ899هـ/1493م-1494م):
- **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر و العقيان في بيان شرف بن زيان)** ، حققه وعلّق عليه: محمود بوعياد، الجزائر: إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية-المؤسسة الوطنية للكتاب، 1405هـ/1985م.
- **تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر و العقيان)**، تحقيق وتقديم: عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.
- الحجوي محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي (1376هـ/1956م):
- **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، ج. 2، (القسم 3 و 4)، بيروت: دار الكتب العلمية، 1416هـ/1995م.
- ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (456هـ/1063م):
- **جمهرة أنساب العرب**، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر ، بيروت: منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، 1418هـ/1998م.
- الحضيكي محمد بن أحمد (تـ1189هـ/1775م):
- **طبقات الحضيكي** ، 2.ج.، تقديم وتحقيق: أحمد بومزكو، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1427هـ/2006م.
- الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (تـ626هـ/1228م):
- **معجم البلدان**، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ج.1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410هـ/1990م.
- الحميري محمد بن عبد المنعم السبتي الصنهاجي (القرن 08هـ/14م):

- **الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع فهارس شاملة)**، تحقيق: إحسان عباس، ط.2، بيروت: مكتبة لبنان، 1984م.

- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي البغدادي (توفي بعد 367هـ/977م):
- **صورة الأرض**، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1992م.
- ابن الخطيب لسان الدين السلماني أبي عبد الله الغرناطي (تـ.776هـ/1374م):
- **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام**، تحقيق وتعليق: أحمد مختار العيادي، محمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء: دار الكتاب للنشر والتوزيع، 1964م.
- **رقم الحلل في نظم الدول**، تونس: المطبعة العمومية، 1316هـ/1898م.
- ابن خلدون أبو زكريا يحيى ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الحضرمي الاشبيلي (تـ.780هـ/1378م):
- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، مج.2، تحقيق: ألفرد بيل، الجزائر: مطبعة فونطانة الأخوين وشركائهما الشرقية، 1328هـ/1910م-1911م.
- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات، ج.1، الجزائر: إصدارات المكتبة الوطنية-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1400هـ/1980م.
- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الحضرمي الاشبيلي (تـ.808هـ/1406م):
- **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (طبع باسم رحلة ابن خلدون)**، عارضه بأصوله وعلّق حواشيه: محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1370هـ/1951م.
- **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: درويش الجويدي، صيدا-بيروت: المكتبة العصرية (شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع)، 1423هـ/2002م.
- **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، مج.7، (د.ت.).
- ابن خلكان أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (تـ.681هـ/1282م):
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، مج. 7، بيروت: دار صادر.
- الداعي إدريس عماد الدين (تـ.872هـ/1488م):
- **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار)**، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985م.
- الداودي الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (تـ. 945هـ/1538م):
- **طبقات المفسّرين**، تحقيق: علي محمد عمر، 2.ج.، مركز تحقيق التراث بدار الكتب (مكتبة وهبة)، 1392هـ/1972م.
- الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد (تـ.حوالي 670هـ/1271م):
- **طبقات المشائخ بالمغرب**، حققه وقام بطبعه: إبراهيم طلاي، ج.1، قسنطينة: مطبعة البعث.
- ابن أبي دينار أبو عبد الله الشيخ محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني:
- **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، تونس: مطبعة النهضة، 1350هـ/1931م.

- الرقيق القيرواني (قـ05هـ/11م):
- **تاريخ إفريقية والمغرب (قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأوّل إلى أواخر القرن الثاني الهجري)** ، تحقيق وتقديم: المنجي الكعبي، تونس: الناشر رفيق السقطي، 1968م.
- ابن أبي زرع علي الفاسي (كان حيا سنة 729هـ/1328م):
- **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق ومراجعة: عبد الوهاب بنمنصور، ط.2، الرباط: المطبعة الملكية، 1420هـ/1999م.
- **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (أو الدرة السنية في تاريخ الدولة المرينية)**، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م.
- الزركشي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (تـ.890هـ-900هـ/1485م-1494م):
- **تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**، تحقيق وتعليق: محمد ماضور، ط.2، تونس: المكتبة العتيقة، 1966م.
- أبو زكريا يحي بن أبي بكر (ت471هـ/1078م):
- **سير الأئمة وأخبارهم (المعروف بتاريخ أبي زكريا)** ، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، الجزائر : إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، 1399هـ/1979م.
- الزُهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوفي في أوسط القرن 06هـ/12م):
- **كتاب الجغرافية (وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ)**، اعتنى بتحقيقه: محمد حاج صادق، بور سعيد الظاهر: الناشر مكتبة الثقافة الدينية.
- الزياني أبو حمو موسى بن يوسف بن زيان العبد الوادي التلمساني (تـ.791هـ/1388م):
- **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1279هـ/1862م.
- السّخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمان (تـ.902هـ/1514م):
- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 6.مج.
- ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى المغربي (تـ.685هـ/1286م):
- **الجغرافيا** ، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه: إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، 1970م.
- السيوطي الحافظ جلال الدين عبد الرحمان:
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، 2.ج.، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1384هـ/1964م-1965م.
- الشفشاوي محمد بن عسكر الحسني (تـ.986هـ/1578م):
- **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر**، تحقيق: محمد حجّي، الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1397هـ/1977م.
- ابن الشمّاع أبو عبد الله محمد بن أحمد التونسي (ق09هـ/15م):
- **الأدلة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق وتقديم: الطاهر بن محمد المعموري ، تونس: الدار العربية للكتاب، 1984م.
- الشوكاني محمد بن علي (تـ.1250هـ/1834م):

- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ويليه الملحق التابع للبدر الطالع**، جمعه: سنة 1348هـ بالقاهرة محمد بن محمد بن يحي بن زبارة الحسني اليمني الصنعاني ، وضع حواشيه: خليل المنصور، مج.2، ج.2، بيروت: منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، 1418هـ/1998م.

- ابن صاحب الصلاة عبد الملك (تـ.594هـ/1197م-1198م):

- **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين)**، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط.3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987م.

- ابن الصباح الحاج عبد الله:

- **أنساب الأخبار وتذكرة الأخبار (رحلة المدّجن الحاج عبد الله بن الصباح النصف الثاني من القرن الثامن الهجري)**، هذّبها وأصلح خللها وعلق حواشيها: محمد بنشريفة ، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر ، 2008م.

- ابن صعد محمد الأنصاري التلمساني (تـ.901هـ/1495م-1496م):

- **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**، مراجعة وتعليق وتحقيق: يحي بوعزيز ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للإشهار منشورات: ANEP، 2004.

- ابن الصغير (ق.03هـ/09م):

- **أخبار الأئمة الرستميين** ، تحقيق وتعليق: محمد ناصر، إبراهيم بحاز، Achevé d'imprimer sur les presses de les belles impressions L.B.I, 2ème trimestre 86 (المطبوعات الجملية).

- الصنهاجي أبو عبد الله محمد (626هـ/1230م):

- **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم** ، تحقيق وتعليق: جلول أحمد البدوي ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.

- الصومعي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الزمراني التادلي (تـ.1013هـ/1604م):

- **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق: علي الجاوي، أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، (جامعة ابن زهر)، 1996م.

- ابن عبد الحليم (قـ.14/08م):

- **كتاب الأنساب (ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي - المصادر الأندلسية-)**، دراسة وتحقيق: محمد يعلي، مدريد: الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1996م.

- العبدري محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود الحاجي البلنسي (قـ.07هـ/13م):

- **ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق، (طبع بعنوان: الرحلة المغربية)**، تحقيق: أحمد بن جدو، الجزائر: نشر كلية الآداب الجزائرية، (د.ت.).

- ابن عذاري المراكشي (توفي بعد 712هـ/1312م):

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ، تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، ج.4، ط.3، بيروت: دار الثقافة، 1983م.

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)**، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، بيروت-الدار البيضاء: دار الغرب الإسلا مي-دار الثقافة (الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر)، 1406هـ/1985م.

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (تأريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري)**، تحقيق ومراجعة: ج.س.كولان و إ.ليفي بروفنسال، ج.1، ط.3، بيروت: دار الثقافة، 1983.

- ابن العربي أبي بكر (تـ.543هـ/1149م):
- **كتاب شواهد الجلّة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان ـضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي (المصادر الأندلسية) ـ** دراسة وتحقيق: محمد يعلي، مدريد: الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية (جامعة أبي بكر ابن العربي)، 1996م.
- العسقلاني ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد (تـ.852هـ/1448م):
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،** ظبّطه وصححه: عبد الوارث محمد علي، مج.02، (3-4)، بيروت: منشورات محمد علي بيضون (دار الكتب العلمية)، 1418هـ/1997م.
- العمري ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحي (تـ.749هـ/1348م):
- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،** السفر الرابع، يصدره: فؤاد سزكين بالتعاون مع علا ء الدين جوخوشا إيكهارد نويباور، ألمانيا الاتحادية: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، جامعة فرانكفورت، 1408هـ/1988م.
- الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد البجائي (المتوفي سنة 704هـ/1304م):
- **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية،** تحقيق: رابح بونار، ط.2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م.
- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن نور الدين علي بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة (تـ.732هـ/1331م) أو (تـ.792هـ/1389م):
- **تقويم البلدان،** نشره: رينود والبارون ماك كيكون مسلان، البارون دي سلان، باريس: دار الطباعة السلطانية، 1840م.
- ابن فرحون المالكي إبراهيم بن نور الدين(تـ. 799هـ/1396م):
- **الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب،** دراسة وتحقيق: مأمون بن محي الدين الجنّان، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ/1996م.
- ابن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (المتوفي سنة 1025هـ/1616م):
- **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد (ألف سنة من الوفيات)** ، تحقيق: محمد حجّي، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1396هـ/1976م.
- **درّة الحجال في غرّة أسماء الرجال،** حققه وعلق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية (منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السّنة والجماعة)، 1423هـ/2002م.
- القاضي النعمان بن محمد (363هـ/973م):
- **رسالة افتتاح الدعوة ـرسالة في ظ هور الدعوة العبيدية الفاطمية ـ** ، تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة، 1970م.
- ابن القطان أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي المراكشي (منتصف القرن السابع الهجري/13م):
- **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان،** درسه وقدّم له وحققه: محمود علي مكي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990م.
- القلصادي أبو الحسن علي القرشي البسطي الأندلسي (تـ.891هـ/1486م):
- **تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى ا لمنازل والمناقب (طبع باسم: رحلة القلصادي)**، دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان، ط.2، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1398هـ/1978م.

- ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب القسنطيني (تـ.810 هـ/1407م-1408م):
- **أنس الفقير وعز الحقير** ، اعتنى بنشره وتصحيحه:محمد الفاسي ، أدولف فور ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب.
- **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد التركي ، تونس: الدار التونسية للنشر ، 1968م.
- كاربخال مارمول (قـ.10هـ/16م):
- **إفريقيا**، ترجمة: محمد حجّي وآخرون، 3.ج، الرباط: الجمعية الـمغربية للتأليف والترجمة والنشر- دار نشر المعرفة، 1409هـ/1989م.
- الكتبي محمد بن شاكر (764هـ/1336م):
- **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، مج.3، 1974م.
- الكفيف الزرهوني:
- **ملعبة**، تقديم وتعليق وتحقيق: محمد بن شريفة، الرباط: المطبعة الملكية، 1407هـ/1987م.
- مؤلف أندلسي (من أهل القرن 08هـ/14م):
- **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع، 1399هـ/1979م .
- مؤلف أندلسي (من رجال القرن 09هـ/15م):
- **آخر أيام غرناطة وهو كتاب نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر** ، حققه وقدّم له: محمد رضوان الداية ، دمشق: دار حسّان للطباعة والنشر، 1404هـ/1984م.
- مؤلف مجهول (كاتب مراكشي من كتاب القرن 06هـ/12م ينسب لابن عبد ربه الحفيد):
- **الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامةللطباعة والنشر آفاق عربية، (د.ت).
- مؤلف مجهول:
- **كتاب مفاخر البربر (ضمن ثلاثة نصوص عربي ة عن البربر في الغرب الإسلامي - المصادر الأندلسية-)**، دراسة وتحقيق: محمد يعلي، مدريد: الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، 1996م.
- المازوني أبو زكريا يحي بن موسى بن عيسى المغيلي التلمساني (تـ.883هـ/1429م):
- **الدرر المكنونة في نوازل مازونة** ، 3.ج، تحقيق: مختار حساني ، الجزائر: نشر مخبر المخطوطات، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، (جامعة الجزائر)، 2004م.
- المراكشي عبد الواحد (تـ.647هـ/1249م):
- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد زينهم محمد ع زب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، 1994م.
- ابن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب (تـ.781هـ-782هـ/1379م-1380م-1381م):
- **المجموع، طبع باسم: المناقب المرزوقية**، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، الدار البيضاء: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (المملكة المغربية)-مطبعة النجاح الجديدة، 1429هـ/2008م.
- **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق: ماريا خسيوس بيغيرا ، تقديم: محمود بوعياد، الجزائر: عاصمة الثقافة العربية(وزارة الثقافة)، 2007م.

- ابن مريم أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني (ق. 11هـ/17م):
- **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله: محمد ابن أبي شنب، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1406هـ/1986م .
- المقدسي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (تـ.380هـ/990م):
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، علّق عليه ووضع حواشيه: محمد أمين الضّناوي ، بيروت: دار الكتب العلمية، (منشورات محمد علي بيضون)، 1424هـ/2003م.
- المقري أحمد بن محمد التلمساني (تـ.1041هـ/1631م):
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، تحقيق : إحسان عباس، مج. 5، 6، بيروت: دار صادر، 1408هـ/1988م.
- النميري ابن الحاج:
- **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب (مصدر جديد من مصادر تاريخ المغرب الأدبي والحضاري في العصر المريني)** ، دراسة وإعداد: محمد ابن شقرون ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990م.
- الوادي آشي أبو جعفر أحمد بن علي البلوي (المتوفي عام 938هـ/1532م):
- **ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي** ، دراسة وتحقيق: عبد الله العمراني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، (منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر)، 1403هـ/1983م.
- الوزّان الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي (توفي بعد 957هـ/1550م- 1559م):
- **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر ، 02.ج.، ط.2، بيروت- الرباط:دار الغرب الإسلامي- منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر(الشركة المغربية للناشرين المتحدين)، 1983م.
- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي التلمساني (تـ.914هـ/1508م):
- **المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق**، دراسة وتحقيق: عبد الرحمان بن حمود بن عبد الرحمان الأطرم ، ج.2، دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث الإمارات العربية المتحدة، 1426هـ/2005م.
- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي التلمساني (تـ.914هـ/1508م):
- **وفيات الونشريسي (ألف سنة من الوفيات)** ، تحقيق: محمد حجّي، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1396هـ/1976م.
- **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب** ، 12.ج، خرّجه: جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجّ ي، بيروت- الرباط : دار الغرب الإسلامي-وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، 1401هـ/1981م.
- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت284هـ/ 897م):
- **البلدان**، وضع حواشيه: محمد أمين ضنّاوي، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، 1422هـ/2002م.

- B .Halil AbdalBasit et Adorne,

– *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^e siécle*, thése complémentaire pour le Doctorat es-lettres, présentée à la faculté des lettres de l'université de Paris, par Robert Brunshvig, Paris V^e, Larose éditeurs ,1936.

المراجع العربية :

- آزاد أحمد علي:

– "حول العمارة والتشييد عند ابن خلدون" ، **المستقبل العربي**، السنة23، مج .23، ع.260، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000/10، ص-ص.159-166.

- أكبر جميل عبد القادر:

– **عمارة الأرض في الإسلام – مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية–** ، ط.3، بيروت : مؤسسة الرسالة ناشرون (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع)، 1419هـ/1998م.

- أومليل علي:

– **الخطاب التاريخي – دراسة لمنهجية ابن خلدون–** ، ط.4، بيروت-الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005م.

- بالباس ليوبولدو تورِّس:

– **المدن الإسبانية الإسلامية** ، ترجمة من الإسبانية: إليو دورو دي لابنيا ، راجعه: نادية محمد جمال الدين، عبد الله بن إبراهيم، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1423هـ/2003م.

- برنشفيك روبار:

– **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م**، ترجمة : حمّادي السّاحلي، 2.ج، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988.

- بريكة مسعود:

– **النخبة والسلطة في بجاية الحفصية** ، شهادة الماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، إشراف: عمارة علاوة، 1429هـ-1430هـ/2008م-2009م.

- بشاري لطيفة:

- **التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (13م-16م)**، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، إشراف: موسى لقبال، 1406هـ - 1407هـ/1986م-1987م.

- بعيزيق صالح:

- **بجاية في العهد الحفصي -دراسة اجتماعية واقتصادية-**، تونس: منشورات كلية الآداب ، جامعة تونس، 2006م.

- البغدادي إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم البابابي:

- **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مج .1، عني بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: محمد شرف الدين يالتاقيا، رفعت بيلكه الكليسي ، وكالة المعارف الجليلة، 1364هـ/1945م.

- مج.2، عني بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: رفعت بيلكه الكليسي ، وكالة المعارف الجليلة، 1366هـ/1947م.

- **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** ، مج.2، استانبول: وكالة المعارف الجليلة ، 1955م.

- بلحميسي مولاي:

-"دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية (من القرن 15 إلى منتصف القرن 20م)"، غير منشور.

- "نهاية دولة بني زيان"، **مجلة الأصالة**، السنة 04، ع.26، 1395هـ/1975م، ص-ص.30-36.

- بلغيث محمد الأمين:

- " مدارس العلم والقرآن بالغرب الجزائري منذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي (قراءة تاريخية)، غير منشور.

- "مدرسة مازونة الفقهية خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وآثارها" ، **دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي** ، دار التنوير للنشر والتوزيع ، 1426هـ/2006م، ص-ص.111-130.

- بلهواري فاطمة:

- "معارضة محمد بن خزر المغراوي للوجود الفاطمي في بلاد المغرب الأوسط"، **مجلة عصور**، مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم، سيدي بلعباس (الجزائر): مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، السنة 02 ، ع.03، 1423هـ/2003م، ص-ص.113-124.

- **النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري/ 10م**، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الإ سلامي الوسيط، جامعة وهران السانيا، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، إشراف: عبد الحميد حاجيات وغازي مهدي جاسم الشمري، 2004م-2005م.

- بن حسن محمد:

- **القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط**، تونس: دار الرياح الأربع للنشر ، (المطبعة العربية التونسية، بنعروس)، 1986م.

- بن عميرة محمد:

- **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984م.

- بن معمر محمد:

- "زيري بن عطية المغراوي ومشروع الدولة الزناتية في المغربين الأوسط والأقصى(368هـ-391هـ)"، **عصور**، ع.4-5، السنة 03، جامعة وهران ، 1424هـ-1425هـ /2003م-2004م، ص-ص.149-158.

- بنحمادة سعيد:

- **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 07 و 08هـ/13 و 14م -إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات-**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2007م .

- بنعبد الله عبد العزيز:

- **معلمة الفقه المالكي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1403هـ/1983م.

- **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية(معلمة المدن والقبائل)** (**ملحق** 2)، المحمدية: مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- مطبعة فضالة ، 1397هـ/1977م.

- بنمنصور عبد الوهاب:

- **قبائل المغرب،** ج.1، الرباط: المطبعة الملكية، 1388 هـ/1968م.

- بنميرة عمر:

- "قضايا المياه با لمغرب الوسيط من خلال أدب النوازل"، **التاريخ وأدب النوازل،** تنسيق:محمد المنصور، محمد المغراوي، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، 1995.

- **الثقافة والفقه والمجتمع (نماذج من المغرب الوسيط) –دراسة تاريخية–،** الرباط : جذور للنشر، 2006م .

- بنواحي عبد الرزاق:

- **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ لمحمد بن محمد بن الأعرج السليماني (1285هـ – 1344هـ/1868–1925م)،** القسم الأوّل (دراسة وتحقيق) ، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر، فاس: جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف: أحمد الغماري، 1417هـ–1418هـ/1996م–1997م.

- بوتشيش إبراهيم القادري:

- **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي،** بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، 2002م .

- **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين** ، بيروت : دار الطليعة، 1998م.

- **الإسلام السري في المغرب العربي،** القاهرة: سينا للنشر، 1995م .

- **المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع–الذهنيات–الأولياء)،** بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1993م .

- **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي** ، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2006م .

- بوجلال قدور:

- **العلم والعلماء في بايلك الغرب 1711م-1830م (معسكر ومازونة نموذجا)** ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، معسكر: المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، إشراف: دحو فغرور، صغيري أحمد، 2008م-2009م.

- بوداود عبيد:

- "الاعتداء على الأحباس نماذج من تاريخ المغرب الإسلامي"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية،** قسنطينة:جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.11، 2010، ص-ص.43-62.

- "تقديم مخطوط مختصر ديباجة الافتخار لموسى بن عيسى المازوني"، **الملتقى المغاربي حول المخطوطات،** قسنطينة: جامعة منتوري، 2004، (مداخلة غير منشورة).

- "قراءة في أوقاف مدارس وزوايا تلمسان الزيانية"، **المواقف،** معسكر: منشورات المركز الجامعي مصطفى اصطنبولي، ع.03، 2008، ص-ص.41-49.

- بوركبة محمد:

- "جوانب من مخطوط (قلعة بني راشد)لأبي عمر بن عثمان القلعي (تـ.القرن 18م/19م)، **المجلة الجزائرية للمخطوطات،** وهران: الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، ع.01، 1424هـ/2003م.

- بوزياني الدراجي:

- **العصبية القبلية وأثرها على النظم والعلاقات في المغرب الإسلامي من القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري**، ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر ، معهد التاريخ ، إشراف: موسى لقبال.

- **القبائل الأمازيغية (أدوارها، مواطنها، أعيانها)**، ج.1، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007م .

- **دول الخوارج والعلويين، (العصبية القبلية أثرها في قيام الدول وسقوطها ونشاط الحضارة وأفولها بالمغرب، دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب و الأندلس)** ، ج.1، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2002.

- **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993م .

- البوعبدلي المهدي:

- "الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الامام أحمد بن يحي الونشريسي"، **مجلة الأصالة**، الجزائر: إصدار وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ع.83-84، 1980، ص-ص.19-28.
- "لقطات من تاريخ مملكة الونشريس الثقافي والسياسي والحضاري في عهد دولة بني توجين"، **الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي**، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية، قسنطينة : دار البعث للطباعة والنشر، 1400هـ-1401هـ/1980م-1981م.

- بوعزيز يحي:
- "المقاومة في جبال الونشريس وحوض الشلف وجبال الظهرة ضد الاستعمار الفرنسي1840م-1864م"، **مجلة الأصالة**، ع.83-84، ص-ص.2-18.

- بوعيّاد محمود:
- **جوانب من الحياة في المغرب الأوسط (في القرن التاسع الهجري/15م)**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م.

- بوكفة يوسف:
- **مدرسة مازونة الفقهية -النهضة والسقوط-** ، رسالة ماجستير، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع (تخصص علم الاجتماع التربوي) ، إشراف: بن عمر يزلي، 2002م-2003م.

- بولقطيب الحسين:
- **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، الرباط-الدار البيضاء: منشورات الزمن-مطبعة النجاح الجديدة، 2002م.

- بونابي الطاهر:
- "الدولة المركزية بقلعة بني حماد: التأسيس والتداعي"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية** ، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.07 ، 1427هـ /2006م، ص-ص.37-50.
- **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين / 12و13الميلاديين نشأته، تياراته، دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي(مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي للجزائر خلال العصر الوسيط)**، عين مليلة (الجزائر): دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م.

- **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ 14-15م،** أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، إشراف: عبد العزيز فيلالي، 1429هـ-1430هـ/2008م-2009م.

- بيل ألفرد:

- **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم** ، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ط.3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987م.

- تأليف جماعي:

- **الإسطوغرافيا والأزمة (دراسات في الكتابة التاريخية والثقافية)** ، تنسيق: عبد الأحد السبتي، الرباط-الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس-مطبعة النجاح الجديدة، 1994م.

- تأليف جماعي:

- **الأنتربولوجيا والتاريخ – حالة المغرب العربي–**، ترجمة: عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، ط.2، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2007.

- تأليف جماعي:

- **التاريخ وأدب المناقب** ، الرباط: منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي- منشورات عكاظ، 1988م .

- تأليف جماعي:

- **التاريخ وأدب النوازل (مناظرة)** ، تنسيق: محمد المنصور ، محمد المغراوي، الرباط-المحمدية: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس-مطبعة فضالة، 1995م.

- تأليف جماعي:

- **الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني)** ، الجزائر : وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.

- تأليف جماعي:

- **الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي** ، تونس: دار سراس للنشر، المعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر، 1993م.

- تأليف جماعي:

– **تاريخ إفريقيا العام: فريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر(اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام اليونسكو)** ، المشرف على المجلد: ج.ت.نياني، مج .4، باريس–بيروت: اليونسكو منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة–المطبعة الكاثوليكية، 1988م.

- تأليف جماعي:

– **جوانب من تاريخ المجال والسكان بالمغرب (مجموعة البحث في تاريخ المجال والسكان بالغرب الإسلامي)**، إشراف: محمد القبلي، الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية–مطبعة النجاح الجديدة، 1998م.

- الجابري محمد عابد:

– **فكر ابن خلدون –العصبية والدولة– (معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي)** ، ط.5، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- جعيط هشام:

– **تأسيس الغرب الإسلامي (القرن الأول والثاني هــ/السابع والثامن الميلادي)** ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، 2004م.

– **نشأة المدينة العربية الإسلامية –الكوفة–** ، ط.03، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر ، 2005م.

- جنّان الطاهر:

– **مازونة عاصمة الظهرة –ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري–** ، سيدي بلعباس (الجزائر): مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هــ/2005م.

- الجنحاني الحبيب:

– **دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي** ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، 1980م.

- جودت عبد الكريم يوسف:

- **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين(09م-10م)**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992م.

- **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.

- حاجيات عبد الحميد:

- **أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره**، ط.2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1982-1983.

- "دور بني عامر في تاريخ الغرب الجزائري، أيام الدولة الزيانية"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية** ، تلمسان : جامعة أبي بكر بلقايد، ع.مشترك 03-04، 1425هـ/2004م، ص-ص.157-162.

- الحبابي محمد عزيز:

- "الدينامية المحرّكة للتاريخ عند ابن خلدون" ، ترجمة: فاطمة الجامعي الحبابي ، **المستقبل العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، السنة 06، مج.06، ع.56، 1983/10.

- حجي محمد:

- **نظرات في النوازل الفقهية** ، الدار البيضاء: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر-مطبعة النجاح الجديدة، 1420هـ/1999م.

- حساني مختار:

- **موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية (مدن الغرب)**، ج.4، الجزائر: دار الحكمة، 2007م.

- حسن محمد:

- "الريف المغربي في أواخر العصر الوسيط مدخل لدراسته من خلال نوازل المعيار الونشريسي"، Actes du III congrés d'histoire et de la civilisation du Maghreb, (Oran 26-27-28Novembre 1983) T .1(O.P.U) Alger ,1987. ، ص-ص.91-118.

- **الجغرافيا التاريخية لإفريقية -من القرن الأوّل إلى القرن التاسع هـ VII-XVم**، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004م.

- **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، تونس: منشورات جامعة تونس الأولى، 1999م.

- الحفناوي أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي بن سيدي إبراهيم الغول:

- **تعريف الخلف برجال السلف** ، تحقيق: محمد أبو الأجفان، عثمان بطيخ ، القسم الأول والثاني، بيروت-تونس: مؤسسة الرسالة-المكتبة العتيقة، 1402هـ/1982م.

- ابن حمّوش مصطفى أحمد:

- **المدينة والسلطة في الإسلام -نموذج الجزائر في العهد العثماني-** ، دمشق-دبي: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع-مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1420هـ/1999م .

- حمّيش سالم:

- **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1998م.

- خطيف صابرة:

- **فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية (633هـ-791هـ/1235م-1388م)، الجهاز الديني والتعليمي**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط ، قسنطينة: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، إشراف: محمد فرقاني ، 1424هـ-1425هـ/2003م-2004م.

- دحماني سهام:

- **المرأة والتصوف في المغرب الإسلامي من القرن 6هـ إلى القرن 9هـ/12م-15م**، مذكرة الماجستير في التاريخ الوسيط ، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسنطينة: جامعة منتوري، إشراف: بوبة مجاني، 1427هـ-1428هـ/2006م-2007م.

- الدولاتلي عبد العزيز:

- **مدينة تونس في العهد الحفصي** ، تعريب: محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي ، دار سراس للنشر.

- ديفورك شارل إيمانويل:

- "مكانة الونشريس والجهات المجاورة له في تاريخ المغرب الأوسط عبر الألفية الأولى من التاريخ الهجري"، **الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي**، الجزائر-قسنطينة: منشورات وزارة الشؤون الدينية-دار البعث للطباعة والنشر، 1400هـ-1401هـ/1980-1981م.

- الراشدي أحمد بن عبد الرحمان الشقراني:

- **القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط** ، تحقيق وتقديم: ناصر الدين سعيدوني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991م.

- روجي إدريس الهادي:

- **الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى القرن 12م)**، ترجمة: حمّادي الساحلي، 2.ج، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م.

- الزاهي نور الدين:

- **بركة السلطان،** الرباط: دفاتر وجهة نظر-مطبعة النجاح الجديدة، 2007م.

- الزركلي خير الدين:

- **الأعلام -قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء م ن العرب والمستعربين والمستشرقين-**، عدة أجزاء، ط.3، بيروت، 1389هـ/1969م.

- زنيبر محمد:

- **المغرب في العصر الوسيط (الدولة-المدينة- الاقتصاد)**، تنسيق: محمد المغراوي، الرباط : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، 1420هـ/1999م.

- الزياني محمد بن يوسف:

- **تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب** ، تقديم وتحقيق: رشيد الزاوية، الرباط : منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، 1429هـ/2008م.

- **دليل الحيران وأنيس السّهران في أخبار م دينة وهران،** تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (إصدارات المكتبة الوطنية) ، 1398هـ - 1399هـ/1978م-1979م.

- السبتي عبد الأحد:

- **النفوذ وصراعاته في مجتمع فاس من القرن السابع عشر حتى بداية القرن العشرين** ، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2007م.

- السبتي عبد الأحد، فرحات حليمة:

- **المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ المغرب الإسلامي)** ، بيروت -الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1994م.

- سعد الله أبو القاسم:

- **تاريخ الجزائ الثقافي،** عدّة أجزاء، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م.

- السلاّوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (تـــ.1315هـــ/1897م):

- **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى** ، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري، محمد الناصري، عدّة أجزاء، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954م-1955م.

- الشاذلي عبد اللطيف:

- **التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري،** منشورات جامعة الحسن الثاني ، 1989م.

- شاوش الحاج محمد بن رمضان:

- **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان** ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م.

- شنيتي محمد البشير:

- **الجزائر في ظل الاحتلال الروماني -بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور-،** 2.ج.، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1999م.

- صاري جيلالي:

- "مساهمة ابن خلدون في تحليل علاقات المدينة والريف"، **الأصالة،** الجزائر-قسنطينة : وزارة الشؤون الدينية-مطبعة البعث، السنة07، ع.64، 1399هـــ/1978م، ص-ص.10-19.

- ابن أبي الضياف أحمد:

- **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان،** تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ، ج.1، ط.2، تونس-الجزائر: الدار التونسية للنشر- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1396هـــ/1976م.

- ضيف الشيخ بشير بن أبي بكر بن البشير بن عمر الجزائري:

- **فهرست التراث الجزائري بين القديم والحديث (نماذج متنوعة للمعلوم والمجهول)** ، تصنيف، ج.2، 3، مراجعة وتقديم: عثمان بدري، الجزائر: منشورات ثالة، 2002.

- الطالبي محمد:

- **الدولة الأغلبية التاريخ السياسي (184هـ-296هـ/800م-909م)**، تعريب : المنجي الصيّادي، مراجعة وتدقيق: حمّادي الساحلي ، ط.2، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1415هـ/1995م.

- الطالبي مصطفى:

- **قيام إمارة بني عبد الواد بتلمسان** ، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ، فاس: جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف: عادل نجم عبو ، 1406هـ - 1407هـ/1986م-1987م.

- العامري نللي سلامة:

- **الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي** ، تقديم: هشام جعيط، مج.12، تونس: منشورات كلية الآداب بمنّوبة، جامعة منّوبة.

- العجيلي حامد:

- **التوثيق وكتب الوثائق بإفريقية في العهد الحفصي** ، شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، إشراف: محمد حسن، 2001م-2002م.

- العروي عبد الله:

- **مجمل تاريخ المغرب**، 3.ج.، الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، 2007م.

- عز الدين أحمد موسى:

- **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري** ، بيروت-القاهرة: دار الشروق، 1403هـ/1983م.

- عز الدين عمر موسى:

- **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم** ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1411هـ/1991م.

- عطابي سناء:

- **الخطاب الفقهي والعمران في المغرب الأوسط** ، مذكرة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، إشراف: علاوة عمارة، 1428هـ-1429هـ/2007م-2008م.

- العلوي سعيد بنسعيد:

-"صورة المغرب في الاستشراق الفرنسي المعاصر" ، **المغرب في الدراسات الاستشراقية** ، مراكش: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1413هـ/1993م، ص-ص.37-61.

- عمارة علاوة:

- "الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.10، 1430هـ/2009م ، ص-ص.09-26.

- "انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط(الجزائر)-قراءة سوسيولوجية-"، **مجلة آفاق الثقافة والتراث**، دبي: قسم الدراسات م ركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، السنة 14، ع.56، 1427هـ/2007م، ص-ص.25-33.

- "مدريد الإسلامية من خلال دراسة غربية جديدة "، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية** ، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.12، 2011، ص-ص.127-140.

- عمارة علاوة، موساوي زينب:

- "مدينة الجزائر في العصر الوسيط"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية** ، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع.11، 2010م، ص-ص.63-87.

- عيبش يوسف:

- **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي** ، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ والآثار، قسنطينة: جامعة منتوري، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والآثار ، إشراف: محمد البشير شنيتي ، 1428هـ - 1429هـ/2007م-2008م.

- **المور والبيزنطيون خلال القرن 06م**، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة قسنطينة ، معهد العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، إشراف: محمد البشير شنيتي، 1995م-1996م.

- العيد مسعود:

- "المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، **سيرتا**، جامعة قسنطينة، الجزائر، السنة 06، ع.10، 1408هـ/1988م.

- عيسى لطفي:

- **أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ**، تونس: دار سيراس للنشر، 1993م.

- غراب سعد:

- "كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية-مثال نوازل البرزلي-"، **حوليات الجامعة التونسية**، تونس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع.16، 1978م، ص-ص.65-102.

- "موقف الفقهاء المغاربة من المجموعات الريفية خاصة من خلال نوازل البرزلي"، Actes du III congrés d'histoire et de la civilisation du Maghreb, (Oran ,26-27-28Novembre 1983) T .1(O.P.U) Alger ,1987.، ص-ص.82-90.

- غرداوي نور الدين:

- **جوانب من الحياة الاقتصادية والفكرية بالمغرب الإسلامي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/14م-15م من خلال الدرر المكنونة في نوازل مازونة للمازوني**، مذكرة شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: عبد العزيز لعرج، 2005م-2006م.

- غلاب عبد الكريم:

- **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي- مغرب الأرض والشعب- عصر الدول والدويلات**، ج.1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- فاعور علي:

- "جغرافيا تاريخية -المدينة العربية نشأتها وموقعها في كتابات الجغرافيين العرب -"، **الفكر العربي المعاصر**، بيروت: مجلة العلوم الإنسانية والحضارية، ع.12، 1981م، ص-ص.106-120.

- فتحة محمد:

- **النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 06هـ إلى 09هـ/12م-15م)**، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1999م.

- فون مالتسان هاينريش:

- **ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا** (**Drei Jahre in Nord Westen Von Africa**)، ترجمة: أبو العيد دودو، 2.ج.، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م.

- فيلالي عبد العزيز:

- **تلمسان في العهد الزياني (در اسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**، 2.ج.، الجزائر : موفم للنشر والتوزيع، 2002م.

- القاسمي الحسني محمد فؤاد الخليل:

- **فهرسة مخطوطات المكتبة القاسمية (الجزائر)**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1427هـ / 2006م.

- القاضي وداد:

- "النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني ومكانها بين النظريات السياسية المعاصرة لها"، **مجلة الأصالة، الملتقى التاسع للفكر الإسلامي**، قسنطينة: مطبعة البعث، السنة 04 ، ع.27، 1395هـ/1975م.

- القبلي محمد:

- **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط** ، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر ، 1987م.

- قداش محفوظ:

- **الجزائر في العصور القديمة**، ترجمة: صالح عباد، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1993م.

- الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير:

- **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات** ، اعتناء : إحسان عباس، ج.1، ط.2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1402هـ/1982م .

- كمال أبو مصطفى:

- **جوانب من حضارة المغرب الإسلامي – من خلال نوازل الونشريسي–** ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة، 1997م.

- لبيض سالم:

- "من أجل مقاربة سوسيولوجية لظاهرة القبيلة في المغرب العربي" ، **المستقبل العربي** ، مج . 23، السنة 23، ع.261، 2000/11 ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص-ص.47-83.

- لحسن رابح:

- **المدن والمراكز العمرانية في التل الوهراني في العصر الروماني**، رسالة دكتوراه في التاريخ القديم (نظام جديد)، سيدي بلعباس: جامعة الجيلالي اليابس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، إشراف:محمد البشير شنيتي، 2004م-2005م.

- لدرع آمال:

- **الحركة الصوفية في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر ال زياني (633هـ - 1236م/962هـ-1555م)**، ماجستير في التاريخ الوسيط، قسنطينة: جامعة منتوري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ ، إشراف: بوبة مجاني ، 1426هـ - 1427هـ/2005م-2006م.

- لقبال موسى:

- "زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط"، **مجلة الأصالة**، السنة 04، ع. 26، 1395هـ/1975م، ص-ص.91-98.

- لي تورنو روجي:

- **حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، ترجمة: أمين الطيبي، طرابلس-تونس: الدار العربية للكتاب، 1982م.

- مارسي جورج:

- **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل، راجعه واستخرج نصوصه: مصطفى أبو ضيف أحمد، الإسكندرية: منشأة المعارف، 1991م.

- **مدن الفن الشهيرة (تلمسان)**، ترجمة: سعيد دحماني، البليدة (الجزائر): دار النشر التل، 2004م.

- مجاني بوبة:

- "المهذّب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق لأبي يحي موسى بن عيسى المغيلي المازوني (تـ.833هـ/1429م-1430م)، مصدر جديد من مصادر التاريخ ."، **حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة**، ع.11، 1422هـ/2002م، ص-ص.109-113.

- "كتب النوازل والأحكام مصدر للتاريخ الاجتماعي -العصر الزياني نموذجا-"، **التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور**، قسنطينة: جامعة منتوري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية وقسم التاريخ (منشورات المخبر)، ص-ص.147-155.

- محمد عبد الستار عثمان:

- **المدينة الإسلامية**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

- محمود إسماعيل عبد الرزاق:

- **الأدارسة (172هـ-375هـ) حقائق جديدة**، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1411هـ/1991م.

- **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، ط.2، الدار البيضاء: الشركة الجديدة للنشر والتوزيع-دار الثقافة، 1406هـ/1985م.

- المختار الهرّاس:

- "القبيلة والدورة العصبية: قراءة في التحليل الخلدوني للمجتمع القروي المغاربي" ، **الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية**، المستقبل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2004.

- مخلوف ابن القاسم محمد بن محمد بن عمر(تـ.1360هـ/1941م):

- **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** ، خرّج حواشيه وعلّق عليه: عبد المجيد خيالي ، مج.1، ج.1، بيروت: منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنّة والجماعة (دار الكتب العلمية)، 1424هـ/2003م.

- المدني أحمد توفيق:

- **كتاب الجزائر**، ط.2، البليدة-القاهرة: دار الكتب للنشر-دار المعارف، 1382هـ/1963م.

- المراكشي عباس بن إبراهيم:

- **الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام** ، عدة أجزاء، فاس : المطبعة الجديدة ، 1355هـ-1356هـ/1936م-1937م.

- المزاري الآغا بن عودة (أواخر القرن 19م):

- **طلوع سعد السعود -في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر-**، تحقيق ودراسة: يحيى بوعزيز، ج.1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990م.

- مزدور سمية:

- **المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588هـ-927هـ /1192م-1520م)**، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط ، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة: جامعة منتوري، إشراف: محمد الأمين بلغيث، 1429هـ-1430هـ /2008م-2009م.

- المزكلدي سميرة:

- **المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط (534هـ-776هـ /1139م-1375م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط ، فاس (ظهر المهراز): جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، إشراف: هاشم العلوي القاسمي ، 1424هـ-1425هـ/2003م-2004م.

- مزيان عبد المجيد:

- "الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار"، **مجلة الثقافة**، ع.90، السنة 15، 1985.

- "المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار"، **مجلة التاريخ**، ع.22، الجزائر: المركز الوطني للدراسات التاريخية، 1986، ص-ص.7-21.

- المشرفي عبد القادر الجزائري:

- **بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر** ، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر.

- مصطفى أبو ضيف أحمد عمر:

- **القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين** ، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م.

- المعسكري محمد بن أحمد أبي راس الناصر الجزائري:

- **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار** ، تقديم وتحقيق محمد غالم ، ج.1، وهران: المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، (منشورات *CRASC*)، 2005م.

- **فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"** ، حقّقه وضبطه وعلّق عليه: محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1990م.

- المغراوي محمد:

- **العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين** ، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، الرباط: جامعة محمد الخامس أكدال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، شعبة التاريخ، إشراف: عز الدين عمر موسى، أحمد التوفيق ، 1422-1423هـ /2001-2002م.

- مفتاح محمد:

- **التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن 08هـ/14م، القسم الأوّل - أسس وكيان-** أطروحة دولة، الرباط: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف: محمد أركون، 1980م-1981م.

- منصوري خديجة:

- "تيارت في العصور القديمة"، **الحوار الفكري**، السنة 04، ع.06، قسنطينة -عين مليلة : مطبوعات جامعة منتوري-دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 1425هـ /2004م، ص-ص.115-127.

- ميراندا أمبروسيو هويثي:

- **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، تعريب: عبد الواحد أكمير، الدار البيضاء : منشورات الزمن، 2004م.

- ناجي عبد الجبار:

- **دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية**، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، 2001م.

- نشاط مصطفى:

- **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني** ، وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003م.

- نويهض عادل:

- **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر** ، ط.2، بيروت : مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1400هـ/1980م.

- **معجم المفسّرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، 02.مج.، ط.3، تقديم : حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1409هـ/1988م.

- الواليش فتيحة:

- **الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة الجزائر ، معهد التاريخ ، إشراف: مولاي بلحميسي ، 1993م-1994م.

- الودغيري عبد العالي:

- " الألفاظ المغربية-الأندلسية في معيار الونشريسي"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** ، الرباط، ع.17، 1992م، ص-ص.39-52.

- ولد داده محمد:

- **مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع (دراسة في التاريخ السياسي)**، بيروت-القاهرة: دار الكتاب اللبناني-دار الكتاب المصري، 1977م.

- ولد سعد محمد المختار:

- "الفتاوى الفقهية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي الموريتاني -وقفة تأمل-"، **الكرّاسات التونسية**، الثلاثّية الرابعة، ع.175(XLIX)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، 1996م، ص-ص.9-62.

المراجع باللغة الأجنبية :

- Albertini E. Marçais G. Yver G. Prigent E.,

– *L'Afrique du Nord Française dans l'histoire*, Lyon-Paris, Editions Archat, 1955.

- Amara Allaoua,

- «Communautés rurales et pouvoirs urbains au Maghreb Central (VII^{e} - XIV^{e} siècles)», *REMMM*, 126, p. 185-202.
- Id., «l'animation de la façade maritime du Maghreb Central (VII^{e} - XII^{e})», *Revue des lettres et sciences humaines,* 6 (2005), p. 5-24.
- Id., «Ibn Khaldoun et les Berbéres», *Revue des lettres et sciences humaines*, 7(2006), p.5-17.

- Auguste Charbonneau,
  - «Sur deux inscriptions berbères du Dahra», *BSGAO*, (1884).
- Belhamissi Moulay,
  - *Histoire de Mazouna*, Alger, imprimé sur les presses de la Société nationale d'édition et de diffusion, 1982.
  - Id., *Histoire de Mostaganem* ,2^{éme} édition, Alger, Société nationale d'édition et de diffusion, 1982.
  - Id., *Mazouna, une petite ville, une longue histoire*, Alger, Société nationale d'édition et de diffusion, 1981.
- Benoit Fernand,
  - *l'Afrique méditerranéenne (Algérie, Tunisie, Maroc)*, Paris, les Beaux - Arts, Edition d'études et de documents, 1921.
- Berque Jacques,
  - «En lisant les Nawâzil Mazouna», *Studia Islamica*, XXXII, MCMLXX, (1970), p.31-39.
  - Id., «Les hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XV^{e} siècle, d'après un manuscrit jurisprudentiel», *Annales*,V.25, 5(1970), p. 1325-1353 .
  - Id., «Retour à Mazouna», *AESC*, 1, V. 27, (1972) , p.150-157.
  - Id., *L'intérieur du Maghreb XV^{e}-XIX^{e} siécle*, n.r.f. Editions Gallimard ,1978.
- Bouali Sid Ahmed,
  - *Les deux grands sièges de Tlemcen dans l'histoire et la légende*, Alger, Entreprise nationale du livre, 1984.
- Boyer Pierre,
  - «Historique des Béni Amer d'Oranie, des origine au Senatus Consulte», *ROMM*, V. 24, 1(1977), p. 39-85.
- Brunschvig Robert,
  - «Urbanisme médiéval et droit musulman», *REI*, (1947), p.127-155.
- Bulliet Richard W., Desaive Jean – Paul,
  - «Botr et Bernès, Hypothèses sur l'histoire des Berbères», *AESC*, 36ème année, 1(1981), p.104-116.
- Cambuzat Paul-Louis,
  - *L'évolution des cités du tell en Ifrîkya du VII^{e} au XI^{e} siècle*, 2. T., Alger, office des publications universitaires.

- Camps Gabriel,

− «Comment la Berbérie est devenue le Maghreb arabe», *ROMM*, 1, V. 35ème, (1983), p. 07-24.

− Id., «Espaces Berbères», *ROMM*, V. 48, 1(1988), p. 38-60.

- *Catalogue Raisonné des objets Archéologiques du musée de la ville d'Oran (Musée Demaeght)*, 2éme Edition, Revue par M. F. Domergue conservateur, 1894, (Extrait du BSGAO, T. 53, Fascicule, 191 ,Oran ,Société Anonyme des Papeteries et Imprimeries, L.Fouque, 1932).

- Dahmani saïd,

− «Pouvoirs tribaux autochtones dans le Maghreb central aux VIe et VIIe siècles», *VIe colloque international sur l'Afrique antique et médiévale, monuments funéraires et institutions autochtones*, Paris, CTHS, (1993), p. 317-326.

- De la Blanchère R.,

− «Voyage d'étude en Maurétanie césarienne», *Archives des Missions*, IIIe série, T. X, (1883), p.1-131.

- Demaeght L.,

− «Altava (Lamoricière)», *BSGAO*, T. III, (1833).

− Id., «La tribu masunienne», *BSGAO*, T. IV, (1884).

− Id., «Le Dahara Occidental (période Romaine)», *BSGAO*, T.III, (1883).

− Id., «Ruines Romaines (Quiza Xenitana)», *BSGAO*, T.III, (1883).

- Derrien,

− «Notes sur les ruines Romaines et Berbères du bassin de l'oued Rhiou (Recueillies pendant la campagne géodésique de 1883)», *BSGAO*, T.XV, (1895).

- Dhina Atallah,

− *Le royaume Abdelouadid à l'époque d'Abou Hammou Moussa 1ère et d'Abou Tachfin 1ère*, Alger, office des publications universitaires, 1985.

− Id., *Les états de l'occident musulman au XIIIe, XIVe, et XVe siècles (institutions, gouvernementales et administratives)*, Alger, office des publications universitaires, ENAL, 1984.

- Du paradis Venture,

− *Tunis et Alger au XVIIIe siècle, Mémoires et observation,* Paris, Edition Sindbad ,1983.

- Dufourque CH.E.,

− «Berberie et Iberie mediévales, une probléme de repture», *Revue historique*, (1968).

- Gautier R.,

− «Contribution à l'étude du tracé de la route frontière de Maurétanie cesariélles», *RA*, 1933.

- Gautier, E.F.,

− *Le passé de l'Afrique du Nord (les siècles obscurs)*, Paris, Bibliothèque historique, Payot, 1937.

- Géniaux Charles,

− «Mazouna», *Revue des deux mondes*, (1921), p.432-452.

- Golvin Lucien,

− *Le Maghreb central à l'époque des Zirides, recherche d'archéologie et d'histoire*, Paris, arts et métiers graphiques, 1957.

- Gsell Stéphane,

− *Atlas Archéologique de l'Algérie*, T. I, 2ème édition, Alger, Agence nationale d'archéologie et de protection des sites et monuments historiques, 1997.

− Id., *l'Algérie dans l'antiquité*, Alger, Typographie Adolphe Jourdan imprimeur, Libraire, Editeur, 1903.

− Id., *Les monuments antiques de l'Algérie*, T.II., Paris, A. Fontemoing, 1901.

- Hentati Nejmeddine,

− «L'eau dans la ville de l'occident musulman médiéval d'après les sources juridiques Malikites», *RHMMC*, 28éme Année, 102-103, (2001), p. 163-220 .

- Kably Mohamed,

− *Société, Pouvoir et Religion au Maroc à la fin du «moyen- age» (XIVe-XVesiécle)* ,Préface de Claude Cahen, Paris, éditions maisonneuve et Larose, 1986.

- Kadra Fatima Kadaria,

− *Les Djedars monuments funéraires Berbères de la région de Frenda*, Alger, office des publications universitaires, 1983.

- Khel Camille,

− «Oran et l'Oranie avant L'occupation française», *BSGAO*, T. 63, 218, (1942).

- Lacretelle L.,

− *Etudes sur la Province d'Oran*, Marseille, Typographie Ve Marius olive ,1865 .

- Le Tourneau Roger,

− *les villes musulmanes de l'Afrique du Nord*, Alger, Bibliothèque de l'institut d'études supérieures islamiques d'Alger, la maison des livres, 1957.

- Louiche René,

− *Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger (Fragment d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger fait de 1783 à 1786)*,T.II Paris ,librairie de guide Editeur des annales des voyages, 1838.

- Loukil Youcef.,

− *Mazouna ancienne capitale du dahara, Interprète auxiliaires, (l'Algérie racontée et décrite par les indigènes)*, Alger, Imprimerie Algérienne, 1912.

- Mahdad M. ,

− «Le pays Orano-Tlemcenien du VIéme siécle», *Majallat Et-Tarikh* Alger, Centre national d'études historiques, 8(1980), p.71-79 .

- Marçais Georges,

- «La conception des villes dans l'islam», *Revue d'Alger*, Alger, T. II, 10(1945), p.517-533.
- Id., «L'Urbanisme Musulman», *cinquième congrès de la fédération des société savantes de l'Afrique du Nord, Tunis 06-08 Avril 1939*, Alger, (1940), p.13-34.
- Id., «La Berbérie au IX^e^ siècle d'après El-Yàquoûbî», *RA*, 386-387, Alger, LXXXV (1941).p.40-61.
- Id., «Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident musulman (Articles et conférences)», T. 1, Alger, Imprimerie officielle, 1957.
- Id., *Les Arabes en Berbérie du XI^e^ au XVI^e^ siècle*, Constantine, D. Braham éditeur, Paris, Ernest Leroux, 1913.

• Marcellet Jaubert J.,

- «Les inscriptions d'Altava», *Publication des Annales de la faculté des lettres*, Aix en Provence, 194 (1968), p. 126-127.

• Mazzoli-Guintard Christine,

- «De ville à madina, de madina à ville, paralogismes ou sophismes de la Terminologie, ville d'al-Andalus », L'Espagne et Portugal à l'époque musulmane(VIII^e^-XV^e^ siècles), *Presses universitaires de Rennes*, (1996), p.19-48.
- Id., «L'urbanisation d'al-Andalus au IX^e^ siécle, données chronologiques», *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental*, Madrid, Casa de Velàzquez, (1998), p. 99-106 .
- Id., «Urbanisme islamique et ville en al-Andalus, autour de nouvelles propositions méthodologiques», *Actes II congreso International (Algeciras), La Ciudad en Al-Andalus y El – Magreb*, Granade, Fondacion El legado Andalus (Université de Nantes), (2002), p. 49-73.
- Id., «Villes d'al- Andalus, l'Espagne et le Portugal à l'époque musulmane (VIII^e^-XV^e^ siècles)», Rennes, *presses universitaires*, 1996, p.430.

• Mercier Ernest,

- *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) Depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française (1830)*, 2. T., Paris, Ernest Leroux Editeur, 1888.
- Id., *Histoire de l'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'histoire des berbères d'Ibn Khaldoun* , Constantine, L.Marle, Libraire-Editeur, Alger, Juillet-Saint-Lager, Paris, Challamel, libraire-Editeur.

• Miquel André,

- «sur les lieux», *RMMM*, 1, V. 83, (1997), p. 135-139.

• Mons'^R^ Shaw, M.D.,

- *Voyages de Mons'^R^ Shaw, M.D. dans plusieurs provinces de la Brbarie et du levant*, traduits de l'Anglois, T. 1^ére^ ,A la Hate chez Jean Neaulme, MDCCXLIIL.

• Moukraenta Bakhta,

- «Essai sur le réseau routier de l'Ouest du Maghreb central d'après les géographes arabes (IX^e^-XII^e^ siècles)», *l'Africa Romana*, Rabat, (2004), p. 453-493.

- Péchot L.,
  - *Histoire de l'Afrique du nord avant 1830 précédée de la Géographie physique et du Maroc,* Alger, Gojosso, Imprimeur -Editeur ,1914.
- Replin,
  - «Considération sur la géologie des environs de Relizane», *BSGAO*, (1894).
- Reygasse Maurice,
  - *Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord*, 36, Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1950.
- Robert Georges,
  - *Voyage à travers l'Algérie Notes et Croquis*, Paris, imprimerie de G-Rougier.
- Sari Djilali,
  - *Les villes précoloniales de l'Algérie occidentale, Nédroma ,Mazouna ,Kalaa* ,2éme Edition ,Alger, Société Nationale d'édition et de diffusion .
- Tauxier H.,
  - «Etude sur les migrations des tribus bérbéres avant l'islamisme», *RA*, Alger, T. 07, 37-38(1863).
- Terrasse Henri,
  - *Histoire de Maroc*, *des origines à l'établissement du protectorat français*, Casablanca, Editions atlantides, 1949.
- Tinthion Robert,
  - «La plaine de Relizane avant l'irrigation», *BSGAO*, (1950).
  - Id., *Les Aspects physiques du tell Oranais, essai de morphologie de pays semi-Aride*, Oran, Editions, L. Fouque, 1948.
- Touati Houari,
  - « En relisant les nawazil Mazouna marabouts et chorfa au Maghreb central au XVe siècles», *Studia Islamica*, 69 (1989), p.75-94.
- Vuillemot G.,
  - «Ruines Musulmanes sur le littoral de l'Oranie occidentale», *RA*, Alger, Faculté des lettres, 458-459, 1ère et 2ème trimestres, (1959).

فهرس الموضوعات:

الفصل الثالث : الحركية الحضرية لمازونة وناحيتها (تطورات المرحلة الثالثة)

الفصل الرابع : دواخل مازونة (بداية لمعطيات نصّية محلية).